ابراهيم عبد المجيد

لا أحد
ينام في الإسكندرية



رواية

منشورات الجمل

ابراهيم عبد المجيد

لا أحد ينام في الإسكندرية..

رواية

منشورات الجمل

لا أحد ينام
في
الإسكندرية..

ولد ابراهيم عبد المجيد في ١٩٤٦ بالإسكندرية - مصر. من مؤلفاته: **بيت الياسمين**، رواية، **الصياد واليمام**، رواية، **البلدة الأخرى**، رواية، **لا أحد ينام في الإسكندرية**، رواية.

ابراهيم عبد المجيد: **لا أحد ينام في الإسكندرية**، رواية

رسمة الغلاف: إتيل عدنان

الطبعة الأولى، كولونيا - المانيا ٢٠٠٠

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

من اللذة إلى الجنون، ومن الجنون إلى النور، أبني نفسي كاملاً، من خلال كافة الكائنات.

(بول إيلوار)

الإهداء..

إلى وائل. الولد الصامت.

«البحر المتوسط بحر صغير للغاية، إن عظمته وامتداد تاريخه يجعلاننا نتخيّله أكبر مما هو عليه الآن، إلا أن الإسكندرية لا يقلّ واقعها عما يمكن تخيله عنها..».

(لورانس داريل)

«انزعجت الآلهة من ضجيجهم الذي حرمها النوم فأرسلت عليهم الوباء، لكنهم سرعان ما تكاثرت أعدادهم مرة أخرى وازداد ضجيجهم، فأرسلت عليهم القحط ست سنوات ثم الطوفان الأعظم سبعة أيام. لقد بلغ من هول الطوفان أن الآلهة ذعرت هي الأخرى وابتعدت إلى الخلف كثيراً في السماء».

(من أسطورة الطوفان البابلية)

«أصوات خفية حبيبة، أصوات أولئك الذين ماتوا، أو أولئك الذين بالنسبة إلينا ضائعون مثل الموتى، تتكلم في أحلامنا أحياناً، وأحياناً في الفكر يسمعها العقل، ومع أصدائها تعود برهة أصوات من قصائد حياتنا الأولى، مثل موسيقى بعيدة في الليلة تخبو».

(كفافيس)

«الإنسان طين وقش
والله صانع الفخار»

1

كان هتلر يدور حول مبنى المستشارية في برلين، عاقداً يديه خلف ظهره، محنياً قليلاً إلى الأمام، في حالة من التأمّل العميق. لكنه أيضاً زم شفتيه مما أبرز شاربه محدباً قليلاً، وفتح عينيه في غضب أزاد لمعانهما. في الحقيقة كاد صدره ينفجر ورأسه، وهو ذاهل تماماً عن حراس المبنى الواقفين، وحراسه هو الذين يدورون خلفه، كان يفكر لو يستطيع أن يمسك برئيس حكومة بولندا يعصره عصراً. .

اليوم هو الخامس والعشرون من أغسطس، الجو صحو فوق برلين، فكر هتلر في الحروب قديماً حين كانت تبدأ بمنازلة بين القائدين، وتنتهي بهزيمة أحدهما فيستسلم هو وجيشه للمنتصر. لكنه لا يستطيع أن يغامر بذلك، يعرف جيداً مدى ضآلة جسده، على الرغم من أنه، هو نفسه، الذي قدمت له النمسا نفسها في العام الماضي ببساطة عاهرة مدربة. وهو نفسه لم يتردّد في غزو تشيكوسلوفاكيا المسلحة جيداً فلم تقاوم. البولنديون فقط يعاندونه، لا يريدون أن يعيدوا لألمانيا ما أعطتهم زوراً معاهدة فرساي. وهو لن يرضى إلا بكل ما ضاع من ألمانيا. هذا هو الوقت المناسب تماماً، لقد مضت عشرون سنة على الوقت الذي أمضاه

في المستشفى بعد أن كاد يفقد بصره في الحرب التي انتهت بكارثة على الأمة الألمانية، ومرارة البؤس القديم تتجسّد أمامه في كثير من الأحيان، وآن الأوان لكي يحصد ثمار كفاحه، منذ انضمّ إلى «حزب العمال الألمان» إلى تكوينه «للحزب الاشتراكي الوطني»، إلى سجنه، إلى تكوينه لكتائب الصاعقة، ونضاله ضد الشيوعيين، حتى وثوبه إلى الحكم وذبحه كل أعدائه والشيوعيين من قبلهم. لقد سانده الشعب الألماني وهتف له فأدرك أنه المبعوث المنتظر من السماء لكرامة ألمانيا، لكنه لا يريد إعلان الحرب مبكراً هكذا، البولنديون بعنادهم يجبرونه على ذلك، فليندفع إذن داخل مبنى المستشارية.

* * *

الساعة الآن الثالثة بعد الظهر تماماً، وقَّع هتلر أمراً بالهجوم على بولندا ونفث نفثة الارتياح، طلب شيئاً يأكله في مكتبه، داعب إيفا براون في التليفون. قال إنه لن يراها بعد ظهر اليوم، تذكر وزير حربه السابق «بلومبرج» وكيف استدرجه ليكون، ومعه جورنج قائد الطيران، شاهدين على عقد زواجه من امرأة، قدم هيملر، رئيس البوليس السري، دليلاً فيما بعد، على أنها عاهرة ولها ملف في دوائر الآداب. لعن بلومبرج وكل النساء العاهرات. وتذكر كيف أزاحه بعد ذلك في حركة تغيير واسعة. لكن هذا كله كان العام الماضي. إنه لا يحتاج أحداً الآن. فلينظر إلى الأمام.. إلى الأمام فقط، ووجد نفسه يفكر في صديقه موسيليني..

* * *

في السادسة مساء، وهو بعد لم يفارق مكتبه، قدم له «أتوليكو» سفير إيطاليا رسالة من صديقه الذي فكّر فيه منذ ساعات.

«بالرغم من وقوف إيطاليا إلى جانب ألمانيا بلا قيد أو شرط، إلا أن إيطاليا لا تستطيع التدخل عسكرياً ما لم تقدم لها ألمانيا فوراً كل

احتياجاتها من مواد الحرب الموضحة في القائمة المرسلة مع هذه الرسالة».

راح هتلر يقلِّب القائمة ويغالبه قوة هائلة للانفجار. لم يلحظه السفير أتوليكو وهو يهزّ رأسه من الغيظ، رقبة هتلر ليست بالطول الكافي ليلمح الشخص رأسه وهو يهتز. ذلك يحتاج صراخاً، وهو ما يفعله عادة حين يخطب في الجماهير. لكنه الآن لن يخطب، يريد، على العكس، أن يبدو هادئاً.. وبانتشاء مفاجىء تذكر يوم دخوله إلى النمسا وراء قوته التي لم تواجه بطلقة واحدة، كان ذلك صباح الثاني عشر من مارس العام الماضي. يومها اتجه إلى مدينة «لينز» حيث دخل المدرسة وهو صغير لأول مرة، وخطب هائجاً في جماهير مجنونة، كان «هيس» سفيره في روما قد هاتفه في اليوم السابق معلناً أن موسيليني يبعث إليه بأحسن تحياته، وأن النمسا لا تعنيه إطلاقاً. ورد هتلر على هيس بفرحة غامرة وبأنه لن ينسى ذلك أبداً أبداً مهما حدث، وإذا حدث يوماً وصار موسيليني في حاجة إليه، فسيكون بجواره حتى لو وقف العالم كله ضده.

في ذلك اليوم تأمّل هتلر هياج النمساويين حوله وأمامه وهو يخطب، وتذكر كيف كان مولده لأب فقير من موظفي الجمارك، وكيف كان يتطلع في صباه لأن يكون فناناً، وكيف فشل في الالتحاق بأكاديمية الفنون في فيينا نفسها، مما جعله يترك النمسا كلها إلى ألمانيا، ثم تأمَّل هذا الدخول الظافر إلى مهد طفولته، وتذكَّر مكالمة الأمس من روما، وخلعته البهجة عن الأرض. ماذا يحتاج المرء أكثر من ذلك ليشعر بأن العناية الإلهية تسانده؟ وأخذ قراره بضم النمسا إلى الرايخ.. لكن موسيليني اليوم يخذله وهو لم يبدأ الحرب بعد..!

اكتأب هتلر، أوشك أن يهاتف إيفا براون يدعوها إلى مكتبه. «البولنديون المتعجرفون يقفون مثل الأحجار أمامي، وصديقي المخلص

الذي يزهو بأني من المؤمنين بأفكاره يتخلّى عني. أي صنف هم الإيطاليون؟ قراصنة حقيقيون.. لكن هؤلاء القراصنة يمكنهم خوض المعارك في البحر المتوسط ضد فرنسا فيشغلونها عني حتى تنتهي بولندا من الوجود» رسالة موسيليني نذير شؤم حقيقي.. لذلك حين دقّ التليفون تردّد في تناول سماعته. رفعها إلى أذنه واستمع إلى صوت «ريبنتروب» وزير خارجيته يقول إن معاهدة دفاع مشترك قد وقعت حالاً بين بولندا وانجلترا...

لم يكن لأحد في هذه اللحظة أن يحتل ذهن الفوهرر غير «كيتيل» رئيس هيئة أركان الحرب. استدعاه على عجل، وقال له بهدوء كأنما ينفض يديه من الأمر كله: أوقف كل شيء فوراً.. إنني أحتاج إلى وقت لإجراء مفاوضات.

* * *

لم يكن هذا الوقت طويلاً. فقط خمسة أيام. أطفئت الأنوار في باريس. وُزِّعت في مدن فرنسا المنشورات التي تدعو النساء إلى التطوّع في الجيش.. أعلنت الأمة الفرنسية ثقتها التامة في جنرالاتها العسكريين الكبار، جاملان ودارلان وفيلمان، رؤساء هيئة أركان أسلحة البر والبحر والجو، وأعلنت حالة التعبئة العامة فظهرت طوابير وقوافل الجنود تمشي في شوارع باريس عائدة إلى ثكناتها. وفي لندن ازدحمت أرصفة محطة قطار واترلو بالحقائب والأمتعة، والسيدات والأطفال يغادرون إلى الريف، وفي إيطاليا أصدر موسيليني أمراً بتقسيم الجيش إلى قسمين، قسم يتولاّه الأمير «أمبرتو» ولي العهد، بينما يتولى المارشال جرازياني القسم الثاني، كما صادرت الحكومة البن من الأسواق، معلنة أن تجارته ستكون تابعة للحكومة نفسها لتزويد الجيوش، هذا رغم ما فهم هتلر من رسالة موسيليني من تقاعس عن مؤازرته في القتال.

اهتزّت كل دولة في العالم، وراحت تحدّد موقفها إذا قامت الحرب، القتال أو الحياد أو الانتظار، استمرّت الاضطرابات في فلسطين، واقتربت من سواحلها باخرة تحمل ألفاً ومائتي يهودي، لتهريبهم داخل البلاد. خرج قليل من الناس في ألمانيا يحتجون على الحرب، وقف بعضهم أمام القطارات ليموتوا قبل أن يروا حرباً جديدة تجتاح الدنيا. حدث ذلك في مدن أوروبا كثيرة. وفي قناة السويس مرّت الباخرة «ماريت باشا» حاملة جنوداً فرنسيين وسنغاليين، آخذة طريقها إلى سوريا ولبنان، لتعزيز الدفاعات الفرنسية. في القاهرة تأجّل الاحتفال بخريجي كلية فيكتوريا، تقرّر زيادة دوريات البوليس، وزيادة التدابير ضد التجسّس، وتحويل الضباط الاحتياطي إلى الجيش العامل. قرر محمود غالب باشا وزير المواصلات، تحويل بعض عربات السكك الحديدية إلى مستشفى ميدان. أقيمت الغارات التجريبية. خصصت سبع بواخر عند بولاق، لترحيل سكان القاهرة إذا اقتضت الحال. في الاسكندرية التقى «كاننجهام» القائد العام للأسطول البريطاني، «ببرفعت علي ماهر باشا» رئيس الوزراء في المقرّ الصيفي في بولكلي، لبحث التدابير البحرية اللازمة إذا اندلعت الحرب، واجتمعت لجنة الوقاية من الغارات برئاسة محافظ المدينة، وقرّرت زيادة مراكز الإطفاء إلى ثلاثة، وتكليف أصحاب السيارات بطلاء مصابيحهم باللون الأزرق القاتم بدلاً من الأزرق الفاتح، وأقيمت أيضاً الغارات التجريبية، ونُصبت الشباك المعدنية خارج الميناء لصد هجوم السفن، وأجريت التجارب الليلية لوحدات الإضاءة الكاشفة فوق سماء المدينة تحسباً لغارات الطائرات، ووصل السيد مايلز لامبسون السفير البريطاني قادماً من لندن لمقابلة جلالة الملك بقصر المنتزه، واقترح هتلر على الحكومة البريطانية تسوية النزاع بتسليم إقليم «دانزج» إلى ألمانيا حالاً، وقيام استفتاء بين سكان الممر البولندي يقررون فيه مصيرهم، وحدّد للردّ يومين، طالباً أن يرد عليه رئيس حكومة بولندا نفسه، أو وزير مُفَوَّض.

صار هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ الموقف المتدهور، وكتم العالم أنفاسه انتظاراً لانتهاء اليومين، وصار السؤال هل يمكن لأحد، أو لقوة غير منظورة، إنقاذ سكان الأرض من الجحيم القادم؟

لم يعد هناك جدوى لأي احتجاجات شعبية، ولا أي انتحارات، دارت عجلات الموت، لقد تقرّر فتح كتاب الجحيم. . .

* * *

،وقال لي، إذا رايت النار فقع فيها فإنك إن وقعت فيها انطفات، وإن هربت منها طلبتك واحرقتك،

2

في الليلة الأخيرة لمجد الدين جلس صامتاً وسط أفراد عائلته، راحوا ينظرون إليه غير قادرين على تصديق الأمر كله. لكنه بدا بينهم كمن لم يتغير أبداً. في الأربعين لكنه في صورة ابن العشرين. وجه مستطيل قوي القسمات بارز الوجنتين ذو عينين خضراوين، شعر الرأس أشقر لولا أنه مغطى دائماً بالطاقية البيضاء. ولا يزال له الجسم القوي نفسه للشاب الصغير.

ـ لماذا لا تسمح لنا بالقتال؟

تساءل أحد أزواج أخواته الثلاث ثم أكمل:

ـ نستطيع قتال القرية كلها لو استدعى الأمر، ولا يزال في البيت سلاح قديم، ونحن رجال.

لكن مجد الدين طلب من الجميع أن يناموا، الصباح رباح، ويحلها من لا يغفل ولا ينام. كلماته الأثيرة التي يعرفونها عند الضيق، وتعرفها أكثر زوجته الشابة زهرة كلما غشيته الأزمات.

انصرف الجميع إلى غرفهم بالدور العلوي بالدار الكبيرة، انصرفت أمه هادية التي انطفأ نور عينيها إلى حجرتها بالدور الأرضي مستندة على ذراع زهرة التي كانت تحمل طفلتها «شوقية» ذات العام الواحد على ذراعها الأخرى.

أتت من كل أركان الدار الرائحة التي يحبها مجد الدين. رائحة طين الجدران التي شواها الحر بالنهار، الرائحة المعجونة برائحة الروث القادمة من الزريبة، والمعجونة أيضاً برائحة حصائر الجبن، ومخضّات اللبن المعلقة على الجدران ووجد مجد الدين نفسه يصعد أعلى السطح.

تأمّل برج الحمام الأبيض، وأرهف السمع، فسمع قرقرة خافتة لا تكاد تبين، تأمل مأوى الأرانب ولم يسمع شيئاً، أحس بالجو خانقاً. لم تنكسر حدة الحرارة منذ أيام، والرطوبة تشتد يوماً بعد يوم كأنما لا ينصرم الصيف... ما الذي أحيا كل هذا القديم الميت الآن؟ ولماذا حقاً لا يريد أن يقاوم؟

* * *

مثل مطر شديد مفاجىء نزل على القرية راح الناس يتحدثون سراً وعلانية، عن المعارك القديمة بين عائلتي «الخلايلة» و«الطوالبة» وجاء شيخ البلد يطلب من مجد الدين، أن يترك القرية في نهاية الأسبوع.

الثأر بين العائلتين انتهى منذ عشر سنوات، حين لم يبق في القرية من الخلايلة غير مجد الدين، ومن الطوالبة غير خلف، مجد الدين حامل القرآن الذي أعفي لذلك من الجهادية، وخلف صديقه منذ الطفولة. لقد جَعَلَتْ هذه الصداقة بينهما، كلاً منهما يتحايل على ألا يقابل الآخر في معركة. قُتِل إخوة مجد الدين الخمسة، ومات أبوه محسوراً عليهم، وبقي هو وأخوه «البهي» الشارد دائماً في الآفاق، وبقي أولاد عمه، أزواج أخواته الآن. قتل إخوة خلف الخمسة أيضاً، ومات أبوه محسوراً عليهم

بدوره، والقرية كلها عرفت قصة العهد الذي أخذه كل من مجد الدين وخلف على نفسيهما. لقد قررا منذ أكثر من عشر سنوات إيقاف نهر الدم. وسأل مجد الدين صديقه:

ـ والآن يا خلف لم يبق غيري ليموت ولن أترك نفسي أقاتلك.

ـ ليس لي شيء عندك يا مجد الدين.

ـ إذن ستسعى وراء البهي، إذا كان ذلك فاقتلني يا خلف.

ـ لن أسعى وراء أحد يا مجد الدين، العار لحقنا جميعاً، القاتل والمقتول. انتهت القصة من زمان إذن، والبهي الذي صار يعيش في الإسكندرية، لم يعد للظهور بالقرية أبداً. لكن العمدة نكش الآن تراب السنين، إنه لا ينسى ما فعله البهي به، وإحياء قصة الثأر القديم بين الخلايلة والطوالبة مجرد حجة لطرد مجد الدين، العمدة فجأة قرر إظهار ضعفه وحقده معاً، ومجد الدين منذور، كما كان إخوته جميعاً، لدفع ثمن خطايا البهي. ترى ماذا في الإسكندرية حتى يعشقها البهي كل هذا العشق؟ وهل سيلحق مجد الدين غدا به أم سيختار بلداً آخر في أرض الله الواسعة؟ . . . يا أرحم الراحمين. . يهتف مجد الدين بلا صوت وهو يجلس مرتكناً بظهره إلى قاعدة برج الحمام، يخرج من صديريته علبة دخان ويلف سيجارة رفيعة. لم يحب من إخوته أحداً كما أحب البهي. ها هي الأيام تجمع بينهما كما يقال:

ـ مات أبوك يا بهي وليس على لسانه إلا اسمك.

ـ ليس لي عيش في القرية يا شيخ مجد، لقد هدّني السجن.

ـ بلدنا حلوة يا بهي.

ـ أنت طيب يا شيخ مجد لا ترى الدنيا إلا من خلال القرآن. . لماذا حقاً تبقى في هذه البلد الوسخة!؟

ولم يرد مجد الدين. لم يعرف، ولا يعرف حتى اليوم كيف يجيب على سؤال البهي، واستمر البهي ذلك اليوم يتحدث. قال:

ـ أبوك مات وإخوتك قتلوا. لم يبق غير النسوان وأنا. أنا لا أفيدك.

بعد ذلك رحل البهي إلى الإسكندرية، عشر سنوات كاملة من الانقطاع، كان مجد الدين حريصاً على أن يزوره مرة أو مرتين كل عام. زيارات سريعة لم تطل الواحدة منها عن ليلة يعود في صباحها محملاً بكلام كثير جميل للأم هادية. كان يجد البهي دائماً في ثياب نظيفة، بنطلون وقميص إذ خلع لباس الريف منذ وقت طويل ويعيش في حجرة واحدة لكنها نظيفة، يحرص البهي دائماً على تعطيرها بالبخور والمسك، ولا تفارق جيبه علبة عنبر تشع رائحة خلابة، لكنه كان يبدو شاحباً مجهداً، ويخفي آلاماً كثيرة يجدها في المدينة عن مجد الدين، الذي لم يخبر أمه أبداً بهواجسه عن آلام أخيه، بل يقدم إليها دائماً ما يسرّها عن ابنها المسكين.

كانت هذه كذبة مجد الدين الوحيدة في حياته. كان يؤلمه دائماً الحياة التي يحياها أخوه بالإسكندرية، لكنه عود نفسه على أن يقول لأمه غير ذلك. إنه يحب أخاه ويقول ما يحبه له أن يكون. خمس سنوات كانت الفارق بين عمريهما، تمشي دائماً معهما وكأنها نصف قرن من الألم العجيب، البهي هو الأكبر، ودائماً ما كان الأب ينظر إليه ويقول «الله في خلقه شؤون، هذا ابني من صلبي وهؤلاء أبنائي أيضاً، وكلهم من أم واحدة، وفيهم من يزرع ومن يتاجر ومن يحمل القرآن إلا هذا الولد الذي جاء محملاً بخطايا العالمين!».

لقد كره البهي مبكراً كل محاولة لأن يتعلم حرفاً في الكتّاب أو الزاوية أو البيت. ولم يكره شيئاً مثل كرهه للفلاحة والفلاحين! قالوا ذلك لوسامته، وقالوا لهيبة في قلبه، وقال الأب دائماً والحسرة في عينيه «هكذا

هو خِلْقَةٌ». اختارت له الأم اسم «البهي» لأنها ولدته في ليلة السابع والعشرين من رمضان. لقد رأت وهو ينزلق منها طاقة نور تخرج معه تضيء الحجرة وتمشي على الجدران.

وبكت القابلة وهي تلفه في القماط، وتقول لأمه أن تخفيه عن العيون، فهو فضلاً عن طاقة النور التي خرجت معه، ولد مختوناً، إنه ولد طاهر من البداية منذور لخير عميم.

وهكذا لم ير الناس البهي إلا حين استطاع المشي، فتسلل من كوة الباب الخشبي الكبير، وتدحرج في الزقاق الضيق يحيط بوجهه الضوء العجيب. ولم ينته جزع الأم إلا بعد أن أنجبت بعده ثلاث بنات ثم مجد الدين. لم تعد أم الذكور فقط. جزع الأب هو الذي لم ينته. لقد فطن مبكراً إلى أن في عيني البهي نزقاً غير مألوف في العائلة، مع أن للعيون في العائلة اللون الأخضر نفسه الذي أخذه الجميع من الأم، في عيني البهي وحده اللون الأزرق! وهذا أيضاً عجيب.

ما كاد البهي يبلغ مرحلة الصبا، حتى راح يخرج من الدار مع الصباح، ولا يعود إلا في المساء، لينام دون حديث مع أحد. لم يسأله أحد أين يمضي يومه. الأم ممتلئة بالحنان، والأب لا يستطيع أن يفسر لنفسه، هذا الضعف الذي قذف به الله إلى قلبه تجاه الغلام. شيئاً فشيئاً صار البهي وسط العائلة مثل خيال، يخرج الإخوة في الصباح الباكر إلى الحقول، ويخرج هو بعدهم لكن لا يعرف أحد إلى أين، يعودون في المساء متعبين ليتناولوا عشاءهم وينامو مبكراً، وتظل الأم لا تنام، إلا بعد أن تسمع صرير كوة الباب، وخفقات قلب البهي المتسلل عائداً. ثم راح يغيب لأكثر من يوم وليلة ويعود ينام في أقرب مكان يقابله، مع البهائم، مع الدجاج، فوق الفرن، في الباحة بين الحجرات. المهم أنه لم يعد ينام في حجرة بها أحد من إخوته، ولا يزال الأب لا يدري سر هذا

الضعف الذي يتملكه أمام ابنه العجيب، والابن المسالم لا تأتي من جرائه أي شرور حتى الآن، ثم انكشف سر البهي وملأ فضاء القرية، إنه ممسوس بالعشق يمشي وراء النساء فوق الترع وفي الأسواق، ونساء القرية أيضاً وفتياتها كن ينتظرن مروره بين الأزقة ليتطلعن إليه من خلف الأبواب وفوق الأسطح، صارت مواقيته محفوظة للنساء، وهالة النور التي قالت عنها أمه أنها انزلقت معه يوم مولده لم تكن قد فارقته بعد، فقط لا يراها غير النساء والفتيات. وانتقل خبره إلى القرى المجاورة فصارت النساء والفتيات يأتين ليجلسن على الترعة التي تفصل البلد عن الحقول ينتظرن مروره، تفزع إليه صاحبات الحاجة، تلمسنه، تفزع منه الفتيات الصغيرات. يقفن بعيداً ويضحكن وشيء يزلزل أجسامهن. وإخوته وأبوه في دهشة مما يسمعون عن الصبي، حتى جاء يوم رأوه فيه يظهر على رأس الحقل. كان هناك إخوته الخمسة. فتوح والقاسم وخليل وعمران وسليمان. ولم يكن مجد الدين، أصغرهم، معهم ذلك اليوم. في البداية اندهش الأخوة من ظهوره، لكنه بعد أن جلس عند الساقية، انشغلوا عنه بالعمل. بعد لحظات رأوه يقف يدور حول الجميزة العجوز أكثر من مرة ويتطلع إلى بعيد ناحية القرية، ثم سمعوه يصرخ يناديهم. وقفوا بين شجيرات القطن القصيرة ومعهم فؤوسهم. رأوا من بعيد عدداً كبيراً من الرجال يأتون مسرعين رافعين فؤوسهم وعصيهم ناحية البهي. «الطوالبة» هتف الأخوة، لم يكن حتى ذلك اليوم بين العائلتين أي دم. اقترب رجال الطوالبة، فاندفع البهي ناحية إخوته كتلة من الرعب.

- سيقتلونني.

- اهرب أنت من هنا. بلّغ أباك وأولاد عمك بسرعة.

وانطلق البهي من خلفهم أسرع من فرس، وهجم إخوته على الرجال المهاجمين، ودارت المعركة وطالت. والبهي في طريقه رأي أباه وأبناء

عمه وأبناء خاله، يسرعون ناحية الحقل حاملين العصي والفؤوس. لم يعد معهم، أخذ طريقه بالسرعة نفسها إلى البيت، كانت الأم تقف في رعب فارتمى على صدرها. كان بالكاد في السادسة عشرة، انفجر باكياً. ربتت على ظهره تسأله في ألم.

ـ لماذا فعلت ذلك يا ولدي!؟

ـ غطيني يا أمي.

وأخذته إلى أقرب غرفة، ثم غيرت رأيها وصعدت به إلى غرفة علوية. «حتى لا يقتلك أبوك إذا عاد» قالت وسمعها البهي. أغلقت عليه الباب، ونزلت تنتظر نهاية المعركة. كانت تدرك أنه اليوم، فتحت أبواب الجحيم، التي لن تنتهي إلا بعد أن تأكل النار كل الحطب.

وفي الحجرة العلوية كان البهي يدرك ذلك أيضاً. . القحبة، الفاجرة، زوجة عبد الغني، أكبر أبناء الطوالبة، هي التي أغوته، هي التي مدّت يدها بالنهار يوم السوق، وسحبته من قفاه، وهو يمر أمام الباب، وأدخلته إلى الدار. «كل هذا النور!» قالت وسمعها صامتاً، وتركها تتأمل عينيه، وتمشي بيدها على صدره. لقد سحرته. وضعت أصابعها عليه فمشى في جسمه نمل جعله أسيراً لها. سحبته إلى غرفة قريبة وهو مستسلم، تتابعه نظرات الدجاج والبط في ردهة الدار. الغرفة الكابية التي بلا نافذة أضاءت فجأة. أدركت هي النور، ولم يدرك هو أنه دخل في ظلام! «النور يخرج من جسمك يا عريس، لا بد أن أحمل سرك، أشعلني وأدخلني في جهنم». سمعها وتركها تفعل ما تشاء. لقد حملته فوق سبع السماوات.

خرج من عندها خفيفاً كريشة. ما الذي كان يثقله، وأفرغه فيها حتى يصير خفيفاً هكذا؟ ولم تعد الشوارع الضيقة ضيقة، ولا البيوت السوداء سوداء، ولا روث البهائم في الطرقات له رائحة منفرة.

لم يكن قد مضى على زواجها من عبد الغني شهر واحد. لذلك لم

تخرج إلى السوق مع نساء العائلة، لا تزال في حكم العروس. وبعد ذلك لم تخرج أيضاً. عاندت واختلقت الأعذار عاماً كاملاً، رأى أبناء الطوالبة كبيرهم، عبد الغني، يخضع للزوجة الصغيرة الجميلة، فتعجبوا من سطوة الجمال على الرجال. لكن النساء، نساء الإخوة الأخريات، فكرن ودبرن حتى نجحن. وبالأمس رفعها عبد الغني عن الأرض، ثم طرحها عليها بين أخوته ونسائهم وأمه وأبيه، وداس على صدرها بقدمه، ووضع السكين فوق عنقها «من يا بنت الجزمة؟!».

ولم تتردّد. قالت بصوت واهن «البهي». ذلك الولد الصغير الفاسق! هتف الزوج، وبصق على وجهها، ومشى بالسكين عميقاً، لكنها ضحكت، وجلجلت ضحكتها في صحن الدار الكبيرة، وانقذف الزوج بعيداً إلى الوراء ساقطاً على مقعدته، بينما طارت السكين من يده.

يا بوي، يا بوي. هتف كأنه يتنهد، وزاغت عيناه ثم تجمّدتا على الفضاء اللانهائي.. لقد غرس السكين في العنق، هو على يقين من ذلك، ولم ينبثق دم. انفجرت فيه حزمة من الضوء.

قامت هي تضحك بلا انقطاع. جرى إخوته الرجال يبحثون عن السكين، فلم يجدوها في أي مكان، سيجدونها بعد ذلك في قلب صحن الدار، ويندهشون كيف لم يرها أحد ذلك اليوم، سيجدونها صدئة يفركها أحدهم بيده فتذوب رماداً. وحمله الإخوة إلى حجرته. لم يستطع القيام وحده، كانت هي تقف في ركن بعيد تضحك وتنتحب معاً. أثارت شفقة النساء وخوفهن، هي اللاتي فكرن ودبرن. اقتربن منها، وأخذنها إلى الزريبة، وجلسن حولها في ركن من القش. كانت ترتعد بلا توقف. قلن إنها ستموت الليلة. نسي أمرها الرجال الذين انشغلوا بأخيهم الأكبر العاجز. قدمت لها النساء إناء لبن طازجاً، ابتلعته تاركة نصفه يسقط على صدرها، ولا تتوقف عن الضحك والنحيب، ثم مالت فوق القش ونامت

ورأين جانبها يتحرك مع أنفاسها كما يتحرك جانب البهيمة المتعبة.

عند الفجر خرج الرجال من حجرة أخيهم متباطئين. صرخت النسوة. مات، هتف الرجال، قُتِل!، دمه في عنق الخلايلة «لا يكفينا فيه الولد الصغير العايق» لم يرَ أحد الزوجة وهي تتسلّل من الزريبة مع أول ضوء وتختفي. وفي الصباح ترصد أبناء الطوالبة للبهي في الطريق. كان الخبر قد شاع، وكان البهي عائداً من قرية مجاورة. لم يدرك أحد أن النساء والفتيات، اللاتي يغسلن أوانيهن في الترعة، قد تباعدن إلى مسافات بعيدة، حتى امتدّ صفهن إلى خارج زمام القرية. كل نساء القرية خرجن يغسلن أوانيهن ذلك اليوم، وهكذا قبل أن يدخل البهي شوارع القرية أعلنته النساء، فانثنى إلى الحقول حيث يوجد إخوته، وعادت النساء ينكمشن، ويأخذن مكانهن المعتاد فوق الترعة، عند منتصف القرية حيث يسبح البط ولا يبتعد، وكان الطوالبة بدورهم قد وضعوا عيوناً لهم فعرفوا، وجهة الفتى الصغير.

* * *

نزل مجد الدين تاركاً السطح. فتح كوة الباب الخشبي وخرج إلى دار خلف، صديقه الباقي من العائلة الأخرى، الذي أمر العمدة بطرده أيضاً خارج القرية.

ـ إلى أين انتهيت يا خلف؟

ـ يا شيخ مجد أنا ليس لي عيش هنا، من زمان ومالي وتجارتي كلها في طنطا، وأنا أعرف أني غير المقصود. العمدة فجأة قرّر الانتقام مما فعله به البهي زمان، فأحيا حكاية الثأر التي انتهت بيننا من سنين. سوف أترك القرية غداً. أعرف أني أستطيع العودة في اليوم التالي، لكني لن أعود.

وقدم خلف لمجد الدين سيجارة كوتاريللي. وسأله:

ـ سمعت أن أولاد عمك أزواج أخواتك يريدون قتال العمدة.

ـ لن يحدث قتال، منعتهم.

ـ وماذا ستفعل؟

ـ سأترك القرية غداً.

وخرج مجد الدين من دار خلف، مدركاً لأول مرة، أنه إنما ينصاع لأمر العمدة، ليس خوفاً ولا إذعاناً، لكن لرغبة قوية عميقة فيما يبدو، لترك القرية واللحاق بأخيه الشارد في الإسكندرية..

قبل هذه الليلة الأخيرة لمجد الدين بيومين، كان الرد الذي طلبه هتلر، قد جاءه إعلاناً سريعاً بالتعبئة بين الشعب البولندي، ونداء من رئيس بولندا إلى شعبه، بأن يقف خلف جيشه، دفاعاً عن الحرية والشرف.

انتهت المهلة إذن، ولم يعد هناك مفر من دوران آلة الشر، وفي صباح تلك الليلة الأخيرة لمجد الدين، بالضبط في الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة، بدأ الهجوم الكبير على بولندا..

كان اليوم هو الجمعة أول سبتمبر عام 1939. لم يتعوّد مجد الدين الخروج إلى الحقل يوم الجمعة. كان يحب أن يمضي اليوم كله في «زاوية» القرية الصغيرة، لكنه خرج ذلك اليوم إلى الحقل. لم يحب أن يذهب إلى المحطة من داره مباشرة. وكان قد طلب من زهرة أن تسبقه إلى المحطة في المساء. لقد أرسل العمدة في الصباح، عدداً من الخفراء إلى دار مجد الدين، فعرفوا أنه في الحقل، وسيغادر القرية من هناك. وفي المساء وقف شيخ الخفراء وخفراؤه على رأس الكوبري الصغير، الذي يربط القرية وطريق الحقول، ليمنع مجد الدين من العودة إلى داره. لم يصدق العمدة أنه سيترك القرية بسهولة لكنهم شاهدوه بالفعل يبتعد عن القرية، على ظهر حمار صغير أقرب إلى الأتان. أطلقت عدة أعيرة نارية للترهيب. لم يشأ مجد الدين حتى أن يلتفت. إنه حقاً يريد الخروج.

* * *

«إن الألم كنز.. واللب يغدو أكثر نضرة إذا سلخت عنه القشرة»

3

كانت محطة السكة الحديد ذلك المساء، مثلها كل مساء، خالية إلا من الناظر المسكين، الذي لا يستطيع أن يبرحها قبل القطار الأخير في العاشرة. ومثل كل مساء أيضاً ظل الرصيف حجرياً عريض الأحجار وجامداً، واللافتة التي تعلن اسم البلدة كما هي بيضاء حائلة عليها خطوط سوداء شاحبة، ومرفوعة على الحاملين الحديدين الصدئين، ولا عصفور يقف فوقها أو يطير حولها.

لم تكن عصافير على الأشجار القريبة أيضاً، والقضبان الأربعة بين الرصيفين سوداء لامعة الأسطح، بينها تخثر المازوت، وتجلط فوق العوارض الخشبية والزلط. القضبان تلمع دائماً من أعلى في نهارات الصيف، وتبدو كأنما سطوحها بيضاء.

كان الطريق الذي يمر من المحطة إلى البلدة كما هو، رفيعاً مترباً ساخن التراب، قليل التعرّجات، قليل أشجار الكافور والكازورين، وليس عليه في هذا الوقت عادة غير رجل واحد يمشي.

ولأنه في مثل هذا الوقت من كل يوم، يظهر هذا الرجل في منتصف

الطريق كان الأمر يحتاج إلى وقت أطول، ليتأكد الواقف على المحطة، ما إذا كان هذا الرجل قادماً إليه، أو ماضياً نحو البلدة. الحقيقة أن الرجل دائماً يختفي، ولا يعرف أحد أين ذهب، كأنما الأمر خدعة بصرية. ما الذي يجعل العين لا ترى تبديلاً في المشهد كل مساء، في المسافة بين البلدة والمحطة أيام الصيف؟. هل هي حرارة الجو. وانكسار الضوء فوق التراب؟ والخضرة أيضاً كانت، كما هي كل يوم، ممتدة حول الطريق الترابي، ولا يتحرك فوقها طير كثير. بعض غربان على ذؤابات النخيل العالي، وأبو قردان فوق أفرع الجميزات العجوز.

لقد أخذ مجد الدين طريقه إلى المحطة وسط هذا الجمود. بدت له الدنيا كشيء مهمل، يراه ذات ظهيرة من فوق رابية، في يوم من أيام بؤونة. هل ما حدث له منذ قليل حقيقة؟ هل هو حقاً الذي انصاع لأوامر العمدة بهذه السهولة، وخرج من القرية كما تخرج الشوكة من العجين وأسهل؟.. لقد رأى زهرة من بعيد تقف فوق رصيف المحطة، وجوارها أخوها، وعلى ذراعها الطفلة الصغيرة شوقية، وجوار أقدامهم «قفتان» و«سلألي». راحت تشير إليه أن يسرع. وكانت الأتان بطيئة أكثر مما ينبغي، فحثها على الإسراع ما استطاع. قبل أن يصل إلى المزلقان ترك الأتان، وعبر إلى الرصيف وحده. ولأن القطار كان قد اقترب كثيراً من المحطة، هرول مجد الدين، فتعثر بأحد الأسلاك الممدودة فوق الأرض بين التحويلات، فترك بلغته التي انخلعت من قدمه، وعبر القضبان بسرعة، صاعداً إلى الرصيف. رأى ناظر المحطة في بزته الرسمية، تلمع أزراره النحاسية في الفضاء، ويلمع طربوشه الأحمر، فوق وجهه الأسود السابح في ضوء الغروب. بدا له الناظر كأحد جنود الهجانة. كان بوده أن يصافحه على مهل، فهو صديقه عبد الحميد، ابن القرية المجاورة، زميله في حمل القرآن. لقد التقيا معاً قبل عشرين سنة، في مديرية طنطا،

لدخول الاختبار الخاص بحفظ القرآن، والذي على أساس اجتيازه، يتم إعفاؤهما من الجهادية. لقد نجحا في اليوم نفسه، وتمّ إعفاؤهما من الجهادية معاً، وكان على كل منهما، حسب القانون، ألا يعمل في شيء غير قراءة القرآن بعد ذلك. أمضى كلاهما عشر سنوات لا يعمل، ثم كان لا بد من العمل. بعد السنوات العشر لا يمكن أن تظل الحكومة في مراقبتهما. راح مجد الدين يشارك إخوته في الفلاحة، بينما التحق عبد الحميد بالسكة الحديد، والتقيا من جديد. . تعددت لقاءاتهما بعدد سفرات مجد الدين لزيارة أخيه البهي بالإسكندرية. لماذا حقاً لم يستطع أي منهما العمل كمقريء أو منشد للتواشيح؟ ربما هو الصوت، صوت مجد الدين خافت مشروخ، لكن صوت عبد الحميد جهوري وقوي. كثيراً ما فكر مجد الدين أن يسأل عبد الحميد عن ذلك، لكنه يتراجع. في الحقيقة ينسى.

كان القطار قد دخل إلى المحطة، في اللحظة نفسها التي وصل فيها مجد الدين إلى زهرة، رأى مجد الدين صاحبه القديم يتقدم نحوه، يرفع معه إحدى القفتين، ويدخلها معه إلى العربة، عاد وفعل ذلك بالقفة الثانية، كان أخو زهرة، قد أدخل «السلالي» الكبير إلى العربة، وقال ناظر المحطة.

ـ على مهلك يا شيخ مجد، سأوقف القطار بعض الوقت، أريد أن أصافحك يا رجل كما ينبغي.

اندفع كل منهما في حضن الآخر، فكر مجد الدين هل يعرف صديقه سر خروجه من القرية اليوم؟ نفث القطار البخار الأبيض، وصفّر له الناظر أيضاً، وأطلّ مجد الدين من النافذة يقول لأخي زهرة «الحمار عندك قبل المزلقان» وازدادت سرعة القطار وصوت العجلات.

* * *

الآن فقط أدرك مجد الدين أن الأمر انتهى. لقد طُرد حقاً من بلدته، حتى لو كانت بداخله رغبة غامضة في الخروج. هذا شيء لم يحدث لأحد من قبل، ولم يره في حياته على الأقل.

جاء المحصل فأطلعته زهرة على «التسكرتين» اللتين اشترتهما قبل وصول مجد الدين، انصرف المحصل فلاحظ مجد الدين نظرة الرعب في عيني زهرة، ابتعد عن عينيها ليرى في آخر العربة، امرأة يجلس حولها خمسة أطفال، ذكور وبنات، في جلابيب قديمة ممزقة وحفاة. لقد رأى هذه المرأة والأطفال أنفسهم من قبل في القطار عند زيارته الأخيرة للبهي منذ منتصف العام. يا أرحم الراحمين. لا يصدق لكن هذا ما حدث. بل ورآها مرة أسبق. يخيل إليه أنه منذ درج على زيارة أخيه، وهو يرى هذه المرأة، وهؤلاء الأطفال العراة الحفاة.

المرأة لا تشيخ، والأطفال لا يكبرون رغم مضي السنون. الصمت في العربة كبير، عميق كالنوم لولا صوت العجلات تحت المقاعد. لقد ابتعدت زهرة إلى طرف المقعد، وفرشت على المقعد جلباباً أخرجته من أعالي السلالي، وأنامت الطفلة فوقه، ثم غطتها بالشال الأسود الذي أخرجته من السلالي بعد ذلك، وطلبت من مجد الدين أن يحكم إغلاق النافذة التي بينهما. يغلق زجاجها أيضاً أمام الشيش. لقد حلّ الظلام والهواء البارد راح يتسلل إليهم مع حركة القطار.

كيف يمكن أن تمضي الرحلة؟ أي نوع من الكلام يمكن قوله الآن بعد أن أنامت زهرة الطفلة وجلست تنظر إلى زوجها الذي راح يبادلها النظر بدوره، وإن لم يخالط عينيه الرعب نفسه الذي ملأ عينيها؟

كانت زهرة تتألم في الحقيقة، لأنه ليس لها من الإخوة الرجال غير أخيها الذي جاء معها إلى المحطة يودعها، وهو أيضاً غير شقيق لها. أخواتها البنات وأمها «سيدة» لا يستطعن قتال العمدة. أجل. كانت تود لو

أن لها عزوة كبيرة تقاتل العمدة، ما دام مجد الدين قد منع أبناء عمه من القتال. لا بد أن مجد الدين خشي من ترمل أخواته إذا مات رجالهن، لكن كان لا بد لأحد أن يمنع خروجهما، رغم أنف مجد الدين نفسه. هي تسافر معه مكسورة القلب، فلا عزوة لها تساعد زوجها، لكنها راضية أيضاً تقوم بما يجب على الزوجة الوفية. نظرة الرعب في عينيها ستنتهي بعد قليل، لا بد، وحدث، تبدلت النظرة إلى حنان بالغ، تمنّت لو تركوه الليلة يعود إلى داره.

في مثل هذا الوقت يكون قد عاد من الحقل، واغتسل وتعشى، وأطعم البهائم، ومسح على أجسادها، وغير لها الماء، ووضع لها العلف، وساعد زهرة على حلب الجاموس، ثم صلى العشاء، وانفرد عن الجميع بالمصباح الغازي، وراح يقرأ في الغرفة القرآن.

ـ هذا ما حدث على أي حال.. ها. ها. ها. ها.

جاءهما صوت غليظ، نظر مجد الدين ليرى صاحبه. لم تشأ زهرة الالتفات. امتعضت في صمت، رأى مجد الدين صاحب الصوت، قصيراً سميناً ذا طربوش حائل، يجلس على طرف المقعد ولا تكاد قدماه تصلان إلى أرضية العربة. كان يتحدّث بدهشة بالغة لآخر يجلس أمامه إلى داخل المقعد قليلاً، لذلك لم ير مجد الدين منه غير طربوشه وقفاه، وياقة قميص بيضاء متسخة قليلاً. واستمرا يتحدثان. ولقربهما من مجد الدين كان يسمعهما.

ـ لن تتركه فرنسا ولا إنجلترا، إنها بداية حرب عالمية جديدة.

ـ وهذا ما يجعلني أضحك بشدة.

ـ ماذا تقصد بهذا الضحك؟ أقول لك حرب عالمية سيموت فيها ناس.

ـ أقصد أننا منقولون للعمل بالإسكندرية نفس يوم هجوم ألمانيا على بولندا، هذه مسألة مقصودة. اتفاق مع هتلر.

راح مجد الدين يسمع الكلام مندهشاً. كان يعرف مما يتناثر في القرية، ومما يقوله الراديو الضخم الذي نادراً ما يستمع إليه، أن هناك استعداداً للحرب، أن ألمانيا تثير المشاكل مع الدول الأخرى، أن الناس تخشى قيام حرب جديدة تكون أشد فتكاً من الحرب السابقة. لقد نسي هذا كله خلال الأيام السابقة. ها هو يعود إليه. لذلك أنصت لكلام الرجلين.

ـ لم ألحق بالجريدة المسائية في طنطا، خطفها الناس من الباعة. الإذاعة قالت إن وارسو تتعرّض من الصباح الباكر إلى غارات شديدة، وإن الجنود الألمان يدخلون بولندا من أكثر من جهة.

ـ هذه نتيجة أطماع الدول الأوروبية، إنها حروب الطماعين.

ـ المشكلة أن هذه الحرب ستصل إلينا..

ـ لأننا منقولون إلى الإسكندرية في اليوم نفسه!؟ لا يمكن طبعاً. هذا تشاؤم لا محل له، ما علاقة الإسكندرية بحرب تجري في أوروبا؟

بدأ الحديث وقد أخذ طابعاً غريباً على مجد الدين، لذلك أخرج المصحف الصغير من جيب صداره، لكنه قبل أن يفتحه عاد الحديث بين الرجلين.

ـ الإسكندرية نفسها ستكون سبب وصول الحرب إليها يا محترم، لا تنس أن إيطاليا في ليبيا.

ـ هل تظن أن موسيليني يفعلها؟

ـ إنه أستاذ هتلر في الفكر، إذا لم يلحق به هذا العام ففي العام القادم.

ـ نحن على كل حال لن نبقى بالإسكندرية غير عام واحد، ثم إنني

أشك في اتساع الحرب، لقد ابتلع هتلر تشيكوسلوفاكيا وقبلها النمسا، ولم يتحرك أحد. سيبتلع بولندا ولن يعارضه أحد، أوروبا كلها مرعوبة، والاتحاد السوفييتي وقع معاهدة معه، ثم لماذا نذهب بعيداً، ليت ألمانيا أو إيطاليا أو الاثنين معاً يحتلان مصر ويخلصاننا من الإنجليز.

* * *

انقطعت أصوات عجلات القطار الذي يقف الآن في محطة كفر الزيات. سكت الرجلان بدورهما، وأضيئت مصابيح بيضاء أسفل سقف العربة، فازداد لمعان المقاعد الخشبية الصفراء النظيفة، صعد إلى العربة رجل وثلاثة أطفال ذكور. الرجل أنيق في بدلته «الشارك سكين» البيضاء الصيفي وطربوشه نظيف وحذاؤه المقسم بين الأبيض والأسود ذو سن رفيع مدبب. الأطفال يرتدون بنطلونات قصيرة زرقاء، وقمصاناً بيضاء ذات أكمام قصيرة. للبنطلونات حمالات زرقاء أيضاً بها خطوط بيضاء رفيعة. وجوارب الأطفال بيضاء طويلة وأحذيتهم السوداء لامعة عريضة البوز! لكن الأطفال بدوا وقد كفوا في الحال عن البكاء. جلس الرجل في مواجهة مجد الدين، الذي رآه يضع إصبعه السبابة على شفتيه، يحذر الأطفال الذين جلسوا أمامه، من إصدار أي صوت. ثم رآه مجد الدين يخرج علبة سجائر مذهبة من جيب الجاكت، ورآه يضغط على العلبة فتخرج منها سيجارة رفيعة، أشعلها الرجل، ثم راح ينفث دخانها الأزرق، مغمضاً عينيه بارتياح.

تحرك القطار ولم تكن المحطات التالية مجهولة لمجد الدين. ساعتان ونصف ويصل القطار إلى الإسكندرية، هكذا تعلم من زياراته السابقة للبهي. هل سيجده في حالة طيبة هذه المرة؟..

ذلك اليوم البعيد عاد الأب وأبناؤه من المعركة، يحملون القاسم ملفوفاً في جلباب أحدهم. صرخت الأم، وانفرد مجد الدين، الذي كان

في الحادية عشرة، بأحد الأركان، وراح يبكي. القاسم هو أكثر الإخوة حناناً على مجد الدين، وهو أشجعهم، تعرف شجاعته القرية والقرى المجاورة.

دفن الطوالبة ميتهم المغدور من زوجته في العصر، ودفن الخلايلة قتيلهم بالليل، ونامت القرية على الصمت والرعب. في اليوم التالي لم يخرج أحد من داره. وفي اليوم الثالث خرج الناس، بعد أن سرت إشاعة، بأن الخلايلة قد رضوا بحكم الله. ابنهم العايق حسر عميد أبناء الطوالبة حتى مات كمداً، والطوالبة قتلوا عميد أبناء الخلايلة، فتساوى الجميع ولا دين لأحد على أحد. لكن عند نهاية الأسبوع عثر على أحد أبناء الطوالبة، مقتولاً خارج البلدة، وفشلت كل محاولة، من العمدة أو المركز أو المديرية، للصلح بين العائلتين، ولا أحد يتهم أحداً بالقتل. أيقن الجميع أن الأيام ستجري في المجرى الذي قدره الله لها. رأس برأس حتى تفنى العائلتان. ولم يعد غريباً أن يعرف الناس من أي عائلة يكون القتيل القادم. بدت اللعبة شديدة الإحكام مهما طال الوقت وترهل بين القتيل والآخر. وكلما قتل واحد، ازداد ازورار الناس في القرية عن البهي. لقد كان هو سبب اشتعال القرية الهادئة التي لم تكن تعرف الثأر إلا حكايات قديمة، عن أزمان لم يعشها أحد من الأحياء الآن. تمنّى البهي لو قتله أحد من الطوالبة، لكنهم كانوا يهملونه دائماً. يشعرونه بالمهانة، فهم لا يقتلونه استصغاراً لشأنه، وهو يعرف. لذلك كان كثيراً ما يخرج من القرية، ويغيب أياماً في طنطا أو كفر الزيات. وكانت زوجة عبد الغني قد صارت تغني على أطراف الحقول. وتمشي جوار الترعة خارج زمام البلدة، وإذا أخطأت ودخلتها طاردها الأطفال بالحجارة هاتفين «البهية للبهي». هكذا أسموها، وكان اسمها القديم «وجيدة» كثيراً ما كان البهي يسمع هتاف الأطفال هذا، ويتمنّى لو جاء صباح، وجدوا

فيه «وجيدة» أو بهية كما صاروا يسمونها، مقتولة، لكن ذلك لم يحدث. تماماً كما لم يقتله الطوالبة. قتلوا من إخوته خمسة حتى الآن. وقتل إخوته منهم خمسة أيضاً. وملّ الأطفال الهتاف كلما شاهدوا «وجيدة»، فدخلت القرية وفتحت لها الناس الأبواب يقدمن لها الطعام والشراب ويتابعنها مشفقات، وهي تمشي مغنية في الفضاء بصوت عذب. كانت بريطانيا قد أعلنت الحماية على مصر، وراح الناس يشاهدون قطارات الجنود، وهي تمر أمام القرية، ويحكون عنها قصصاً غريبة. ونزلت قوات المركز والمديرية من البوليس إلى القرية تختار أفضل الرجال، تسوقهم إلى الحرب في البلاد البعيدة، نسي الناس حكاية البهي، وتراجع الثأر بين العائلتين، وانشغل الناس بقصص «السُلطة»، وما تفعله بالفلاحين، والشباب الزينة الذين اختفوا في ظروف غامضة، والرجال الأبطال الذين عادوا من الحرب والذين لم يعودوا، وكيف انتصرت بريطانيا على ألمانيا، وإرادة الله التي لم تجعل النصر حليف غليوم الثالث، فينقطع من مصر وباء الاحتلال. وأيضاً، شيئاً فشيئاً بهتت قصص الحرب، وثورة سعد زغلول بعد الحرب. كانت القرية تتذكر أبناءها الشهداء في الثورة والحرب قبلها، وأبناءها الضائعين ومن بينهم كان البهي الذي اختفى سنوات الحرب ولم يعد..

* * *

كان القطار يتحرك من محطة أخرى، والكمساري يفحص بدقة تذاكر الرجل الأنيق وأطفاله، وفتح مجد الدين المصحف كيفما اتفق، فوقعت عيناه على سورة «الأعراف» وسألته زهرة فجأة:

ـ هما عملوا فينا كده ليه يا شيخ مجد؟

كانت آيات كثيرة من السورة في الصفحات السابقة. لم يفكر أن يقرأ السورة من أولها. ارتفع صوته قليلاً غير آبه بأحد.

«وقال موسى لقومه، استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». صدق الله العظيم. قال ذلك لنفسه، وأغمض عينيه وأغلق المصحف وراح يقرأ من محفوظاته.

«وإذ يمكر بك الذين كفروا، ليثبِّتوك أو يقتلوك أوْ يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين. وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون. إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت، وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصِّل الآيات لقوم يتفكرون. إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون. والذين هاجروا في الله من بعدما ظُلموا، لنبوئنهم في الدنيا حسنة، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون، ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً، إلا أن يشاء الله ـ كان يرفع صوته شيئاً فشيئاً حتى كاد يملأ العربة ـ وأذكر ربك إذا نسيت، وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً. وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير الصابرين، فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون...».

ومال الرجل القصير إلى زميله وهمس:

الرجل يقرأ والمصحف مغلق بين يديه. يقرأ بصوت عال ويبدو شارداً عما يقرؤه. لا بد أنه يحمل هماً كبيراً.

ـ سترى ما هو أكثر من ذلك إذا طالت الحرب؟

سكت الرجل القصير مندهشاً من تعليق زميله. وفكّر في الإسكندرية كيف ستستقبلهما بالليل.

اليوم صلى الملك فاروق صلاة الجمعة في مسجد مصطفى أودة باشا بشارع الفتوح بالجمرك. هكذا أعلنت صحف الصباح. لقد كان في استقبال الملك، علي ماهر باشا صاحب المقام الرفيع، وعبدالرحمن عزام باشا، وصاحب الفضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي، وبالطبع محافظ المدينة. لقد عاد الملك إلى قصر المنتزه العامر كما يحدث بعد كل صلاة. وأعلن في الصحف الصباحية اليوم أن مواليد الإسكندرية هذا الأسبوع بلغوا خمسمائة وعشرين من أبناء المدينة وخمسة وعشرين من الأجانب. أما الوفيات فكانوا مائة من أبناء المدينة وأجنبياً واحداً.

كانت أسباب وفيات السكندريين: الشيخوخة أو الحمى القرمزية أو الحمى الشوكية والملاريا والسل الرئوي بالنسبة للكبار، والدوسنتاريا والسعال الديكي والتيتانوس بالنسبة للأطفال، أما الأجنبي الوحيد وهو يوناني فقد قتله قبرصي سكران..

* * *

«هذا العالم الصغير القاتل موجه إلى البريء يأخذ الخبز من فمه ويعطي بيته للنار..»

4

ـ دخول المدن بالليل أمر صعب.

هكذا قال الرجل السمين لرفيقه، وهما يمران جوار مجد الدين، في طريقهما إلى باب العربة، استعداداً للنزول. لم يستمع مجد الدين لرد رفيق الرجل، الذي بالفعل لم يرد.

ـ زهرة. أصح. وصلنا إسكندرية.

قال مجد الدين وهو يهز زوجته من كتفها. نهضت مذعورة قليلاً.. «يا ساتر يا رب» قالت لنفسها، بدت تدرك أين هي بالضبط، تحسست رأسها فوجدت الطرحة السوداء مكانها. تحسّست صدرها فوجدت النقود تحت ثيابها. حملقت في مجد الدين فتأكدت أنه مجد الدين!

على الرصيف وقفت حاملة الطفلة وانشغل هو بمتابعة المرأة وأطفالها الخمسة، والرجل الأنيق وأطفاله الثلاثة. ما الذي يجعله يفعل ذلك حقاً؟ المدهش أنَّ المرأة وأطفالها اختفوا من أمام عينيه، رغم أنه لا يوجد زحام في المحطة، ربما لأن الأنوار كابية. لكن هكذا يحدث في كل مرة يزور فيها البهي. يرى المرأة وأطفالها في القطار، ويختفون على الأرصفة.

الرجل الأنيق وأطفال لم يختفوا. رآهم حتى خرجوا من أقرب الأبواب. لقد وقف على الرصيف طويلاً حتى كاد ركاب القطار كلهم يختفون.

ـ شيَّال؟!

ـ أجل.

وحمل الشيّال الطويل القوي الحافي قفة على كتفه اليسرى، واحتضن الأخرى تحت إبطه الأيمن. قال لمجد الدين أن يتبعه حاملاً السلالي. كانت خطوات الشيّال واسعة سريعة، وكادت زهرة تتعثر أكثر من مرة، ومجد الدين متحيِّر، لا يستطيع أن يطلب من الرجل التمهّل. كانت عيناه مركزتين على القدمين الحافيتين للشيّال لا يعرف لماذا يتذكر أنه كان يمكن أن يكون حافياً أيضاً، بعد أن ترك بلغته على الأرض، حين تعثّر وهو يهرول إلى المحطة، لولا أن زهرة كانت قد أحضرت بلغة أخرى معها في السلالي..

«صعب أن تدخل المدينة بالليل».. رنَّت الكلمات في رأسه، حين خرج من باب المحطة إلى فنائها الواسع. قابله ظلام عريض عميق. مصابيح الميدان المواجه للمحطة كلها مطفأة والأشجار شديدة السواد، وليس من ضوء إلا فوانيس عربات الحنطور الحمراء، المخالفة لتعليمات الأمن.

كان في فناء المحطة عدد قليل من عربات الحنطور، وعربات الكارو والتاكسيات. أنزل الشيّال القفتين إلى الأرض بمساعدة مجد الدين. أعطاه مجد الدين قرش صاغ.

ـ الحرب قامت يا رجل، هذا لن يكفيني عشاء.

لم يفهم مجد الدين معنى قيام الحرب. هل بدأت في الصباح كما

سمع المسافرين لتصل هنا بالليل؟ هل هي قريبة إلى هذا الحد؟ طال تفكيره، فيئس الشيّال من الزيادة وانصرف.

ـ إلى أين؟

تساءل الحوذي العجوز الذي اقترب من مجد الدين.

ـ غيط العنب.

ـ خمسة صاغ.

ـ موافق.

اقترب الحوذي بالحنطور. ساعد مجد الدين في حمل متاعه. ثم صعد مجد الدين مع زهرة يجلسان على مقعد الحنطور. ظلت زهرة تحمل طفلتها، وتدعو الله ألا تستيقظ وسط هذا الظلام.

فرقع الحوذي بسوطه في الفضاء، وتحرّك الحصان. انطلق في البداية بقوة فجأة فاهتزّت العربة، واندفعت زهرة إلى الخلف، ثم إلى الأمام بشدة، فكادت البنت تسقط تحت قدميها، تماسكت وتنفّست، وأحست بهواء بارد منعش يهدهد وجهها ويتسرّب إلى جسمها. «الجو حنِّين»، قالت لنفسها إذ أشاعت النسمة الباردة المنعشة فيها شيئاً من الطمأنينة. لقد نامت زهرة من جديد من اهتزازات العربة، وكان هذا عجيباً لمجد الدين إذ إنها نامت في القطار معظم الرحلة.

ـ أين في غيط العنب؟

تساءل الحوذي ورد مجد الدين.

ـ شارع 12 بيت نمرة 88.

ـ أنا أعرف الشارع، لكن النمرة عليك أنت، طبعاً تعرف تقرأ.

قال الحوذي ذلك، وأخرج من صداره زجاجة صغيرة داكنة بحجم كف يده، رفعها إلى فمه بعد أن فكّ غطاءها، وأخذ منها جرعة سريعة.

ـ تأخذ لك شفطة كينا.

لم يرد مجد الدين. ولم يطلب الحوذي رداً. فطن كل منهما للطريق..

لم يكن هناك غير قليل من المارة. رجال يعدُّون على الأصابع. عربات حنطور تُعد على الأصابع أيضاً. سيارة أو اثنتان أجرة، تمر من جوارهما بين وقت وآخر. دخل الحوذي منذ قليل في شارع عمر بن الخطاب. المحلات الصغيرة مضاءة بالفوانيس الصفراء الصغيرة. فوانيس تضاء بالشموع، نادراً ما يظهر محل مضاء بالكهرباء. عند مبولة الحضري، دخل الحوذي في شارع إيزيس، كانت محلات الشارع قليلة ومعظمها مغلق، حين دخل السائق في شارع راغب ازدادت الإضاءة قليلاً بالمحلات. ازداد عدد المارة، والسيارات الأجرة والحنطور، كانت هناك عربة ترام تمشي أمامهم من بعيد، مصابيح الأعمدة كانت مطلية باللون الأزرق القاتم. الضوء لا يكاد يصل إلى الأرض. إضاءة المحلات الكهربائية القليلة، تتسلل إلى الأرض الخالية فيظهر بلاطها مكسراً في أماكن كثيرة. الساعة بعد لم تصل إلى الحادية عشرة مساء. لم يصادف مجد الدين في الطريق أي مقهى غير واحد عند نهاية شارع إيزيس، يجلس رواده القليلون جداً على ضوء لمبة كهربية واحدة، مدفونة في أبعد مكان بالمقهى. كما رأى مقهى آخر عند آخر شارع راغب، أمام الكوبري مباشرة جهة اليسار. مقهى صغير لا يجلس فيه غير ثلاثة أشخاص على ضوء الشموع. لقد توقّف الحوذي الآن أمام الكوبري وقال:

ـ يبدو أن الكهرباء انقطعت.

لقد رأى مجد الدين حقاً خيمة سوداء نزلت على الدنيا منذ قليل. لقد انطفأت مصابيح الشارع، والمحلات القليلة، وتراكمت كتل الظلام أمامه. واستمر الحوذي يتحدّث.

ـ الكهرباء انقطعت، والكوبري مفتوح للمراكب، يعني لازم تنتظر.
كان ممكناً أن أدور بكما من عند كوبري كرموز، لكن المشي على المحمودية بالليل وفي الظلام خطر، خطر عليّ وعليكم وعلى الحصان.

كانت زهرة قد استيقظت في الوقت الذي تمنّى فيه مجد الدين أن تنام.

قالت:

ـ احنا فين!

ـ في راغب.

ـ راغب!. راغب من؟

ـ اسكتي يا زهرة. نامي، الكهرباء مقطوعة والكوبري مفتوح للمراكب، قدامنا ساعة زمن.

لكن زهرة لم تنم. أخرجت ثديها أعطته للبنت التي استيقظت في الظلام. كان مجد الدين يفكِّر في المرات التي سبق وزار فيها البهي، كيف كان التيار الكهربي ينقطع في الليل لأسباب يعرفها الناس، ويتحدثون عنها في الصباح، منها مطاردة البوليس للصوص الذين يهاجمون السفن المارة بترعة المحمودية، أو القبض على بعض الشباب من الذين ينتمون إلى جماعات سياسية. وكان يعرف ماذا يحدث في الظلام من مشاكسات جنسية. كل امرأة يداهمها الظلام، تمتد لها أيدي بعض المارة الذين يصبحون خلفها أو جوارها فجأة، رغم أنها كانت تمشي وحيدة في الطريق. لذلك لا تكاد تنقطع الكهرباء، حتى تبحث كل امرأة أو فتاة عن أخرى تلوذ بها، لتشجع كل منهما الأخرى. وكانت الأيدي لا ترحمهما أيضاً، لكنهما يصبحان أكثر جرأة، فيسبان صاحب اليد الممدودة.

كان عدد من الرجال قد تجمّع أمام الكوبري، وثلاث نساء آثرن الوقوف معاً في فم المقهى الذي تضيؤه الشموع. وتحسّس مجد الدين زهرة جواره، وهو يعرف أنها جواره، وتجمّعت عربات الحنطور وتقاربت، بينما أخذت التاكسيات طريقها ناحية كوبري كرموز، وقدامتدّ نورها الأزرق قليلاً أمامها.

أخرج الحوذي زجاجة الكينا مرة أخرى وقال هامساً:

ـ المراكب الماشية في الترعة وقادمة من المينا متروسة أسلحة. مدافع وعربات وحواليها عساكر تتحرك وفي أيديها بطاريات. الحرب يبدو قادمة إلى هنا ـ ثم خاطب مجد الدين ـ لماذا جئت الإسكندرية اليوم يا أخ؟. ألا تخاف من الحرب؟

أضاء نور الشارع فجأة فلم يرد مجد الدين. بدأ الكوبري يتحرك ليعود إلى مكانه فوق الترعة.

* * *

عبرت «الحنطور» الكوبري، تكاد تتخلع من مطباته. من اليمين، بعد الكوبري مباشرة، تأتي رائحة دقيق، من وابور الطحين عالي الجدار، ذي الشبابيك المسدودة بالشبك السلكي الضيق، التي اكتست بذرات الدقيق الأبيض، فظهرت وسط الغبش. قبل نهاية دوران شريط الترام آخر الشارع، وأمام نقطة البوليس التي تتصدّر الدوران انحرف الحوذي إلى اليمين، داخلاً شارع اللبان، الذي يسميه الناس بشارع (12) لأن عرضه اثنا عشر متراً، وهو أوسع وأطول شارع بالمنطقة. لكن زهرة التي رأت أكثر من عربة ترام مضاءة بأضواء خفيفة واقفة في الدوران هتفت.

ـ إيه ده، قطر؟

قال مجد الدين بهدوء.

ـ ترماي يا زهرة. ترماي.

وضحك الحوذي وسأل ما إذا كانوا يأتون الإسكندرية أول مرة، فأجاب مجد الدين بالإيجاب وسكت. ومرة أخرى أقبلت رائحة الدقيق، من وابور طحين آخر على يسار الحنطور في شارع البان، الذي كانت العربة تمشي فيه بصعوبة، تتخلع أكثر مما كانت فوق الكوبري، أرض الشارع غير مبلطة، ومفروشة بالدبش الأبيض الصغير. بعد لحظات طلب مجد الدين من الحوذي أن يقف. ها هو البيت على يمينه. إنه لا يخطئه. بيت صغير من دورين محشور بين بيتين أعلى منه بدور واحد.

* * *

قال البهي وهو يصنع لهما الشاي على سبرتاية في ركن من الحجرة الصغيرة.

ـ أنتم محظوظون لأنكم وجدتموني، أنا راجع تواً من المقهى.

وسأله مجد الدين الذي كان ممدداً على حصير فوق الأرض، مستنداً بظهره إلى الحائط:

ـ وماذا تفعل بالمقهى حتى هذا الوقت؟

ـ لا شيء يا شيخ مجد. ثرثرة وشرب شاي.

وراح يضحك وهو يصبّ الشاي في الأكواب الصغيرة.

كانت زهرة مقعية في ركن آخر من الحجرة، تعطيهما ظهرها وترضع ابنتها التي لم ترضع كفايتها في العربة، كان تفكر كيف سيناموں جميعاً في غرفة واحدة، وكانت تجاهد دمعاً يكاد يجري على وجنتيها، تتذكّر دارهم الكبيرة في البلد. فتحت الطفلة عينيها العسليتين اللوزيتين ونظرت إلى أمها بينما لم تترك حلمة البز من فمها ثم اندفعت في البكاء. هل انتقل الإحساس بالألم من الأم إليها؟ أغلب الظن أنه كذلك، لكن زهرة

سرعان ما انتقلت بمشاعرها إلى الدهشة من نظافة وأناقة حجرة البهي، ورائحة المسك التي تنتشر فيها، والبهي ذاته الذي يرتدي البنطلون والقميص كأبناء المدن وحذاء أبيض. هذا رجل آخر غير الذي رأته منذ عشر سنوات. هل تفعل الإسكندرية ذلك بكل الناس؟

وتساءل البهي:

ـ لماذا لا تحدثني بحق عن سبب خروجك من البلد. لم أعرف أنك تكره البلد أو تحب الإسكندرية.

ـ قلت لك إني من زمان أريد الخروج.

ـ وأرضك؟

ـ مع أخواتي وأزواجهن.

ـ إذن عليك العوض ـ ولأنه سمع صوت أنين خافت من ناحية زهرة سألها ـ ما الحكاية يا زهرة لماذا تبكين؟

ولم يجد مجد الدين أمامه إلا أن يقص عليه الحكاية كاملة. وسكت الجميع. أعمقهم سكوتاً كان البهي. إلى هذا الحد كان لعنة على أهله، وحتى اليوم. ما الذي تريده الأقدار منه. لقد تعذّب السنين الفائتة بما يكفي وزيادة. هل كان عليه أن يقتل نفسه بيديه مبكراً، كان ذلك لأنه ولد فتنة للنساء. لقد ترك نفسه يمشي في كل وقت وفي كل مكان لكن أحداً من الطوالبة لم يقتله. خاض أهوال الحرب الفائتة ولم تعطه الأقدار فرصة الموت. . . أجل. ترك البلد وراح يتسكع في أسواق القرى المجاورة، فالتقطته بائعة سمن وزبد من «شبرا النملة». كان صيته قد سبقه إلى كل القرى، والفتنة لا تزال تشع من عينيه، التقطته بائعة السمن والزبد. وكانت (بهية) تترصده، وتمشي وراءه في البلاد. لم يعد يطاردها الأطفال من القرى الأخرى أيضاً. يئسوا وصارت بهية ظله أو نوره على الأرض،

وحين يأتي الليل تختفي في الحقول، ويختفي هو عنها، ويظن أنها لا تعرف طريقه أبداً، وفي الصباح يجدها وراءه.

ـ لا تمشي ورائي يا (بهية) في الطرقات.

تبتسم وتمشي بيديها على صدره، وتزوغ عيناها إلى بعيد، ويرى دموعها فيعطيها ظهره ويمشي يكاد يبكي. . فكر أكثر من مرة أن يمسك بها ويقفان معاً أمام القطار. لكنه لم يقدر على ذلك أيضاً، إنه أضعف من أن ينتحر. وكان يرى خطوط الشيخوخة تظهر مبكرة في وجهها وشعرات رفيعة تنبت على ذقنها، وحين التقطته بائعة السمن ترك نفسه لها غير خائف من شيء. بل وفكر بشيطانية أنه قد يكون سبباً في جنون امرأة أخرى، وتمنّى أن يكون سبباً في جنون كل نساء القرى، آه لو صارت النساء كلها في الريف يمشين وراءه معتوهات. وكأنما كانت بهية تعرف، اختفت فجأة. ودعته بائعة السمن إلى بيتها بجرأة، فذهب معها قوى القلب آملاً أن يكون سبباً في جنونها. رآها تقدمه لأبيها باعتباره تاجراً كبيراً من طنطا، يريد سمنهم وزبدهم كله طول العام. ورأى في نظرة أمها لؤماً وشراهة وشكّاً فيه، ففكّر أن يجنّها أيضاً! أعدوا له حجرة ينام فيه، وطلب منهم أن يجمعوا ما يستطيعون من سمن وزبد وبيض من القرية. عرف من المرأة الجميلة الملحمة قليلاً، أنها أرملة دهس زوجها السابق أوتومبيل في طنطا. كانت تأتيه في غرفته كل مساء. لم يشك في معرفة والديها بذلك. أدرك ما يتم ترتيبه له. لكنه لم يخلق للزواج والحياة الأسرية. في فجر اليوم السابع تسلل خارجاً. كانت الشابورة تلف دور القرية السوداء. كان مشهداً لا ينساه. بيوت شاحبة السواد تدور في بخار الماء الأبيض بحجم الكون. هل يختلف الجحيم عما يراه؟ بدت له البيوت حيوانات خرافية تدور معذّبة في عماء كامل. ولما لامست قدماه شريط السكة الحديد، أخذ طريقه إلى طنطا وليس إلى قريته، وحين قابله

مزلقان، جلس يشرب الشاي في خص أعدّ لذلك على الطريق. كان يريد الانتظار حتى تنقشع الشابورة، ويرى الدنيا أوضح.

ولما انقشعت الشابورة رأى أمامه فريقاً من جنود الهجانة فوق الجمال، يجرون فريقاً من الفلاحين المربوطين في حبل طويل. لم يكن لديه أي فرصة للهرب. ترجّل أحد الجنود وأمسك بذراعه. بهدوء قَيَّدَهُ مع المقيّدين. وهو بدوره لم يعترض. لم يسأل. لم يصرخ. ساقوه مع الآخرين إلى المديرية في طنطا، ومن هناك إلى معسكرات الجيش في القاهرة. لقد خطفته «السُلطة» ليخدم ويحارب سخرة في جيوش إنجلترا التي أعلنت الحماية على مصر.

* * *

«الإحساس بإيقاعات الإسكندرية ينتقل عبر الشوارع إلى الأجساد قبلات جائعة، أو عبارات تودد، بأصوات مبحوحة من الدهشة والحيرة..»

5

بدا أن كل شيء كان مهيئاً لاستقبال مجد الدين وزهرة. بالليل أخبرهما البهي أن صاحب البيت «الخواجا ديمتري» رجل طيب يسكن بالطابق الثاني في غرفتين، وأمامهما غرفة مستقلة يمكن أن يؤجرها لهما. وعرفاً منه أن بالدور الأرضي هنا تعيش امرأة اسمها «لولا» مع زوجها في الغرفة المواجهة لغرفته، قال لهما البهي أيضاً إنه سيتركهما ينامان في غرفته الليلة، وسيخرج لينام في مدخل البيت، حيث يكون الجو أطيب حرارة، وتكون الفرصة أكثر للاستيقاظ مبكرا! لم يكن أمام مجد الدين إلا أن يوافقه. وإن اندهش قليلاً من حديث أخيه عن الاستيقاظ مبكراً، ثم قال له أن يوقظه معه ليخرج يبحث عن عمل.

مضى أكثر الليل في كلام آخر عن الحي وسكانه، لم يعلق بذهن مجد الدين منه شيء، فهو يعرفه من قبل، واندهشت زهرة من الحديث عن الخلاف بين المسيحيين والمسلمين، وكيف صار غير واضح الآن، بينما الخلاف الحقيقي هو بين أبناء بحري وأبناء قبلي. قال البهي إن أبناء

بحري من رشيد ودمياط وغيرها مسالمون دائماً، لكن أولاد قبلي من الجعافرة والجهانوة يتربّصون بهم ويهينونهم. هناك صراع دائم بين الجعافرة والجهانوة أنفسهم، لكنهم يتحدّون على أولاد بحري. وقال إنه يعمل ليوم يقود فيه أولاد بحري لكسر شوكة الصعايدة، وسيكون هذا اليوم قريباً جداً. لقد وجدت زهرة نفسها تسأله على نحو مباغت:

ـ أنت بتشتغل إيه يا بهي في الإسكندرية؟

تأمّلها قليلاً وابتسم ثم قال:

ـ اسألي الشيخ مجد الدين.

وتركها وحمل بطانية ومخدة، وخرج لينام في مدخل البيت.. العجيب أن زهرة نامت بلا حلم. وضعت رأسها على المخدة فوق سرير البهي، وأخذت ابنتها في حضنها ونامت. لم تشعر حتى بمجد الدين وهو يتمدد على الأرض جوار السرير الضيق. لقد أمرها أن تنام هي فوق السرير، وكان عليها كزوجة ريفية أن ترفض وتتركه له، ولكنها وجدت نفسها بلا تفكير تصعد السرير وتنام. كانت امرأة غيرها هي التي تفعل ذلك. لذلك في الصباح جلست أمامه خجلانة. شغلت نفسها بإعداد الشاي له وللبهي.

خرج مجد الدين يبحث عن عمل دون تأخير، وخرج البهي بعده لا يعرف أحد إلى أين.

قال لمجد الدين وزهرة، وهو يتناول معهما الشاي:

ـ لقد مرّ بي الخواجة ديمتري مبكراً، فأخبرته بحضوركما، وبرغبتكما في استئجار الغرفة المقابلة لشقته، وافق. بل لقد صعد وأخبر زوجته أن تستقبل زهرة اليوم ـ ثم خاطب زهرة ـ يمكنك أن تصعدي إليهم بعد ساعة أو أكثر.

* * *

في حوالي العاشرة وجدت زهرة نفسها وحيدة بغرفة البهي، فصعدت إلى الدور الثاني. ما كادت تخرج من باب الغرفة حتى وجدت أمامها امرأة جميلة. شقراء ترتدي قميص نوم شفافاً. عارية الكتفين والذراعين، كانت تغتسل من حنفية الدور. قالت المرأة بفزع «يا أختي» وقالت زهرة بارتباك «صباح الخير». تركت المرأة ماء الصنبور وسألت زهرة:

ـ أخت البهي؟

ـ زوجة أخيه.

نظرت إليها المرأة من أعلى إلى أسفل.

ـ وأين أخوه؟

ـ خرج يبحث عن عمل، وخرج البهي معه.

واستجمعت زهرة شجاعتها، وبادلت المرأة النظرة المستنكرة ذاتها، ثم صعدت إلى الدور الثاني.

* * *

جلست زهرة صامتة بين الست مريم، وبنيتها الجميلتين كاميليا وإيفون. الست مريم في حوالي الأربعين، لها وجه مستدير أبيض، وشعرها كستنائي قصير تركته محلولاً بلا غطاء. كذلك كان شعر بنتيها محلولاً إلا أنه كان طويلاً ينزل إلى الظهر، للبنتين الشعر الكستنائي نفسه، والعيون العسلية لأمهما، وأيضاً استدارة وجه الأم، مع ضيقه قليلاً من أسفل، وغمازتان في خدي كاميليا، تشدان النظر وتبعثان على الابتهاج.

زهرة ترتدي الثوب الأسود الفلاحي الطويل الذي أتت به أمس، ثوب ذو رقبة مربعة واسعة قليلاً يسهل رضاعتها لطفلتها، وفوق رأسها طرحة سوداء تنسدل على صدرها من الجانبين، تغطي ما يمكن أن ينكشف منه بسبب اتساع «قَبَّة» الجلباب. تحت الطرحة غطاء رأس محبوك يغطي شعرها الأسود كله. كاميليا وإيفون لا تكفان عن تأمل زهرة بدهشة من

اكتشف إنساناً من كوكب آخر! الحقيقة أن صمت زهرة هو الذي كان يدهشهما، وكذلك حاجباها المزججان بعناية وعيناها السوداوان اللوزيتان. كانت زهرة صامتة حقاً، وفي نفس الوقت تتأمل الأيقونات المعلقة على الحائط المقابل، تعرفها زهرة جيداً. رأتها كثيراً في بيت عطا بقال القرية، الذي تقوم زوجته فريال بخياطة ملابس النساء. عند الست مريم ماكينة خياطة برجل تراها زهرة في ركن من الحجرة. ماكينة خياطة فريال في القرية صغيرة تعمل باليد، وتضعها فريال فوق طبلية، وتنكفىء عليها طول الليل، حجرة الست مريم أصغر من بيت فريال، لكنها ليست من الطين. وكذلك هي مدهونة باللون السماوي فتبدو مشرقة، والشباك المفتوح على الشارع يغمرها بالضوء، فضلاً عن الباب المفتوح على الردهة، زهرة ترى باباً آخر من داخل الغرفة، فتدرك أنه يؤدي إلى غرفة أخرى «خازنة». زهرة تجلس على كنبة وجوارها الست مريم، وعلى كنبة أخرى تجلس كاميليا وإيفون، والكنبتان مفروشتان بكليمين نظيفين عليهما رسوم رياضية، دوائر وخطوط حمراء وخضراء وزرقاء، وعلى الأرض كليم بني بلا رسوم. في السقف مروحة صغيرة متوقفة يتدلى جوارها سلك يحمل مصباحاً أسفل المروحة. لا بد أن المروحة لا تعمل أبداً وإلا قطعت سلك المصباح. السقف من ألواح الخشب الممدودة فوق عروق قوية، مدهون كله باللون الأبيض. وعلى الحائط صورة قديمة للست مريم في حوالي العشرين، تقف جوار ديمتري بفستان الفرح. ديمتري في الصورة أصلع قليلاً ذو شعر أسود، ترى كيف صار الآن؟ زهرة لم تره بعد. تحت الصورة ساعة حائط صغيرة، وتحت الساعة دولاب زجاجي صغير به الأواني الصيني، أدراجه مقفلة في نصفه الأسفل، وفوقه راديو «تليفونكن» خشبي عريض القاعدة نصف دائري له زراران كبيران متجاوران من أسفل. في الركن هناك جوار ماكينة الخياطة توجد منضدة صغيرة قديمة، فوقها أنواع من القماش الجيد، والثياب

الجديدة التي لم تكتمل.

الثياب والقماش عند مريم أكثر منها عند فريال في البلد. «الناس هنا تحب تلبس». قالت زهرة لنفسها ثم فكرت، «هذه هي ستنا مريم الحقيقية، وهذا هو ابنها سيدنا عيسى عليه السلام. وجه ستنا مريم مريح أبيض ناصع ريان ومحدب الذقن قليلاً مثل وجه إيفون وكاميليا، ووجه سيدنا عيسى مرح، لكن وجهه في الأيقونة الأخرى وهو في سن النبوة يبدو حزيناً رغم هالة النور التي تحيط برأسه. هل كانت للبهي هالة من النور حقاً؟ نعم كانت تمشي معه. لكن وجه البهي ليس كوجه المسيح. يا سبحان الله. إنه أقرب إليه فعلاً. أستغفر الله العظيم».

أمس أيضاً قال لهما إن «بهية» هنا في الإسكندرية. لقد ظهرت منذ عام. رآها تدخل المقهى تنظر إليه ثم تخرج تقف على الرصيف الآخر تتطلع إليه. لم يدرك أنها بهية إلا بعد انصرافها في المساء، فتجمّد في مكانه. ما زالت تأتي بالنهار تراقبه من بعيد وتختفي بالليل.

وقال إنه كان يمشي ليلة على شاطىء المحمودية فسمع صوتاً يناديه. ظنه ندّاهة القرية. لكنه لا ينسى صوتها أبداً. بعد قليل من الدهشة، تقدم ناحية الشاطىء ليجدها تقف أمام كوخ من الصفيح، ترفع في يدها لمبة سهاري تداري عليها بكفها الأخرى من الهواء. أفسحت له الباب فدخل الكوخ وهو مرعوب. عيشة ضنك. تنام على الخيش ولديها خبز كثير أغلبه عفن مما يجود به الناس، ولديها تفاح وموز. أجل. أعطته تفاحة وجلست تنظر إليه صامتة، أخذها معه إلى البيت. فكّر هل يأكلها أو يلقي بها. وضعها جواره فوق السرير ونام. ظلت فوق السرير حتى تعفنت فألقى بها من النافذة، وسكت طويلاً ثم قال لمجد الدين «إذا مت فادفني في البلد..».

* * *

ـ عندك كام سنة يا زهرة؟

سألتها الست مريم وأجابت زهرة:

ـ عشرين.

قالت كاميليا وإيفون وأمهما في وقت واحد:

ـ أول مرة تشوفي إسكندرية؟

ـ نعم.

وسألتها الست مريم:

ـ وزوجك لماذا لم يرتح اليوم من السفر؟

ـ هو هكذا لا يحب الكسل؟

ـ ربنا معاه، لا أحد يجد عملاً بسهولة الآن..

ـ ربنا موجود.

ودفعت زهرة مائة وستين قرشاً إيجار شهرين للغرفة، ودخلتها فوجدتها واسعة، لكن شباكها على منور صغير وليس على الشارع. قالت في نفسها لا بأس، فهي تشعر بألفة مع هذه السيدة وبناتها، وسألتها الست مريم ما إذا كانت معها نقود أخرى لتأثيث الغرفة فأجابت بالإيجاب، فسألتها ما إذا كانت تحب أن تفعل ذلك اليوم، ففكرت زهرة قليلاً ثم قالت لنفسها، ما الذي يمنع أن يعود مجد الدين ليجد الغرفة مؤثثة وجديدة. وافقت. فقامت الست مريم ودخلت الغرفة الداخلية لترتدي ملابس الخروج. رأت زهرة بسرعة في الغرفة الداخلية سريراً نحاسياً بأعمدة عالية محاطاً بناموسية بيضاء، تماماً مثل سريرها في البلد، إلا أن سرير البلد ظهر عليه الصدأ في أكثر من موضع بالأعمدة، ستشترى واحداً مثله اليوم.

كانت الست مريم قد أغلقت الباب بسرعة، وعادت البنتان تنظران إلى

زهرة في استغراب، مما أشعرها بالخجل هذه المرة، فطامنت رأسها وراحت تنظر إلى الكليم السادة فوق الأرض تبحث فيه عن خطوط وألوان لا تراها. قامت كاميليا بسرعة وفتحت الصوان الصغير تحت الراديو الساكت، وأخرجت مجلة، وجلست جوار زهرة، وفتحتها بسرعة على صفحات تعرفها، وسألت زهرة.

ـ تعرض أسمهان؟

ـ نعم.

ـ تحبي صوتها؟

ـ لما أسمعه.

انطلقت البنتان تضحكان، وقدمت كاميليا المجلة إلى زهرة قائلة:

ـ هذه هي صورتها.

رأت زهرة الجمال الطاغي لوجه أسمهان الذي لم يسبق لها رؤيته، وقالت بهدوء وهي تتأمل العينين الناعستين، وطابع الحسن المميز لوجه أسمهان:

ـ هي حلوة قوي كده؟

لكن كاميليا قفزت بالأسئلة:

ـ عندكم راديو في البلد؟

ـ عندنا ثلاثة، واحد عند العمدة، وواحد في القهوة، وواحد في بيتنا.

وبان على وجهها شيء من الألم، وسكت الجميع، ومسحت زهرة دمعة في عينيها قبل أن تتكون، لكن كاميليا قلبت المجلة إلى صفحة أخرى بها امرأة مشرقة الوجه، على شفتيها المكتنزتين صبغة ثقيلة بنية، وترتدي فستاناً ضيقاً يبرز تفصيلات جسدها بطيش ونزق، وقالت:

ـ وهذه هي إستر وليامز. هل عندكم سينما في البلد؟

وخرجت الست مريم في اللحظة نفسها من الغرفة ضاحكة تقول لزهرة التي بدأت ترتبك:

ـ كاميليا شقية يا زهرة.

لكن زهرة لم ترد. انجذبت إلى الفستان الأسود الذي لا يصل إلى قدمي الست مريم وإلى البيشة ذات اليشمك الذهبي على أنفها، ووضعت الطفلة شوقية على الكنبة وقالت:

ـ أول مرة أترك شوقية.

سنعود بسرعة قبل الغداء، كاميليا ستعتني بها، تتغدى معنا اليوم، أم أنت لا تحبين أكل القبط؟

ارتبكت زهرة قليلاً. أدهشها أنها لم يسبق أن أكلت أو شربت شيئاً عند فريال الخياطة في البلد، طالما سمعت وهي صغيرة كلام النساء عن الرائحة غير الطيبة لأكل القبط. وقالت بهدوء:

ـ أنتم طيبون ولا بد أن أكلكم طيب.

فأخذتها الست مريم من يدها برفق وخرجتا. . .

* * *

تمشي الست مريم على الرصيف بثقة، بينما لا ترفع زهرة عينيها عن الأرض غير المرصوفة، لذلك تتأخر عنها خطوتين أو ثلاث. الشارع المفروش بقطع الدبش البيضاء يتعذر المشي فيه، والرصيف كذلك لم يتم تبليطه بعد، وهو أعلى من الشارع تحده قطع البازلت المستطيلة، ومفروش بالرمل وبالأحجار الصغيرة تمهيداً للبلاط. خذي بالك هنا حفرة بالوعة، هنا محبس مياه. تقول الست مريم بين حين وآخر، وتتوقف زهرة لحظة، لتتجاوز ما ترشدها إليه الست مريم بحذر.

ـ هذا هو الترام. هل رأيته يا زهرة؟

ـ أمس بالليل.

ـ هيا نركب، احفظي النمرة ثمانية، يروح أبو وردة.

صعدنا الترام، وقادتها الست مريم إلى قسم الحريم. قالت زهرة:

ـ من أبو وردة؟

ابتسمت الست وردة وقالت:

ـ شارع في بحري.

لاحظت زهرة أن هناك ثلاث سيدات ركبن قبلهما، يرخين جميعاً البيشة على وجوههن ولا يتحدثن، وقالت الست مريم:

ـ سننزل في العطارين. هذا الترام يمشي في خط دائري. من هنا إلى العطارين ثم شارع عبد المنعم وشارع اسطنبول وصفية زغلول والغرفة التجارية، ثم المنشية وبحري من شارع التتويج، ويرجع بنفس التذكرة.. فسحة يعني..

لم ترد زهرة التي لم تفهم كيف يمضي الإنسان كل هذا الوقت بالترام. بدا لها أن لا عمل هنا للنسوان! وابتسمت وتحرك الترام فارتبكت للحظة، ودق قلبها بعنف. كيف حقاً تخرج من البيت دون إذن زوجها؟ وكيف تركت ابنتها مع ناس تلتقيهم لأول مرة؟ وهل يكفي قول البهي عنهم إنهم طيبون؟ متى كان البهي يقول شيئاً نافعاً؟ لكنها لم تستطع أخذ قرار بالعودة، خطف عينيها الفضاء الأبيض واستسلمت له. إلى أين تأخذها هذه المدينة حقاً؟ وتركت نفسها تتطلع إلى البيوت التي لا ترتفع عن طابقين أو ثلاثة، أبوابها الضيقة المفتوحة على الصمت. واجهاتها القديمة معلّق بشرفاتها غسيل عشوائي قليل. محلات قليلة فتحت أبوابها. لاحظت أن الست مريم، دفعت للكمساري قرش تعريفة، وأخذت مليماً وتسكرتين، ولما رأتها الست مريم تتطلع إلى واجهة عريضة لأحد

المحلات التي وقف الترام أمامها، واجهة تعرض الأواني، والأدوات الصينية والزجاجية الجميلة قالت إنها محلات أحمد إبراهيم، أشهر المحلات في كرموز وراغب، إنهما يمكن أن تشتريا منها ما تحتاجه زهرة، بعد العودة من شراء الأثاث..

ذابت زهرة مع الحركة البطيئة التي تدب في الشارع حولها، ومع صعود ونزول الركاب من الترام وداهمتها رائحة عجيبة فجأة، فرأت نفسها وسط شارع مكتظ بمحلات اللحوم، وعربات فوقها الكوارع، ولحمة الرأس و«عفشة» البهائم وذبائح صغيرة معلقة على واجهات المحلات عليها أختام حمراء ظاهرة، وزحام من النساء بالملاءات اللف.

ـ هنا ننزل، هنا باب عمر باشا، نعبر شارع الخديوي وندخل العطارين.

نزلتا وزهرة زائغة العينين، بدأ هواء منعش في شارع الخديوي يهدهدها، لاحظت أن اللون الكابي يغلب على الدور الأولى للبيوت. وبدأت تظهر محلات العطارين مفتوحة كلها، وطويلة من الداخل أشبه بالورش، رفعت زهرة رأسها أكثر من مرة إلى شرفات البيوت.

البيوت هنا عريضة ضخمة، وترتفع قليلاً عما رأته من قبل، وأبوابها واسعة وراءها فراغات كبيرة، مكتظة بالعلب والكراتين، وأشياء أخرى مرصوصة لا تعرفها. الشرفات جميلة، مسنودة على دعامات من حيوانات منحوتة، أسود صغيرة ونمور وكباش، وجدران الشرفات من أسيجة حديدية سوداء وخضراء لامعة. نساء قليلات يقفن في الشرفات ينشرن ثياباً أو يجلسن في الشمس. كثيرات منهن عجائز، تركن شعرهن الأبيض والمحنى، وكشفن عن أذرع بيضاء مترهلة، تظهر من خلف الأسيجة. من الأرض كانت زهرة تشم رائحة الماء المرشوش أمام المحلات. في أكثر من زقاق ضيق لمحت مقاهي صغيرة يجلس فيها واحد أو اثنان. يشربان

الشيشة أو يقرآن الصحف. فجأة مرت أمامها «دُفعة» من الفتيات الصغيرات الجميلات، يضحكن وقد ارتدين البنطلونات الملونة الضيقة وفوقها بلوزات ضيقة أيضاً وقد ملأن وجوههن بالأحمر والأبيض، وقصصن شعرهن «ألاَ جرسون» فاندهشت كيف تقصّ الفتيات شعرهن على هذا النحو الرجالي، أدركت الست مريم حيرة زهرة فقالت لها «ما تخديش في بالك»، وسمعت زهرة نداء من داخل أحد المحلات «يا عزيز يا عزيز امتى نبقى انجليز» سمعت الفتيات الصغيرات ينطلقن في الضحك الصاخب، وتقول إحداهن «بعينك يا روح أمّك، ولو بقيت فرنساوي» وشمت زهرة رائحة تبغ كثيفة، ورأت أمامها دكاناً ذا واجهة حمراء، عليه كتابة سوداء كبيرة، وعلى بنكه ميزان، وخلفه رجل يجلس يدخن الشيشة، وعلى أرفف المحل كراتين صغيرة، وعلب سجائر كثيرة. وتعددت المحلات ذات الواجهة الحمراء، كأنها علامة مميزة لمحلات الدخان، وأشارت الست مريم إلى شارع تهل منه رائحة السمن وجوز الهند والسكر، وقالت «هنا بياصة الشوام، كلها حلوانية، وشارع الليثي أشهر شارع أنتيكات في إسكندرية، يبيع تحفاً فرنساوي، ونجفاً بلجيكي، وساعات سويسرية، وكراسي طليانية، وحاجات غالية من كل الدنيا» كانت زهرة تفكر في الوجه الخواجاتي القوي، للرجل الذي رأته يدخن الشيشة في محل الدخان. واندفعت امرأة خارجة من زقاق جانبي، بقميص نوم أبيض، تسوق رجلاً من قفاه، ودفعته إلى الشارع بعد أن ضربته على قفاه ضربة قوية، ثم وقفت لحظة تنظر حواليها، حافية منكوشة الشعر، يطل من عينيها المتعبتين الشرر، وعادت تدخل إلى الزقاق الذي كانت ثلاث نساء متبرجات قد ظهرن في حلقة، ووقفن يتابعنها وهي تطرد الرجل، ثم عُدن خلفها إلى قلب الزقاق. صبي مقهى صغير كان يمر حاملاً صينية، فوقها فنجان قهوة، وكنكة صغيرة، وكوب ماء، كاد يصطدم بالرجل المضروب الذي وقف يترنح، لكنه تفاداه

بمهارة، وضحك وهو يهتف «هنا الضرب على القفا يحلي». ومشى الرجل المترنح ناحية زهرة التي جفلت، واختبأت خلف الست مريم، التي بسرعة انحنت، وخلعت الشبشب من قدمها، ولوحت به للرجل الذي عاد إلى الخلف في هدوء ضارباً لهم تعظيم سلام، والباعة في واجهات المحلات يضحكون.

مرّت الست مريم وزهرة من شارع الليثي، وخطفت العاديات بصر زهرة، كذلك العدد القليل من الرجال والنساء، الذين يتحركون ببطء ورشاقة بين التحف يعاينونها ويتفرجون عليها. وارتفعت في الجو رائحة «الجملكة» و«الأستر» و«الكحول والبويات»!

ـ خلاص. دخلنا الشارع العربي، ستجدين موبيليا من كل صنف.

ولاحظت زهرة أن أحد الأزقة، مفروش كله بالأحذية، من كل لون وصنف على المناضد العالية والمنخفضة، والرصيف. ولاحظت زقاقاً آخر طويلاً، مفروشاً بالملابس القديمة، ومعلقاً على واجهاته قمصان وجواكت وبلاطي قديمة، ورائحة مكتومة تهل منه، ودخلتا شارعاً قصيراً، غير واسع وغير ضيق، أمام أبوابه مقاعد مرصوصة، صالونات وأنتريهات، خشبية ومكسوة، ومقاعد خيزران، وصبية صغار يمشون عليها بالمنافض الريش.

ـ صباح الخير يا مقدس وليم.

ـ صباح النور يا ست مريم.

يعرفها بالاسم، فكرت زهرة، وأدركت أنه هنا يمكنها أن تجلس قليلاً. هي محتاجة لذلك، إذ كادت تصرخ طالبة ترك الحي كله.

المقدس وليم في حوالي الخمسين، قصير قوي البنيان، يرتدي جلباباً بلدياً نظيفاً، وعلى رأسه طربوش.

ـ عاش من شافك.

قال ذلك وهو يقدم كرسين، للست مريم وزهرة التي جلست على الفور. رائحة الأرضية الأسمنتية المرشوشة منذ قليل بالماء تصعد إلى أنف زهرة ورائحة البخور التي تأتي من الداخل العميق المظلم للمحل تريح أعصابها، وظهر صبي صغير، فقال له الرجل:

ـ هات بسرعة «سَطْل» خروب.

ومشى المقدس وليم، على أماكن بعينها في الحائط، فأضاء المحل الكبير الطويل بالنور، ولمعت في زواياه الدواليب والأسرّة والمناضد والمقاعد وغيرها من الأثاث. وسألته الست مريم:

ـ إيه الأخبار يا مقدس؟

ـ أخبار وحشة. الحرب قامت والدنيا ولعت.

ـ الحرب قامت أمس فقط يا مقدس.

ـ صار لنا شهور في رعب، والإنجليز السكرانين طفشوا الزبائن، والله فكرت أبيع المحل لواحد مغربي أو يوناني. لماذا نذهب بعيداً. أمس بالليل العيال الصيّاع مسكوا ثلاثة إنجليز سكرانين ضربوهم وسرقوا فلوسهم، جاءت أورطة بوليس من كوم الدكة، سحبوا الناس على المديرية وضربوهم على قفاهم لما عموهم ـ وضحك ـ أنا كنت هناك. رحت المديرية لأنهم قبضوا على عامل عندي. غاظني عسكري هندي واقف يقول للمخبرين المصريين وهم يضربون الناس «آجين وآجين» يعني كمان. تصوري هندي. كنت عايزة أقول له إن غاندي نفسه دايخ من الجوع علشان اللي زيه يبقى بني آدم مش عميل إنجليزي!

قالت السيدة مريم بطريقة مدربة على سماع هذه القصص:

ـ وبعدين!!

ـ سابوا الناس طبعاً. العيال الصيَّاع فص ملح وذاب.

قالت زهرة:

ـ كل واحد له يوم.

تأملها المقدس وليم وقال:

ـ إنت بنت حلال.

ومرت أمامهم امرأة عجوز ملأت وجهها بالأصباغ، وصبغت شعرها باللون الأصفر الفاقع، تحمل حقيبة جلدية حمراء رخيصة، وترتدي تحت الجوب القصير، شراباً أحمر طويلاً خفيفاً تظهر تحته عروق ساقها الخضراء. انكمشت زهرة في نفسها، وقال المقدس وليم «مسير البر يتطهر» ولم تستطع الست مريم أن تخبر زهرة أنه هنا، خلف الشوارع التي مشيتا فيها، وفي الأزقة الضيقة، تمارس كثير من النساء الدعارة. لا بد أن زهرة قد فهمت ذلك وحدها. لكن زهرة كانت بدأت تشعر بألم خفيف في ثدييها، وبقطرات من اللبن تتسرب من حلمتي الثديين، وتظهران بقعا على جلبابها. لا بد أن تعود إلى ابنتها بسرعة. وتشتري بسرعة ما تريد. وقالت لها الست مريم «في عودتنا نشتري قماش التنجيد والقطن. غداً يكون عندك فرش عروسة. مبروك عليك يا زهرة». لكن زهرة التي كانت في حاجة إلى السعادة بالفعل، كانت تشعر بكثير من الضيق والخوف من المدينة.

* * *

«اريد رجلاً عاقلاً كي اشاوره في إحدى المشكلات...

ـ ما في مدينتنا عاقل قط سوى هذا المجنون»

6

هل كان الإسكندر يعلم أنه لا يقيم مدينة تحمل اسمه خالداً في الزمان، وإنما يقيم عالماً بأسره وتاريخاً كاملاً؟ أغلب الظن أنه كان يعرف. هو لم يكن معنياً بالخلود فقط، وإنما بتغيير الدنيا.

المسافة من جزيرة فاروس ـ الأنفوشي حالياً ـ إلى راقودة ـ كرموز الآن ـ يقطعها السائر على قدميه في نحو ساعة. ولا بد أنه كان يستغرق الوقت نفسه قديماً لأنه إن لم تكن هناك مبان يدور حولها. فقد كانت الأرض مسطحاً من رمال، لذلك حين وقف الإسكندر بفرسه في راقودة رأى آخر نقطة في البحر، فاروس، فقرر أن يصل بينهما، ومات قبل أن يتم ذلك. لقد كان بطليموس الأول، وخلفه الثاني، هما اللذان أنجزا بناء الإسكندرية. وضع الإسكندر حجر أساس المدينة وأوكل مهمة تخطيطها إلى دينوكراتيس البارع في الهندسة، فخططها مثل رقعة من الشطرنج. شوارع مستقيمة من الشمال إلى الجنوب، تقطعها شوارع مستقيمة من الشرق إلى الغرب. لماذا حقاً جعلها مثل رقعة الشطرنج؟ هل كان يقصد أن تكون مسرحاً للعب والموت؟. لقد كان أهلها في زمن أغسطس، بعد

موت كليوباترا وأنطونيو، ثلاثمائة ألفاً من الأحرار، ومثلهم من العبيد، لكن أهل الإسكندرية كانوا مغرمين بمصارعة الديكة، والتندر بالشعر على الحكام، لذلك حين دخلها نابليون بونابرت، لم يكونوا يتجاوزون الثمانية آلاف!!

الإسكندرية منذ ذلك الوقت تجري أمام الوقت! تتسع. تزدحم. يدخل رقعتها الغرباء من كل المسالك. صارت ميناء حقيقياً. قامت القصور في الفضاء الذي بين رأس التين وأبي العباس، وحفر محمد على ترعة المحمودية، ورسم المهندس اليهودي «منشَّى» خارطة تطوير المدينة، الذي لم يتوقف في عصر أبناء محمد علي، إبراهيم وسعيد وإسماعيل. ولما كثر الأجانب خرجوا إلى فضاء الرمل شرقاً، اشتروه، وبنوا فيه القصور والمنازل الباذخة، قامت فوق البحيرات الصغيرة، جنوب وشرق المدينة، قرى ريفية بالرمل والسيوف والمندرة والحضرة، تآكلت بعد ذلك بدورها، وصارت أحياء مزدحمة، بالوافدين الفقراء من شمال وجنوب البلاد.

لكن المدينة ظلت تتقدم، احتل الغرباء، الأجانب شمالها، واحتل الفقراء جنوبها، وحين قامت سكة حديد ترام الرمل، ازداد العمران شرقاً بشمال، كما كانت السكة الحديد، بينها وبين القاهرة، طريقاً سهلاً للضائعين، والباحثين عن الثروة من الدلتا والصعيد.

بين الأجانب مئات وآلاف من شذاد الآفاق يأتون إلى المدينة العالمية حتى صارت كبرج بابل، ومن أهل البلاد آلاف من الضائعين مثل مجد الدين سبقوه إليها وسوف يلحقون به.

لم يعد الشمال كافياً للأجانب فزحف فقراؤهم، من اليونانيين واليهود والطليان والقبارصة، إلى بعض الأحياء الشعبية، كالعطارين واللبّان،

واقتربوا واختلطوا بأهل البلاد الذين يستوطنون الجنوب، وها هو مجد الدين يصل الإسكندرية وهي تقف على قمة العالم. لقد أضيف للغرباء من أوروبا، الجنود من أوروبا وسائر دول الكومنولث، وهو، الفلاح المطرود.. !

لا يزال مجد الدين يخرج من بيته كل صباح، باحثاً عن عمل وسط عالم يغلي فوق بركان. أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا بعد يومين من هجوم الألمان على بولندا، وتم تأليف وزارة حرب تولى فيها تشرشل وزارة البحرية، وأعلنت فرنسا بدورها الحرب على ألمانيا. والملك الصغير، فاروق، الذي لم يصل إلى العشرين بعد، لا يزال يتنقل بين قصري رأس التين والمنتزه، ولا يزال الوزراء في مقرهم الصيفي ببولكلي حتى اضطر أحد قراء جريدة الأهرام أن يوجّه نداء للملك والوزراء بالعودة إلى القاهرة، لأن موظفي الدولة، ابتداء من وكلاء الوزارة، حتى أصغر موظف في الدواوين الحكومية، لا يستطيعون أخذ أي قرار، فتعطلت مصالح الناس في «زمن صعب» على حد تعبيره.

في الإسكندرية قدم سفير ألمانيا إلى صاحب الدولة، علي ماهر باشا، خطاباً يعلن فيه أن حكومة ألمانيا لا تريد لمصر إلا كل الخير، إلا أن حالة الطوارىء أعلنت في مصر كلها، وانتشرت بالإسكندرية قوات البوليس، وبلوك النظام، «ربما أيضاً لأن الملكة فريدة، احتفلت بعيد ميلادها، في الخامس من سبتمبر، في قصر رأس التين، الذي توافد عليه كبار رجال الدولة». وتم توزيع المنشورات والملصقات، في كل أرجاء البلاد باللغتين الفرنسية والعربية، تعلن للناس حالة الطوارىء، وجاءت الأخبار عن استمرار الاضطرابات والمناوشات بين العرب واليهود في فلسطين، بعد أن تمكن البوليس من القبض على ألف يهودي، من الذين أرسلتهم السفينة، التي كانت تحمل ألفاً ومئتين سراً إلى الساحل، وأعلن

رئيس وزراء مصر، أن حياد إيطاليا هو الذي يبعد الخطر عن مصر، فأعلن وزير إيطاليا المفوض في مصر، تأكيد صداقة حكومته لمصر، وشعبها، وانقسم الناس بين مؤيد لدخول الحرب مع إنجلترا ومعارض لها. بين مشجع لإنجلترا وحليفتها فرنسا، ومشجع لألمانيا وهتلر الداهية، وأعلنت الدولة المصرية أنها ستوفي بتعهدات معاهدة 1936 لإنجلترا، ولكنها لن تشترك بجيشها في الحرب، ولم يمنع ذلك الملك، من إصدار مرسوم ملكي بتكوين جيش مرابط جديد، يكون قائده عبد الرحمن بك عزام وزير الأوقاف وتكون مهمة هذا الجيش حماية المنشآت في السلم والحرب، ودعم الجيش الأساسي بالمؤن والعتاد في الحرب، والمشاركة معه، إذا اقتضت الحال. وجاء في مرسوم إنشاء هذا الجيش الذي اعتبر الملك قائده الأعلى، أنه يتكوّن من الذين بلغوا سن التجنيد، ولم يقبلوا بسبب عاهة خلقية أو مرضية. لقد أثار دهشة الناس تكوين هذا الجيش المشوه وخضوعه لوزارة عملها البر والإحسان. ورغم اليقين بابتعاد الحرب عن مصر، بدأ الحديث عن الغلاء يزداد وانخفضت الأسعار في البورصة، وبدأت فترة رواج للتجارة مع المعسكرات الإنجليزية. لكن الناس ظلت تعيش حياتها، فالملك والوزراء ما لبثوا أن عادوا إلى القاهرة، وفي الإسكندرية ظل الإقبال على ورق يانصيب مؤسسة المواساة، وازدحم المشاهدون أمام سينما الكوزمو، ليشاهدوا تشارلز لوتون وموررين أوهارا، في فيلم «أحدب نوتردام»، وتم وضع الملاجىء تحت إشراف وزارة الشؤون الاجتماعية بالاتفاق مع بلدية الإسكندرية، وأعلنت بِبا عز الدين أنها ستقدم في الصيف القادم أيضاً عروضها بالإسكندرية، على مسرح ديانا بمحطة الرمل، واستضاف كازينو الشاطبي فرقة من الآنسات اللبنانيات، لتقديم رقصة الدبكة، في الحفل السنوي للجمعية الخيرية المارونية، وامتلأت الميناء الشرقية بالسفن الحربية والبحرية، وأقيمت معسكرات في مناطق مصطفى كامل وسيدي

بشر، وشهدت نسمة العصاري عربات الحنطور، وهي تحمل الجنود وبنات الليل السكندريات، الوطنيات واليونانيات واليهوديات والأرمنيات وغيرهن، وهنّ يتنزهن على الكورنيش. لم يكن جنود الإمبراطورية يتوغلون كثيراً في المدينة. كانت النساء هن اللاتي يأتين إليهم. وامتلأت الخمارات الكبيرة والصغيرة، الغنية على الكورنيش، والفقيرة في أزقة بحري والمنشية، بالجنود الأستراليين والنيوزيلنديين والهنود الذين اختلطوا مع قباطنة السفن وبحارتها وعمال الوقود الأقوياء والقوادين الذين يعرفون الطرق المظلمة الضيقة العفنة إلى البيوت النخرة التي تقشر بلاطها وسكنت سقوفها الخشبية الفئران وعلى مداخلها جلست العجائز ذوات الشعر الأحمر يدخن النارجيلة ويسمحن للزبون للمرور بعد أن يعاين الفتيات الصغيرات، اليهوديات والأرمنيات والسكندريات أيضاً، اللاتي ينسكب الضوء الأبيض من لحمهن اللامع من وراء غلالات قمصان النوم القصيرة البائسة. بيوت بحري المفتوحة على الميناء أو القائمة خلف شارع التتويج، وبيوت العطارين المختفية خلف المحلات، أو بيوت الفراهدة وباب الكراستة أو «كوم الناضورة»، التل الذي أقامه «كافريللي» مهندس نابليون ذات يوم ليكون إحدى نقاط الدفاع عن المدينة!

* * *

كل صباح، مبكراً للغاية، يرى مجد الدين أكثر من ترام يقف في دوران سيدي كريم، الناس يصعدون إليه ويجلسون في صمت ينظرون من خلف زجاج النوافذ المغبشة بالندى الساقط عليها عند الفجر. كان مجد الدين لا يستطيع أن يمنع التفاتة منه إلى قسم البوليس الذي يتربع عند نهاية الدوران ويقرأ لافتته كل صباح. «نقطة بوليس غيط العنب». لماذا لا يستطيع أن يكف عن ذلك؟ لا يدري.

كان هناك كثيرون لا يركبون الترام. يأخذون طريقهم صاعدين المنحدر

الصغير عابرين الكوبري. يتخلف منهم عدد أمام وابور الطحين، كما سبق وتخلف عدد أمام الوابور الموجود بشارع البان، ويستمر الآخرون في طريقهم الذي عرفه مجد الدين، يتوزعون على شاطىء المحمودية. من الجنوب يذهبون شرقاً إلى شركة غزل ونسج محرم بك، ومن الشمال يتوزعون شرقاً وغرباً إلى معامل الثلج، أو الزيوت، أو شركة الغزل الأهلية بكرموز، وسيمشي مجد الدين غرباً كثيراً بعد ذلك، ويعمل في شركات زيوت وصابون، وكُسْب ومخازن حتى يصل إلى ميناء البصل ليعمل في شركات محالج وكبس القطن. ذلك كله سيكون فيما بعد. الآن هو لا يعرف شيئاً عن هذه المصانع الكائنة بكفر عشري ومينا البصل. هو الآن محصور بين راغب وكرموز.

لم يحب أن يقف للعمل في وابور الطحين، الأول أو الثاني. ماذا يمكن أن يعمل في وابور الطيحن وهو الفلاح المزارع؟ وماذا يمكن أن يعمل في غيره؟ لا بد أنه فقط يريد أن يعمل في مكان بعيد عن البيت. ولا يزال يصرّ على الخروج مرتدياً جلباباً جديداً نظيفاً، وجزمة أجلسية لامعة كان يحتفظ بها دائماً للسفر.

في ترعة المحمودية يشاهد أكثر من سفينة تبحر على مهل، داخلة إلى الميناء أو عائدة إلى الجنوب، كما يتوقف أكثر من صندل بعيداً خاصة أمام الشركات. هناك دائماً معدية مركونة إلى الشاطىء بالقرب من الكوبري، تعمل حين ينفتح الكوبري للسفن فتنقل هي الناس من الجهتين. نادراً ما يشاهد نساء في الصباح الباكر. كل صباح يداخله فجأة يقين بأنه سيقابل أحداً يعرفه، ولا يقابل أحداً. والحقيقة أنه يتمنّى لو حدث ذلك. إنه يحتاج إلى أحد يأخذ بيده في هذه المدينة. البهي لم يعد يصلح لشيء. يمضي اليوم على المقهى. أما كيف يعيش ومن أين يحصل على المال فهذا ما لا يصدقه مجد الدين. قال البهي إن في غيظ العنب

أكثر من مائة شخص من قريته، يعرفهم هو واحداً واحداً، ويعرف لماذا تركوا القرية إلى الإسكندرية، أي فضائح ارتكبوها قبل رحيلهم، وأنه فرض عليهم أتاوة بواقع خمسة قروش يدفعها الواحد منهم له كل شهر، وهكذا يفوز بخمسة جنيهات، منذ شهرين تمردوا عليه، ذهبوا إلى نقطة البوليس واشتكوه للمأمور، الذي نظر إليه غير مصدق أن مائة شخص يخشون هذا الوقف أمامه. طردهم المأمور، وخارج النقطة قرر البهي أن يدفع كل منهم عشرة قروش، والآن صاروا عزوته، وهو يريد أن يقودهم لهزيمة أبناء قبلي. يتذكر مجد الدين كلام البهي ولا يصدق، ويظل يستمع لنداء أحد يعرفه ولا يتحقق النداء، وتتعدد الصباحات، والبحث عن العمل. كل يوم يرى الناس حفاة عراة الرؤوس، أولئك الذين يمشون أو يهرولون معه يبحثون عن عمل وكل يوم يلاحظ أن شاباً بعينه يتعمد أن يقترب منه، يبدو تائهاً لا تستقر حدقتاه على حال. تدور عيناه بشكل لم يسبق لمجد الدين أن رآه، وعندما تكلم وقال «كن يوم عني دانحان» أدرك مجد الدين أنه أخنف أيضاً، وعادة يبدو غاضباً للحظة حين لا يفوز بعمل ثم يبتسم ويبدأ يهرول مع الباقين، لكنه يقترب قاصداً من مجد الدين الذي للحظة فكر أن عدم اختياره للعمل هو بسبب وقوف هذا النصف المعتوه جواره، لكنه يعرف أن هؤلاء أولاد الله المباركين فاستغفر الله العظيم. ينحرف إلى اليسار لأن الأغلبية تنحرف بعد عبور الكوبري إلى اليسار. يتوقف مع المتوقفين أمام باب معدني كبير لأحد المصانع.

ـ ما نوع الشغل هنا؟

ـ ثلج.

ـ ماذا نفعل في الثلج؟

ـ نقوم برصه أو نقله إلى العربات الثلاجات التي تقوم بتوزيعه، هذا المصنع سيغلق الشهر القادم، إنه لا يعمل في الشتاء.

يخرج أحد العاملين بالمصنع. ينظر إلى زحام طالبي العمل، يختار عدداً قليلاً ليس من بينهم مجد الدين. لاحظ مجد الدين أن معظم الباحثين عن عمل مؤقت ممزقو الثياب، فضلاً عن حفائهم، فأدرك أن العمل شحيح للغاية، لذلك لم يشأ أن يغير جلبابه الجديد وحذاءه اللامع. لن يظهر بمظهر رث أبداً. وحين يجد عملاً سيشتري الملابس المناسبة جديدة. لقد أخذت زهرة معها ثلاثين جنيهاً كان يدخرها خلال الأعوام السابقة صرفت منها عشرين الآن. اشترت كل الأثاث المطلوب. كان مجد الدين يتألم لتدافع راغبي العمل بقسوة وجهالة، حين يطلب مندوب الشركة خمسة منهم أو عدداً أقل. وكان يتخيَّر مكاناً بعيداً إلى الوراء. أمام باب شركة الغزل الأهلية، الباب المعدني الأخضر الكبير. وقف مع الواقفين كل يوم. خرج الرجل الأسود الذي يخرج كل يوم يختار العمال، اختاره وقال بصوت واثق:

ـ أنت. تعال.

تقدم مجد الدين منه. ابتسم له الرجل وقال:

ـ من الغد سأعطيك عملاً.. عليك بالحضور ببنطلون وسترة..

ووجد عملاً بالشركة في دحرجة بالات القطن، من العربات التي تنقلها من المحالج حتى بداية عنابر ماكينات الغزل، لكن العمل لم يدم أكثر من ثلاثة أيام، ثم عاد للبطالة والجري مع الآخرين. يبدأ جريهم من الساعة السادسة لينتهي في الثامنة. يكونوا قد مرّوا على كل الشركات الواقعة على ضفة المحمودية الشمالية، شركات الزيوت والصابون والثلج والغزل، وعرضوا قُوَّتهم على الصنادل والسفن الراسية على مسافات متباعدة، قادمة من الصعيد تفرغ شحناتها من القصب والفول والقطن والحبوب والبلاليص والقلل. عادة يكون هناك مقاول له أنفار يأتون معه هم الذين يفوزون بالعمل لتفريغ السفن. وإذا لحق مجد الدين أو أحد من زملائه

بالعمل يكون اليوم بعشرة قروش. في الثامنة، يتقدم مغالباً حزنه إلى المقهى المجاور للكوبري، ويجلس طالباً كوباً من الشاي، بعد لحظات يتشجع وينهض يشتري جريدة الأهرام، من الولد الصغير الذي يبيع الصحف أمام المقهى فوق صندوق خشبي صغير، دائماً يكون في المقهى وحده، ويظل يسمع صوتاً يناديه، ويخيّل إليه أنه سيقابل أحداً يعرفه، حتى جاء يوم تناول الجريدة وقدم جنيهاً كاملاً للولد البائع الذي اعتذر عن عدم وجود فكة معه. تحيّر مجد الدين وترك الجريدة لكن الولد الذي صار يعرفه، طلب منه أن يقرأ الجريدة بالمقهى ثم يعيدها. جلس مجد الدين يقرأ ويتأكد من أن الدنيا شديدة الزحام. البدء في توزيع أكياس الرمال من قِبَلْ مصلحة الدفاع المدني على المستشفيات والمنشآت العامة. إعلانات عن ساعات ماركة لونجيت، زينيت، فولكان، سهرة الراديو مع فتحية أحمد وفرقتها. قبلها في الثامنة والنصف تستمع إلى مونولوجات فكاهية لحسين المليجي ونعمات المليجي وقبلها في السابعة ما تيسر من سورة الحج بصوت طه الفشني، والملكة إلياصابات تصل إلى محطة إيستون قادمة من بالمورالي في طريقها إلى مقر باكنجهام، وارسو تختفي من الوجود، خمسة ملايين بولندي على الأقل راحوا ضحية الحرب في خلال شهر واحد. المدافع الجبارة التي لم يرها العالم من قبل تهدم وارسو. ويقول لنفسه: دنيا شديدة الزحام يا مجد الدين فإلى أين أنت ذاهب؟ ينهض ليعيد الجريدة للولد فيراه قد حمل الصحف وأطلق ساقيه للريح. يتابعه مدهوشاً فإذا بشرطي يمسك به من ذراعه وهو يقول «وكمان بتقرأ الجرنال» ويدخل شرطيان آخران المقهى يمسكان بشخصين جالسين ويساق الجميع إلى عربة شرطة مغلقة، مخصصة أساساً لنقل المجرمين بين السجون أو المحاكم. تسقط الصحيفة من يده، ويصعد إلى العربة «البوكس» التي فوق الكوبري. يشاهد عربة تسد شارع راغب، وأخريين تسدان الطريق المحاذي لترعة المحمودية من الجهتين.

يضطر الناس إذن إلى العبور على الكوبري فتتلقفهم الأخيرة، ومن يبدي مقاومة يشبعه الجنود ضرباً على قفاه، وركلاً في أي مكان.

* * *

في تخشيبة نقطة بوليس غيط العنب، تم حشر أكثر من عشرين شخصاً قبض عليهم في الصباح بينهم مجد الدين لأول مرة في حياته، وقبل أن يفكر في أي شيء وجد الشاب نصف المعتوه جالساً أمامه مع الجالسين وقد استقرت عيناه عليه في ابتسامته اللانهائية، فابتعد عنه بعينيه إلى الجدران الصفراء، التي يراها من خلال أسياخ التخشيبة العالية السوداء التي تشكل جداراً نصف دائري حولهم تتباعد أسياخه لمسافات قليلة كنوافذ السجون.

مبنى النقطة دائري يفتح بابه الرئيسي على دوران الترام، حوائطه صفراء عالية، وبالداخل يجلس أومباشي كثيف الحاجبين، خلفه طاولة من الخشب الأسود القديم، وثلاثة جنود لا يكفون عن الحركة، وفي ركن بنادق معلقة على الحائط، وفي ركن آخر باب مغلق يفضي إلى غرفة المأمور، والأومباشي يركز نظره على مجد الدين، ثم يأمر أحد الجنود أن يفتح له باب التخشيبة، ويشير إليه أن يتقدم نحوه.

ـ ما اسمك؟

ـ مجد الدين خليل سليمان.

ـ شكلك مختلف عن الصيّاع يا مجد الدين، لماذا لا تحمل معك بطاقة شخصية؟

ـ أنا نسيت البطاقة في البلد؟

ـ بلد. أي بلد؟

ـ بلدنا. أنا وصلت إسكندرية من أيام فقط.

ـ أنت فلاح.

ـ أجل.

ـ زيارة أم إقامة دائمة؟

ـ إقامة بإذن الله.

ـ طيب معك خمسة قروش؟ كل من يدفع للحكومة خمسة قروش يخرج.

ـ معي. لم يطلب مني أحد شيئاً.

هكذا قال مجد الدين كأنه يتنفس الصعداء، مدّ يده في جيب صدارة تحت الجلباب، وأخرج الجنيه الذي معه وقدمه للأومباشي. كانت الساعة قد دخلت في الثانية ظهراً. مضت ست ساعات وهو محشور في التخشيبة صامتاً مع المحبوسين. قال الأومباشي إنه لا يملك «فكة الجنيه»، وأرسل أحد الجنود «ليفك» من كمسارية الترام ووجد الأومباشي مجد الدين لا يتحرك فسأله:

ـ لماذا لا تعود إلى التخشيبة؟ خائف على الجنيه.

وجد مجد الدين نفسه يقول:

ـ لا. لكن هذا الولد المسكين الأبله، لماذا يبقى معنا؟

تأمله الأومباشي لحظة ثم ابتسم وقال:

ـ سنأخذ منك عشرة قروش إذن ونخرجه ما دمت تريد ذلك.

وقام من خلف مكتبه إلى التخشيبة وسحب من بين الجالسين الولد الأبله الذي ظل ينظر إلى مجد الدين بابتسامته اللانهائية ويلوي عنقه يتابع النظر إليه حتى خرج من النقطة، وعاد مجد الدين يجلس بين المحبوسين الذين أغلق عليهم الأومباشي الباب بالقفل هذه المرة.

ـ أخذ منك جنيه؟

ـ لا. طلب خمسة صاغ. الجنيه ليفكه ويعطيني الباقي.

ـ إذن معك خمسة صاغ؟

ـ طبعاً معي جنيه كما رأيت.

ـ هل تصدق أننا جميعاً محبوسون من أجل خمسة صاغ. من أيام صدقي باشا وأي واحد يمشي بدون بطاقة يدفع خمسة صاغ غرامة. لو فيه خمسة صاغ مع أي واحد هنا لم يكن قد خرج للعمل. أي والله. وأنت تبحث عن عمل ومعك جنيه.

اندهش مجد الدين من كلام محدثه. فكر للحظة أن يدفع الجنيه لهم جميعاً ثم عدل عن الفكرة. إنه يحتاج إلى كل مليم الآن. قال:

ـ وكيف ستخرجون؟

ـ مثل كل مرة، في المساء يأتي شيخ الحارة يستدل علينا ويَضْمَنَّا ونخرج.

وحطّ صمت من جديد. تأخّر العسكري، وجلس مجد الدين القرفصاء، واضعاً مرفقيه على ركبتيه، وأراح رأسه بين كفيه. البهي هو الوحيد الذي يمكن أن يخلصه من هذه الورطة.

بدأ يداخله شعور بأن الأومباشي أوعز للعسكري ألا يعود بالجنيه. ماذا يحدث لو حلّ المساء ولم يعد؟ كيف سيكون حال زهرة؟ كعادته في الأزمات سلم أمره لله، وجلس على مقعدته، ووجد مكاناً يمد فيه ساقيه، وأغمض عينيه للحظة، فوجد نفسه يمشي فوق سطح قطار سريع، وحوله جنود من كل سحنة، يتحدثون بكل لغة، يحملون بنادق كأنها رماح ويمشون في رمال تغوص فيها أقدامهم فوق سطح عربات القطار، وفوقه وفوقهم طيور سوداء ضخمة لا يعرف أسماءها..

فتح عينيه في دهشة من هذه الرؤيا الخاطفة، وواجهته أقدام

المحبوسين معه الممدودة أمامه أيضاً. أقدام مرتكزة على كعوبها، ومتساندة بعضها على بعض أو متباعدة، أقدام كبيرة بدت له في البداية أحذية، ثم تبيّن أنها أقدام عارية منحوتة من أسفل، سوداء الباطن كلها عاليها وسافلها. بعض الكعوب بلغ به التشقّق أن تهدلت منه شرائح الجلد الناشف المبروم، تحتاج إلى أصابع تشدها، لكن صاحبها لا يفعل ذلك. أصابع الأقدام لها نتوءات بارزة من أعلى، أكثر من نتوءين للأصبع الواحد. أظافر سوداء طالت والتوت إلى أسفل فكست الأصابع من الأمام، تصد عنها غوائل الطريق. ها هي قدم بها أربعة أصابع، وأخرى بها ست، الأصبع الصغير السادس متدلٍ من الجانب، كطفل معلّق على جانب أمه يكاد ينزلق واقعاً على الأرض. العجيب أن هذا الأصبع السادس نظيف. قدم قريبة تنتهي بلا أصابع. قدم مصمتة مجزوزة بسكين، تكرمش جلدها الأمامي. قدم مثل مستطيل قديم من الخشب، رآها مجد الدين مثل فم بلا أسنان!! في كل الأقدام تقريباً، حول بز القدم، هالة زرقاء أو سوداء أو حمراء.

ـ هذه الجزمة التي في قدميك ألا تضايقك؟

فوجىء بالسؤال من الرجل المجاور له. هل رآه وهو يتأمل الأقدام الحافية؟ ربما. وربما يريده أن يخلع الحذاء فيسرقه. إنه هو محدثه السابق، فليتأمل وجهه جيداً.

وجه متعب بحق. بشرة تميل إلى الاحمرار قليلاً لكن بلا نضارة والتدقيق فيها يوضح سوء التغذية والهزال. الوجه نحيل يحمل أنفاً مدبباً، والأنف صغير والفم، والشارب أشبه بالزغب، وأعلى الوجه عينان عسليتان ضيقتان، وأعلى الرأس شعر أسود مدرج بمشط واسع، وبدأت شعيرات بيضاء تظهر، والرجل بشكل عام يحمل عذاباً غامضاً، ولما لم يرد مجد الدين استمر الرجل:

ـ رأيتك تنظر بتمعن إلى الأقدام، الحفاء هنا ليس مجرد فقر، أحياناً يكون هواية.

اتسعت عينا مجد الدين واستمر الرجل في الحديث:

ـ تريد أن تعرف كيف يهوى المصريون الحفاء؟ تعرف إذا خلعت جزمتك. ألا ترتاح إذا خلعت جزمتك؟

ـ أرتاح طبعاً.

أجابه مجد الدين باسماً فاستمرّ الرجل:

ـ إذن هناك من يحب أن يكون مرتاحاً من البداية!

كان الصوت مرتفعاً قليلاً، فراح بقية المحبوسين يتابعونه ضاحكين، واستمر الرجل:

ـ عندما تدخل بيتاً ليس فيه كراسي هل تستطيع الجلوس على الأرض والجزمة في قدميك، طبعاً لا، تخلع الجزمة، نحن بيوتنا كلها بلا كراسي.

هنا اضطر مجد الدين أن يضحك مع الآخرين، الذين جلجلت ضحكاتهم، فنهرهم الأومباشي، وتذكّر مجد الدين الجنيه، فنظر إلى الأومباشي الذي صرخ قائلاً أن ينتظر «ابن الكلب العسكري» واستمر الرجل يتحدث إلى مجد الدين.

ـ الأهم أن الجزمة تدوب، ويضطر الإنسان لشراء أخرى. الحافي مرتاح. كل شهر يطلع له جلد جديد في قدميه، يعني جزمة جديدة، لولا الملامة كان الواحد يبيع منها! طبعاً. اثنتا عشرة جزمة في السنة مجاناً نعمة من الله. الواحد لا يستطيع أن يشتري جزمة واحدة بعشرين قرشاً.

ارتفع الضحك إلى صخب، وعاد الأومباشي ينهرهم، وكان مجد الدين قد انجذب تماماً إلى الرجل النحيل صاحب الحديث العجيب. هذا

الرجل سيكون صاحبه لوقت طويل. لا بد أنه سيلقاه في طريقه كثيراً. يبدو أنه هو الذي كان يسمع صوته يناديه في كل صباح باكر. لقد أطلت من عيني كليهما دموع أفرزها الضحك البهيج. كذلك بقية المحبوسين.

وحطّ فوقهم الصمت من جديد، وسكت كل شيء كأنما هي لحظات خشوع مرسلة من السماء، ليسمعوا صوت الرجل نفسه، الذي كان يحدث مجد الدين، وهو يتلو بصوت خفيض، معجباً بالكلمات، مندهشاً من معانيها الحزينة.

«يا مجلس إسكندرية طال عليك صبري»

«أكلمك بالروميكا، ولا بالعبري؟

«تأخذ فلوس الناس تبعثر فيها على الكوبري»

بدل ما تاخد فلوس الناس تعال خد...»

ولم يقل الكلمة التي توقعها الجميع. سكت فانقشع الصمت بطلقات الضحك التي زلزلت أركان النقطة. وهاج الأومباشي، وفزع عدد من العساكر وتراخى الضحك إلى ما يشبه الحشرجة.

لكن ثلاثة عساكر اندفعوا إلى الداخل مفزوعين، يمسك كل منهم في يده الحزام الجلدي العريض الذي كان قد خلعه عن بنطلونه. بدا أنهم كانوا في معركة وخسروها. هتف الأومباشي فيهم:

ـ ما لك يا عسكري أنت وهو؟

ـ معركة كبيرة يا حضرة الأومباشي في شارع الباب؟

ـ مسلمين ومسيحيين؟

ـ لا الصعايدة والفلاحين؟

اضطرب قلب مجد الدين، واستمرّ الأومباشي يحدث العسكري المفزوع:

ـ الفلاحين ليس لهم في العراك، بعد قليل تنتهي بسلام.

ـ لا. هذه المرة لا، البهي خليل عامل زعيم، وحالف ليكسر شوكة الصعايدة.

ـ هناك إصابات يا عسكري؟

ـ كتير.

كاد مجد الدين ينهار حين سمع اسم البهي. أمر الأومباشي العسكري أن يجمع بقية زملائه من غرفتهم الملحقة خلف النقطة ويحملوا السلاح، وبدوره راح يدق التليفون طالباً مديرية الأمن. تحدث طالباً قوة من جنود بلوك النظام، ثم وقف وتقدم من التخشيبة وفتح بابها صارخاً:

ـ هيا أخرجوا، القيامة قامت يا ولاد الكلب..

كان أسرعهم إلى الطريق مجد الدين.

* * *

«من كل بلد لبلد فردت قلعي بقماشي

الريح ليه معاكساني

غريب وصابح ماشي»

7

شارع البان صار خالياً إلا من جنود البوليس، حضرت قوة من بلوك النظام على عجل وأخذت مواقعها على الجانبين بالخيزرانات والدروع، عربة بوكس كبيرة تقف مكتظة بالفلاحين والصعايدة معاً، ولا يزال الجنود يطاردون المتشاجرين في الأزقة، ويعودون ببعضهم يقذفونه إلى العربة البوكس. النساء يتطلعن من خلف النوافذ. الرجال والشباب والصبية يقفون في فوهات الأبواب. صوت سيارة إسعاف تأتي من ناحية كرموز. امرأة تجلس منهارة فوق الأرض جوار البهي تبكي في صمت، حافية ممزقة ثيابها السوداء منكوشة الشعر ذاهلة العينين، لكنها تبكي كالعقلاء، وأخرى، شابة، تقف منتحبة في صمت أيضاً في أحضان مجد الدين، الذي راح يربت على ظهرها، وعيناه لا تفارقان وجه أخيه الجميل الذي يغطيه الدم، ما زالت عيناه مفتوحتين، إنه ينظر إلى مجد الدين. في عينيه أسف وخوف على مصيره. في عينيه اعتذار للأخ الصغير.

ـ ادخلي يا زهرة إلى البيت.

كان واضحاً أن الضربة شجت رأس البهي من الخلف، لا فائدة،

جرت المعركة أمام البيت تماماً كأن البهي كان يريد لأحد أن يراه وهو يقاتل. لم يصدق أحد قصصه القديمة، مجد الدين فقّط كان يصدقه دائماً. ما كان عليه أن يحارب أحداً اليوم. تقدم مجد الدين، وجلس واضعاً رأس أخيه على فخذه، وراح يهتزّ بألم لم يعرفه أحد من العالمين.

اقترب منه رجال الإسعاف، وضابط بوليس شاب. أصاب المرأة المقعية جوار الجنة، والتي لم يفطن إليها مجد الدين بعد، رعب من الضابط، قامت جافلة ومشت مسرعة.

ـ من هذه المرأة؟ تعرفونها؟

سأل الضابط أحد الجنود.

ـ إنها مخبولة تشاهد دائماً تمشي وراء القتيل.

لم يفهم الضابط شيئاً. اتسعت عينا مجد الدين يفكر في «بهية». سأله الضابط:

ـ تعرف القتيل؟

ـ أخي.

ـ هل تتهم أحداً؟

لم يرد مجد الدين. قال الضابط الشاب:

ـ بعد دفن الجثة يمكن لك التقدم للشهادة أو بأي اتهام.

وأشار لرجال الإسعاف ليحملوا الجثة. أخذوها من فوق ساق مجد الدين الذي لم يستطع القيام، مدّ يده للواقف جواره.

ـ خذ بيدي يا أخي.

كان هو الرجل النحيل الذي صاحبه في التخشيبة منذ قليل. مدَّ إليه الرجل يده، فنهض مجد الدين وقال الرجل:

ـ دميان. اسمي دميان. تماسك يا رجل.

تقدم منهما رجل عرفه دميان. إنه الخواجة ديمتري فلتاؤوس أحد المسيحيين المتعلمين في الحي، والذي يعمل ملاحظاً للعمال في جراج البلدية بالحضرة. لقد سبق لدميان أن طلب منه السعي، لإلحاقه بأي عمل بالبلدية، لكن الرجل اعتذر بلطف بعد شهر عجز فيه أن يجد عملاً. سأله ديمتري:

ـ هل تعرفه يا دميان؟

أجاب دميان الذي سرَّه أن ديمتري لم ينسه:

ـ أجل، إنه صديقي!

ـ إذن اركب معه الإسعاف، سألحق بكما في المستشفى الأميري في تاكسي، هذا رجل غريب.

كان مجد الدين يسمع ذلك، وعيناه لا تزالان تتابعان المرأة التي كانت جالسة جوار جثة البهي، إنها «بهية» ولا أحد غيرها، لقد صارت بعيدة الآن في نهاية الشارع. يا أرحم الراحمين.

* * *

مشت سيارة الإسعاف حاملة القتيل، مسجى فوق نقالة في الوسط، بين مقعدين طويلين يجلس على أحدهما دميان ومجد الدين، وعلى الآخر رجلا الإسعاف. لم تكن العربة مسرعة، ولم تدق جرسها الذي يفتح الزحام، لا زحام في الطريق، وهي أيضاً تحمل ميتاً!

كانت الحركة البطيئة للعربة كحركة جواد هادىء، وكحركة زورق فوق مياه رقيقة، يضرب مجد الدين البحر بذراعه، لا عصا معه، فينشق الماء عن طريق من الحشائش الخضراء فيتهادى الفرس الرقيق، يضرب مجد الدين من الغيظ الهواء فينزاح على الجانبين جدارين أملسين أبيضين زجاجيين، تتقاطر فوقهما حبات المطر الثلجية اللؤلؤية، دموع بيضاء ودم أبيض وألم، وهو يمشي وقد طار الهواء من الفراغ. ويتمزق عرقاً،

فيخلع جلبابه وصديريته وفانلته، ويبقي فقط سرواله الذي التصق به فصار شيئاً واحد. كل شيء يقفز أمامه من الجدران يتدحرج فوق الأرض. نساء جميلات وبنات أبكار وأحجار وقردة وعجائز متشحات بالسواد ووجه أليف لا يتذكره. رآه وسمعه يناديه كثيراً. تعال. تعالى يا مجد الدين فيمشي وراءه إلى أين لا يعرف، لا يستطيع العودة ولا الانعتاق من أسر الصوت الحنون، وتتدحرج أمامه كل الخيالات التي رآها من قبل، وبينها إخوته القتلى، وأبوه الميت، وأمه العمياء، وأخواته البنات، وأولاد عمه، وكل عائلة الطوالبة والعمدة، لكن الجميع أطفال، والجميع يجرون أمامه يضحكون، وهو يريد أن يمسك بأحد، أي أحد منهم، ولا يستطيع، الصوت الحنون لا يتركه يعود، حتى وصل إلى النهاية، الحافة التي يرتفع منها البخار الأبيض، ولا يرى فيها إلا أذرع معذبة، ويسمع منها أصوات الأنين، وهو على أطراف أصابعه يكاد. . .، بل وقع بالفعل.

ـ لا تبك يا رجل، ستقتل نفسك.

ربَّت دميان النحيل على كتفه، وأحاطه بذراعه، كان مجد الدين قد اندفع في بكاء أليم. انتهت قصة البهي بيد البهي.

لقد عاد بعد الحرب الأولى، وبعد أن انشغلت البلاد سنوات بالثورة، وقال لمجد الدين «قريتنا هذه لا تتحرك، إنها مثل خنفسة كبيرة لا تغادر جحرها».

وعليه هو أن يحركها من جديد.

كان ظهوره وحده كافياً لإضرام النار. وكان قد عاد أقوى مما ذهب. لوّحته الشمس وأحرقه البرد معاً! أصبح يحمل شارباً كثاً، وصار عزوفاً عن الكلام، وتحت عينيه برزت تجاعيد مبكرة، وظهرت مسحة ألم لم توجد من قبل.

لم تصدق العائلة أنه كان كل ذلك الوقت في جيش السلطة. من أين أخذوك؟ من الطريق؟ لماذا لم تخبرهم بهويتك، أصلك وعائلتك

فيتركوك؟ قلت لهم ولم يتركوني.. لكن أحداً لم يصدقه غير مجد الدين. هناك بعض الناس منذورون للألم العظيم، أيوب كان منهم، والبهي الآن، لذلك اختار البهي أن ينام في غرفة مجد الدين. وبالليل قال له كلاماً كثيراً عن الحرب، عن السفينة التي شحنوه فيها مع الجنود إلى أوروبا، عن الخنادق والثلج فوق الجبال، والقتال على الحدود الفرنسية الألمانية. بلاد لا يعرفها وبرد لا يحتمله ونساء جميلات يأتين للجنود وقت الراحة، أو يذهب الجنود إليهن في القرى «كنت أخاف يا مجد الدين لكنهن كن يشدُدْني شداً فهل يحاسبني الله على الأجنبيات أيضاً؟ وهل أنا الذي ذهبت إلى هناك؟ اسمع. أنا أعرف كلمات إنجليزية كثيرة وفرنسية أيضاً. «بون جور» يعني صباح الخير «جود مورنينج» يعني صباح الخير أيضاً «كومنت آليه فوه» يعني إزيك و«هاو أريو» يعني إزيك أيضاً و«آدي ما» و«آبيان توت» يعني إلى اللقاء، وكذلك «باي باي» و«سي يو» و«سافا بيان» يعني بخير، و«فاين» يعني بخير كذلك، وبعد سنة انتقلنا إلى فلسطين نحارب الأتراك. الله يسامحني حاربت مع الإنجليز ضد الأتراك المسلمين لكن غصباً عني».

ولم يكن الظهور الجديد للبهي كافياً لغلق كتاب الماضي، ظهوره يعني وجوده، يعني الثأر. اشتعل الجحيم حتى لم يبق من العائلتين غير مجد الدين وخلف. البهي لم يكن محسوباً دائماً، وهذا كان سر ألمه الكبير.

بالطبع كان هناك الأخوات أيضاً، والأم بعد موت الأب كمداً، لكن ورث البهي ومجد الدين مساحة كبيرة من أرض العائلة. كان نصيب مجد الدين ثلاثة أفدنة وكذلك كان للبهي، الذي باعها سراً، واختفى من القرية من جديد. البكاء الصامت جعل نور عيني أمه يخبو. إلى هذا الحد كانت تحبه أمه لا وتبوح. إنها لا تنسى طاقة النور التي خرجت معه. كان قد عاد من الحرب بلا هالة من نور، بدا وقد انطفأ فيه كل شيء. كيف حقاً انقلبت حياة الطفل الطاهر إلى ظلام؟ وكان مجد الدين على يقين بعودته

يوماً. كادت الأم تعمى تماماً، وإذا البهي يقف فجأة وسط الدار. منذ نزوله على المحطة طار الخبر. طيرته أولاً النساء، ثم حمله الأطفال مع الهواء، وقبل أن تنزل بنات هادية بأمهم من الدور الثاني، كان البهي يصعد إليها. «يا نور عيني» هتفت وارتمت عليه. لكنه كان جامداً، قبَّل وجهها ويديها في صمت..

في المساء أخبر مجد الدين بالمدينة التي أمضى فيها ذلك الوقت. الإسكندرية البيضاء التي يأتيها الأجانب من كل الدنيا، ويرحل إليها أبناء البلاد الفقراء من كل الأرض، ولم يشأ أن يخبر أحداً بعنوانه. قال إنه سيزورهم بين وقت وآخر، في الصباح لم يجدوه في البيت، وبكت هادية في صمت أكثر جلالاً، ومجد الدين يشجعها ويحثها على الحفاظ على ما تبقى في عينيها من نور. شيئاً فشيئاً استراحت الأم، فالبهي يظهر بين وقت وآخر مهما طال الوقت بين ظهوره.

ثم لاحظ أهل القرية أن داراً جديدة تبنى من الطوب الأحمر المجلوب من قمائن كفر الزيات. يسأل أهل القرية البنائين عن الدار وصاحبها، فيقولون إنهم لا يعرفون شيئاً إلا أنها دار حكومية. والدار كانت تبنى خارج زمام البلد على أرض مهجورة لا يملكها أحد. ثم تلقى العمدة خطاباً رسمياً، مختوماً بخاتم المحكمة الشرعية في طنطا، يطلب منه تقديم التسهيلات، التي سيطلبها منه ممثلو العدالة، في المحكمة الشرعية الجديدة، التي ستبنى في القرية، مع نهاية العام كانت الدار قد تم بناؤها، والعمدة ينتظر بشغف ممثلي العدالة. وحين رفعت فوقها لافتة «دار القضاء الشرعي الجديدة» وتحتها شعار العدل، الميزان والكف على كتاب الله أدرك أن وقته قد جاء، ليقدم التسهيلات التي يمكن أن يطلبها ممثلو العدالة. ظهر للمحكمة قاض شرعي وحاجب وكاتب. قدم له الكاتب خطاباً جديداً، يطلب فيه منه تقديم خفيرين نظاميين لحراسة المحكمة. وأقام العمدة وليمة عاملة لممثلي العدالة.

كانت الدار من طابق واحد، ثلاث غرف ومنظرة ودورة مياه، وبدأت المحكمة في تلقي الشكاوى.

كانت الشكوى الأولى من امرأة غير عادية، خضرة بنت شيخ البلد تشكو ضرب وإهانات زوجها لها.

خضرة من جميلات القرية، وزوجها هو ابن عمها المرهوب الجانب، استدعت المحكمة زوجها بين دهشة أهل القرية، هذه أول مرة في حياتهم، يسمعون فيها أن امرأة شكت زوجها في المحكمة، ذلك لم يحدث قط على طول تاريخ القرية. لم يذهب الزوج، وقرر ألا تعود خضرة إلى البيت، حتى لو تنازلت عن شكواها، أعلنته المحكمة بالحضور مرة ثانية خلال أسبوع عن طريق كاتبها، ولم يمتثل. حكم القاضي بطلاق خضرة.

اهتزّت القرية لهذا الحكم الذي لم يعهدوا مثله. اختفى القاضي من المحكمة أسبوعاً، ظهر البهي يمشي في أزقة القرية لعدة أيام ثم اختفى. رأى الناس أبا خضرة يمشي منكسراً في الطرقات. كيف حقاً تذهب امرأة تشكو زوجها للحكومة، أي شجاعة، وأي كفر؟

كان طبيعياً بعد ذلك أن يشدِّد الرجال على النساء، حرموا عليهن مجرد المرور من أمام المحكمة، مضى عام كامل بلا شكوى واحدة، ولا حكم واحد، فاطمأن الناس، ولأن خضرة اختفت من القرية، وتزوّج زوجها السابق بأحسن منها. والحقيقة كانت غير ذلك، بدأت قصة خضرة وزوجها تنتمي إلى الماضي. لكن امرأة أخرى تقدّمت بشكوى تطلب فيها إنصافها في ميراثها الذي يستولي عليه زوجها، فما كان من القاضي إلا أن حكم بعودة ميراثها إليها، وطلاقها معاً، لأن الزوج خائن للأمانة الشرعية. اهتزّت القرية مرة أخرى، ثم فوجىء عدد من الرجال، على مسافات زمنية متباعدة، باستدعائهم للمحكمة، كان الواحد يذهب غير

مدرك لما ينتظره، يهجم على زوجته قبل الذهاب، يضربها لتعترف ما إذا كانت قد تقدّمت بشكوى من أي نوع ضده والزوجة المغلوبة على أمرها، تنكر فعل أي شيء من ذلك. يذهب الزوج إلى المحكمة فيفاجأ بشكوى زوجته، بل ومعرفة القاضي بتفاصيل حياته الشخصية مع زوجته فينهار، ولا ينتظر حكم المحكمة، التي يطلب قاضيها هذه المرة من الزوج، أن يعود ويحسن معاملة «أهله». كان الواحد منهم يعود ويطلق زوجته بلا نقاش.. في ثلاثة أعوام تم طلاق عشرين امرأة. والبهي يختفي ثم يعود بين حين وآخر، راكباً فرساً شهباء، يمرح بها على حافة الترعة، وعلى أطراف الحقول.. لقد انتهت قصة الثأر المؤلمة، وصار شغل القرية الشاغل هو هذه المحكمة التي زلزلت الأسر والبيوت، والتي امتدّ نشاطها إلى القرى المجاورة، خاصة فيما يختص بالمواريث.

لقد ظهر أن عشرات من النساء، ضاعت حقوقهن بسبب الأزواج، أو الإخوة الأقوياء، وكانت المحكمة منصفة لهؤلاء المظلومات، حتى يوم أغبر استدعت فيه المحكمة العمدة ذاته..

ذهبت العمدة وأقصى ما فكر فيه، أن المحكمة في حاجة إلى بعض المساعدة في تنفيذ الأحكام، لكن القاضي لم يستقبله في مكتبه، بل في قاعة المحكمة الصغيرة، ولم يسمح له بالجلوس. هو عمدة حقاً، لكن للمحكمة تقاليدها التي تسري على الصغير والكبير، وكان السؤال المفجع للعمدة هو أنه يهين زوجته، هي نفسها التي تقدمت بالشكوى، وأنه لا يعاشرها بالمعروف ولا يعاشرها كما أمر الشرع، بل يعاشرها من الخلف!

من الممكن أن تتخيّل العمدة وهو يقفز إلى الفضاء، وهو يهجم على القاضي والحاجب، لولا الخفراء الذين ذهبوا في معيته، ومنعوه أن يرتكب هذا الخطأ. كانوا في دهشة ورعب، الخبثاء منهم كتموا ابتساماتهم، ترك العمدة المحكمة ولم يرد على أي سؤال. ركب فرسه

وسابق الريح. في منتصف الطريق توقف. الفضاء الواسع حوله، والزرع الأخضر فوق الأرض، أعادا إليه الإحساس بالهدوء.. هذه القرية هادئة على مر الزمان. لم يعكرها إلا حوادث الثأر بين الخلايلة والطوالبة، التي انتهت وصارت ذكرى الآن. ولا يظن أن حوادث مثلها يمكن أن تعود بين أي عائلتين، بعد النهاية الأليمة للخلايلة والطوالبة معاً، ثم هذه المحكمة التي هزّت القرية وأظهرت كل موبقاتها. لا بد من قتل القاضي والكاتب والحاجب وهدم المحكمة.

لا بد أن يتصل بالسلطات يطلب فيها نقل المحكمة. هذه محكمة «للشيطان».. لكن لا يمكن أن تكون زوجته قد فعلت ذلك؟ لقد حاول أكثر من مرة أن يعاشرها على غير العادة، لكنها رفست بعنف، وهو لم يعد إليه. كان شاباً فيه نزق. مستحيل أن تتذكر زوجته ذلك الآن وأن تشكوه...

لحظات وصل العمدة إلى بيته، وقف أمام زوجته يرتعش بالغضب، يكاد يتناثر إلى آلاف من القطع الصغيرة، سوف يموت إذا لم يفعل شيئاً، الخفراء الجزم سينشرون الخبر، لكنها الزوجة الجميلة الغنية بنت الأكابر التي يحبها بحق. وانهار باكياً أمامها ولم يتكلم، نام طالباً من الله الموت.

زوجته ابنة أحد أعيان القرية المجاورة. طار الخبر إلى هناك. في المساء حضر أبوها وعزوته. قال الأب بصوت لا يكاد يخرج:

ـ في الصباح نذهب إلى المحكمة، إذا كنت هناك شكوى قتلنا ابنتنا ويا دار ما دخلك شر.

في الصباح لم يكن هناك أحد بالمحكمة. كانت مفتوحة الأبواب تجري بينها الريح. حتى اللافتة التي فوقها كانت مخلوعة وملقاة على الأرض بإهمال. في الظهيرة كان هناك رجال البوليس من المديرية.

وامتلأت القرية بالضحك والبكاء. لم تكن المحكمة حقيقة، هي مجرد حيلة ابتدعها شيطان لخراب القرية. ونامت القرية على السؤال يا ترى من يكون هذا الشيطان؟

قال الناس إن «الحكومة عرجاء لكن تصيب الغزال». واستطاع رجال البوليس الوصول إلى أول امرأة اتجهت إلى المحكمة. إلى خضرة التي اختفت من القرية بعد طلاقها. وجدوها في طنطا تعيش مع البهي، الذي صار يوزع وقته بينها وبين القرية. قالت إنها حاولت كثيراً منعه من الاستمرار، لكنه كان قد صمّم على خراب بيوت الناس كلها في البلد!

قاطع الناس بيت مجد الدين وأهله بعض الوقت، لكن لعلم مجد الدين بالقرآن، وورعه، ولماضي البهي، عاد الود بين الناس وبين مجد الدين، وصار البهي ذكرى في سجنه بطنطا، ولم يعرف أحد أنه حين خرج من السجن اتجه للإسكندرية غير مجد الدين، لم يعرف أحد شيئاً عن خضرة أبداً. «يعني هي حاتفوت منها. زمان أبوها قتلها ولا أخواتها». تعليق كل من يذكر اسمها أمامه، مضت سنوات بعد ذلك لم يظهر فيها البهي بالقرية، صار نسياً منسياً، العمدة تذكره فجأة، هو الذي يستطيع أن يبحث عنه في كل البلاد، ولما فكر في شيء يفعله، طرد مجد الدين من البلدة، وحتى لا يتذكّر الناس الإساءة التي لحقت به قال إن الطرد بحجة الثأر، وطرد معه خلف آخر من تبقى من الطوالبة. لكن الناس في القرية، عادوا يتذكرون بقوة ما فعله البهي بالعمدة، ويضحكون في سرهم، وها هو البهي مسجى أمام أخيه، بلا حيلة ولا قوة، ولا طيش ولا ضعف. اختار موته بيده، في المدينة التي قال عنها إنها بيضاء.

* * *

،ونجنا كلنا من الغلاء والوباء والزلازل والغرق والحريق
وسبي البربر ومن سيف الغريب ومن قيام الهراطقة،.
،كيرياليسون،

8

عامود السواري هو اسم العامود الكبير الذي أقامه أهل الإسكندرية، تخليداً لذكرى الإمبراطور الروماني دقلديانوس. قدموه إليه هدية وتقديراً للرخاء الذي شاع بينهم. نسوا أن دقلديانوس هو أكبر من عذبهم، وعذب المسيحيين بوجه عام في مصر وفلسطين.

عامود السواري يتوسط منطقة راقودة، في منتصف شارع كرموز تقريباً، يفصله عن الشارع سور كبير يحيط بالمنطقة الأثرية كلها. على يسار آثار كوم الشقافة هذه، تقع مدافن المسلمين التي تشغل مساحة كبيرة من شارع كرموز إلى شارع الرحمة. هذه المدافن تسمى مدافن العامود نسبة إلى عامود السواري، وهي تنتهي شمالاً على شارع المدرسة التليانية الضيق الهادىء، الذي نادراً ما يفطن إليه المارة أو العربات، لذلك يشهد كل مساء أعداداً من العشاق، يستغلون الظلام فيتبادلون الغرام، وأحياناً يوغل بعضهم في الحب غير خائف.

خلف عامود السواري يمتد جبل كوم الشقافة، حيث تسكن بعض

العائلات النوبية، وبعض قبائل الغجر، يبيع النوبيون عادة الفول السوداني واللب في قراطيس في الشوارع، ويخرج الغجر في رحلات قصيرة داخل المدينة، يمارسون أعمالهم التقليدية، من قراءة الكف والودع والحظ فضلاً عن الرقص وبيع الخلاخيل والغوايش وغيرها من المشغولات الفالصو.

في شارع كرموز تمشي عربات الترام، تبدأ مسيرتها من على شاطىء المحمودية، في منتصف المسافة بين كوبري كرموز الموصل إلى غيط العنب من الناحية الشرقية، وبين كوبري كفر عشري الذي يربط بين شاطىء المحمودية بالقرب من الميناء. أمام النقطة التي يبدأ منها خط سير الترام، وعلى الضفة الجنوبية لترعة المحمودية، يقع «سكن» لعمال السكة الحديد الذين يعملون في خطوط السكك الحديدية جنوب المدينة، وخلف هذه الخطوط الحديدية تقع بحيرة مربوط التي تمتد أكثر مما تمتد الإسكندرية حتى تصل في الغرب إلى العامرية، وفي الشرق إلى قرب «إدكو». سيكون على مجد الدين أن يكتشف كل هذه الأماكن، لكن ذلك سيحدث فيما بعد.

كان يذهب إلى المقابر كل يوم، يجلس أمام مقبرة أخيه يقرأ القرآن أطول وقت ممكن. وكان في طريقه إلى المقابر يرى عامود السواري عالياً، ويدرك أنه أثر من الأزمان الغابرة، ويفكر تفكيراً غريباً، أن يصعد ويجلس فوقه، يمضي ما تبقى له من حياته، بلا طعام أو شراب، ولا يكف عن الصياح باسم الله، تماماً كما فعل القطب الكبير، السيد أحمد البدوي، على سطح أحد البيوت في طنطا حتى مات.

ـ لا يمكن أن تظل علي هذا الحال.

قال له دميان الذي ذهب خلفه يوماً إلى المقابر.

ـ ماذا أفعل يا دميان؟

ـ تخرج تبحث معي عن عمل. إني أوفق الآن في معظم الأيام ثم إنك لن تمضي عمرك جالساً بين المقابر. هذا كفر والعياذ بالله.

تأمله مجد الدين ملياً، وقال:

ـ معك حق يا رجل.

لقد تمّت صداقة عظيمة وبسرعة بين الرجلين يوم قتل البهي. انتهى كل شيء بالمستشفى بسرعة، بفضل وجود الخواجة ديمتري ودميان. في صباح اليوم التالي صرحت النيابة بدفن الجثة. عند الظهيرة كانت قد ووريت. وفي اللحظة التي انزلقت فيها جثة البهي المكفنة من يد الحانوتي أسفل المقبرة، أدرك مجد الدين الذنب العظيم الذي ارتكبه في حق أخيه، لقد خالف وصيته بأن يدفن في البلد، لقد ضحك تلك الليلة، وقال إنه في حال موته ودفنه بالبلد لن يسبب مشاكل لأحد!. لم يكن ممكناً لمجد الدين تغيير ما حدث. هو لا يستطيع العودة إلى القرية الآن، وأمه لا يجب أن تعرف بما جرى، على الأقل لبعض الوقت، والله يعلم عجزه وقلة حيلته.

لقد دفع الخواجة ديمتري عشرة الجنيهات تكاليف المقبرة والدفن، وقال لمجد الدين هامساً «تستطيع أن تعيدها حين ميسرة» وكان مجد الدين على ثقة من قدرته على إعادتها، فأرضه في البلد تدر دخلاً، وأخواته لا بد سيرسلن إليه نصيبه كل موسم زراعي. الذي شغل مجد الدين هو هذا الود الذي يظهره الخواجة ديمتري له ولزوجته هو وأسرته، مع أنهم لم يتعارفوا إلا منذ أسابيع. قالت الست مريم لزهرة «سلفك البهي كان أميراً» وقال ديمتري لمجد الدين «أخوك كان ابن حلال» فكر مجد الدين أن البهي لا بد كان يقدم لهم خدمات عند الحاجة، وأمر زهرة أن تخلي غرفة البهي ليتسلمها الخواجة ديمتري.

لم تكن هناك حاجة إلى ما في حجرة البهي، لذلك بيعت كلها لبائع

روبابيكيا في الصباح باستثناء ثيابه التي أخذها مجد الدين ووزعها على الفقراء في المقابر، ووجدت زهرة مظروفاً في الدولاب به عشرون جنيهاً أعطتها لمجد الدين وهي تجهش بالبكاء. ها هوالبهي يسترهما أمام الخواجة ديمتري، ويستطيع مجد الدين الآن إعادة الجنيهات العشرة برغم كرم الرجل الكبير. وحكت زهرة لزوجها الحكاية التي لم يسألها عنها، كيف شارك البهي في المعركة وكيف مات. قالت إنها سمعت أصوات صياح في الشارع، وكانت في غرفة الست مريم، فنظرت معها من النافذة. رأت البهي يطير بعصاته بين الرجال كالرهوان، كل من طاله نالته منه ضربة أعجزته. كان على غير ما عرفته تماماً. رأته جنياً حقيقياً يجندل الرجال. كان معه فلاحون كثيرون، وكان الصعايدة أكثر، لكن عينيها لم تكونا تريان غير البهي. وفي اللحظة التي أوشكت فيها المعركة على الانتهاء، بعد أن اختفى معظم الصعايدة من الشارع، ظهرت جماعة منهم من زقاق واحد قاصدة رجلاً واحد هو البهي. انهالت العصي كلها فوق رأسه. كانت قد نزلت إلى الشارع صارخة لكن البهي كان قد مات. خيل إليها أنه نظر إليها يشهدها على شجاعته. سألها مجد الدين ما إذا كانت «بهية» عادت تظهر بالشارع، قالت إنها لم ترها غير يوم مقتل البهي، لقد رأتها ولم تصدق وسرعان ما ذهلت عنها بالنظر إلى البهي المقتول.

ظلّ مجد الدين يخرج كل يوم، بعد الظهر، إلى المقابر يوزع النقود على الفقراء، ويقرأ بنفسه القرآن، ويعود مع المساء يتناول عشاءه، وجبته الوحيدة بعد الفطور، ثم يقرأ القرآن حتى صلاة العشاء، ثم ينام، ونادراً ما داخل معها في كلام. صمت أكثر حين لاحظ أنه كثيراً ما يجد امرأة أو أكثر، أمام قبر البهي يبكين، ويضعن فوقه ورداً وصباراً، وحين يقترب تبتعد الواحدة منهن، أو يبتعدن إذا كن أكثر، ويغادرن المكان دون كلام. لقد قرر أن يعرف سر هاته النساء. ذهب إلى الحانوتي في المحلات

المقابلة للمدافن مباشرة وسأله. ابتسم الرجل وقال له «والله هذا أول ميت أجد كل أقاربه نساء. إنهن يأتين إليّ فأدلهن على المقبرة. أنا لم أرهن يوم الدفن، لكنهن لا ينتهين حتى الآن. وسكت لحظة. يبدو أنه ابن حلال، إنهن يجزلن لي العطاء. ثم سكت أكثر وقال: العجيب أن رجلاً جاء وسألني عن المقبرة منذ أيام، فأخذته إليها فهجم على المرأة التي كانت سبقته وضربها ضرباً مؤلماً، وسحبها من شعرها مقسماً بأغلظ الأيمان أن يطلقها والعياذ بالله». وسأل مجد الدين إذا كان يعرف شيئاً عن هذا الرجل، فتركه مجد الدين بلا جواب.

* * *

ـ أنت لا تعرف عني إلا أنني دميان عبد الشهيد. لكني أعرف عنك أنك ابن ناس. أنا أيضاً ابن أصول. جدي، وأرجو أن تصدقني، كان عنده مماليك. هكذا يحكون عنه في بلدنا ديروط. أنت من بحري، وأنا من قبلي. بحري فيه أعيان كتير وقبلي فيه أعيان كتير، وفي الاثنين الفقر أكثر. طبعاً. لازم حد يأخذ من حد!. معقول الكلام؟ أنت سامعني يا مجد الدين.

ـ سامعك.

هكذا يرد مجد الدين في كل مرة. صار دميان يمر عليه كل صباح يصحبه في رحلة البحث عن عمل. في الأيام الخالية من العمل، وعادة تكون أكثر، يجلسان بالمقهى على الكوبري. يشتري مجد الدين الجريدة. ينبهر دميان بحرب الغواصات. زوارق الطوربيد الألمانية التي تدمر السفن البريطانية وتختفي كالعفاريت داخل مياه المحيط الأطلنطي. وعرف من مجد الدين كثيراً من حياته، وأهم ما عرفه أنه لم يخدم في الجهادية لأنه من حفظة القرآن.

وصار دميان ينادي مجد الدين بالشيخ مجد الدين، وقال له ضاحكاً،

إنه لا يوجد قانون يسمح بإعفاء حفظة الإنجيل من الجهادية أيضاً. ثم ضحك وقال «ومن الذي يستطيع حفظ الإنجيل!؟».

وفي كل مرة يقص على مجد الدين شيئاً من حياته حتى اكتملت أركان القصة. قال إنه فجأة هتف واحد من أهل القرية أن السيد «بسخرون» كافر. وبسخرون هو الجد القريب لدميان، وليس البعيد صاحب المماليك. لماذا هو كافر السيد بسخرون؟ قال الرجل لأنه لم يتم تعميده وهو طفل. والحقيقة أنه كان هناك نزاع بين عائلتين على قطعة أرض، واستطاع الخصم أن يروج هذه الإشاعة عن السيد بسخرون.

ـ وما هو التعميد يا دميان؟

ـ التعميد يعني التنصر. من غيره يظل الإنسان حيراناً بين الجنة والنار.

ـ يعني لا أحد يحاسبه؟

ـ بالضبط.

ابتسم مجد الدين وقال:

ـ طيب وهل هذا يسيء إلى الشخص أو يضره؟

ـ طبعاً. لا تسألني كيف. لكنها مسألة صعبة جداً. أنا لا أعرف جوهر الصعوبة لكن أحسّ به. حالة مثل الوقوع من فوق الجبل لكن لا تصل أبداً إلى الأرض. تظل معلقاً في الفضاء. في فراغ خال من كل شيء. لا سخن ولا بارد ولا حتى هواء من أي نوع. تعرف يا شيخ مجد لقد حدث لي ذلك مرة.

ـ وقفت بين الجنة والنار.

ـ أجل. أحسست بها وأنا راكب الأسانسير. هي مرة واحدة ركبت فيها الأسانسير في عمارة في المنشية. كنت أقوم بتنظيف سطح العمارة. كان هناك عمل كثير. كان سطحاً قذراً ولا خرابة. لم أستطع النزول على

قدمي. تصور. لم أستطيع النزول!. المهم. ركبت الأسانسير ودست على الزرار. نزل بي بسرعة شديدة جداً. أحسست أني في مكان مفرغ من كل شيء. تذكرت مسألة الجنة والنار والوقوف بينهما. ولولا أني رأيت من خلال زجاج الباب الطوابق وهي تتحرك أمامي كنت صرخت من الخضة.

تأمله مجد الدين في دهشة المعجب المصدق، وبمشاعر دافئة حقيقية، واستمر دميان يحكي قصة عائلته. قال:

ـ ذهب جدي إلى الكنيسة في أسيوط. إلى «دير المحرق». أكبر كنيسة في أسيوط، وعاد بالقسيس الذي عمده وهو طفل. كان رجلاً أعمى يمشي على عكازين!! لكن لم يصدقه أحد. السبب أن القسيس نفسه كان قد ارتكب كثيراً من الخطايا في شبابه قبل دخوله الدير.

تساءل مجد الدين وهو يشعر برغبة حقيقية في المعرفة:

ـ طيب هل ضروري أن يتم التعميد والإنسان صغير؟

ـ الأصح. لكن يمكن التعميد في أي وقت. التعميد بسيط جداً. يمسك القسيس بالطفل ويغطسه في مغطس رخام فيه ماء. طبعاً هناك موسيقى وترتيل وتهاليل وتباريك. فيه حفلة يعني..!

ـ كان واجب جدك يتعمد من جديد.

ضحك دميان وقال:

ـ رفض بشدة. صمم أنه قد تمّ تعميده، وأنه لن يخضع للمكائد. لكنه كان في داخله حزيناً. نام ولم ينهض إلى اليوم.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

ـ المهم. أبي وإخوته كرهوا البلد. قسموا الأرض فيما بينهم وساروا في البلاد أبي عمل بالتجارة حتى ضاعت فلوسه وأفلس تاركاً أمي وأنا

وبنتين وولداً آخر مات بعد ذلك بالتيفويد. البنتان تزوجتا وتعيشان مع زوجيهما في سوهاج. أمّي تعيش حتى الآن معي. لا تتحرك من فوق الأرض إلا للنوم. وهكذا تشردت عائلة كبيرة من أجل كذبة صغيرة. لكن الحمد لله أن أحداً لم يقل إن «أبونا» عجز عن تعميد جدي، أو إن مياه المغطس نشفت فيه حين أراد تعميد جدي. هذا يعني خطايا كبيرة. يعني لعنة قديمة في العائلة. أجل. كثيراً ما يفاجأ «أبونا» وهو يعمد أحد الأطفال أن مياه المغطس نشفت فجأة، أو أن الطفل نفسه لصق بيديه ولا ينفصل عنها.

احتار مجد الدين كيف يعلق على هذه الحكاية لصديقه الطيب. قال وهو ينظر إلى عينيه:

ـ أنت رجل صالح يا دميان.

ضحك دميان وقهقه وقال:

ـ يخيّل إليك. أنا منذ سنوات طويلة لم أدخل الكنيسة. كنيسة ماري جرجس على بعد خطوتين من بيتي، ومن بيتك أيضاً، لكني لم أدخلها. لا في الآحاد ولا في الأعياد. هل تعرف السبب؟

ارتبك مجد الدين ثم قال:

ـ بسبب حكاية جدك.

ـ لا. أنسى. أنا دائماً أنسى. أحياناً أقول يا واد أنت صايع بلا عمل لماذا لا تذهب إلى الشهيد جورجيوس، ماري جرجس يعني، يشوف لك شغلانة ثابتة، ثم أنسى. رغم أني أعرف لماري جرجس معجزات كثيرة. المسلمون أحياناً يأتون في الموالد ويطلبون منه المساعدة. ماري جرجس ولي كبير. طبعاً أنت تعرف الأولياء. تعرف أن مجلس الإسكندرية حاول هدم مسجد «أبو الدرداء» لتوسيع الطريق للترام، لكن كل من رفع معولاً

على المقام شُلَّت يده، فتركوه مكانه وصارت الترام تدور حوله. وأنا أعرف أن سيد البدوي كان يأتي بالأسرى من الأعداء. «الله الله يا بدوي جاب اليُسري». أنت من طنطا وتعرف القصة أكثر مني. ثم يا أخي أنا محتار، ماري جرجس له كرامات والسيد البدوي وأبو الدرداء لهما كرامات، كلهم على حق، ليه يكون فيه قبط ومسلمين؟!

وسكت لحظات طويلة ثم قال دميان من جديد:

ـ عندي فكرة. ما رأيك أذهب أنا إلى ماري جرجس أطلب شغل وتذهب أنت إلى أبو الدرداء أو أبو العباس وتطلب شغل. أو حتى نعمل العكس! يمكن ماري جرجس زعلان مني لأني بعدت عنه كتير..

* * *

لم يكن مجد الدين يتوقع أن تبكي زهرة بهذه اللوعة ساعة انطلاق المدافع في المساء معلنة أن غداً هو أول شهر رمضان. كان هو أيضاً يشعر بامتداد الحزن في صدره وحاجته للانفجار في البكاء، لكنه تجلد. يعرف الفارق بين رمضان في مدينة واسعة، ورمضان هناك في قريتهما التي يحنو عليهما فيها جميع تراب الأرض. لكن طرقاً خفيفاً على الباب الموارب جعل زهرة تجفف دمعها بسرعة.

كان الخواجة ديمتري وزوجته يتقدمان لتهنئة جيرانهما بحلول رمضان.

قال مجد الدين للخواجة ديمتري بعد أن جلس على الأريكة جواره:

ـ يا أخي أنتم فتحتم نفسي على إسكندرية.

قال الخواجة ديمتري باعتزاز:

ـ الإسكندرية مدينة عريقة يا سيد مجد الدين.

أحسّ مجد الدين بالمعنى العميق في كلام الرجل. وكان اليوم هو العاشر من أكتوبره تسلّم فيه عملاً في شركة الغزل الأهلية بدا له سيستمر

إلى وقت طويل. من يدري قد تفتح له هذه المدينة صدرها الحنون الذي لم يره بعد. وقال الخواجة ديمتري.

ـ ما رأيك في جولة معي بالشوارع الآن؟ رمضان يحب السهر.

وقالت الست مريم لزهرة:

ـ تعالي اسهري اسمعي الراديو.

خرج مجد الدين مع ديمتري، ودخلت زهرة مع الست مريم إلى حجرتها المضيئة بالكهرباء. رأت الحجرة بيضاء باهرة، البنتين إيفون وكاميليا تكادان تشتعلان من البهجة. كانت ماكينة الخياطة في وسط الغرفة. جلست الست مريم على الكرسي أمامها، وجلست زهرة على الكنبة مع إيفون وجلست كاميليا على الكنبة المقابلة تنظر إلى زهرة في سعادة مدهشة، وزهرة لم تعد تشعر بالخجل الآن سألتها لماذا دائماً تنظر إليها بهذه الدهشة، فقالت لها كاميليا «أصلك جميلة جداً». وضحك الجميع. وقالت الست مريم في سعادة كلمتها الأثيرة عن كاميليا:

ـ خدي بالك يا زهرة كاميليا شقية..

وسمعت دقات خفيفة على الباب الموارب. كانت هناك نسمة باردة لكنها منعشة. نهضت كاميليا تفتح الباب، وهتفت في سعادة «دي ست لولا» وأشرق وجه الست مريم بالابتسام، وكذلك وجه إيفون. ووجدت زهرة نفسها تحملق في الست لولا الشقراء الملفوفة القوام المتوردة الوجه ترتدي روباً من القطن، الباتستا الأخضر المشجر، وفي قدميها شبشب أخضر من القطيفة، أما رأسها فهو عار، وشعرها الأصفر كثيف بارق ككهرمان. قالت لولا وهي تجلس:

ـ الأفندي بتاعي خرج يسهر مع أصحابه على القهوة، عمل حجته رمضان.

قالت الست مريم باسمة:

ـ واحنا كمان، الأفندية بتوعنا خرجوا. يعني في الهوا سوا.

ضحك الجميع، بما فيهم زهرة هذه المرة، وفتحت كاميليا الراديو فانساب صوت عبد الوهاب، وبدا أن البنت تعشقه. جفنه علم الغزل كانت أغنية عبد الوهاب، وموسيقاها الإسبانيولية المذاق جعلت الفتاة تتمايل برأسها ضاحكة، وفجأة هتفت:

ـ أبو فروة!!

وسكت الجميع. كانت زهرة مندهشة بينما كان الجميع يستمعون للصوت الغامض الذي يرتفع في الشارع. صوت بائع أبو فروة الذي لا تظهر حروف كلماته أبداً لكن الجميع يعرفون أنه بائع أبو فروة الذي يغيب طوال العام ويظهر مع بداية البرد. نزلت إيفون اشترت بخمسة قروش، وبسرعة أحضرت كاميليا موقداً كحولياً أكبر من «السبرتاية» المشهورة، موقد به أكثر من شريط، وبدأت تشوي أبو فروة. كانت زهرة تعرفه. كثيراً ما اشتراه مجد الدين من طنطا، وحينما أخذت لولا ثمرة منه وضعتها بين أسنانها للحظات. بدا فمها جميلاً جداً، وأسنانها بيضاء، وأحسست زهرة أنها أمام امرأة غير عادية، وراحت تتابعها وهي تأكل الثمرة على مهل وباستمتاع بطيء، حتى أنها كانت تغمض عينيها أيضاً للحظات، ثم قالت لولا:

ـ يا سلام على أبو فروة بالشكولاتة، المارون جلاسيه يعني يا كاميليا.

ـ الله. الله على المارون جلاسيه.

كانت هذه أول مرة تسمع فيها زهرة هذه الكلمة. ولم تبدِ دهشة. كانت دهشتها داخلية، فهذه كاميليا المنطلقة المرحة، وهذه إيفون أختها تبدو هادئة متزنة، لله في خلقه شؤون حقاً.

انتهت أغنية عبد الوهاب وإذا بكاميليا تنهض تعبث في زرار الراديو وتقول سأبحث أيضاً على عبد الوهاب. وبالفعل وجدته. عرفت الموسيقى وهتفت: «مضناك جفاه مرقده» يا ست لولا. إذن هناك ألفة بين لولا وكاميليا. قالت زهرة لنفسها، ولم تفهم الأغنية الصعبة، التي كثيراً ما كانت تستمع إليها في القرية فتبتعد عن الراديو أن تخفض صوته أو تغلقه.

لم تفهم الأغنية قط. وتطوعت كاميليا تشرحها لها. كل ما أدركته زهرة أن الست مريم سعيدة بابنتها وجرأتها، أما هي، زهرة فلم تفهم أيضاً شرح كاميليا وقالت مبدية دهشة غير حقيقية «يا سلام، كل دا في الأغنية دي». وضحك الجميع... ثم هتفت كاميليا: «عم محمود».

قالت لولا «تاني، حتى في رمضان». وجاء صوت عم محمود من الشارع يهتف «الحادثة الجديدة، الحادثة الجديدة». أخذت كاميليا قرش تعريفة من أمها، ونزلت بسرعة. شرحت إيفون بهدوء لزهرة الأمر، عم محمود يأتي كلما حدثت حادثة غير عادية، يبيع ورقة مطبوعة، بها تفاصيل الحادثة قبل أن تنشرها الصحف. تفلت زهرة في «عبِّها» وقالت «يا ساتر يا رب»، ودخلت كاميليا صامتة.

ـ اقرأي.

قالت لها أمها باسمة. ردت كاميليا:

ـ أحسن تقرأها إيفون.

تناولت إيفون الورقة المطبوعة، وقرأت صامتة، فاحمرّ وجهها من الخجل، ثم قالت بلا مبالاة مصطنعة «أبداً. دي واحدة ست مجوزة اتنين في وقت واحد». ضربت لولا على صدرها رعباً وتفلت في عبها أكثر من مرة وقالت الست مريم بهدوء:

ـ قطعي الورقة وارميها في الزبالة.

* * *

لاحظ مجد الدين أن الأطفال قد خرجوا بكثرة إلى الشارع، رغم الظلام وعدم وجود أعمدة إنارة. مشى مع الخواجة ديمتري في الاتجاه الآخر ناحية كرموز وقال الخواجة ديمتري:

ـ قطيعة تقطع إنجلترا على ألمانيا في يوم واحد، لم ينبنا غير الغلاء والظلام.

كانت المحلات مفتوحة تبيع على أضواء الشموع أو المصابيح الصغيرة، وبعضها تجرأ وأضاء أكثر من مصباح كهربي، لكن الإضاءة كلها بداخل المحلات. ما يتسرّب من ضوء إلى الخارج كان يعين الأطفال على اللعب والمارة على المشي. لقد خرج معظم الناس يشترون ما يحتاجونه من طعام للسحور وللغد. رأى مجد الدين فرناً أفرنجياً، وفكر أن يشتري خبزاً فقال له ديمتري إن الفرن يسهر للصباح، إنهما يستطيعان شراء الخبز في العودة، أما الآن فليذهبا أولاً إلى كوبري كرموز لشراء الدخان.

بعد عبور الكوبري مباشرة كان هناك محل أبيض الواجهة، زجاجه لامع، الضوء داخله من مصباح أبيض صغير، والبائع أبيض الوجه، متورد، يرتدي بالطو أبيض. لاحظ مجد الدين أن بالمحل عديداً من أنواع السجائر والمعسّل والتبغ. اشترى ديمتري بقرش صاغ دخاناً وقال:

ـ دخان تركي طازج له رائحة منعشة.

اشترى مجد الدين مثله، وقرر أن يكون زبوناً عند صاحب المحل، فالدخان السائب أفضل من المحفوظ في العلب.

في عودتها نظر مجد الدين من فوق الكوبري إلى ترعة المحمودية

المظلمة على الناحيتين. شاهد عدداً كبيراً من الصنادل والسفن الواقفة. أدرك أنه في الغد ستكون هناك فرص عمل كبيرة للعاطلين، وفي شارع ألبان كان الأطفال قد أوقدوا فوانيسهم غير آبهين بتعليمات الوقاية وراحوا يدورون على البيوت يطلبون «العادة» أو يجلسون في حلقات صغيرة يتسامرون. ولم يشأ ديمتري أن يعود بسرعة. قال لمجد الدين:

ـ ما رأيك في فنجان قهوة، نعطي الحريم فرصة للسهر.

ووجدها مجد الدين فرصة حقيقية لتتخلص زهرة من حزنها. ودخل المقهى المجاور للحلواني «جَزَرْ»، الذي كان يغص بالجالسين يشربون ويلعبون النرد والدومينو والورق على أضواء مصابيح صغيرة. كان دميان يلعب الدومينو مع أحد الأشخاص وحولهما ثلاثة آخرون، تركهم دميان ما إن شاهد مجد الدين وديمتري، وأقبل يرحب بهما. قال له مجد الدين:

ـ أنت أيضاً تسهر يا دميان؟

ـ رمضان يا شيخ مجد يحب السهر!

وما إن جلسوا حتى هتف دميان:

ـ من الغد تفتح مطاعم الشعب أبوابها للفقراء يفطرون بتعليمات الملك، يعني الفقير ضمن الأكل لمدة شهر. يعيش الملك وعلي ماهر كمان.

رد رجل يجلس في ركن بعيد من المقهى وهتف قائلاً:

ـ ومحمد عبد المطلب والست فتحية أحمد!.

* * *

لم يكن رمضان ليشفع عند الحكومة المصرية لتخفيف حالة الطوارىء، وإجراءات الوقاية، بل على العكس، تم التشديد على اتباع

تعليمات الوقاية، ولم تتأخر البلدية بالإسكندرية، وسائر البلديات، في إقامة الغارات التجريبية النهارية والليلية، وارتفعت أسعار بعض السلع وبخاصة البترولية، الكيروسين والبنزين والغاز الطبيعي، كذلك أسعار الزيت والأرز والدقيق، وخرج بعضها من نظام التسعيرة، مثل الزيت، فارتفع سعره كثيراً، وجأر الناس بالشكوى خاصة وقد بدأت بعض مطاحن الدقيق في خلطه بنسب أكبر مما هو قانوني بدقيق الذرة. وكان من ظواهر التشديد على تعليمات الوقاية عدم السماح بإقامة سرادقات دينية، أو سرادقات للتسلية، مما تعود عليه الناس في الساحات والجوامع وغيرها من الميادين، لذلك بدا رمضان مثل شجرة جرداء في صحراء بالنسبة للذين تعودوا عليه في المدن.

في الدنيا كانت الحرب البحرية لا تزال مشتعلة وأسطورة الطرّاد «شار نهورست» وزميله «جيزناو» اللذين يقومان بمهاجمة القوافل البريطانية صارت تملأ الدنيا. بدا الطردان مثل شبحين لا يعرف أحد موعد ظهورهما. إنهما يقومان بضربتهما ثم يدخلان إلى المياه العميقة في المحيط الأطلنطي، وكذلك كانت تفعل البارجتان «ردتشلند» و«جراف شبي»، وحدثت أول غارة لسلاح الجو الألماني على فرنسا، كانت عبارة عن طلعات استكشافية، طاردتها الطائرات الفرنسية وأسقطت بعضها، لكن الظاهرة أثارت انتباه العالم، فها هي الطائرات الألمانية تستطيع تجاوز الإلزاس واللورين، وبدأت المخاوف تزداد حيث امتدت الحشود الألمانية من حدود فرنسا إلى حدود هولندا، وقال الألمان إن الحدود الفرنسية ضيقة، لذلك لا بد من التمدد بالقوات، وليس لألمانيا أي مطامع في هولندا. وظهر في الأسواق البرتقال اليافاوي، وقيل إن محصوله وفير الآن بفلسطين، وإن الحكومة تجد صعوبة في تصديره إلى أوروبا بسبب الحرب، لذلك صار رخيصاً جداً في الأسواق، وأنعم

صاحب الجلالة الملك فاروق برتبة لواء على صاحب السعادة بيكر باشا، حكمدار بوليس إسكندرية، وتمّ تحذير الناس من التوجّه إلى ضاحية سيدي بشر ليلاً خارج نطاق شريط الترام، حيث كثرت حوادث القتل والسرقة بالإكراه والاغتصاب، وتقرر أن يسافر ضباط الجيش بالدرجة الأولى في السك الحديدية لأول مرة، تقديراً لمركزهم الممتاز في المجتمع، وصوناً لكرامتهم، وغادر صاحب السمو الملكي الأمير محمد علي الإسكندرية إلى القاهرة بعد انتهاء مصيفه، وقدم تياترو بِبا عز الدين رواية الفودفيل (حرامي أرستقراطي) وبلغ سعر الجنيه الذهب مائة وخمسة وثمانين قرشاً وسجائر الكرافن ثلاثة قروش للعلبة عشر سجائر، وستة للعلبة عشرين سيجارة، وتقرّر أن يكون ضباط الجيش المرابط من خريجي كلية التربية الرياضية الذين يعانون من البطالة دائماً وبدأ عرض فيلم العزيمة، وتمّ تعديل قانون الحياد الأمريكي ورفع الحظر عن تصدير السلاح للحلفاء وأعدم ثلاثة جنود ألمان، كانوا قد قتلوا الجنرال فون فريتش أثناء القتال قرب وارسو، واستمر الملك يؤدي صلاة الجمعة كل أسبوع في جامع ومكان آخر، فصلى حتى الآن في جامع كخيا بالقاهرة، والدخيلة بالإسكندرية، وصدر تقرير الأمن العام يؤكد أن الحرائق دمرت هذا العام ثمانمائة وثمانية وخمسين بيتاً، وحرقت ما قيمته خمسة آلاف جنيه، وأقيمت التدريبات في مرسى مطروح لقوات سلاح الحدود على المدافع المضادة للطائرات، وعيّن الأميرالاي علي الشريف بك مديراً عاماً لمصلحة الحدود، وزار المرشال جورنج قائد الجو النازي الشهير إيطاليا فحبس العالم أنفاسه من نتائج الزيارة وخطب عصمت إينونو رئيس جمهورية تركيا طالباً حياد بلاده وتركها بعيداً عن الحرب، وصدر قرار بعدم استقدام فرق التمثيل الأجنبية توفيراً للنفقات، وتقديراً لفرق التمثيل المصرية، وعلق أحد الخبثاء بأن طرق المواصلات العالمية مقطوعة بالأصل، وأعاد «سيرج بوجولوسكي» وهو فنان أجنبي مقيم في باريس،

لوحة «المستهتر» التي كان سرقها من اللوفر في يونيو الماضي. قال إنه يحب الفنان الفرنسي «واتو» من فناني القرن الثامن عشر ويحب هذه اللوحة وأراد أن يجري عليها بعض الترميمات، وقال الخبراء إنه في الحقيقة أفسدها مما جعل الحكم يصدر عليه بالسجن عامين، وأقيمت الصلوات في الإسكندرية بالمدافن الفرنسية، على أرواح وقتلى الحرب الأولى من الفرنسيين، وحضر الصلاة قنصل فرنسا العام وأعيان الجالية الفرنسية، وبدا في الأفق أن هتلر لن يهاجم الجبهة الفرنسية قبل الربيع القادم، وطعن عز الدين عبد القادر الذي أطلق الرصاص على سيارة النحاس باشا من قبل، في الحكم الصادر ضده بعشر سنوات، وتأجل نظر الطعن، وأقيمت أعياد الميلاد الملكية أكثر من مرة، أحدها للأميرة فوزية بمناسبة بلوغها التاسعة عشرة، وتم الاحتفال في وقت واحد بالقصر الملكي بالقاهرة، والقصر الإمبراطوري في طهران، حيث إنها زوجة ولي العهد الإيراني، وأقيم عيد ميلاد الأمير محمد علي ولي العهد التي أتمّ الخامسة والستين، وكذلك الأميرة فائزة التي تستقبل عامها السابع عشر، واحتفلت سفارة رومانيا ببلوغ صاحب السمو الملكي الأمير ميشال سن الرشد، أي الثامنة عشرة من عمره، وهو ابن الملك كارول الثاني، والأميرة هيلين اليونانية، ووقعت أكبر معركة جوية بين القوات الفرنسية والألمانية فوق إقليم الإلزاس، وأسقط الفرنسيون تسع طائرات ألمانية، وحاول الملك «ليوبولد» ملك بلجيكا، والملكة «ولهلمينا» ملكة هولندا، الصلح بين الأطراف المتحاربة، فتقدما بمبادرة لذلك، وظهر إعلان أقراص ري زيكس (Re-Zex) يعلن «يا رجال مصر إن العلم قد جاءكم من أمريكا البعيدة، كن كأنك في العشرين مع أنك في الخمسين، بإحد عشر قرشاً ثمن علبة أقراص ري زيكس ولا تخجل بعد من نقص قوتك الجسيمة والحيوية» وخطب هتلر في مشرب البيرة بميونيخ حيث سبق له أن أعلن الثورة عام 1923، وأعلن أن ألمانيا تقاتل في سبيل مجالها

الحيوي، ثم بعد ذلك أعلن عام 1937 أن المجال الحيوي لألمانيا هو أوروبا الشرقية، وأن بولندا وروسيا البيضاء وأوكرانيا، دول يجب أن تزال من الوجود، وتباد شعوبها، وتدخل ضمن الممتلكات الألمانية، لذلك عندما دخل بولندا لم يتوان الروس عن دخولهم من الناحية الأخرى لتأمين أوكرانيا وروسيا البيضاء، فإذا حدث وانقلب هتلر عليهم، اقتسم الروس معه بولندا. وبعد انصراف هتلر، انفجرت قنبلة في مشرب البيرة فانهار سقفه، لكن لم يصب أحد بسوء، وتبرع صاحب الجلالة بمبلغ ثلاثمائة جنيه، لصندوق الإحسان التابع لوزارة الشؤون الاجتماعية، وبدأت المخاوف في بلجيكا وهولندا من احتمال خرق ألمانيا لحيادها، وارتفع سعر البيض المصري إلى مائتين وثمانين قرشاً للألف بيضة، بعد أن كان مائة وثمانين، واحتفلت تركيا بذكرى وفاة أتاتورك، وبدأت أمستردام في غمر أجزاء من حدودها بالمياه لعرقلة أي هجوم ألماني، وأعلنت بلجيكا التعبئة العامة وأجريت مناورات مشتركة، بين الجيش المصري والبريطاني في الصحراء الغربية، وتمّ بناء مركزين للتليفون الأوتوماتيكي بالإسكندرية في الإبراهيمية وجليمونوبلو، واشتكى أصحاب مصانع الكبريت من التسعيرة الجبرية الحكومية التي لا تناسب ارتفاع أسعار الخشب ومواد الصناعة، وعثر في ناحية فيكتوريا على جثة شاب في حوالي الخامسة والعشرين ملقاة في ساقية، وانفصل لوريل وهاردي، وظهر هاردي في الصحف يقوم بتمثيل فيلم جديد مع هاري لانجدن، فعمّ الناس الغم، وقامت طالبات مدرسة الأميرة فائزة بتوزيع ملابس داخلية وخارجية، على طالبات التعليم الابتدائي بالإسكندرية، بمناسبة عيد ميلاد صاحبة السمو الملكي، وتقدمت امرأة فقيرة إلى النائب العام تشكو اختفاء ابنتها التي كانت قدمتها لأحد مكاتب الخدمة للعمل منذ سبعة أشهر، واكتُشِف بعد البحث أن مخدوم الفتاة الأول، باعها لامرأة تدير أحد بيوت الدعارة بقنا، وأن هذه المرأة بدورها باعتها لبيت دعارة آخر في المنيا، الذي

باعها بدوره لبيت دعارة في الإسكندرية ثم بيعت لبيت دعارة في طنطا، وهكذا استمرت طوال هذه الشهور السبعة تباع لمختلف بيوت الدعارة شمال وجنوب البلاد.

* * *

«إن المدنية تصبح عالماً عندما يحب المرء أحد سكانها..»

9

في «العيد الصغير» تأكّد مجد الدين من ضياع أرضه. زاره زوج أخته وعرف بموت البهي وأوصاه مجد الدين بأن لا يكلف أمه مشقة الحضور لزيارة قبر ابنها، والأفضل أن يتكتم الخبر. أخبره زوج أخته أن هناك مشروعاً لطريق سريع في القرية، سيمر من أراض كثيرة، من بينها أرض مجد الدين، وأن لا أمل لأحد في تعويضات مناسبة، وأن العمدة هو الذي وراء هذا المشروع. تذكر مجد الدين قول البهي له «عليك العوض في أرضك» وسكت طويلاً حتى سمع ابن عمه وزوج أخته يقول:

ـ الأحكام العرفية ماشية في البلاد والعمدة يقدر ينفي أي واحد، العمدة يقدر يقتل أي واحد، الطوارىء تعطيه الحق في أي تصرف، ربنا يستر على البلاد والناس.

إذن يمكن قتل مجد الدين بسهولة، هذا ما يوحي به كلام زوج أخته.

ـ على أي حال إذا حدث وحصلتم على أي تعويضات أرسلها إليّ.

سلّمه زوج أخته عشرين جنيهاً أحضرها له من محصول الأرض. أدرك مجد الدين أن هذه آخر نقود يتسلمها من أرضه وخيرها، وأدرك أنه لا

فكاك له من البقاء في الإسكندرية وإلى الأبد..

كانت نسمة البرد قد مشت أكثر في الإسكندرية، بل وأمطرت السماء لعدة أيام على فترات متقطعة بالليل فوحلت الأزقة والشوارع في المناطق الجنوبية للمدينة، كانت زهرة لا تعرف كيف ستقضي العيد في المدينة الجديدة، فوعدتها كاميليا وإيفون، بأن يصحباها في نزهة بالمركب في ترعة المحمودية، ثم زيارة حديقة الحيوان، لكن زهرة قالت إنها لا تستطيع عمل ذلك. قالت لها الست مريم إذن عليها أن تصحبها إلى حلقة السمك في الأنفوشي عصر يوم الوقفة لشراء الأسماك للعيد، وإن أسماك الإسكندرية لا تقاوم، فوافقت زهرة على الخروج معها، خاصة أن مجد الدين طلب منها أن تحتفل في العيد، وكأنها في قريتها ولا داعي للحزن الذي لا طائل من ورائه. كان هو قد تعود أن يشتري «الفُترة» من طنطا، واشتراها هذا العام من «الميدان».. اشتَرى كميات قليلة جداً من الياميش، وليس كما كان يشتري كل عام. وكانت زهرة في حاجة للخروج من البيت مرة أخرى، صحيح أن حياتها في البيت تمضي بهدوء وتسعدها الفتاتان الجميلتان بروحيهما الجميلتين، وكذلك الست لولا ذات الجسد البارع والجمال الطاغي، والتي بدا أنها أيضاً تتمتع بخفة طبع محببة، لكن ذلك لا يكفيها. تعودت في القرية أن تخرج للشمس والريح في الحقول، وإلى الظل والهجير مع مجد الدين أو وحدها. قدماها تطلبان المشي، وجسدها يلح في طلب الهواء النقي.

ركبت الترام مع الست مريم، ترام أبو وردة. ستنزل في نهايته، وتمشي قليلاً في شارع التتويج حتى الشاطىء. أمامها قصر الملك الأبيض ذو النوافذ العديدة، والنخيل السلطاني العالي يتمايل تحت الريح، والحرس شاكي السلاح، وقليل من الرجال يمشون في الطريق. كثير من النساء في الملاءات اللف المحبوكة على أجسادهن السمينة. سيارات

قليلة من نوع ستروين وبكار تقف مع الناس أمام حلقة السمك. رائحة يود البحر تغلب على رائحة الزفارة وتنعش الصدور، الهواء بارد، والغيوم السوداء تغطي البحر، وصوت موج البحر، الذي تحجب رؤيته بناية الحلقة وقسم البوليس، يصل إليهما. أمام الحلقة يجلس الباعة على الرصيف أو يقفون بالصديري الأسود أو الأبيض، وتحته اللباس الإسكندراني الواسع، أبيض أو أسود فضفاض وعلى الرأس البرنيطة البيضاء، ذات الحافة الدائرية المشغولة باليد. وعلى المناضد المنخفضة طاولات الأسماك المدهشة. موزة فضية، بطاطا بيضاء وسوداء وحمام، أجل، سمك أحمر كبير البطن قالت عنه الست مريم إنه لا يصلح لشيء، والفقراء يصنعون منه شوربة السمك، وجفلت زهرة بعيداً عنه، إنها لا تحب أن تكون من الفقراء وتشتريه، رغم لونه الجميل. لكن المرجان أكثر جمالاً منه وقيمة، لذلك اشترت منه، واشترت كذلك من البوري «المليان»، ورأت الدنيس والشراغيش، والمياس، والمرمار. كانت الست مريم تشرح لها ميزة كل نوع. حتى «البساريا» قالت عنها إنها تصلح لعمل طاجن فاخر رغم تفاهة سعرها، وأنه لا يعيب من يشتريها أن يكون من الفقراء لأنها لذيذة الطعم، وأنها ستعلمها طهوها وستشتريها أمامها وستعلمها أيضاً طهو صيادية الأرز الأحمر، ولأمر غير مفهوم فكرت زهرة فجأة في تمثال محمد علي باشا فوق جواده بالمنشية، وهل يمكن له أن ينزل عن قاعدته، يعيدها إلى قريتها ومعها مجد الدين. لا بد أن الست مريم، أدركت بفطنتها شرود زهرة عنها للحظات، لذلك قالت لها:

ـ ما رأيك أن نمشي قليلاً على الكورنيش، ما زال الوقت مبكراً على المغرب؟

ـ السمك يفسد.

ـ الجو بارد والسمك طازج.

ومشت زهرة كطفلة تركت نفسها لأمها لا تبتعد عنها..

في العيد أدرك مجد الدين ضياع أرضه، وبقاءه في الإسكندرية، وما كاد زوج أخته يفارقه، حتى وجد أنه في حاجة للخروج. لا تكفيه زيارة البهي، وتوزيع الرحمة عليه. ولا عمل له في العيد. لا عمل عموماً للعمال المؤقتين. وتمنّى أن يزوره دميان، وفي صباح اليوم الأخير فقط زاره دميان. لكنه كان وقتاً مناسباً إذ أوشك مجد الدين على الانفجار فهو لا يعرف إلى أين يذهب في الإسكندرية أبعد من المحمودية والمقابر في كرموز.

ـ ما رأيك أن تعطي زوجتك فرصة للجلوس مع الجيران وتأتي معي؟

هكذا قال دميان بعد أن جلس مباشرة فوافق مجد الدين بلا تردد. لاحظ أن دميان يرتدي حذاء. منذ أسبوع وهو يرتدي حذاء جديداً. ويرتدي هذه المرة بنطلون صوف نظيفاً فوق سترة صوفية قديمة لكنها نظيفة. قال لمجد الدين:

ـ مضى علينا شهر نعمل بانتظام. اشتريت الحذاء متفائلاً بعدم انقطاع العمل، لكن دحرجة البالات عملية شاقة يا شيخ مجد وأنا هزلان.

ـ ستتعود يا دميان. تحمَّل حتى نجد عملاً أفضل.

ـ اشتريت الحذاء الجديد أيضاً متفائلاً بالعثور على عمل أفضل، لكن.. أنا لا أعرف أي عمل أفضل مما نفعل؟

ضحك مجد الدين بهدوء ثم خرج مع صديقه يستقلان الترام، وسط صخب الأطفال في شارع البان، بملابسهم الزاهية، ودراجاتهم الملونة التي يجرونها على الأرض غير الممهدة بصعوبة، وبين تجمعات الأطفال حول باعة البالونات والبخت والآيس كريم رغم البرد.

في دوران الترام بسيدي كريّم، كان الأطفال أكثر حيث الأرض مسفلتة

وكانت أصواتهم تملأ الفضاء. واستقلّ مجد الدين الترام مع دميان.

كانت مشاهد الأطفال لا تنقطع حول الترام التي تمشي بطيئة. عصافير ملونة بهيجة. نزلا في شارع الخديوي. كانت معظم محلاته مغلقة، انحرفا إلى ميدان المحطة.

الفرقة الموسيقية العسكرية تتوسط الحديقة وتعزف أغاني محمد عبد الوهاب وأم كلثوم، حولها زحام من الأطفال والشابات والشباب، وفلاحون وافدون وأبناء المدينة.

ـ خد بالك من اللصوص في الزحام.

قال دميان لمجد الدين وهما يقتربان من المستمعين. لقد وقفا ساعة كاملة مرت عبقرية لم يشعرا بها. لم يكن مجد الدين يعرف من قبل أن الموسيقى يمكن لها أن تحمل الإنسان إلى هذه السماوات من الأثير.

ومشيا يبتعدان في صمت كأنهما خارجان من صلاة، لكن حلقة الحاوي بدت مغرية بالوقوف.

ـ هنا السرقة حقيقة. نصف الواقفين لصوص حقيقيون يعرفهم الحاوي.

قال دميان ورد مجد الدين:

ـ في جيبي نصف جنيه إذا أرادوا فليسرقوه.

ابتسم دميان وقال:

ـ أنت واعي يا شيخ مجد، أنا أوعى منك. ليس في جيبي شيء.

وانطلقا يضحكان ويقتربان من الحلقة.

في الوسط كان الرجل الذي في حوالي الخمسين، يقف مرتدياً بنطلوناً قديماً ضيقاً وسترة ضيقة أيضاً تحتها بلوفر برقبة أبيض وحذاؤه رخيص أسود، كبير الحجم بلا رباط، تباعدت أذنا كل فردة منه، وبدا أنه لم

يسبق للرجل أن مسحه بالورنيش، وساعد على كبر الحذاء ضيق نهاية البنطلون، وارتفاعه عن قدمه قليلاً، ودقة الساق ونحولها، فكان الجورب القديم يسترخي فوق الحذاء.

ـ أنظر، جزمة شارلي شابلن. وشاربه أيضاً!

هتف دميان، وكان للرجل شارب شارلي حقاً ولا يزال يحتفظ بالشعر الأسود. لم يكن مجد الدين يعرف شارلي شابلن وسأله دميان:

ـ ألم تشاهد السينما من قبل؟

ـ نعم.

ـ سآخذك يوماً لفيلم من أفلام شارلي شابلن.

كان الحاوي يشرح ما سيقوم به. المعجزة التي لا يعرفها أي ساحر في العالم. ولا «هوديني» الكافر! لم يكن أحد يعرف من «هوديني» هذا. قال الحاوي إنه يستخدم أحد الأشخاص كطلمبة مياه. وسيجعل المياه تنزل من فمه وأنفه حقاً. وأشار إلى فلاح شاب حاف، يرتدي جلباباً غير نظيف وشعره منكوش أن يتقدم منه. أمره أن ينحني فانحنى. وحين رفع الفلاح رأسه قليلاً وهو منحن ينظر إلى الجمهور، نهره الحاوي أن لا يفعل ذلك، حتى لا يعطل سير المياه. «الميه ما تطلعش العالي يا حمار!» وضحك الجمهور. وقف الحاوي خلف الرجل عند عجيزته تماماً، وراح بيده يدير ذراعاً وهمياً كذراع طلمبة المياه والكل في صمت، وفجأة فرد الرجل المنحني كفيه تحت فمه، وانهمر الماء منه دفعة واحدة على كفيه، ونهض وقد اختنق، فراح يسعل بقوة، والحاوي يضربه على ظهره بقوة لمساعدته على التنفس، ثم راح يدور سعيداً بين الجمهور الذي استغرق في الضحك والدهشة... «شفتو العملية الجبارة. أتحدى أي ساحر. ولا هتلر نفسه. هتلر اللي هيعلم الإنجليز الأدب، ويعمل فيهم حاجات وحشة، يعني...» وارتفع ضحك الجمهور أكثر بعد أن قال اللفظ

القبيح، وكان في يده «دفٌ» صغير راح يتلقى فيه القروش والملاليم والبرونزات والنكلات، التي يجود بها الجمهور. كان الفلاح الذي شاركه في العرض قد عاد إلى الجمهور، ثم بدأ الحاوي يتحدث عن لعبة أخرى سيقوم بها، لكن دميان هتف له طالباً أن يعيد عرض الطلمبة. بدا الحاوي لم يسمعه أو يتجاهله، فاستمر دميان يهتف طالباً ذلك، وانضم إليه عدد من الجمهور فوقف الحاوي حائراً. كان قد أخرج شرائطه الملونة التي سيقدم بها عرضاً جديداً من شنطة قماش على الأرض، فأعادها إليه ونظر إلى دميان في تحدٍّ:

ـ تريد عرض الطلمبة، طيب تعال أنت.

كان دميان قد تابع بعينيه الشخص الذي سبق وشارك في العرض ورآه قد ابتعد حتى اختفى. وترك نفسه للحاوي الذي أمسك به من ذراعه وقال للجمهور:

ـ لو ما نزلش منه ميه يبقى مسدود.

انطلق الجمهور يضحك، وتضايق دميان، وردد بعض الجمهور الهتاف مؤكداً أن المياه ستنزل منه. أمره الساحر أن ينحني قائلاً كلمة قبيحة أخرى، فامتثل دميان، بعد أن فكر للحظة في خطأ الأمر كله. لقد أراد أن «يحرج» الحاوي المسكين أمام الناس، لكنه ليس في ذكائه، فربما يجعله الرجل مسخرة للمشاهدِين، لكنه لم ينسحب. انحنى وتراجع الحاوي إلى الخلف قليلاً، ممثلاً أنه يدقق النظر إلى مركز إليتي دميان، والجمهور يضحك، ثم بدأ الحاوي يدير أصبعه السبابة في الفضاء أمام الإليتين، والجمهور يضحك، والحاوي يقول «لازم ننظفها» والجمهور يضحك، ودميان يرتفع الدم في وجهه ومجد الدين يتأسف على الوضع الذي وضع صديقه نفسه فيه، ثم هتف الحاوي «هوب» وأدار ذراع الطلمبة الوهمي، لكن لا مياه تنزل من فم دميان، والحاوي يقول «انتظروا

المفاجأة. لا يأس مع الحياة. النداء الخالد للزعيم سعد زغلول»! ثم تراجع إلى الخلف، وبأقصى ما استطاع من قوة، ركل دميان في إليتيه، فألقاه أرضاً على بطنه، وكاد وجهه يصطدم بالأرض، لولا أنه استند على ذراعيه. ووقف الحاوي يقول للجمهور «طلمبته فاضية عذبت الجان على الفاضي علشان كده ضربته فيها!».

وكاد مجد الدين قد تقدم يساعد دميان على الوقوف، والجمهور انطلق في ضحك صاخب، حين قفز زميان فجأة على ظهر الرجل جالساً فوق مما جعل الرجل ينحني إلى الأرض من قوة اندفاع دميان الذي صار يجلس على ظهره فعلاً، وراح بيديه يضرب الرجل ضربات سريعة على قفاه، ثم قفز من فوقه إلى الأرض واقفاً مستعداً لأي شجار. لكن الحاوي نظر إليه ثم جرى إلى أشيائه المكومة على الأرض، وجمعها في شنطته القماش، وجرى تاركاً المكان كله.

لقد تناثرت النقود التي سبق أن جمعها واندفع إليها الجمهور من كل الأعمار يجمعها، وانصرف مجد الدين ودميان صامتين تاركين المكان كله داخلين في شارع النبي دانيال آخذين طريقهما إلى محطة الرمل. لم يستطع مجد الدين بعد أن ابتعد بدرجة كافية، أن يمنع نفسه من سؤال دميان:

ـ ما الذي جعلك تفعل ذلك؟ كلنا يعرف أن الحاوي نصّاب لكنها فرجة وأكل عيش.

ـ أنا لا أعرف لماذا فعلت ذلك حقاً يا شيخ مجد، المؤكد أنني كنت أقصد الضحك معه.

* * *

لم يكن مجد الدين قد رأى من قبل الدنيا ملونة كما هي اليوم. العيد في القرية يتسع لألعاب الأطفال والصبية والقراقوز وصندوق الدنيا،

وملابس الأطفال جديدة أيضاً لكن شيئاً ما يجعل الملابس تبدو قديمة. ربما رداءة أنواع الأقمشة وطريقة التفصيل، لكن المؤكد أن لون البيوت الكابي، والغبار الذي تثيره الحمير التي يركبها الأطفال، لهما أثر في أن يظهر كل شيء كأنه قديم. هو على أي حال لا يريد أن يتذكر القرية الآن. فلتأخذه الإسكندرية إلى جوفها. الفضاء الأبيض الآن أشد بياضاً منه في غيط العنب. زرقة البحر الممتدة تمنح الإنسان الإحساس بالراحة والوداعة. انجلت الغيوم عن المدينة اليوم وخفت الرياح الباردة، وقيل للناس اخرجوا للمرح.

ـ بوارج لحدّ بحري والمكس، إنجليزي وفرنساوي وأسترالي وغيرها.

قال دميان لمجد الدين حين رآه يحملق في السفن الحربية، التي تملأ المينا الشرقية من بعيد عليها أعلام أجنبية، وعلى سقفها مدافع كبيرة وصغيرة وجنود يتحركون بأعداد قليلة، وتتحرك ظلالها إلى جانبها صاعدة نازلة مع الموج. هل يمكن حقاً أن يصل هتلر إلى الإسكندرية؟ كل شيء حوله يوحي بذلك منذ وصوله.

كان الوقت ظهراً، وبدا تمثال سعد زغلول عالياً مهيباً وهو ينظر إلى البحر، مشيراً إلى أسفل. بالحديقة تحته الأطفال يمرحون، والشباب والشابات في جلسات وادعة. هذا يوم خريفي بديع، حبس فيه حارس المطر مياهه عن الشعب السعيد.

ـ هؤلاء جنود أستراليا.

كان مجد الدين يتأمل عدداً من الجنود الطوال، على رؤوسهم بيريهات زرقاء. واستطرد دميان.

ـ إنهم يتحدثون الإنجليزية كالإنجليز لكنهم أطول، إذا وجدت اثنين من الجنود فالأطول عادة هو الأسترالي، بلادهم واسعة.

أراد مجد الدين أن يعابث صديقه فقال:

ـ وماذا يفيدني من تمييز الأسترالي عن الإنجليزي؟

تأمله دميان قليلاً ثم ابتسم وقال:

ـ صحيح. ماذا يفيدك أو يفيدني؟ ربما يكون للكلام أي فائدة لا نعرفها.

ضحكا وانطلقا يمشيان، وقابلا أعداداً من الجنود الأفارقة يمرحون وغيرهم من الهنود. فقال دميان:

ـ جنود من كل الدنيا. الأفريكان لهم ذيول صغيرة. كل الناس تقول ذلك، الهنود يمشون واثقين في أنفسهم كأنهم في عزبة يمتلكونها. تعرف أنني أتمنى لو ضربت أي واحد منهم على قفاه وجريت.

ـ هؤلاء مساكين يا دميان تركوا بلادهم غصباً، ولا أحد منهم يعلم إذا كان سيعود أم لا.

وسكت دميان متأثراً بحق، لكن أعداداً من الجنود الإنجليز ظهروا يمشون على الكورنيش بينهم عدد من المجندات الجميلات. كان كل جندي قد أحاط زميلته بذراعه، مشى يقبلها قبلات لذيذة سريعة وسط الجو المنعش، وعلى غير موعد أقبلت من الخلف أعداد من عربات الحنطور، تجري في سباق مجنون، حاملة الأحباء من أولاد البلد، ومن الأجانب، والسكارى من الجنود والمجندات، فرفع المشاة قبعاتهم وبيريهاتهم تحية للراكبين، وامتلأ الفضاء بالصخب المجنون.

ـ الآن نحن في المنشية. هذا تمثال إسماعيل باشا.

قال دميان وأشار إلى النصب نصف الدائري الأبيض يتوسطه التمثال.

ـ إسماعيل باشا جد الملك فاروق. واحد من أهله يعني. هو الذي بنى دار إسماعيل للنسوان تولد. ويقولون إنه هو الذي بنى مدينة

الإسماعيلية، وإنه الذي علّم البنات.

كان مجد الدين في غير حاجة الآن لسماع أي كلام. أسلم نفسه لدميان حقاً لكنه كان يريد أن يشرب من الهواء الخفيف المنعش. ومن مياه البحر، فصدره يتسع بالنشوة، وسيؤجل صلاة الظهر إلى العصر، أو يؤجلهما معاً حتى يعود إلى منزله في المغرب. لقد أخبره دميان أنهما سيمشيان حتى الأنفوشي، وهو سعيد بذلك. ولا بد أن دميان أدرك رغبة صديقه الخفية، فقد سكت فجأة عن الكلام، ومشى صامتاً.

* * *

حين أمطرت الدنيا بعض أيام في رمضان صارت الشوارع موحلة، والأرصفة التي بلا بلاط أيضاً، في الصباح الباكر يخرج الناس إلى أعمالهم، والطلاب إلى مدارسهم، يمشون أقرب ما يستطيعون إلى الجدران. ورأى مجد الدين عند دوران سيدي كريم، المياه وقد تراكمت بكثافة جوار الأرصفة. حتى أن الواحد يضطر للخوض فيها ليعبر الدوران، أو ليصل إلى الترام. المنطقة مسفلتة وهي نهاية منحدر يبدأ عند كوبري راغب، والمجاري ضيقة لا تستوعب كل هذه المياه.

وجد مجد الدين ثلاثة شبان يقفون على الرصيف، حفاة رفعوا أرجل بنطلوناتهم حتى أعلى ركبهم، وارتدوا بلوفرات قديمة ضيقة ممزقة عند المرافق والأكتاف، وكانوا يعرضون خدماتهم لحمل المارة من الرصيف إلى الرصيف الآخر، أو إلى الترام مقابل مليمين للفرد الواحد. كان بعض المارة قد وضعوا صفاً من الأحجار بمثابة جسر للعبور عليه، فرفعها هؤلاء الشباب الثلاثة وجعلوا من أنفسهم جسراً وحيداً. كانت النساء والفتيات تضطر للمشي حتى كوبري راغب، والعبور إلى الناحية الأخرى، حيث لا تتراكم هناك المياه، ثم العودة إلى الترام.

من بين هؤلاء الشباب كان (حميدو)، الابن الوحيد لأمه التي تبيع

الخضار في مدخل البيت المقابل لبيت ديمتري، والتي كلما اشترت منها زهرة شيئاً عادت بحكاية مدهشة من حكاياتها التي لا تنتهي. في وجه حميدو آثار جرح طويل يشق الخد من أعلى إلى أسفل، وفي جسده قوة حقيقية، وهو بعد أن ينتهي من هذا العمل العجيب يسحب عدته، عدة ماسح الأحذية، ويعلقها على كتفه، ويمضي إلى الميادين العامة أو المقاهي. كان حميدو دائماً منكوش الشعر، رؤيته للوهلة الأولى تعطي انطباعاً بأنه مجنون، فهو لا يحادث أحداً في الشارع، ولا يُرى إلا وفي يده فرشة التلميع، وفي يده الأخرى ساندوتش طعمية يقضمه بشراهة، ثم يضع ما يتبقى منه، في أي شق يقابله في أي حائط.

رأى مجد الدين حميدو يحمل الناس يعبر بهم بين الأرصفة نظير الملاليم، ولما سأل دميان هل هذا العمل العجيب أمر عادي في الإسكندرية قال دميان «ذلك يحدث أيام الجوع فقط».

اليوم ألحّت صورة حميدو على مجد الدين، وهو يمشي مع دميان على شاطىء البحر، في بحري والأنفوشي. كان الهواء يلعب برؤوس النخيل الهندي الأخضر السعف، الزاهي الخضرة الطويل السامق الرشيق، أمام العمارات الكلاسيكية الباروكية الشرفات والواجهات. للهواء هنا طعم الماء العذب السلسبيل، والكورنيش يستدير في ليونة وفلائك الصيد مركونة إلى الشاطىء فوقها وأمامها الشباك مكومة أو مفرودة، ولا أحد من الصيادين، فاليوم عيد وكل شيء في حراسة الله.

زحام الفتيات والفتيان، ورائحة اليود والعشب تسري منعشة في الفضاء، وباعة اللب والفول السوداني والبطاطا المشوية، والحناطير التي كانت قد أسرعت من قبل ولا تزال تأتي مسرعة تتوقف بالعشاق أمام باعة السمك المقلي وفواكه البحر، بلح البحر والجمبري والجندوفلي والكابوريا، لكن مجد الدين وجد الموقف كله لا يليق به. كيف وهو

الشيخ الورع يشاهد كل هذه المشاهد من العشق والدلال والعبث؟ لذلك طلب من دميان العودة بأسرع ما يمكن خاصة وقد اقتربا من العصر، والمسافة من العصر إلى المغرب في الشتاء تمر كلمح البصر. قال دميان:

ـ نحتاج إلى كوب من الشاي في أي مقهى، ما رأيك؟

فكر مجد الدين أن الجلوس بالمقهى أكثر مناسبة له من هذا الصخب. أخذه دميان بعيداً عن الشاطىء، من شارع التتويج، بين حركة الترام والمحلات المزينة والأطفال. لا بد أنه أدرك ما يدور بذهن صديقه. بسرعة وصلا إلى المنشية، التي انفتحت أمامهما واسعة نظيفة تجلو البصر بالضوء الساقط بين عماراتها القصيرة العريضة، وشرفاتها الكبيرة الواسعة ذات الأسياخ الحديدية ومحلاتها المغلقة في العيد سوى المطاعم المفتوحة والبازارات والصيارفة الذين يجلسون على الرصيف أمامهم «البنك» الزجاجي به العملات الورقية والفضية من كل بلادالعالم. يجلس كثيرون منهم اليوم رغم العيد يرتدون نظاراتهم التي لا تفارق عيونهم، وتمثال محمد علي باشا يقف شامخاً في وسط الميدان. جلسا في مقهى النيل، وقال دميان:

ـ هذه قوة السماسرة. أمامك البورصة ـ وأشار إلى المبنى الأبيض الفخم، ذي النوافذ الطويلة المرتفعة، والشرفة الفسيحة، الذي يتوسط الميدان ـ وهذا شارع توفيق. البورصة مغلقة اليوم. هذه البورصة ما أكثر ما فتحت من بيوت، وخربت أيضاً بيوتاً كثيرة.

علّق مجد الدين بسرعة على حديث دميان، وكان يدور، بلا إرادة منه، بعينيه على الجالسين يتفرس سحناتهم المتخمة بالنعمة ونظاراتهم البيضاء السميكة أو القاتمة، ذهبية الشنابر. الذين كانوا لا يرتدون النظارات، كانت عيونهم مسلطة على شيء بعيد غير موجود. وكانت رائحة «التبغ» ترتفع جذابة في الجو، فأشعل لنفسه سيجارة لف وأخرى

لدميان، ووجد «حميدو» يدخل المقهى حاملاً «كرسي الورنيش». رآه يقف بدوره يتفرس الجالسين، ويدقّ بظهر الفرشاة على الكرسي دقات خفيفة، مسموعة، ورآه بسرعة يتقدم ناحية ضابط إنجليزي، يرتدي زيه العسكري، قد خلع «الكاب» الصوف الأخضر ووضعه جواره فوق المنضدة. كان للضابط وجه أحمر قوي، وكان في حوالي الثلاثين من عمره.

جلس حميدو أمام قدميه واضعاً تحتهما كرسي الورنيش، وبدأ يمسح الحذاء الأسود، ذا الرقبة والكبسولات البيضاء، انشغل الضابط بقراءة جريدة أجنبية.

لم يرفع مجد الدين عينيه عن حميدو، الذي رآه بعد أن انتهى من تلميع الحذاء الأسود يتحسسه بأصابعه. لم يدرك ماذا يفعل بالضبط. سحب حميدو كرسي الورنيش من تحت القدمين، وأراحهما بهدوء إلى الأرض ووقف. أعطاه الضابط ورقة نقدية من فئة الجنيه رآها مجدي الدين جيداً. أخذها حميدو، ومدّ يده وأخذ العصا التي كان الضابط يضعها فوق المنضدة والضابط مندهش العينين. هي لحظة، قبل أن يتكلم الضابط أو يحتج، كان حميدو فيها قدجرى من أمامه بالعصا والجنيه. حاول الضابط اللحاق به. وقف وما كاد يتقدم مسرعاً، حتى سقط سقطة فظيعة على الأرض كاد رأسه يشج فيها ووجهه يتشوّه. لقد أفاده وجود أكثر من كرسي أمامه استند عليها، فسقطت به ولم تصطدم بوجهه. في النهاية صار ملقى على ظهره في ألم رافعاً رأسه متطلعاً إلى قدميه. حين تحسّس حميدو الحذاء كان قد ربط الفردتين كل منهما في الأخرى برباط الحذاء نفسه، لذلك أراح قدمي الضابط بيديه إلى الأرض. لقد حدث هرج بالمقهى. ووقف أحد الضباط الإنجليز بعيداً وأخرج مسدسه، بينما وقف جندي هندي ذاهلاً يتابع بعينيه حميدو الذي يجري في شارع

توفيق، وضحك رواد المقهى للحظة ثم دخلوا في الصمت، إشفاقاً على الضابط الشاب المتألم فوق الأرض. تقدم إليه الجرسون بسرعة، وفك قدميه، وساعده على النهوض، والعودة إلى مقعده، صار كل رواد المقهى ينظرون إليه في صمت ينتظرون رد فعله، وكان هو صامتاً بدوره، ثم قال بالعربية «ابن خرام» فضحك الجميع، ونهض هو تاركاً المقهى في خجل.

* * *

تقدمت الأيام الأخيرة من العام بسرعة. تزايد فيها المطر حتى كاد يغرق المدينة. هذه المدينة في الشتاء تصبح كالذي ركبه عفريت. المطر لا ينقطع لعدة أيام، ثم يغيب أياماً ليعود متصلاً. كثيراً ما ينزل البرد من السماء بلورات ثلجية صغيرة. قلّت فرص العمل وتمّ توفير مجد الدين ودميان من شركة الغزل، وعليهما العودة للهرولة من جديد على الشركات. قلّت السفن القادمة إلى المحمودية. قالت الست مريم لزهرة إن الإسكندرية في هذه الأسابيع الأخيرة من العام تهب عليها نوّات متعاقبة شبه متصلة حتى عيد الغطاس، وسوف تزداد هذه النوات مع الشهر القادم آخر شهور العام، وقالت كاميليا ضاحكة إن أصوات الرعد ستكون كالقنابل وسوف تهزّ البيوت، وإن البرق سيخطف الأبصار وراحت زهرة تنظر إليها بإعجاب، وقالت كاميليا إن أحسن مشاهد الإسكندرية، تكون في الشتاء على الكورنيش، عندما يندفع الموج عابراً الشارع، ضارباً العمارات بالمياه، وأن الشتاء يمنعها من الذهاب لمشاهدة فيلم عبد الوهاب الجديد «يحيا الحب»، وصار ظهور عم محمود بائع نشرات الحوادث قليلاً، بسبب الظلام والبرد والمطر، لكن أخبار الحوادث كانت تنتقل بين الناس، فعرفوا حادثة الشاب الذي قتله زميله بالليل في حي اللبّان، والشاب الثاني الذي عثروا على جثته داخل كشك

مغلق بحي الفراهدة، وثاني حادثة لفتاة تتزوج من رجل وهي متزوجة من رجل آخر، والشاب الذي قتل والده منذ وقت طويل، وارتفعت الراية السوداء فوق سجن الحضرة يوم إعدامه، وكان مجد الدين يمضي أكثر نهاره بالمقهى عند الكوبري في الأيام الصحو التي لا يحصل فيها على عمل، يؤانسه في الجلسة دميان يطلب منه قراءة الصحيفة التي اندهش كثيراً لإصرار مجد الدين على شرائها كلما تعطل. كيف تدفع خمسة مليمات في كلام لا يفيد أغلبه كذب؟ ومجد الدين صار مغرماً بمعرفة شؤون الدنيا، وكان يكتفي بقراءة المانشتات عن حالة الحرب في العالم، ثم صفحات الحوادث والوفيات لا يعرف لماذا.

كان هتلر قد قام بتصفية خصومه من الأرستقراطية الألمانية وبقايا الإمبراطورية وسائر معارضيه بعد حادث ميونيخ واحتفلت المفوضية الإيطالية بعيد ميلاد الملك فيكتور عمانويل، ومنعت الحكومة المصرية الاتجار بأعقاب السجائر وهي التجارة التي راجت بين أطفال الشوارع، الذين يبيعون الأعقاب في المقاهي والنوادي، ووسائل النقل ومحطاتها، ويجمعونها بسرعة كما تلتقط العصافير حبوبها، أجل، وإن كانوا يلتقطونها باليد، لكن في سرعة العصافير، ثم يبيعونها لمحلات الأدخنة الشعبية، وخطب المستر تشرشل وزير البحرية الإنجليزي الداهية، متحدثاً عن خسائر الحلفاء في البحر في الأسابيع العشرة الفائتة منذ اندلاع الحرب، وكيف أن إنجلترا لا تعبأ بالتهديد، وزارت الهيئة الوفدية ضريح سعد زغلول في يوم الجهاد الوطني الذي لم تحتفل به الدولة، وعرضت سينما الأهلي فيلم علي الكسار (سلفني ثلاثة جنيه).

وتم إنشاء معسكرات جديدة لتدريب الجيش المرابط الذي استعرض قواته وزير الأوقاف في معسكرات سيدي بشر ودمنهور وظهر الجنود في العرض وهم يرتدون البنطلونات الكاكي النصف في عز البرد والبلوفرات

الصوف بنصف الكم فوق القمصان الكاكي ذات الأكمام الطويلة، والطواقي على رؤوسهم، والبنطلونات معلقة في أبدانهم بحمالات عريضة وعلى أكتافهم بنادق «اللي آن فيلد» الطويلة. وافتتح المونسنيور الموسم الشتوي بالإسكندرية بعزف موسيقى أرجنتينية وغناء إسباني، وتم توزيع استمارات على سكان كرموز ومينا البصل والجمرك، لكي يحددوا رغبتهم في الترحيل من الإسكندرية، إذا وصلت الحرب، والأماكن التي يرغبون في الترحيل إليها، ولم يتم توزيع الاستمارات على منطقة غيط العنب، وهي إدارياً تابعة لكرموز، وإن كانت ترعة المحمودية تفصل بينهما، وافتتح الملك الدورة البرلماينة الجديدة وقتل ضابط كان يقوم بالحراسة أمام المحافظة بالإسكندرية برصاصة انطلقت من أحد الجنود وشيعت جنازة الضابط في موكب رسمي ثم نقل إلى بلده قويسنا حيث دفن في موكب رسمي آخر، وأعدم الجندي، وطعن محام بالإسكندرية في الحكم حيث لم تعط المحكمة الفرصة كاملة للجندي الذي أصرّ على أن الرصاص انطلق من بندقيته دون قصد، ورفعت الراية السوداء فوق سجن الحدرة للمرة الثانية في أقل من شهر.

وغرقت الباخرة الهولندية سيمون بوليفا فَلاحَ في الأفق أن الحرب قادمة مع ألمانيا، وتراجعت محاولة الصلح التي قام بها ملك بلجيكا وملكة هولندا، وأعلن أن إنجلترا تنفق على الحرب ستة ملايين جنيه يومياً حتى الآن، وصارت بولندا خراباً كاملاً، وتمّ حصر اليهود في حي واحد، تحيطه الأسلاك الشائكة، وما كاد صباح الأول من ديسمبر يصعد إلى الدنيا، حتى جاءت الأنباء بالهجوم الروسي على فنلندا، وازداد إغراق سفن الحلفاء بالألغام الألمانية، وارتبك العالم من عنف الهجوم الروسي وضرب هلسنكي بالطائرات، وكانت الطرادات الإنجليزية قد أعدت خطة لإغراق البارجة الألمانية المخيفة «جراف شبي»، واستدرجها الطراد

أشيل، والطراد اكستر في معركة يتابعها الناس كل يوم. مباراة دامية بين الذئاب استمرت عدة أيام، دخلت بعدها جراف شبي إلى ميناء مونتيفيديو المحايد ببيرو، فتربّص بها الطرادان خارج المياه الإقليمية. ماذا ستفعل جراف شبي وكيف تخرج من هذا الحصار؟ كان هناك جرحى وقتلى من رجالها وأسرى من البريطانيين الذين التقطتهم جراف شبي بعد إغراق سفنهم، لكنها الآن لا تستطيع الخروج إلى المحيط الأطلنطي. جاءت التعليمات لقائدها بإغراق السفينة خارج المياه الإقليمية، وأغرقها القائد وجنوده أمام المتابعين من كل مكان، الذين انتقلوا إلى مونتيفيديو يشاهدون المباراة المميتة ويسجلونها. وعاد لوريل وهاردي إلى العمل معاً فسعد جمهورهما الكبير، وصدمت سيارة جيش بريطاني مواطناً مصرياً في شارع المكس فتوفي على الفور، ولم يعثر على أهله، وألقى محمد موسى نفسه من نافذة المستشفى الأميري فمات، ولم يعرف أحد هل قتل أم انتحر أم انتابته نبوة هستيريا مفاجئة، واستمر القتال بين روسيا وفنلندا، التي ثبت جنودها وحققوا انتصارات مذهلة، وانتحر الجنرال «لنجسدورف» قائد الباخرة جراف شبي بعد أن عقد مؤتمراً صحفياً قال فيه للصحفيين إنه لا يملك شيئاً يقدمه لهم لكن في الغد سيعطيهم شيئاً كبيراً وبرّ بوعده وأعطاهم انتحاره، وهدّد هتلر إنجلترا بأنه سيقضي عليها بألف طائرة كل يوم، واشتعلت في الشرق الأقصى الحرب بين الصين واليابان فبدا العالم كله كتلة نار، في مكان مجهول منها يجري مجد الدين ودميان وعشرات مثلهما للبحث عن عمل. كان مجد الدين متحيّراً للغاية في أمر ذلك الفتى الصغير شبه المجنون الذي يفاجأ به دائماً يقف جواره أمام أبواب الشركات، أو يهرول إلى جانبه من مكان إلى مكان. لم يكن أحد يعطيه عملاً أبداً، وتعوّد مجد الدين على لهجته الخنفاء وأشفق دائماً عليه، وأعطاه أكثر من مرة خمسة قروش كاملة، ورآه أكثر من مرة يتابعه حتى إذا رآه قد دخل إلى المقهى وجلس، دخل خلفه وجلس بعيداً ينظر

إليه فاغر الفم، فيأمر له مجد الدين بكوب ساخن من الشاي، ويقول له دميان هذا قرينك يا مجد الدين خرج لك من تحت الأرض، ويتأمل مجد الدين الفتى المعتوه ويرى فيه واحداً من أبناء الله الصغار، الضائعين المباركين أيضاً. من يدري. . .

واقترب العام من نهايته، فأحسّت زهرة بالفعل بالخوف من صوت الرعد وقوة الأمطار، وكثيراً ما أظلمت الدنيا نهاراً كاملاً، لكن جلساتها مع الست مريم والبنتين اللتين كثيراً ما تخلفتا عن المدرسة بسبب المطر، كانت تشعرها بدفء حميم خاصة حين تنضم لولا إليهن بنكاتها التي تطلقها على الناس في الشارع، الباعة وأصحاب المحلات، والتي صار زوجها يضربها كثيراً في الأيام الأخيرة، ويسمعون صوت صراخها قادماً من أسفل، لكنها عادة ما تهدأ وينقطع كل صوت ثم يرتفع صوت ضحكها. صارت هذه عادة ليلية ولم يتحدث أحد إليها عن شيء ولم يسألها عن الأسباب.

وكانت آخر حكايات أم حميدو لزهرة عن الكونت زيزينيا، الذي يقاضي الآن بلدية إسكندرية لأنها استولت على أملاكه بالرمل. كانت هناك بالفعل قضية مرفوعة من الكونت زيزينيا على بلدية الإسكندرية يتهمها فيها بالاستيلاء على أراض مملوكة له على البحر، من جليمو نوبلو إلى سابا باشا، وقالت لها إنها عملت خادمة في بداية حياتها في سراي الكونت بالرمل، وهي تعرف أنه على حق فخط الرمل كله ملكه، غير أنه بخيل. هكذا قالت. لذلك رزقه الله بمن أخذ منه كل شيء.

وسألتها أم حميدو فجأة هل تعرف المرأة المسكينة التي كانت تمشي دائماً وراء البهي في الطرقات. قالت زهرة إنها لا تعرفها لكن أم حميدو ابتسمت وقالت إن في غيط العنب «ناس كثير من بلدكم يعرفونها وقالوا إنها كانت في شبابها تحب البهي وأنه سبّب جنونها» سكتت زهرة ولم ترد

ولكن أم حميدو عادت تقول إنها تعرف «نسوان كتير» همن عشقاً بالبهي. إن في وجهه جاذبية قاتلة للنساء، وهي تصدق أن تلك المرأة ضحية من ضحاياه. قالت زهرة بهدوء «هذا تاريخ قديم يا أم حميدو». في ذلك الوقت كان الحانوتي قد عثر على «البهية» جوار قبر البهي، ممددة في الوحل غارقة في مياه الأمطار ممسكة بعصاها بكلتا يديها تشدّ عليها شدّاً. كان يراها منذ أيام جالسة لا تتحرك أمام قبر البهي، غير آبهة بالأمطار والبرد، وحاول كثيراً أن يبعدها، لكنها كانت تنظر إليه نظرة تخيفه فيبتعد. الليلة دخل المقابر يسرق كفناً جديداً، لسيدة موسرة دفنت في الصباح، فرأى البهية ميتة في عودته، فكر قليلاً فيما يمكن عمله، ورقّ قلبه لحال المرأة المنكوبة، وفكّر أنه لو أبلغ البوليس سينتهي الأمر بدفنها في مدافن الصدقة إذ لا يبدو أن ثمة أهلاً لها، فضلاً عما يسببه البوليس من إزعاج. نظر للكفن الذي سرقه ملفوفاً ومكوماً تحت إبطه وإلى المرأة التي تحت المطر، واستغفر الله ولفّها بالكفن المسروق ثم دفنها داخل مقبرة البهي!

انتهى العام بلا هدنة بين المتحاربين، بل زيارات للجبهات العسكرية، من قبل القادة والملوك والرؤساء، ورسالة من الملك جورج الخامس إلى الشعب والجيش بمناسبة عيد الميلاد، ورسالة للجيش من الجنرال جاملان في فرنسا وذهب هتلر بنفسه يمقضي عيد الميلاد مع جنوده في الميدان الغربي، والجميع تمنوا النصر لشعوبهم وجيوشهم، وما زال الفنلنديون يسجلون انتصارات مذهلة، وطردت عصبة الأمم روسيا من عضويتها، وعرض يوسف وهبي فيلمه «أولاد الشوارع» في القاهرة، التي ظهر بها كثير من إصابات التيفويد، وبيعت عشرات من زجاجات الكونياك والشمبانيا والوسكي في الإسكندرية وسهرت ملاهيها على ضوء الشموع في وداع العام القديم، ورقص جنود العالم مع نساء العالم، وبكى

بعضهم، راجين أن يأتي عام جديد أفضل، وقبل انتهاء العام بيومين حدث زلزال رهيب دمَّر قرى عديدة في تركيا، وأخفى مدينة أرذنجان من الوجود، وكانت زهرة تتمنى انتهاء شهر كيهك البارد هذا، ومجد الدين ودميان يجدان عملاً يوماً ويجلسان بالمقهى أسبوعاً، وفي صباح اليوم الأخير من العام جلس الفتى المعتوه بالمقهى أمام مجد الدين الذي أمر له بكوب الشاي لكن الفتى بكى فجأة، فقام مجد الدين وجلس جواره، وسأله لماذا يبكي، فقال وقد اختلطت دموعه بمخاطه:

ـ أبويا قتن أمي بنّين امبانح.

* * *

«صلّوا من اجل خلاص العالم ومدينتنا هذه وسائر المدن»

«كيرياليسون»

10

دقّت أجراس كنيسة ماري جرجس بشارع الرند في المساء. الليلة يقام قداس الميلاد، وغداً يبدأ العيد بذكرى ميلاد المسيح، وخرج الشباب والفتيات في أبهى زينتهم، وكذلك فعل الرجال والنساء، وسرت في الجو رائحة العطور الرخيصة من المارة، ومن الذاهبين إلى الكنيسة، ومن نوافذ كثيرة في البيوت. صارت في الجو حالة من المرح والغبطة جعلت الفتيات والصبية والشباب من المسلمين يشعرون أيضاً بالانتشاء والفرح، وخرجت كثير من الأسر المسلمة تبارك العيد لجيرانها الأقباط، ورأت زهرة كاميليا وإيفون وأمهما، ثلاث وردات ملائكية تشع وجوهها البهجة التي لم ترَ مثلها من قبل. قالت لهن:

ـ كل سنة وأنتم طيبين.

هكذا أوصاها مجد الدين بالليل أمس. لقد عرف من دميان بالعيد حين سمعه يقول:

ـ غداً ينتهي صوم الميلاد، ثلاثة وأربعين يوماً من الصوم عن الروح،

باستثناء السمك، وكل طعامنا بالزيت يا شيخ مجد حتى أن المعدة ضجت وثارت وكادت تقفز من الحلق.

وسأله مجد الدين:

ـ إذن تصومون ثلاثة وأربعين يوماً كاملة في العام؟

ضحك دميان وقال:

ـ يا شيخ مجد، العام كله تقريباً صيام، أنتم لديكم شهر واحد، نحن لدينا أصوام، عذاب يا رجل يخفف منه الفقر الذي يجعلنا في صوم طبيعي.

وسكت لحظة ثم قال:

ـ أحياناً يخيّل لي أن الصوم من أيام الاضطهاد، خذ مثلاً الصوم الكبير، هذا الصوم مدته خمسة وخمسون يوماً، هذا أهم الأصوام لأن السيد المسيح صامه. السيد المسيح صام أربعين يوماً فقط، لكننا أضفنا إليها أسبوعين، واحد قبل الأربعين يوماً لإعداد النفس للصوم. والثاني بعد الأربعين يوماً كرمز لأسبوع الآلام الأخير للسيد المسيح.

ابتسم مجد الدين وقال:

ـ دميان. أنت شيطان.

وسكتا وقال دميان:

ـ هل ستزورني بعد غد؟ إن لدينا عيداً، عيد ميلاد السيد المسيح.

تأثّر مجد الدين بحق، وقرّر أن يزوره أكثر من مرة خلال العيد، وسمع دميان يتمتم قائلاً:

«المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة» فابتسم وبالليل أخبر زهرة بالحديث كله، فأدركت لماذا تتغيّر رائحة طبيخ القبط عن المسلمين. «صيامهم كثير وطبيخهم بالزيت، وحياتهم كرب

أستغفر الله العظيم».

وقالت كاميليا وهي تكاد تقفز من السعادة:

ـ رايحين القدّاس يا زهرة، الصلاة يعني، نسبّح ونهلل ونقابل أصحابنا.

دهشت زهرة من كلام كاميليا الذي لم تفهمه، لكن لا بد أنه أمر حقيقي وجميل، لأن الأم ابتسمت كوردة وإيفون أيضاً. ولا تعرف زهرة كيف واتاها هذا الإحساس المفاجىء بالرغبة في الذهاب معهن إلى الدير، لكن شحب وجهها للحظة من الفكرة العجيبة فصافحتهن مرة ثانية، وسمعت صوت الست لولا قادمة، فقررت أن تقضي معها بعض الوقت. لقد تأخّر مجد الدين في الخارج اليوم، ولعله وجد عملاً جديداً، فالأعمال هنا تبدأ في الصباح الباكر ولا تنتهي قبل السابعة مساء.

تواصلت أعياد المسيحيين، وهطلت الأمطار بشدة في الغطاس، وتحوّلت السماء إلى أفواه قرب تطرد المياه إلى الأرض، وبالليل جلست زهرة مع الست مريم وبنتيها ولولا يمصمصن القصب معاً، اكتشفت زهرة أن المسيحيين يفعلون ذلك أيضاً مثل المسلمين، وقالت إيفون بثقة: هذه عادة فرعونية، ليست مسيحية ولا إسلامية، أجدادنا الفراعنة كانوا يفعلون ذلك، توافق اليوم مع عمادة السيد المسيح بنهر الأردن، عمّده يوحنا، تعرفينه يا زهرة؟

ـ لا أنا مش فاهمة.

ضحكت كاميليا وقالت:

ـ يوحنا هو سيدنا يحيى بن زكريا، أنا كل يوم أسمع عم مجد الدين وهو يقرأ القرآن ويقول «يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى».

بدت زهرة ذاهلة من هذه البنت التي تتصنت لتسمع مجد الدين الذي

عادة يرتّل القرآن في المساء بصوت خفيض للغاية، لكن لا بد أنه يصلهم واضحاً، وقالت لولا: «خلونا في القصب أحسن، إحنا مش فاهمين حاجة» وضحكت، وكان الخواجة ديمتري يعمل ليلاً في جراج البلدية هذا الأسبوع فهو يعمل بنظام الورديات، وكان عيد الأضحى على الأبواب، فقالت لولا مبتهجة «يا رب اجعل حياتنا كلها أعياد» وبدأ المطر يخف من فوق سماء المدينة والسحب السوداء تقف بعيداً وانتهى يوسف بك وهبي من عرض دراما القاتل على مسرح برنتانيا بالقاهرة، وتمّ ضبط عصابة كبرى لتزييف النقود في وحوزتها ثلاثون ألف ورقة من فئة الجنيه، وعرضت سينما الكوزمو فيلم المطربة ملك الجديد «العودة إلى الريف» وأرسلت الحكومة المصرية لضحايا زلزال تركيا ألفين وأربعمائة بطانية من الصوف وأمصالاً لحقن خمسين ألف شخص ضد الأوبئة وقال دميان لمجد الدين: هل لا بد من زلزال هنا كي يعطونا أيضاً بطاطين؟ ثم ابتسم وقال: الموت من البرد أفضل من الموت بالزلزال على أي حال! وتمّ الانتهاء من بناء مستشفى الصدر بالعباسية، وأعلن عن تشكيل الجيش التشيكوسلوفاكي بفرنسا، ومرّ عيد الأضحى ولم يصل أحد من القرية ليزور مجد الدين، لقد كان في اليوم التالي لعيد الغطاس، وسرت بين بعض المسلمين همهمة غامضة، هذه الأمطار المباركة بالنسبة للمسيحيين في الغطاس، إذا استمرت لا تكون مباركة بالنسبة للمسلمين في عيدهم، وفوجىء الناس بيوم العيد يأتي صحواً ترتفع فيه الشمس مبكرة، وتشرب الأرض ماءها الذي ظلت تستقبله حتى منتصف الليل الفائت، وقال الخواجة ديمتري لمجد الدين وهو يباركه بالعيد «لقد وزع الله رحمته بالتساوي على الناس يا شيخ مجد» شرح له ديمتري أن الماء ظل ينسكب أمس وأول أمس ليل نهار، يوم الغطاس وقبله، وكان يمكن أن يفسد فرحة المسلمين بالعيد فيظلون في بيوتهم فلا يخرجون للصلاة ولا التهنئة، لكن الله سلم، قال مجد الدين «ونعم بالله، كل ما يأتي من عنده

فرج» قال ديمتري ضاحكاً: أردت فقط مداعبتك، أنا أعرف أنك رجل صالح لا تفرق بين مسلم وقبطي، هذه الدولة يا شيخ مجد شعارها من أيام سعد باشا «الدين لله والوطن للجميع»، لكن أولاد الحرام يحبون أن يشعلوا نار الفتنة وخصوصاً في الأحياء الفقيرة مثل حينا.

سكت مجد الدين طويلاً، تذكر البهي حين قال إن الفتنة بين المسلمين والمسيحيين تراجعت كثيراً، وقال لديمتري:

ـ الفتنة موجودة في كل وقت وبين كل طائفة وأختها، بلدنا محسودة يا خواجة ديمتري ونحمد الله أن الحرب لاهية الناس.

وانتهى عيد الأضحى، ولا تزال لجنة مشروع القرش، تجمع التبرعات من أجل الصناعة الوطنية المصرية في القاهرة والأقاليم، وهجم على الإسكندرية نوع من الناموس لم يعرف من قبل جاء من ناحية بحيرة مريوط، فقام معمل تحليل الأوبئة بالمدينة بتحليله، وانتهى إلى أنه ليس ناموساً لكنه نوع من الذباب الضعيف، الذي يقضي عليه البرد ولا خطر منه، وتكفلت الأيام الباقية من شهر طوبة بالقضاء عليه، وأقامت جمعية المواساة سحبها السنوي على ورق اليانصيب، وخصصت دار الأوبرا عروضها لجنود الكومنولث، وكانت الملكة فريدة والملكة نازلي، تحرصان على حضور هذه العروض وجاءت الأخبار أن شارلي شابلن انتهى من إخراج فيلم الدكتاتور العظيم، وانتهى عرض فيلم يوم سعيد بالإسكندرية ولحقت به كاميليا وإيفون في آخر حفلة، وراحتا تحكيان لزهرة عن عبد الوهاب وهو مفلس، وعن الممثلة الجديدة الطفلة «الأمورة» التي اسمها فاتن حمامة، وقدمت السيدة عزيزة أمير الشكر للشعب المصري على صفحات الصحف لتشجيعه فيلمها «الورشة» وخصت بالشكر رجال الجيش ونقاد الفن، وأقيمت مناورات مصرية بريطانية شرقاً هذه المرة عند الكيلو ثمانين بطريق السويس واختيرت الفتاة

ريتا هيوارث ملكة جمال هوليوود للعام الحالي ألف وتسعمائة وأربعين واكتشفت مقبرة جديدة بناحية سقارة، يرجع تاريخها إلى أربعة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد، وتبرع الملك فاروق بآلة تشغيل سينمائية، للترفيه عن الجنود وأهالي مرسى مطروح، ولفظت ترعة المحمودية ثلاث جثث في شهر واحد هو شهر مارس، من بينها كانت جثة «الفتى الأخنف» وتوصّل البوليس إلى الجاني، الذي كان أباه الذي أصابته لوثة فاعترف بقتله الأم من قبل، وانفرد مجد الدين ثلاثة أيام في غرفته لا يبارحها، معتبراً نفسه سبباً في قتل الفتى المعتوه، لأنه لم يصدقه يوم بكى وأعلن قتل أبيه لأمه، لقد نصحه دميان أن لا يذهب إلى نقطة البوليس وإذا كان هناك جريمة حقاً فسوف تظهر، وها هي قد ظهرت ولكن راح ضحيتها الفتى المسكين، أنقذه من حزنه دميان الذي صار يأخذه كل مساء إلى مقهى بعيد على شاطىء المحمودية بين كوبري راغب وكوبري كرموز حيث يعيش «باعة الترمس» في بعض البيوت المتناثرة على الشارع الموازي للترعة يضعون الترمس في أجولة من الخيش يربطونها بإحكام، ويتركونها في ماء المحمودية الجارية عدة أيام فتضيع مرارة الترمس في الماء العذب، فيسحب الباعة الأجولة إلى الشاطىء ويبدأون في بيعه على «عربات يد» صغيرة يطوفون بها مع الصباح الباكر، في أحياء راغب وكرموز ومحطة مصر ومحرم بك وغيرها مما يقع شرق المدينة، والقباري وكفر عشري غرب المدينة ويعودون مع المساء فيصلون مع الليل مرهقين، يتركون عرباتهم في أمان على شاطىء المحمودية، ومع الصباح يبدأون جولتهم. قليلون منهم يسهرون في المقهى المنعزل. منطقة خالية تصلح للقتل وللحب وللصلاة أيضاً والخشوع.

بالمقهى الصغير جداً، الذي هو عبارة عن عدة مناضد خشبية ومقاعد من القش وكشك من الصفيح به يتمّ صنع الطلبات، بهذا المقهى كانا

يجلسان كل مساء تهبّ عليهما ريح طيبة من المحمودية محملة بالبخر الأبيض، حاملة نسمة شتوية متأخرة كأنها النفس الأخير للشتاء وأمامهما تمر السفن فاردة أشرعتها يشدها على الشاطىء رجال أشداء ربطوا الحبال بصواريها ولفوها حل صدورهم، وحول السفن الكبيرة فلائك ملونة عليها شباب وشابات ونساء وأطفال يمرحون ويغنون، ويأتون من كل ناحية وينتهون عند النزهة ثم يعودون ويشعر مجد الدين أن كل شيء حوله حر إلا هو لقد تم تقييده في الإسكندرية إلى أجل غير معلوم. الإسكندرية التي رأى «غفارة» بائع النشارة يقف أمس أمام عربته وحماره ويهتف «يا رب اجمع شمل إيطاليا على ألمانيا علشان إسكندرية تولع بالأجانب والنسوان» وضحك المارة وأصحاب المحلات، الذين يشترون منه النشارة، يرشونها على الأرض قبل كنس الدكان آخر النهار. لغفارة عربة خشبية، ذات صندوق خشبي يرتفع لحوالي المتر، ويمتدّ طوله مع طول العربة، أي حوالي مترين، ويجر العربة حمار منهك دائماً وعجوز، ولقد كتب غفارة على جانب العربة «الحمولة أربعة طن، والنقل لعموم القطر، ومستعدون لتوصيل طلبات النشارة بالتليفون» ويظل الناس يقرأون هذا الإعلان ويضحكون فالعربة كلها بالخشب والحمار والنشارة وغفارة نفسه لا تزن ربع طن.. لقد ظهر غفارة أمس وقد وضع على وجهه طربوشاً نزع عنه الزر وربطه من ناحيتين بأستك يشدّه على رأسه من الخلف، وجعل للطربوش فتحتين صغيرتين ثبت فيهما قطعتين من الزجاج راح يطل من خلفهما، وفتح دائرة في الطربوش ثبت فيها «فلتر» مياه، وقال للناس أنه سمع أحد المتعلمين يقرأ في الصحيفة عن اقتراح تقدم به أحد الأطباء لوزارة الصحة باستخدام الطرابيش كأقنعة واقية من الغازات، ما دامت الأقنعة غير متوافرة في الأسواق، ولأن محيط الرأس يساوي محيط الوجه، فالطربوش يمكن إحكامه على الوجه بأستك، ويكون على كل شخص بعد ذلك أن يجعل للطربوش عينين من مادة «الميكا»، ولم يعرف

غفارة من أين يشتري الميكا فوضع زجاجاً، كما يمكن تثبيت فلتر تنقية الهواء ويتمّ التنفّس من خلاله وغفارة لم يجد في محلات العطارين فلتراً لتنقية الهواء فاشترى فلتراً صغيراً لتنقية المياه، لكن لا توجد غازات يا غفارة ولم تحدث غارات على مصر ولا على إسكندرية ولا غيرها!

يعرف غفارة ذلك ويقول إن الجو بشكل عام ملوث وفيه سموم، وليس مهماً أن ينتظر غارات عسكرية تلقي على الناس الغازات. وكانت المدافع قد انطلقت في الإسكندرية وسائر مدن القطر ولكن لإعلان بشرى انتظام التاج الملكي لدرّة جديدة كريمة، إذ أنجبت الأميرة فوزية طفلة في الثامن من أبريل أذيع الخبر فانطلق عدد كبير من أفراد الشعب إلى القصر الملكي بالقاهرة يهنئون، وعلى غير ما هو منتظر، لم يهاجم هتلر هولندا ولا بلجيكا ولا فرنسا، هاجم النرويج والدانمارك، وكانت روسيا قد انتهت من فنلندا، وشهدت البحار الشمالية أكبر المعارك حول النرويج، بينما استسلم ملك الدانمارك بسرعة ودعا الشعب إلى الهدوء والسكينة. واشتدّ ضغط الألمان على قوات الحلفاء في النرويج، ووصلت إلى مصر قوات من روديسيا استقبلها في ميناء السويس أحمد راسم بك محافظ السويس، الذي لم تذكر الصحف أنه شاعر كبير يكتب بالفرنسية وعاشق النساء من كل ألوان العالم ومعبود فتيات الطبقة الأرستقراطية، وكان معه في الاستقبال، وزير إنجلترا المفوض في السفارة البريطانية، الذي خطب في الجنود مرحباً بهم باسم جنود الإمبراطورية، لا في مصر فقط، ولكن في كل «الوطن الأكبر من نيوزيلنده إلى الهند» وانتابت دميان نوبات سعال جاف متكرر وقال لمجد الدين إنه استخدم كل الوصفات الشعبية الممكنة وإنه يخشى أن يكون قد أصيب بربو، في هذه الحالة سيموت، لأن ثمن زجاجة حبوب منداكو ثلاثون قرشاً وهو دواء نادر يأتي من إنجلترا التي انقطعت بيننا وبينها المواصلات.

ثم صعد الحزن إلى وجهه، وقال لمجد الدين إنه قرر أن يذهب إلى الكنيسة ويعترف بعصيانه ويواظب على الصلاة في الآحاد. كان مولد النبي قد مر بالناس في صمت، سُمع القرآن من الراديو، لم تقم أي سرادقات ليلية، لكن بيعت كميات رهيبة من حلاوة المولد ومن الأحصنة والعرائس الحلاوة، وكان دميان صائماً الصوم الكبير الذي رأى فيه أسبوعين زيادة وذهب شارد اللب إلى الكنيسة وعاد زائغ العينين «بكيت كثيراً يا شيخ مجد وباركني أبونا وطلبت من القديس ماري جرجس أن يجد لي عملاً دائماً ولك معي، وكما ترى لم أعد أسعل، أعطاني أبونا زيتاً ذهب بكل سعال، الهداية حلوة يا شيخ مجد. أنت صاحب الفصل في هدايتي حتى لو لم تقصد. أنا كنت نسيت أن هناك إيماناً ومؤمنين». وأهدت الست مريم لزهرة علبة من «ثلج هيزلين» Hazelin Snow وعلبة بودرة وعلمتها كيف تستخدمها كأساس للبودرة، وأهدتها قلم روج، وقالت لها «أنت» ما زلت صغيرة فلماذا لا تفعلين ذلك لمجد الدين؟» ورآها مجد الدين ففطن للأمر ولم يتكلم، هذه المدنية ستتعلمها زوجته أراد أو لم يرد وعليه أن يسكت حتى لا تمضي إلى المدنية أكثر. لقد علمته الحكمة أن النهي عن شيء يدعو للتهافت عليه، وزاد عن ذلك بأن قال لزهرة «لقد صرت جميلة كما لم تكوني» وفي نفسه لم يكن يكذب، كان يعود متعباً من جولاته على المصانع بطول ترعة المحمودية، لقد وصل إلى مخازن بنك التسليف في كفر عشري، وحمل على ظهره الأجولة طوال النهار، وعمل بمحالج القطن بمينا البصل وسط مئات من النساء اللاتي يعملن في حمل القطن قبل حلجه وعزل البذرة، ورأى صدور الرجال مشفوطة للداخل مما يعتورها من أمراض صدرية بسبب غبار المحالج وخاصة الذين يقفون على ماكينات «الفرفرة» التي تقوم بأهم مراحل الحلج، ورغم ذلك لم يكن العمل دائماً فالقطن الموجود، من الموسم الماضي، وهو قليل، فكان يتنقل بين المراكب الراسية

بالمحمودية لتفريغ شحناتها أو تحميلها من الميناء ويمسك بنفسه يتلفت باحثاً عن أحد فيجد دميان لا يفارقه لكنه لم يكن يبحث عن دميان، بل عن الفتى الأبله المقتول الذي تخايله صورته في الفضاء كثيراً، وهكذا مع الأيام، العمل أو الانقطاع، صارت هذه المنطقة الشاسعة جنوب الاسكندرية ميدان مجد الدين ودميان، ميدان مؤلم يعود منه مشتاقاً لشيء جميل، ولم يكن كاذباً حتى قال لزهرة إنها صارت أجمل.

وبدأت ببا عز الدين موسمها الصيفي مبكرة عن موعده بتياترو ديانا بمحطة الرمل كما تفعل كل عام، وعرضت سينما مترو بالقاهرة فيلم ساحر أوز الذي صارت موسيقاه هي موسيقى الجنود في الخنادق وميادين القتال في أوروبا، وبدأت نذر الخماسين تهب على الإسكندرية من الصحراء الغربية، واصفر الجو يوماً كاملاً وامتلأ بالعاصفة الترابية، ومع حلول شهر مايو كانت جمعية المواساة قد أتمت بناء مستوصفها في مينا البصل، وقررت بلدية الإسكندرية منع الاستحمام بالأنفوشي هذا العام والأعوام القادمة إذا استمرت الحرب، واحتفل المسيحيون بيوم القيامة وبدوا أكثر فرحة من يوم الميلاد، وكانت امتحانات نهاية العام الدراسي قد بدأت، ولاحظت زهرة أن شحوباً بدأ يظهر على كاميليا، وأنها لم تعد بالبهجة المعتادة لها، وسألتها فقالت إنها تحب المدرسة جداً وذلك يحدث لها كل عام مع الامتحانات وبداية الإجازة الكبيرة، واندهشت زهرة من هذا الكلام، وراحت تتابع شحوب كاميليا، ورأتها أكثر من مرة تجاهد لتخفي دموعها، وأدهشها أن الشحوب انتقل إلى إيفون أيضاً، وتحدثت مع الست مريم التي بدت متحيرة، ودخلت لولا في النقاش وقال لو بنت واحدة.كنا قلنا الحب. نظرت زهرة إليها بغيظ، وارتفعت حمرة الخجل إلى وجه الست مريم، وبالليل فكرت زهرة كثيراً في البنتين وقالت لنفسها إن واحدة منهما في ورطة والثانية تعرف، وعلى الفور

أضافت لنفسها إنها كاميليا الشاحبة أكثر، الملائكية الوجه مثل ستنا العذراء مريم هي التي في ورطة، إنها مثل جذوة نار لن تخمد إلا إذا انتهت، واستغفرت ربها وطلبت منه السلامة للبنتين والعائلة الطيبة، وامتلأت الشوارع والحدائق بأوراق الخس والملانة وفروع البصل وبقايا الرنجة والسردين وقشور البصل، في صناديق القمامة حقاً، لكن الرائحة كانت تصعد للمارة والسكان، وخرجت زهرة لأول مرة تركب فلوكة في المحمودية مع كاميليا وإيفون والست مريم، وذهبن إلى حديقة الحيوان. كان كل شيء حولها ضاحكاً حتى البنتين، لكن ليس كضحكهما المعتاد كما أن كاميليا تركتهن واختفت لأكثر من ساعة ثم عادت ولمحت زهرة في وجنتيها دماً جديداً وفرحة سرعان ما اختفت بعد جلوسها بدقائق، كاميليا الآن لا ترى في البيت إلا وفي يدها كتاب بالإنجليزية، إنها وأختها في البكالوريا في مدرسة نبوية موسى أشهر مدارس الإسكندرية.

وانتهى شم النسيم وأيام الأعياد، واستسلمت النرويج في النهاية وهزم فيها الحلفاء وحبس العالم أنفاسه منتظراً الضربة القادمة لألمانية وهاجم الطرادان الألمانيان «شارنهورست» «جيزناو» حاملة الطائرات البريطانية جلوريوس وأغرقاها في أقل من ساعة ونصف الساعة، وأصدر وزير الدفاع الوطني قراراً بحظر الزواج على ضباط الجيش المصري الذين هم في رتبة الملازم ثان، حتى لا تشغلهم الأعباء العائلية عن الشؤون العسكرية وتم تأجيل فكرة الاصطياف في مرسى مطروح هذا العام، إلى أجل غير مسمى، نظراً لظروف الحرب، ولعدم وجود أماكن إقامة أصلاً للمصيفين، وبدأت الولايات المتحدة، تصدر الطائرة «بل إير كوبرا» المطاردة السريعة، التي تطير بسرعة سبعمائة كيلومتر في الساعة إلى الحلفاء بسعر عشرين ألف جنيه للواحدة، ومنع الصيد بالميناء الغربي، كما منعت من قبل السباحة بالأنفوشي وأصدر اللواء بيكر باشا، حكمدار

بوليس الإسكندرية، أوامره باعتبار الثامن من مايو يوماً للطوارىء فجرت غارات تجريبية، وعمليات إنقاذ تمثيلية، وأعلن عن طلب متطوعين ومتطوعات لتدريبهم، وأذيعت أماكن المخابىء العامة وسعتها بأحياء الجمرك والمنشية واللبّان والعطارين وميناء البصل ومحرم بك والرمل، وأعلن خمسون من كبار شخصيات مدينة سيدني في أستراليا موافقتهم على الاقتراح بمنح مساحات من الأراضي في شمال غرب القارة مجاناً لجمعية الاستعمار اليهودية لإسكان اليهود الفارين من أوروبا، وألفت حكمدارية العاصمة في مصر فرقة من رجال البوليس والجيش قوامها نحو ستمائة شخص من ضباط وجنود وكونستبلات، ووضعت هذه الفرقة تحت تصرف القلم السياسي، وجاء فجر العاشر من مايو بالأنباء التي خاف العالم أن تحدث يوماً، إذ ضرب الألمان ضربتهم الكبرى، وغزت جيوشهم هولندا وبلجيكا، والأراضي الواطئة في فرنسا، لقد انتهى الهجوم على النرويج وظهر للعالم أن في ألمانيا أعظم بعث عسكري مرعب عرفته البشرية، وها هي ألمانيا تنشر الرعب في كل أوروبا، استقال المسيو تشامبرلين وألف ونستون تشرشل الوزارة، ووقف في مجلس العموم يقول إن سياسته هي «الحرب من البحر والبر والجو وهدفه كلمة واحدة هي النصر» وأزاح الملك فاروق الستار عن تمثال مصطفى كامل، ملك شاب يزيح الستار عن الزعيم الشاب، ونشرت الصحف كلماته التي صارت مضرب الأمثال «أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا وإن لي روحاً من نور الوطنية الساطع لا تستطيع الحياة في ظلمات الظلم والاستبداد» وبدأ في إعداد أماكن بمحافظة البحيرة لترحيل سكان الإسكندرية عند اللزوم، وظهر للعالم أن ألمانيا غزت فرنسا بمائة وست وعشرين فرقة، واستسلمت هولندا لأنه لا فائدة من المقاومة، وأذاعت الملكة ولهلمينا رسالتها بالإنجليزية، قالت فيها إنه تبين اليوم أن كل صلواتنا من أجل الوفاق والتفاهم ذهبت عبثاً، لقد غلبت أمتى بفضل

تفوق العدو وقواته لكنها لن تغلب أدبياً ولا معنوياً، وستظل روحنا قوية سليمة وأعلنت الصحف في مصر عن خط دفاع جديد يشمل الدلتا من الإسكندرية حتى بورسعيد ثم القاهرة، واتضح أنه خط دفاع تقدمه بوليصة التأمين على الحياة، لشركة (الصن لايف)، واعتبرت قناطر محمد علي الخيرية منطقة محرمة على الجمهور منذ منتصف مايو، واجتمعت لجنة الأسعار بالإسكندرية بدار البلدية لتحديد أسعار السلع، وتقرر العمل بالأسعار السارية فيما عدا الكبريت فقد تقرّر زيادة سعره، وأصدرت مصلحة البريد طابعاً تذكارياً يحمل صورة الأميرة فريال التي بلغ عمرها عاماً ونصف العام، وحددت قيمة الطابع بخمسة مليمات، واستطاع الألمان فتح ثغرة في الخطوط الفرنسية عرضها خمسون ميلاً اندفعوا منها، وصارت قواتهم المدرعة خلف خطوط الجيش الفرنسي بستين ميلاً وهكذا تم تطويق قرابة نصف المليون جندي فرنسي خلف خط «ماجينو» درع فرنسا الذي لم يشن عليه الألمان هجوماً مباشراً، بل فتحوا فيه ثغرتين والتفوا حوله، وألقى الجيش البلجيكي سلاحه بعد أن خسر ثلاثة أرباع المليون من جنوده، وفي الإسكندرية تم ترحيل فتيات الملاهي الأجنبيات فئة (الأرتيست) على إحدى البواخر وأعلن أنه سيتم التخلص من كل فتيات الملاهي الأجنبيات خشية عملهن بالتجسس، لكن فتيات الترفيه الإنجليزيات الـ A.T.S يزددن في الإسكندرية والقاهرة، وأقيم لهن معسكر في منطقة مصطفى كامل على البحر مباشرة وبوسع من يشاء أن يقترب ليراهن بلباس البحر، وقال بعض الكذابين الخبثاء إنهن أحياناً ينزلن بدونه، وحدث أول ترحيل في الإسكندرية لكن لأطفال الملاجىء إلى المحلة الكبرى والمنصورة، وبلغ مجموعهم ألف طفل وطفلة واعتقل شخص معه أوراق بها كتابات رمزية، وتم ترحيله مخفوراً إلى حكمدار القاهرة، ولم يخالف التموين في الإسكندرية هذا الشهر غير تاجر واحد ولم تقع غير حادثة سرقة واحدة لمحل مجوهرات بالصاغة، ومخالفات

النظام بلغت خمسين مخالفة لكن كلها خاصة بالمرور وحدثت واقعة شروع في قتل واحدة، وصارت بريطانيا مثل رجل وقور سقط عنه سرواله فجأة فراح فزعاً يرفعه إلى مكانه ولا يستطيع، إذ يعود ويسقط، حتى نجح في النهاية، بعد أن كاد قلبه يتوقف، إذ صار على بريطانيا سحب قواتها من فرنسا بأقل خسائر ونجحت في إجلائها من دنكرك وكاليه وغيرهما، مستخدمة كل ما تملك من سفن صغيرة وكبيرة وزوارق المتطوعين، وتمت أكبر عملية هروب عن طريق البحر في التاريخ، حيث نقل قرابة أربعمائة ألف جندي إلى جزيرتهم، تحت القصف الألماني في البر والبحر، وكان مجد الدين يقرأ الأخبار لدميان فلا يصدق أن الإنسان يمكن أن يصنع كل هذا الدمار، ويسأله دميان هل في أوروبا ناس مثلنا أم شياطين؟ وكيف تتحمل الأرض هذا ولا تنفجر؟ ولما رأى دميان صورة لوريل وهاردي، سأل مجد الدين عن اسم الفيلم فقال «عفاريت الجو» فاقترح عليه أن يشاهداه معها، يتنازلان عن وجبة عشاء أو غداء، ويريانه ما دامت السينما لا تعرض شيئاً لشارلي الآن.

اندهش مجد الدين من الفكرة، فسأله دميان هل السينما حرام، فأجاب مجد الدين بأنه لا يقصد هذا، ولكن يخيّل إليه أنه إذا دخل السيما لن يعرف كيف يخرج منها، وضحك دميان الذي صار مثل طفل وديع منذ ذهب إلى الكنيسة واعترف وتوسل للشهيد ماري جرجس!

كانت الغارات قد اشتدت على باريس وبدأ العالم يحبس أنفاسه. هل يدخل هتلر باريس؟ هل تسقط أجمل مدن العالم؟ ونشرت الصحف قصيدة شوقي التي كتبها عن باريس بعد انتهاء الحرب الأولى «العصر أنت جماله وجلاله والركن من بنيانه المسموك، أخذت لواء الحق عنك شعوبه، ومشت حضارته بنور بنيك». بدا الوضع في فرنسا سيئاً ومخيفاً، إذ أسرت الفرقة المدرعة الألمانية ثمانية آلاف جندي بريطاني وأربعة آلاف

جندي فرنسي، كان يقود الفرقة المدرعة مقاتل ألماني ذكي اسمه إيروين روميل سيحفظ اسمه المصريون فيما بعد. كانت فرقته المدرعة تسمى فرقة «الأشباح» وكانت بمثابة رأس الرمح الذي اخترق مناطق السوم، متقدماً نحو نهر السين، آسراً كل من في طريقه من الإنجليز والفرنسيين، حتى احتل «شربورج» واستسلمت له بقواتها البالغة ثلاثين ألفاً. وكانت الطرق في فرنسا تفيض باللاجئين الذين تطاردهم رشاشات الطائرات الألمانية، لقد تفكك الجيش وعين ديجول وكيلاً لوزارة الدفاع الوطني، واستولى الاتحاد السوفيتي على جمهوريات البلطيق، لكن من لديه الوقت ليقف أمام ذلك، لقد سقطت باريس فانخلعت القلوب من فظاعة الحرب، بكت كاميليا حقيقة ورأتها زهرة ففكرت أن باريس هذه لا بد أن تكون شيئاً كبيراً إلى الدرجة التي جعلت كاميليا تبكي قالت كاميليا إن حلم حياتها كان أن تسافر إلى باريس يوماً. وأنها لا تصدق أن عاصمة الجمال يمكن أن تسقط.

ألّف المارشال بيتان حكومة جديدة ألقت سلاحها وعقدت الهدنة مع ألمانيا، هرب ديجول فجأة من «بوردو» إلى بريطانيا حاملاً شرف الأمة الفرنسية، وفي المساء دخل الخواجة ديمتري غرفة مجد الدين وقال إنه عرف من قريب له، يعمل ملاحظاً للعمال بالسكك الحديدية، بأن المصلحة في حاجة إلى عمال دائمين، لمواجهة ضغط العمل هذه الأيام، التي تصل فيها عشرات القطارات كل يوم، محملة بالمؤن والسلاح والجنود، وأن مجد الدين يستطيع أن يذهب في الغد إلى مبنى إدارة السكك الحديدية بالقباري لتقديم الطلب.

كان دميان هو أول من فكر فيه مجد الدين. لم يسأل الخواجة ديمتري عن ذلك. لا بد أنهم يحتاجون لأكثر من عامل. بسرعة أخذ طريقه إلى بيت دميان. في الصباح كانا يتقدمان بطلب العمل. قُبلا على الفور،

وكان عليهما إجراء الكشف الطبي المعتاد. هذا هو العمل «الميري» الذي سيضمن لهما حياة كريمة.

من حولهما كانت حالة الطوارىء القصوى قد أعلنت، ذلك أنه منذ أيام قليلة، بالضبط في العاشر من يونيه، وفي الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين، أعلنت إيطاليا الحرب على إنجلترا وفرنسا. اهتزّ العالم، وانتحبت الأمهات الإيطاليات، وهن يرين أبناءهن يستدعون للقتال. وأعلن وزير خارجية أمريكا، أن دخول إيطاليا الحرب كارثة إنسانية كبرى، وقطعت مصر علاقاتها بإيطاليا على الفور، وبدأ الترحيل الحقيقي لعائلات كثيرة من الإسكندرية إلى الريف، وتم توزيع آلاف من الأقنعة الواقية من الغازات، فاستخدمها بائعو الطعمية، للوقاية من بخار الزيت والقلي، وكذلك استخدمها الخبازون أمام الأفران، ورفض غفارة أن يغير قناعه الذي صنعه بنفسه من الطربوش، فهو لا يثق في شيء توزعه الحكومة وقال دميان لمجد الدين وهو يتسلم خطاب العمل:

ـ لقد أهدانا الشيخ جورجيوس هذا العمل يا شيخ مجد، لقد توسلت إليه كثيراً.

ـ أنا أيضاً ظللت ليالي طويلة أذكر أسماء الله حتى جاءني الرسول في المنام فاطمأن قلبي.

وبالليل، ومجد الدين سهران، ممدداً جوار زهرة النائمة، يفكر في عمله الجديد، فكر أنه لا أحد في العالم يعرف عنه أي شيء. ماذا لو مات؟. هل يهم ذلك أحداً. لقد دخلت إيطاليا الحرب، وبدأ الناس يهجرون الإسكندرية وهو مضطر للبقاء، إنها رحلة قهرية أرادها الله، وعليه أن ينام الآن، في المدينة التي صارت عيونها مفتوحة على السماء.

* * *

«الدببة المتوحشة الفاتنة المولودة يوم الحرب بالذات
تنطق بامنيات بريئة»

11

لهذا النهار طعم مختلف، وهو أبيض من أي يوم. هكذا أحس مجد الدين والضوء يسقط على وجهه إذ يغادر البيت في الصباح.

توقّف قليلاً فوق العتبة.. نظر يميناً ويساراً. الشارع خال إلا من ثلاثة أشخاص. واحد عند نهاية الشارع من ناحية اليمين، والآخران يتجهان إلى «سيدي كريِّم». الناس نيام لا يزالون أواستيقظوا ولم يغادروا بيوتهم بعد.. شمس الصيف تفاجىء الدنيا كل يوم بالصباح قبل موعده. أمس، في مقر إدارة هندسة السكة الحديد وصفوا لهما الطريق إلى العمل. يغادران غيط العنب مشياً على شاطىء قناة المحمودية. في منتصف المسافة بين كوبري كرموز وكوبري كفر عشري سيجدان سكناً كبيراً لعمال السكة الحديد، جواره سكن صغير لعمال الحركة بالسكة الحديد أيضاً، بين السكنين طريق صغير ينتهي ببوابة على خطوط السكك الحديدية، الشبكة الكبيرة المعقدة لمنطقة «الزيتون» كما سمعا اسمها، عليهما بعد عبور البوابة، العودة إلى اليسار لمسافة طويلة لا تقلّ عن كيلومترين ليصلا إلى مقر عملهما، البوسطة رقم 13 لم يفهما بالطبع لماذا يسمى مقر عملهما «بالبوسطة» رغم أنهما لن يعملا في البريد، لم يشأ أي منهما أن

يسأل عن ذلك.

في طريق عودتهما قال دميان:

ـ ناس مجانين، نمشي من غيط العنب حتى سكن السكة الحديد على المحمودية، ثم نعود المسافة نفسها من وسط السكة الحديد.

سأله مجد الدين:

ـ ماذا يمكن أن نفعل؟

ـ مكان العمل على هذا النحو يكون في مقابل غيط العنب. أمام شارع البان، بعد زقاقين تجد السور الذي يفصل السكة الحديد عن غيط العنب، سنجد في السور فتحة، أو نفتحها نحن، أو نقفز من فوقه.

اليوم سيفعلان ذلك، وسيفعلانه كل صباح فهذا عمل دائم وفي الحكومة. ووقف مجد الدين أمام بيت دميان يناديه. بدا له البيت نائماً كله حتى الجدران. باب البيت منخفض مظلم، الصهد يخرج منه محملاً بأنفاس مزدحمة للسكان. هواء الصباح منعش حقاً، الندى الساقط على الشوارع والبيوت مع الفجر، لا يزال يرسل طراوته إذا ابتعد المرء عن فوهات البيوت. رائحة صابون تصعد من بعض أركان الطريق. إنها مياه الاستحمام في الفجر. ألقت بها النسوة المشبعات المرويات قبل أن يلحظن أحد. البيوت فقط تبدو متعبة كالحة الواجهات، أبوابها الرئيسية بلا ضلف خشبية أو معدنية، وسلالمها ضيقة، وفوهاتها مظلمة تنبعث منها رائحة التعب. لكن مجد الدين اليوم سعيد، ويحس بطراوة الصباحات الشتوية رغم أننا في الصيف. وظهر دميان خارجاً مضيئاً من الباب المعتم.

ـ ما أجملك يا شيخ مجد الدين في البنطلون الكاكي والسترة الكاكي.

ابتسم مجد الدين ولم يعلق، فقط نظر إلى رأس دميان الذي وضع فوقه بيريه أزرق، يشبه بيريه سائقي القطارات. وانطلقا كطفلين مرحين إلى السور في الجنوب.

أمام السور الحجري الذي يرتفع إلى حوالي المترين ونصف توقفا. فكر مجد الدين أن القفز من فوق السور قد يكون عملاً محظوراً. ارتبك للحظة. سمع دميان يقول:

ـ ليس عالياً كما ترى. سوف أشبك يدي وتطلع أنت عليها، ثم تتعلق بالسور وتجلس فوقه. بعد ذلك تعطيني يدك لأصعد معك، ثم ننزل من الناحية الأخرى.

وشبك دميان يديه، لكن مجد الدين تردد، رفع قدمه عن الأرض ثم أعادها.

ـ صعب أن أدوس بالجزمة على يدي مخلوق كريم.

ـ ماذا؟

ـ كيف أدوس بالجزمة على مخلوق كرمه الله؟

تأمله دميان غير مصدق لما يسمع. ثم رأى مجد الدين يخلع بالفعل حذائيه، ويلقي بهما خلف السور. ابتسم دميان وهزّ رأسه عجباً من وداعة صاحبه. وشبك يديه فداس عليهما مجد الدين بقدمه اليمنى، ثم قفز ممسكاً بالسور من أعلى. أحس بخشونة أحجار السور التي لا يزيد عرضها عن عشرين سنتيمتراً، ودفعه دميان إلى أعلى أكثر واستطاع مجد الدين أن يجلس في النهاية فوق السور. قال مفاجئاً:

ـ السور يهتز.

ـ لا تخف يا رجل. السور حديد!

ووقف دميان يفكر كيف سيصعد الآن. من الصعب أن يمسك بيد مجد الدين ويقفز، ذلك قد يجذب مجد الدين إلى أسفل، ولا بد أن مجد الدين فكّر في ذلك، قال:

ـ تستطيع أن تدوس على قدمي، اعتبرها درجة سلم، وأعطني يدك.

خلع دميان بدوره حذاءه، وألقى به خلف السور، وقفز بقوة ممسكاً

أعلى السور، ضاغطاً إلى أسفل حتى ارتفع قليلاً، مما ساعده على وضع قدمه فوق قدم مجد الدين الذي أمسك به من سترته يساعده على الصعود، فارتفع دميان كثيراً أعلى من السور بجذعه. الله. الله ماذا يحدث؟ تراك، وانهارت كتلة كبيرة من السور بهما معاً. انهارت سليمة متماسكة وبهدوء، فنزل مجد الدين على مقعدته بينما ارتطم صدر دميان بالسور نفسه، وأحس كلاهما بألم شديد مكان سقوطه، إلا أنهما بعد لحظات أحسا فيها أن الدنيا دارت بهما وجدا عيونهما متقابلة، فانطلقا يضحكان بسعادة. وحدهما يضحكان في فضاء واسع ولا صدى لصوتهما. تحامل كل منهما على كفيه ونهض يبحث عن حذائه. لم يكن أي منهما بعد قد نظر حوله ولا رأى ما رأى..

أول ما بدا لهما الفضاء ذاته الرائق الوسيع، والشمس الصاعدة قوية على يسارهما، والسماء الصافية البعيدة لكن الأرض بدت قاحلة. جير ورمال وصخور صغيرة، قضيبان مهملان صدئان، بعدهما فضاء من أرض حسكية مملوءة أيضاً بالصبار القصير، ثم قضبان قليلة بينها زلط ومازوت ناشف بدا منفصلاً عن الأرض، حال سواده إلى الرمادي بفعل التراب السافي، وعلى مسافات متباعدة نباتات شوكية مهوشة دائماً.

مشيا إلى اليمين. دميان في دهشة من اتساع الأرض، بعد أن رأى اتساع الفضاء. كيف حقاً لم ير كل هذا من قبل رغم أنه يعيش في غيط العنب منذ سنين طويلة؟ كيف حقاً لم يفكر من قبل في تجاور السور القريب من شارع البان لا يفصله عنه إلا زقاقين؟ هذا الاتساع في الجنوب لا يضاهيه إلا اتساع البحر في الشمال!!

كانت بعض خطوط السكك الحديدية تبدو منتهية عند عارضة تصادم جديدة مرفوعة على عمودين خرسانيين قصيرين، وعربات كثيرة مصفوفة على أكثر من خط، بدت لهما قد صفت بعناية، ففي كل خط نوع واحد

من العربات تقريباً. العربات المسطحة في خط وكذلك المغلقة الكبيرة والنصف مغلقة في خط ثالث. كل العربات لونها بني حائل إلا المغلقة فلونها رمادي وتميل إلى السواد. أرضية العربات المسطحة مكسوة بعوارض الخشب السميك، الفلنكات الممسوكة إلى بعضها بخوص الحديد العريضة السميكة المثبتة بالمسامير القوية في العوارض، لكن المكان بدا مهجوراً رغم العناية البشرية الواضحة في تخزين العربات. وفكر مجد الدين بحق أنه قد غُرر بهما وأن آدم عليه السلام حين هبط من السماء، نزل في مكان شبيه بهذا المكان، وأن الله الذي أرسل عنايته مع آدم، سوف يتخلى عنهما هنا، فلا طير واحد في السماء، لكنهما شاهدا بعيداً ماسورة ترتفع عن الأرض وتنحني ويتدلى منها خرطوم من المشمع يكاد يصل إلى الأرض وجوار الماسورة يجلس رجل تحت سقيفة صنعها من فروع الأشجار العارية وجوار شجرة توت مورقة خضراء عريضة.

- إذن يوجد ناس هنا.

هتف دميان الذي لا بد كان يفكر على طريقة مجد الدين.

- تعال نقترب منه نسأله.

الرجل في عمر كل منهما تقريباً، لكن ثيابه ممزقة عند ركبتيه وكتفيه وحاف، كان واجماً وجوماً كهفياً، فبدا أنه لم يسمع اقتراب أقدامهما. عندما اقتربا منه تماماً فكر كلاهما أن يمضيا في حال سبيلهما ويتركانه. فهو يبدو شيئاً منسياً، لكن لأن الإنسان كثيراً ما يفكر في شيء ويفعل ما كان قد قرر العدول عنه سأله مجد الدين:

- أين نجد البوسطة رقم ثلاثة؟

أشار إليهما بالسبابة، إشارات يفهمان منها أنهما في الاتجاه الصحيح، لكن دميان الذي لم يعجبه صمت الرجل هتف:

- ما لك يا رجل؟. تكلم. نحن في أول النهار.

نظر إليه الرجل ملياً حتى ارتبك دميان بحق، بل وانكمش في نفسه من الرعب، كاد مجد الدين ينفجر ضاحكاً غير مصدق ما يحدث لصديقه.

ـ امش.

هتف الرجل بصوت خفيض لدميان.

ـ حاضر.

قال دميان باستكانة، ومشى صامتاً بلا روح، ومجد الدين يكتم ضحكه. بعد أن ابتعدا بما يكفي قال دميان:

ـ هذا عفريت يا شيخ مجد.

لكن كشكاً خشبياً كبيراً ظهر لهما. كشك جدرانه من الفلنكات المتجاورة المغروسة في الأرض، وفوقها صف ثان من الفلنكات القصيرة، متصل بالصف الأسفل بخوص معدنية عريضة، وفوق الجميع سقف جمالوني من الصاج المتعرج.

كان هناك جوار الكشك شخص مقعى جوار «راكية» نار، يمسك بيده «كوزاً» كبيراً له يد طويلة من السلك المجدول.

ـ السلام عليكم.

قالا معاً، فرفع إليهما الرجل المقعى رأسه. كان يصنع شاياً بدأ يغلي في الكوز، وصعدت رائحته الطيبة إليهما.

ـ لا بد أنكما العاملان الجديدان، مجد الدين ودميان، أنا حمزة، نحن في انتظاركما.

* * *

يستحق اليوم أن يكون عيداً. نزلت زهرة إلى السوق في سيدي كريم خلف نقطة البوليس واشترت زوج حمام بخمسة قروش، ودجاجة بعشرة قروش وذبحها لها السنوسي الجزار في شارع الفواكه، ونظفتها وسلقت الدجاجة والحمام الذي حشته بالفريك الصعيدي، الذي اشترته من بشري

العطار في شارع راغب، فملأت الرائحة الذكية ردهة الدور الثاني، وصعدت إلى الفضاء، ونزلت أيضاً إلى الدور الأرضي، حيث خرجت لولا مسرعة واشترت حماماً ودجاجاً وعادت تطهيه، ولم يفتها أن تصعد إلى الدور الثاني، وتعلن لزهرة أنها لم تتحمل الرائحة الجميلة لطعامها، مما اضطرها لتقليدها، وتطلب من زهرة، التي اندهشت جداً، أن تسامحها، مما يجعل زهرة تصمم أن تتذوق لولا «قنصة» الدجاجة، بينما الست مريم تتابعهما باسمة فهي تدرك المعنى الملغز لأفعال النسوان!!

كانت الطفلة شوقية تروح وتجيء لاهية في الردهة بين الحجرتين، وتعاكسها كاميليا من بعيد، من خلف الباب المفتوح، فتسمع ضحكاتها وضحكات شوقية معاً، لكن قطة صغيرة صعدت من الدور الأول، ووقفت أمام الردهة تنونو وتتلفت مما جعل شوقية تفزع إلى أمها، فتتعثر بعتبة الحجرة المنخفضة، إلا أن أمها تلقتها ورفعتها إلى حضنها ترتبت على ظهرها وتطمئنها.

كانت شوقية قد صرخت مما جعل كاميليا تخرج بسرعة من الحجرة. في وسط الردهة. أدركت الموقف. نهرت القطة وكانت الشمس تسقط على جلبابها القصير الضيق الخفيف، فبدا جسمها الصغير مدكوكاً قوياً يتفجر بالأنوثة. جسد ضامر حقاً لكنه متعطش توّاق للتمرد فيه قوة المهرة. جسد يفرض نفسه على عينيك ويتقدم منك وأنت بعيد فلا ترى غيره أمامك، وتشدّ رائحته ـ رائحة الخمر القديم ـ أنفك تستفزه وتحرك الروح. إن أي شخص يتحدث مع كاميليا يغالب رغبة حقيقية في احتضانها بغتة وبلا مقدمات، فصفحة بطنها الضامر، وصدرها الناهز المبشر، تبدوان مرفأ طبيعياً لكل جوعان، كاميليا الصغيرة الرقيقة، تمتلك جسداً مقدساً بهالة من الفتنة الحارة. لقد رأت زهرة كاميليا تحت الشمس فهتفت لنفسها «سبحان الخالق. ولا الغزال».. سمعتها كاميليا فابتسمت

ولم تعلق. لأن صوت دقات الطبول ارتفع قوياً في الفضاء، مع موسيقى نحاسية وآلات نفخ تؤدي مارشاً عسكرياً.

ـ السينما.

هتفت كاميليا وجرت إلى شباك حجرتهم. تبعتها زهرة مبتسمة. تراجعت إيفون الهادئة عن إفريز الشباك، وتركت الغرفة لزهرة، ودخلت هي إلى الغرفة الداخلية تتفرج من شباكها. ظلت الست مريم مكانها وراء ماكينة الخياطة وإن صارت تعمل بهدوء.

عربة السينما صندوق خشبي كبير عليه أفيشات من الجوانب الأربعة، يدفعها رجل يرتدي زياً عسكرياً هو في الحقيقة زي الفرق الموسيقية الشعبية، وحوله وأمامه فريق موسيقى أبرز أعضائه يحمل طبلة مستديرة ضخمة قطرها حوالى متر على بطنه من الأمام، ومعلقة في عنقه بحزام من الجلد، وفي يديه مطرقتان من قماش يضرب بهما الطبلة من الناحيتين وحوله بقية الفريق يضربون طبولاً أصغر بالعصي أو يدقون الكفوف النحاسية أو ينفخون في الساكسافونات نفس المارش العسكري، وحول الجميع أطفال يضحكون ويرقصون.

ـ الله عليه كلارك جيبل.

قالت كاميليا لزهرة:

ـ من؟

ـ كلارك جيبل.

ـ الرجل أم الست؟

ضحكت كاميليا وقالت:

ـ الرجل طبعاً. الست اسمها جوان كراوفورد.

سكتت زهرة لحظات وقالت نافضة يدها من الأمر كله:

ـ أسماء صعبة.

لكن كاميليا قالت:

ـ الفيمل اسمه الرغبة الآثمة.

هتفت الست مريم من الخلف:

ـ بنت. عيب.

وسكت الجميع. وفكرت زهرة في أمر هذه الفتاة الجامحة التي كانت حزينة طوال الشهور السابقة والتي بكت عندما دخل الألمان باريس، ما الذي أعادها للمرح من جديد؟ لا بد أنها تخلصت من ورطتها. وأدركت زهرة فجأة أنه ما كان عليها أن تتفرج على السينما هذه المرة. لقد قرّرت ذلك في المرة السابقة حينما شاهدت امرأة شبه عارية تقفز إلى البحر في الصورة. هذه المرة رأت الممثل ذي الشارب المحفوف يحتضن الممثلة وينحني عليها بطريقة جريئة ويكاد يقبلها. كيف حقاً يدورون في الشوارع بهذه الصور الخليعة أمام البنات والنسوان؟ تراجعت وقالت:

ـ تعالي يا كاميليا معايا.

دخلت كاميليا خلفها إلى الحجرة كانت زهرة كل هذا الوقت تمسك بنتها في يدها. تركت البنت وكشفت غطاء الحلة، وأخرجت بالملعقة الكبيرة كبدة الدجاجة، ووضعتها في طبق صغير قدمته لكاميليا. اندهشت كاميليا من هذا السلوك ولم تعترض فقالت لها زهرة:

ـ عمك مجد الدين استلم شغل جديد اليوم.

ـ مبروك. لذلك تحتفلين به ـ وسكتت كاميليا لحظات ثم قالت ـ هل كل واحدة تحب زوجها مثلك يا ست زهرة؟

ـ مثلي لا. والست ليس لها في الدنيا غير زوجها. هل تتعلمون غير ذلك في المدرسة؟

ـ نتعلّم هذا بالضبط في المدرسة، وأكثر.

وسألتها زهرة فجأة:

ـ ما الذي يعجبك في الممثل أبو اسم صعب هذا؟

كانت كاميليا تمضغ الكبدة الساخنة بسرعة أرنب وتنفخ في يديها. قالت بعد أن انتهت:

ـ عيناه، عيناه عميقتان يا ست زهرة.

وسكتت. فكرت زهرة في فارق السن بينهما، مجرد خمس سنوات. زهرة في الواحدة والعشرين. لكن كاميليا جريئة أكثر مما ينبغي لفتاة في السادسة عشرة. ماذا يمكن أن يفعلوا ببنت كهذه في البلد؟

ـ أنا خائفة عليك يا كاميليا!

ـ من ماذا؟

ـ لا أعرف. خائفة وخلاص.

ضحكت كاميليا وقالت وهي تترك الغرفة:

ـ لا تخافي. عمر الشقي بقي.

* * *

كان انتهاء العام الدراسي هو سبب عودة كاميليا إلى بهجتها. لقد مرّت المحنة بسلام. ربما لم تكن هي في حاجة إلى أكثر من لقاء آخر وتسقط إلى الأبد. كيف سمحت لنفسها بالانزلاق في هذه العلاقة المحكومة سلفاً بالفشل. بالموت على أقل تقدير. ومتى سمعت أن «الهزل» ممكن في الحب؟ لكنها كانت أياماً حلوة رغم أي شيء. كانت البداية مسابقة بين طلبة العباسية الثانوية وطالبات نبوية موسى، والمباراة في مدرسة رأس التين. من كان صاحب هذه الفكرة الجهنمية؟ ناظرة مدرسة نبوية موسى تتحدّى الجميع. صاحبة آراء حرة، وإن كانت متشددة في التعامل

مع الفتيات. هي تطلب المستحيل وتثق في قدرتها عليه. تطلق الفتيات على الفتيان وتثق في قدرة فتياتها على ضبط النفس. الذي حدث أنه كان أمامها هي بالذات وكانت الأسئلة صعبة في الآداب والعلوم لكنه أبدى قدرة مذهلة. قرأ أبياتاً من شعر كيتس الإنجليزي، من شعر بودلير الفرنسي. قرأ بالإنجليزية وقرأ بالفرنسية، كان منقذاً لزملائه في كل ما تعثروا فيه. وكان سبب فوز فريق العباسية فوزاً ساحقاً، حتى إن فتيات نبوية موسى بكين بحرقة.. لا تستطيع أن تنكر أنها فكرت فيه بالليل للحظات. تجسد لها وجهه الشاحب الحزين. وثيابه البسيطة، نظيفة لكنها تنم عن فقر، كما ينم الاصفرار البسيط في بشرة وجهه. لكن له عينيه نديتين دائماً، على وشك البكاء طوال الوقت. عينان حزينتان راضيتان. هذا هو مصدر الجذب فيه. إنه حقاً شاب آسر.

نامت ولم تفكر أنها ستلقاه مرة ثانية، لكنها في اليوم التالي رأته يقف أمام باب مدرستها على الطوار الآخر. تجمّدت للحظة. أدركت أنه جاء يقابلها هي وأمسكت بذراع إيفون ولم تتركها. عندما نزلت من الترام عند كوبري كرموز رأته ينزل معها من العربة الأخرى. يقف قليلاً يتابعهما وهما تنزلان المنزل المؤدي إلى شارع البان بغيط العنب، ثم يمشي هو على ترعة المحمودية في اتجاه كفر عشري.

صار يتردّد على المدرسة كل يوم، يكتفي بالنظر إليها، وكلما غيّرت طريق عودتها رأته يتبعها. وفي النهاية وقفت بعيداً عن المدرسة تنظر إليه. كانت إيفون مريضة ذلك اليوم. وكأنه كان قد أعدّ كل شيء. تقدم إليها وفي يده عقد من الفل الأبيض، في قلب الشارع، وأمام المارة، أدخله من حول رأسها إلى عنقها، وهي وقفت مستسلمة تماماً، ثم أخذها من يدها ومشيا إلى حدائق الشلالات.

ـ كيف واتتك الشجاعة أن تفعل ذلك بالشارع؟

ـ الشعر. أنا أحب كل الشعراء المجانين. هل تعرفين قصة حب يسينين مع إيزادورا.

ـ لا. أنا لا أعرف يسينين، أعرف أن إيزادورا كانت راقصة غير عادية.

ـ هل تعرفين شيئاً عن السيرياليين الفرنسيين؟

ـ قليلاً.

ـ هؤلاء السيرياليون يفعلون ما يريدون دون خوف.

وجلسا تحت أشجار الغار المعمَّرة العالية الكثيفة. قالت:

ـ أنا لا أعرف كيف استسلمت لك.

كان هو يتأمل هذه الدجاجة الوديعة ذات العينين الواسعتين ولا يصدق ما حدث وما يقوله.

وقالت:

ـ ولكن.

ـ أنا أعرف أنك مسيحية، صليب في عنقك. أنا مسلم. هذا ما حدث. إلى أين ينتهي؟ لا أعرف.

في ذلك اليوم قرأ لها بعض أشعار بودلير ورامبو وإيلوار الذي سمعت عنه لأول مرة.

وقال لها «يا جميلتي يجب أن نرى وردة حليبك البيضاء تزدهر، يا جميلتي سارعي بأن تكوني أمّاً واصنعي طفلاً على شاكلتي». ولما وجدها قد خجلت قال لها «كل أزهار الثمار تضيء حديقتي، أشجار الجمال وأشجار الثمار. وأعمل وحيداً في حديقتي والشمس تحترق ناراً قاتمة على يدي». وأخبرها أن ما قاله أجزاء من قصيدة بعنوان قصائد للسلام، كتبها إيلوار بعد الحرب العالمية الماضية، يغني فيها لعودة الجنود إلى البيوت، وأنها ليست قصائد غزل. كانت هي مندهشة من نفسها كيف

تستمع إليه عاشق الشعر الحزين هذا، وهي المرحة المنطلقة، وهو المسلم وهو المسيحية، لكنها تعرف أن النهاية ستكون قريبة، وأفضل أن تنهيها بيديها..

واستسلمت أكثر. وذهبا معاً إلى حدائق النزهة وأنطونيادس وسط الزهور الشتوية. وصارت إيفون تعرف القصة وتطلب من أختها أن ترحمها وترحم نفسها. وتتعمّد كاميليا الاختفاء فترة ثم تجد نفسها تبحث عنه عند خروجها من المدرسة. قال لها وهما يمشيان وسط أشجار الكافور والسنديان والنخيل الهندي السامق والأكاسيا العارية التي ستشتعل مع مقدم الربيع: كم عمرك؟ قالت ستة عشرة، وقال إنه في السابعة عشرة، وحلم حياته أن ينتهي من التوجيهية ثم الجامعة ثم يسافر إلى السوربون. إن رحلة طه حسين في التعليم هي أمله، وليس مهماً أن يعود بالدكتوراة، إنما المهم هو أن يمشي في الحي اللاتيني ويزور اللوفر والبانتيون وبرج إيفيل والمونمارتر ويقرأ على ضفاف السين أشعاراً تطير في الهواء. في الحديقة ذلك اليوم تركته يقبلها قبلة سريعة. طلبت أن يعودا بسرعة بعد ذلك. لم يفهم العاشق الساذج أن جسدها كاد ينفجر ويحتويه، كاد يخونها ويهزم قدرتها على إخضاعه.

لأسبوع بعد ذلك لم تذهب إلى المدرسة، مرضت بحق وعافت الحركة والطعام، وبكت أمامها إيفون في اللحظات القليلة التي انفردت فيها معها. قالت إنها، إيفون، توسلت إليه أن لا يعود إلى علاقته بكاميليا، أن يختفي، قالت له أنت فلاح يا رشدي لا تعرف طبع الصعايدة. المشكلة هنا مضاعفة. اختلاف في الديانة وخروج على أعراف الصعيد. وطلبت من كاميليا أن تغفر لها تصرفها اليائس هذا. واختفى رشدي، لم يعد يقف أمام المدرسة ينتظر كاميليا، التي صارت تتردّد على مكتبة المدرسة أكثر من ذي قبل تستعير كتب الشعراء الفرنسيين المترجمة

إلى الإنجليزية، وقرأت بؤساء فيكتور هوجو ثلاث مرات وحفظت شوارع باريس، ونسيت أن ذلك كان منذ قرن ونصف من الزمان. لقد شفيت بسرعة، ضحكت وهي تتذكر اندفاعها المجنون مع رشدي، ووجدت أنها تخلصت من كل إحساس يقربها منه بسهولة بمجرد اختفائه. هل هو اختلاف الديانة الذي ساعدها على النسيان؟. لقد ظهر أثناء الامتحانات. رأته ينتظرها ممسكاً بقرنفلة حمراء. قال لها إنه سيسافر بعد الامتحان إلى البلد، قريته، فأسرته في الأصل من الريف، وأنه حزين لأن الألمان يهاجمون فرنسا بضراوة وأنه يخاف أن تسقط باريس فيدمرها هتلر كما دمر وارسو. ثم قال كأنه يحدث نفسه لكن هتلر لا يستطيع أن يدمّر باريس. لا أحد في الدنيا يقدر على ذلك حتى لو احتلها. في باريس قوة روحية توقف أكبر شر ممكن في العالم. فيها قوة الجمال. وقال إنه جاء يودعها. فقط يصافحها وبسرعة. فإيفون تقف بعيداً في توتر، ويعتذر عن أي إرباك سبّبه لهما.

صافحته كاميليا بسهولة، تذكرته فقط يوم سقطت باريس. وبكت لأنها تصورته يبكي في قريته على المدينة التي يحبها وقالت إنها تتمنى أن تزور باريس لأنه قال لها ذلك عن نفسه، ثم سرعان ما نسيت كل شيء. لكنها طلبت من أمها أن تسمح لها بدراسة اللغة الفرنسية في مدارس برليتز بشارع سعد زغلول. وقالت أمها إنها لا تمانع لكن الدراسة يجب أن تكون صباحية، في صحبة إيفون التي رغبت هي الأخرى في الدراسة.

عندما شرحت المدرسة الأجنبية الأفعال الفرنسية، كتبت على السبورة فعل Aimer وقالت مخاطبة إحدى التلميذات Je t'aimes فقالت كاميليا دون قصد Je l'aime وكررتها لنفسها أكثر من مرة.

* * *

«وقال اقعد فوق العرش اعرض عليك كل شيء
فقعدت فعرض علي»

12

عاد مجد الدين كما يعود منذ التحق بالعمل الجديد، متسخ اليدين بآثار المازوت، متعب الظهر والساقين والذراعين، متعب الجسد، وجلس كالعادة فوق السرير مدلياً قدميه إلى زهرة التي أقعت تحتهما تخلع حذائيهما ثم تضعهما في طشت صغير به ماء ساخن مالح.

ـ هل ستستحم الآن؟

ـ أجل، أعطني قليلاً من الجاز أنظف يديّ أيضاً.

سكبت بعض الجاز من «الجركن» في كوز صغير وناولته إياه. ناولته أيضاً الصابونة ووضعت فوق كتفه المنشفة، والشبشب أمام عتبة الحجرة من الخارج. الحمام في الردهة، هو مشترك بين الجميع، وصوت مياه الدش التي تصدم بالبلاط يصل إلى الجميع لكن لا مفر من الاستحمام. إنه يعود متعباً متسخاً إلى درجة لا يتحمل فيها جلده، وهو لا يستطيع أن يأكل أو ينام إلا إذا تخلّص من كل آثار العمل، التعب والقذارة.

كان عليه اليوم، مثل كل يوم، أن يحفر أرضاً صلبة تحت العوارض القديمة.

يرفع القضبان ويرفع العوارض القديمة، ثم يضع مع زملائه القضبان والعوارض الجديدة أيضاً لأكثر من خط حديدي تحتاج إلى صيانة أو تبديل. القطارات الوافدة إلى الميناء كثيرة تعود محملة بالعتاد والجنود، كذلك القطارات القادمة من السويس تحمل جنود الإمبراطورية القادمين من أفريقيا وأستراليا والهند تذهب بهم إلى الصحراء. القطارات تتوقف أمام الماسورة التي رآها أول يوم متصلة بخرطوم ويجلس جوارها الرجل الصامت. هنا خزان ماء تحت الأرض يموّن القطارات البخارية، والماسورة والخرطوم يتصلان بخزان ومفتاح دائري ضخم يفصل بينهما، يفتحه العامل فترتفع المياه إلى الماسورة والخرطوم لتنزل من أعلى القطار. هذا الجهاز اسمه «الغراب» لا يعرف لماذا. والرجل الجالس قال عنه حمزة أحد زملائه: إنه «رجل مجنون» زرع شجرة التوت من زمان، ولا يزال ينتظر العصافير التي لا تأتي أبداً!

رأى مجد الدين ودميان زملاءهما يتركون عملهم، ويتقدمون ناحية كل قطار يتوقف للتزوّد بالوقود، ويعودون بصناديق كرتونية صغيرة بها شيكولاتة وشاي وبسكويت. كان الجنود الهنود ذوو العمائم العالية والبنادق الطويلة أكثر سخاءً في العطاء من غيرهم، كان حمزة يعلّق عليهم قائلاً:

ـ العسكري الهندي هندي صحيح لكنه ذكي، أقول له إنجليش إذ جود يقول إنديان إذ فيري جود ويعطيني بسكويت أكثر.

يضحك العمال على طريقة حمزة في نطق اللغة الإنجليزية، ويندهشون كيف يعرف هذه الكلمات الكثيرة التي يتحدث بها مع الجنود، الذين لا يكادون يبتعدون ويبتعد قطارهم حتى يقف حمزة وسط الخلاء هاتفاً:

«العقاب مش من شوية

اللي نازل عالبرية

كام لنا ذنب وأسية
الملايكة بيكتبوها»

ثم ينظر إلى البسكويت والشيكولاتة أو غيرها مما فاز به هاتفاً:

لو كان هم واحد كنت روقتلو بالي
إلا تلاته غيروا أحوالي
هَم جواني، وهم براني
وهم عالباب يستناني.

* * *

القضيب الحديدي الذي يمتدّ طويلاً ينخلع بهدوء، يرتفع متلكئاً ببطء ظاهر عن الفلنكات ممزقاً نسيجها الخشبي، رافعاً معه المسامير الحلزونية، تاركاً مكانها حُفراً عميقة شائكة بشظيات الخشب العالقة بجدارها الداثري الفوسفوري، ويعلو القضيب فوق الأرض لمسافة قصيرة ثم يتمدد ويتمدد، وتخرج منه قضبان أخرى أقل سمكاً منه إلى ناحية، تتمدد بدورها في الفضاء بنية لامعة، وتستدير في دوائر واسعة لا تلبث أن تضيق، وتزداد عدداً، والقضيب الأول ينكمش ويستدير في دوائر صغيرة متتابعة، ويرفع رأساً عالياً، ويمد لساناً مشقوقاً إلى ساق مجد الدين، الذي يقفز في الفضاء فلا ينزل، ويستقر على سقف قطار مجنون والهواء يطير شعر مجد الدين ويخلع عنه سترته، وفانلته وسرواله وهو يتشبث بقوة، وليس فوق جسمه غير السروال الداخلي، في سقف القطار اللامع، لكنه ينزلق إلى جانب القطار فيتشبث من جديد بالإفريز العالي، ويصرخ ولا مجيب، فيتهادى القطار ويبطىء من سرعته شيئاً فشيئاً، حتى يقف في النهاية وسط طابورين من الناس غريبي الملامح، لا يكفون عن الضحك الهستيري، ولا تكفّ عيونهم الجاحظة عن الدوران، ويسقط بينهم فيتلقفه بعضهم يتأملونه بشراسة، ولا يكفون عن الضحك من جديد، ويمضي

القطار نافثاً دخانه الأزرق، ويرى زهرة في هلع خلف القطار تناديه. مجد الدين. يا مجد الدين. يا شيخ مجد. وهو مرفوع خلفها فوق أيدي الناس غريبة الوجوه والعيون الذين لا يكفون عن الضحك بشراسة، يصرخ، فيضيع بين مئات الضحكات، حتى تقع زهرة فوق الفلنات والمازوت، وتعود مثقلة بالألم تمشي على مهل تعرج، والشمس الراحلة تسرع في الابتعاد والإظلام القادم يسرع إلى الدنيا، ويتركه الرجال غريبو الملامح مقعياً وسط الظلام، يئن أنيناً خافتاً طويلاً، بأقصى درجات الإحساس باليتم، ثم يهطل مطر شديد متتابع من السماء، ويطلق الرعد ضرباته متتابعة وهو يهتزّ بعنف.

ـ مجد الدين. مجد الدين. انهض. فيه غارة.

كانت زهرة تهزّه بسرعة، ونهض فزعاً يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. أنقذتيني يا زهرة من كابوس فظيع، والحقيقة أنها لم تستمع إلى أنينه، بل أيقظتها طرقات الست مريم على الباب وإبلاغها من خلفه بوجود غارة وأن عليهم النزول إلى أسفل بسرعة.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هذا صوت مدافع حقيقية.

* * *

في الأيام السابقة كانت بلدية الإسكندرية قد أتمّت عدداً من الخنادق المكشوفة في أكثر من حي شعبي، لكن السكان راحوا يتبولون فيها ويتبرزون، مما اضطر البلدية إلى توزيع رجال الشرطة لحراسة الخنادق، وتوقفت عن التوسع في المشروع، وعقدت المحكمة العسكرية في الإسكندرية حسب قانون الطوارىء، جلسة لنظر الحكم في شأن فتاة فقيرة تمارس الدعارة بدون ترخيص، وأوقعت عليها غرامة ثلاثة جنيهات، كما تمّت مداهمة بيت في كرموز يدار للدعارة بدون ترخيص أيضاً، وحين حاصر رجال البوليس صاحب البيت صرخ قائلاً: «فين

جوبلز، فين الجستابو أنا هتلر» لكن رجال البوليس الشجعان لم تنطل عليهم اللعبة، وأمسكوا به وأوسعوه ضرباً على قفاه، ووصلت الصحف فجأة كمية كبيرة من الأسئلة عن «نورما شيرر» ممثلة هوليوود الجميلة، وهل ستتزوج بعد وفاة زوجها، وكانت الإجابة بالإيجاب، والزوج المرشح هو الممثل «جورج رافت» الذي كانت علاقتها به متينة في حياة زوجها. لكن الحذر والترقّب كان أيضاً في عيون الناس، فالإيطاليون على مرمى حجر من الإسكندرية، لذلك حينما ارتفعت أصوات صفارات الإنذار أكثر من مرة بالنهار، أدركوا على الفور أنها ليست غارة تجريبية، وحينما رأوا المدافع المضادة تتبعها بالقذائف أيقنوا أن زمن الغارات التجريبية انتهى..

كانت الأوامر قد صدرت بالتشديد على سائقي السيارات بطلاء مصابيحهم بالأزرق القاتم بعد التراخي، الذي لوحظ في الشهور السابقة، والتشديد على السكان بطلاء نوافذ البيوت، ولصق قطع شاش طولية وعرضية على الزجاج من الداخل حتى إذا تهشم لا يتطاير، وأن لا يجتمع الناس في الطرقات ساعة الغارة، وأن تتوقف المواصلات ويغادرها ركابها، وأن يخلي أصحاب البيوت الأدوار الأولى ويجعلوها بمثابة ملاجىء للناس البعيدين عن الملاجىء العمومية، وأن يتقدم كل مُضار من الغارات بسرعة إلى البلدية لاستلام أدوات بناء جديدة من خشب وحديد وأسمنت لإصلاح الضرر الذي وقع ببيته، أو لتدعيم البيوت القديمة. وحين سمع الناس صوت صفارة الإنذار المتقطع هذه الليلة أحسوا به مختلفاً عن كل مرة. فيه هرولة غير مألوفة. فيه فزع. تمدّد القلق في نفوس الناس. الغارات النهارية الأسبوع الماضي كانت سريعة، ولم تترك إصابات أو خسائر واضحة. الليلة يبدو أن الحرب الحقيقية ستنتقل إلى سماء الإسكندرية.

كانت الساعة الثانية عشرة، الحرارة شديدة، وعدد قليل يمشي في شارع البان. بسرعة دخلوا إلى البيوت القريبة، ووقفوا في مداخلها. كما توقفت سيارتا تاكسي، لكن سائق إحداها لم يبرحها، نظرا إليه أحد الواقفين بمدخل البيت القريب، ودعاه للدخول حرصاً على روحه فقال:

ـ يعني البيت لو وقع عليّ حاعيش؟!

بدا للكلام معنى.. نظر الواقفون في المداخل إلى بعضهم لكنهم لا يستطيعون مخالفة تعليمات الوقاية. الوقوف في مدخل البيت أكثر أمناً من الشارع المكشوف!

لم يكن القمر بدراً تلك الليلة، كان أكثر من هلال، لكنه استطاع أن يضيء الشوارع ويخون الجميع.

كان ديمتري أفندي وزوجته وابنتاه قد نزلوا إلى الدور الأرضي، ودخلوا غرفة البهي الخالية وأطفأوا النور بعد دخولهم. كانت لولا قد انضمت إليهم. لم تفكر أن تلبس شيئاً يخفي كتفيها وذراعيها بسبب الارتباك. انضمت إليهم وحدها ولم ينضم زوجها. هو عادة قليل الاختلاط بالآخرين، ثم إنه يسكن بالدور الأرضي فما جدوى الانتقال إلى الغرفة المقابلة، والحقيقة كانت غير ذلك. ما كاد صوت صفارة الإنذار يرتفع، وطلقات المدافع تدوي في الفضاء حتى ارتعشت «لولا» ودخلت في حضنه فضمها إليه أكثر، ومدّ يديه يخلع سروالها وسمعت هي وقع أقدام ديمتري وأسرته وأصواتهم، فحاولت التخلّص من زوجها الذي عاندها وهجم عليها يريد معاشرتها فذلك في رأيه أحسن وسيلة لطرد الخوف. وقاومته هي، وقاومت أيضاً رغبتها التي تشتعل بمجرد أن يلمسها. كانت تفكر ماذا يحدث لو وصلت أصواتها وأصواته إلى ديمتري وبناته، لذلك حين نجحت في التخلص من زوجها خرجت بسرعة والتحقت بهم، وهي بقميص النوم الطويل الأبيض فأضاءت كتفيها

وذراعيها في الظلام عيون الواقفين!

اهتدى مجد الدين في الظلام بصوت ديمتري ولم يترك يد زهرة التي ما إن دخلت الحجرة حتى هتفت صارخة «يا لهوي. البنت شوقية فوق» وأصبح على مجد الدين أن يصعد هو لإحضار البنت بعد أن وقفت زهرة في حجرة البهي مع الواقفين.

انقطع صوت المدافع ولم يرتفع صوت صفارة الأمان، وطال الصمت والصبر معاً. وأرهف الجميع السمع لصوت طنين هادىء بطيء عريض مثل شتاء يأتي من بعيد، ويزداد الطين العريض كأنما قوافل من النحل القاتل تقترب من المدينة، ومثل عاصفة تنهض من الأفق لتجتاح الصحراء، ومثل جيوش الجراد وهي تقترب من الزرع الأخضر، زززززززز، إنها الطائرات الألمانية والإيطالية تأتي قاصدة أهدافها، تأتي متجاورة في تشكيلات كبيرة، تقترب من المدينة وتقترب من الأرض، أصوات القنابل والانفجارات وأضواء البرق تمرق من أمام النوافذ المغلقة في الفضاء، تعبر من خلف الشيش المغلق والزجاج.

ـ افتحوا النوافذ نعرف ماذا يحدث.

هتف ديمتري. كان مجد الدين بجوار النافذة ففتحها وبان الليل أمامهم مثل نهار أبيض، وبان أمامهم نهار أحمر، وبان مثل نهر من الدخان الأزرق. صفحة السماء تشتعل شمالاً، وسكان الصف المقابل من المباني يصرخون وهم يرون الدخان، ومجد الدين وديمتري والنساء يرون الضوء القادم من الشمال مشتعلاً جنوباً في السماء كسيف أبرزه محارب سماوي. «. . . يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم. لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون، لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً

فأغشيناهم فهم لا يبصرون. صدق الله العظيم». قال الشيخ مجد الدين، وأعاد «وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون»، ويعيد ويرتفع صوته ويهتز وضوء القمر يكشفه للجميع، بينما هو ذاهل عنهم تماماً، «وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون»، وبدأت زهرة تردد خلفه وصوته يعلو، والست مريم تردد، «نعم، نسألك يا الله الآب ضابط الكل لا تدخلنا في تجربة لكن نجّنا من الشرير»، وديمتري يردد معها «نعم نسألك أيها الرب إلهنا لا تدخل أحداً منا في تجربة. هذه التي لا نستطيع أن نحتملها من أجل ضعفنا، بل أعطنا أن نخرج من التجربة أيضاً، لكي نستطيع أن نطفىء جميع السهام المتقدة ناراً التي لإبليس»، ويرتفع صوته وترفع الست مريم صوتها، ونجنا من الشرير إبليس بالمسيح يسوع ربنا، آمين، ومجد الدين يرفع صوته أكثر يا ربي لا تترك بيني وبين أقصى مرادك منّي حجاباً إلا كشفته ولا حاجزاً إلا رفعته ولا وعراً إلا سهلته ولا باباً إلا فتحته يا من ألجأ إليه في شدتي ورخائي، ارحم غربتي، آمين يا رب العالمين. ويبدأ مجد الدين قراءة القرآن بعد هذا الدعاء ولا يزال يهتز ويعيد ديمتري معه ابتهالاته، ويختلط الكلام فتسمعه فلا تدرك منه إلا أنه حالة روح صادقة ضارعة متبتلة بكل الجوارح لله المخلص. «يس والقرآن الحكيم» أيها الرب إلهنا «على صراط مستقيم» لا تدخل أحداً منا في تجربة «تنزيل العزيز» نجنا من الشرير «ما أنذا أباؤهم» من أجل ضعفنا على «أكثرهم لا يؤمنون» نخرج من التجربة «وجعلنا من بين أيديهم سداً» التي لإبليس «فهم لا يبصرون» آمين آمين.

وتأتي الأصوات من الشارع. رجال وشباب ونساء مذعورات وأطفال يبكون.

ـ من أين ترتفع النيران؟

ـ الكشافات أم القنابل؟

ـ القنابل.

ـ من مينا البصل وباب سدرة وكرموز، الضرب كله على كرموز يا عم، البيوت تهتز.

ـ الكشافات لا تتوقف، مدافع كوم الناضورة وكوم الدكة والمكس والقباري وسيدي بشري كلها بتضرب في وقت واحد، أكثر من مائة طيارة.

ـ السما كلها ذباب أزرق.

ـ أين كان هذا كله حتى ظهر فجأة هكذا؟

جاء الصوت من الخارج:

ـ يا خواجة ديمتري. يا عم اطلع من عندك البيوت ستقع.

ـ من يتكلم؟

ـ أنا غفارة.

كان الصوت غريباً ومكتوماً. أطلّ غفارة عليهم من الشباك. كانت النساء قد تكومن في ركن ملتصقات. وما إن رأته كاميليا وإيفون حتى صرختا (ماما)، لقد رأتا صوتاً مخنوقاً يأتي من خلف الطربوش القناع الذي يربطه فوق وجهه.

ـ لا تخفن يا سيدات، هذا قناع غفارة الواقي من الغارات. يا خواجة ديمتري، ويا شيخ مجد الدين لا تؤاخذاني، أنا أعرفك وكنت صديق المرحوم البهي، يا جماعة البيوت تنهار في كرموز وتهتزّ هنا، أفضل لكم الخروج والوقوف في الشارع.

كان ينظر من خلف العينين الزجاجيتين إلى ذراعي لولا، وكتفها اللامعة في الغبش كما لو كانت هناك غلالة سوداء فوقها والوقت نهار.

وخرج ديمتري ومجد الدين ولم تخرج النسوة.

قالت زهرة:

ـ العمر واحد. إذا متنا نموت مستورين..

وأعجب الكلام الخواجة ديمتري الذي طلب من زوجته أن تبقى مع زهرة وكذلك البنتان، بالطبع بقيت معهن لولا.

ـ يا لطيف. يا أرحم الراحمين. النار تشتعل إلى السماء.

كانت صفحة السماء فوق المباني شمالاً حمراء، وكانت سحب الدخان كثيفة، والطائرات تئز وتدور كالزنابير فوق المدينة، وكشافات الوقاية تتابعها من باب الكراستة وكوم الناضورة والميناء والمنشية والقباري وكل مكان، وألسنة طلقات النار متتابعة خلفها. «يا ستار» كان المجتمعون على الرصيفين يصرخون وهم يرون عدداً من الطائرات تلقي بقنابلها، ويسدون آذانهم وترتفع أصوات الانفجار البعيدة قريبة! ويصيحون «الله أكبر» عندما تصيب الطلقات طائرات تهوي بسرعة بعيداً، مالئة صفحة السماء دخاناً أسود. كانت رائحة الفضاء كله رائحة حريق هائل.

كان زوج لولا ذو الشعر المنكوش قد انضمّ إلى الناس في الشارع وفي يده سيجارة، فهجم عليه أحد الشبان وضرب يده لتسقط السيجارة على الأرض، ونظر إليه شذراً، فاعتذر زوج لولا وهرش رأسه، وقال:

ـ الواحد من لخمته نسي أوامر الوقاية.

وفجأة ارتفعت بهم الأرض، وارتفعوا عنها وانخفضوا، فانزلقت قلوبهم، وكانت البيوت قد ارتفعت، وانخفضت أيضاً، أو خيِّل إليهم ذلك، ولكنها لقصرها وصِغر حجمها لم تسقط، وصلتهم أصوات سقوط البيوت في كرموز.

ـ هذا طوربيد الذي سقط على كرموز الآن.

صرخ رجل وارتفعت الأرض مرة أخرى بهم، وانخفضت فصرخ رجل آخر «طوربيد ثاني. الرحمة» وارتفعت الصرخات في مداخل البيوت ثم فجأة ارتعش الفضاء بأصوات النساء، وخرج النساء والرجال والأطفال إلى الشارع. الأرض لا تتوقف عن الاهتزاز، والمدافع المضادة للطائرات لا تتوقف عن سيل حممها تقذفه على السماء، ألقت الطائرات السوداء العريضة شرائط فسفورية فوق المدينة، فصار الجو احتفالاً ليلياً. كل شيء واضح الآن والطائرات تدور فوق المدينة في مناورات محسوبة يبدو أنها لن تنتهي، إذ كلما سقطت طائرة انضمت أخرى جديدة، وكثير منها كان يقترب جداً من الأرض يصيب هدفه بوضوح، وامتلأ الفضاء بالرعب وامتلأ شارع البان بالسكان الذين صاروا يجرون بلا هدف على سيدي كريم ثم يعودون هرولة، ويجرون حتى كوبري كرموز، وفي الناحيتين كلما اقتربوا من نهاية الشارع ورأوا الفضاء الممتد أمام شارع راغب أو كوبري كرموز روعهم حجم النار شمال المحمودية فوق الحي الشهير، لقد امتدّت النيران إلى راغب ومحطة مصر، وصارت الدنيا مصيدة مليئة بالصراخ والخوف والدموع، وكانت رباطة جأش زهرة هي السبب الوحيد لبقاء الست مريم وكاميليا وإيفون ولولا في الحجرة، في بيت لا يكفّ عن الاهتزاز، وفوق أرض لا تكف عن الحركة، لكن إيفون كانت تنتحب بأنين خفيض، أما كاميليا فقد غشي عليها فوق حجر أمها. تمدّدت على الأرض ووضعت رأسها فوق حجر أمها ونامت. هكذا ظنت الست مريم، والحقيقة أنها كانت في إغماءة طويلة، لم تفق منها إلا في الصباح، بعد أن انتهت الغارة، وكان هناك عشرات النساء والأطفال قد أغمي عليهم في الشوارع والأزقة، وانشغل الجيران بأمر الجيران حتى مرّت الليلة الطويلة التي لم يكن أحد يتصور أنها يمكن أن تمر.

في تلك الليلة، وعند الفجر ظهر «حميدو» ماسح الأحذية، ووقف

وسط الشارع عملاقاً حافياً يصرخ «يا أولاد الكلب» موجّهاً شتائمه إلى الطائرات البعيدة، طالباً بأن يذهب معه الشباب إلى كرموز لإنقاذ الناس، وجرى في الشارع وخلفه عشرات من الشباب وكان غفارة يهرول خلفهم، ولا يلحق بهم لكنه لم يتوقف. فقط كان يسند الطربوش بيده اليسرى حتى لا ينخلع ويسقط. لقد فكّر مجد الدين أن يذهب معهم، لكن خاف أن يترك زهرة وحدها. ماذا يحدث حقاً لو مات هناك أو ماتت هي هنا؟ ورأى دميان قادماً إليه زائغ العينين أصفر الوجه، ما إن رآه دميان حتى جلس فوق الرصيف ووضع رأسه بين كفيه، واندفع في البكاء.

ـ لا تبكِ يا دميان، هذا أمر الله.

ـ الناس ستترك الإسكندرية بالآلاف غداً. أين أذهب يا شيخ مجد؟

ـ ابقَ معي، أنا لن أتركها.

ـ ستبقى؟

ـ هل أترك عملاً كالذي حصلنا عليه يا دميان؟ ثم إن الموت بيد الخالق يا رجل. أين عائلتك؟

ـ في الدير. الدير فتح أبوابه ودخل فيه ناس كثير. وجامع سيدي كريم أيضاً. القنابل سقطت خلفنا في مياه المحمودية على بعد خطوات.

ـ وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا يا دميان. أطلب الرحمة.

ـ كيرياليسون. كيرياليسون. كيرياليسون.

«إذا امتلأت بالنور نافذة أو دار فكن على يقين أنه ليس من مضيء سوى الشمس»..

13

انشغل الناس بالغارة الطويلة التي استغرقت ست ساعات، طلع الصباح والجثث نائمة في شارع الرحمة متجاورة متحابة كأنما قام أحد برصها على الأرض بالليل. وظلت الحرائق في باب سدرة يوماً كاملاً، تكاثفت عليها وسائل الإطفاء والإنقاذ من المحافظة، لكن الوقت طال لاستخراج الجثث من تحت الأنقاض. امتلأ شارع كرموز والشوارع الجانبية بالناس من جميع أنحاء المدينة أتوا يشاركون في الإنقاذ أو يتفرجون على ما يمكن أن يتكرر أو يحدث لهم. وبدأت عمليات الهجرة الجماعية من الإسكندرية، وتبرّع الملك والأمراء بالأموال للضحايا، وخصصت المستشفيات للجرحى، ومدرسة «دون بوسكو» للذين صاروا بلا مأوى، ونزل على المدينة وجوم إذ لم تنقطع الغارات النهارية ولا الليلية، وشيئاً فشيئاً دخلت المدينة في مجرى العادة والألفة وبدأت حكايات أخرى تطير فوقها، وفي أزقتها، وتتنزل بين السهارى بالمقاهي القليلة التي تفتح أبوابها في المساء، أو بالبيوت. فالمراهقون يتحدثون عن قصص الحب في المخابىء العامة، وعن النساء اللاتي تفاجئهن الغارات عراة في الحمامات، أو في أحضان رجالهن، وفي أحسن الأحوال بقمصان النوم.

والرجال يتحدثون عن استقالة علي ماهر باشا، وتكليف حسن صبري باشا بالوزارة الجديدة، وعن طريقة شرب الشاي المثلج بالليمون أو اللبن أو سادة في هذا الحر، وكيف اعترفت إنجلترا بالجنرال ديجول ممثلاً لجميع الفرنسيين الأحرار في كل بقاع الأرض، والنساء والفتيات يتحدثن عن التطوع في الهلال الأحمر والهجرة من المدينة. ولم يكن الصيف بعد غارة الست ساعات هذه عادياً أبداً. في «غربال» اشتهى سماك امرأة تاجر صعيدي في الوكالة، امرأة بيضاء باهرة الحسن، لا يعرف السماك كيف عاشت من قبل في الصعيد، ولما لم يجد طريقاً لنيلها، أشاع أنها على علاقة، بمدرِّس شاب يسكن في الشقة المقابلة، وأنها تتحيَّن فرصة الغارات، لتمارس الحب مع الشاب المدرس في المخبأ المظلم، وتنفست البيوت الإشاعة الكريهة، فإذا بالزوج يمسك بزوجته الجميلة من شعرها، ويجرها إلى الزقاق، الزقاق الصغير المسمّى بشارع القمر، المجاور لشارع النجوم، والموازي لشارع الشمس، في المنطقة الهادئة التي اختار لها مؤسسها هذه الأسماء الجميلة، وفي وسط الناس المذهولين طعن الرجل زوجته، ووقف فوق جثتها. لم يمر أسبوع إلا والسماك، يعود ليلة في حالة سكر، ويحكي للناس كيف كان هو وراء الإشاعة. لم يعد محل ازدراء الناس فقط، ظهر والد المرأة وأخواتها، وأمام الناس جميعاً، وفي المكان نفسه التي قتلت فيه ابنتهم، قتلوه وشربوا دماءه. لقد بكت النساء في المدينة مرتين، يوم قتل الزوجة الجميلة، التي بعدها جفلن من النزول إلى المخابىء، ويوم قتل السماك الكريه حيث أدركن مدى الظلم الذي وقع على المرأة الجميلة، وصرن ينزلن إلى المخابىء وإن على استحياء. وعلى شاطىء المحمودية عثر الناس أكثر من مرة على طفل لقيط، وأخرجوا جثتين موضوعتين في جوالين، انتفخت الجثتان، وحملهما الماء من الجنوب، الجثتان لفتاتين، ولم يكن بين اكتشاف الجثة والأخرى أكثر من أسبوع. ركنت الأولى

تحت كوبري راغب، والأخرى تحت كوبري كرموز بعد ذلك. وفي العالم بدأ الألمان معركتهم الجوية الكبرى فوق إنجلترا. لقد بدأت معركة بريطانيا منذ العاشر من يوليو. كانت الطائرات المغيرة تخرج بالمئات من الشواطىء الفرنسية والأراضي البلجيكية القريبة تضرب القوافل البريطانية في المانش، والموانىء الجوية بين دوفر وبلايموث.

لقد بلغ من عنف الغارات، أن وصل عدد الطائرات الألمانية في إحداها، إلى ثمانمائة طائرة مغيرة في وقت واحد، أعلن هتلر أنه سيزيل بريطانيا من الوجود، وأصبح مصير بريطانيا حقيقة في يد طياريها الشجعان الذين خطب تشرشل يحييهم في مجلس العموم قائلاً «إنه لم يحدث في تاريخ الصراع الإنساني، أن أحس مثل هذا العدد الضخم من الناس بما في أعناقهم من دين جسيم، نحو عدد قليل من الناس، مثلما نحسّ به جميعاً، نحو طيارينا».

وحضرت أم زهرة من البلد، حاملة لها سمناً وزبداً وجبناً قريشاً وخبزاً أيضاً، وأغرت بنتها أكثر من مرة، أن تترك مجد الدين وتعود معها إلى البلد، فالناس الذين لا بلد لهم يهاجرون فكيف تتردد هي؟ قالت أمها: إن العمدة أقسم لو عاد مجد الدين سيقتله، لا دية له أثناء الحرب، فقالت زهرة: إن مجد الدين بعد عمله الجديد لن يعود، ثم سألت أمها هل فعل العمدة بهم ذلك بسبب البهي حقاً، فقالت أمها: إن الزوجة الأولى لمجد الدين، التي ماتت قبل أن تنجب له، كان العمدة يميل إليها من قبل. ولكن زهرة لم ترتح لهذا التفسير فتلك الزوجة ماتت بعد الزواج بعام واحد، ولم يعد أحد يذكرها. البهي هو السبب الوحيد المعقول. وأخبرتها أمها أن هادية، أم مجد الدين أوشكت أن تموت، بعد أن وصلها نبأ موت البهي، وعجز مجد الدين عن العودة، طلبت منها زهرة ألا تخبر مجد الدين إلا بما هو عادي أو حسن، وإن كان مجد الدين لن

يصدق أن هناك أمراً حسناً.

خففت زيارة الأم، كثيراً من وحشة زهرة، التي بكت بحرقة يوم سفر أمها، وأخذتها الست مريم وكاميليا وإيفون معهن إلى شاطىء الشاطبي لتتفرج على المصطافين. كانوا قليلين، وأكثرهم من النساء والفتيات، وخلعت كاميليا ثم إيفون فستانيهما، ووقفت كلاهما بشورت وبلوزة من القطن أمام زهرة. بلوزة واسعة الصدر «جيبونيز» تكشف معظم الظهر. كان هناك عدد قليل من الفتيات، قد نزلن إلى الماء، وعدد قليل من النساء نزلن بجلابيبهن، وقالت الست مريم: إنها لا تحب النزول، وكذلك أعلنت زهرة، بل إنها لا تستطيع، ظلت تنظر للفتاتين اللتين جرتا على الشاطىء كثيراً، ولعبتا في الماء كثيراً، وبعد الظهر بوقت قليل طلبت زهرة العودة. لقد رأت في نهاية الشاطىء فتاة أجنبية شبه عارية، يقبلها شاب أجنبي شبه عار..

كان الأجانب من الجنود يزدادون في المدينة، أفواج منهم تذهب إلى الصحراء، وأفواج تأتي للراحة والاسترخاء بعض الوقت، وخصصت المدرسة الإيطالية بالشاطبي كمعسكر للأسرى الطليان، ثم ازداد الأسرى فخصص لهم معسكر آخر خارج المدينة، فضلاً عن أكثر من معسكر بالقاهرة. كانت الحرب البرية قد بدأت على الحدود، وبدأت قوات الحلفاء تشن غارات هجومية على القوات الإيطالية في ليبيا، فضلاً عن الغارات بالطائرات، فمنذ الرابع عشر من يونيو، بعد إعلان إيطاليا الحرب مباشرة بأربعة أيام، أغارت القوات البريطانية، وقوات الكومنولث، على القوات الإيطالية في كابوتزو ومادالينا، وأسرت أكثر من مائتي أسير، وفي الثالث عشر من أغسطس، بدأت القوات الإيطالية الزحف الكبير إلى مصر، بأوامر من الدوتشي شخصياً، بدا القصف الإيطالي عنيفاً على الحدود قرب السلوم، حتى إذا انكشف الغبار والدخان، تجلّت القوات الإيطالية مصطفة في نظام بديع، في المقدمة راكبو الدراجات النارية في

تنظيمات متقنة، تليهم الدبابات الخفيفة، ثم السيارات المصفحة، فغيّر البريطانيون خطتهم، وبدلاً من الانسحاب أمام الإيطاليين صبوا عليهم مدفعيتهم فأصابوا منهم الكثير مما جعل جرازياني يغيّر شكل الهجوم المباشر هذا، ويقوم بحركة تطويق للبريطانيين وحلفائهم، الذين انسحبوا، ولم يتجاوز الإيطاليون سيدي براني، ستين ميلاً خلف الحدود المصرية، وظلوا هناك لوقت طويل عرضة للغارات البريطانية بين حين وآخر، من البر ومن الجو، حتى بلغ عدد القتلى الإيطاليين ثلاثة آلاف وخمسمائة قتيل في ثلاثة أشهر بينهم سبعمائة أسير. كان السؤال في الإسكندرية لماذا يحارب الإيطاليون وهم شعب مسالم إلى هذا الحد؟ وحتى طائراتهم يمكن تمييزها في السماء عن الطائرات الألمانية، فالطائرات الإيطالية لا تظهر طويلاً فوق المدينة، تلقي بحمولتها عشوائياً في أي مكان وتعود، بينما يبدو الألماني يعرف هدفه، ويبحث عنه، والطائرات الإيطالية تسقط بأعداد كثيرة وبسرعة، بينما تراوغ الطائرات الألمانية القذائف في السماء. لقد بدا للناس أن الإيطاليين لا يريدون الحرب حقاً، وأنهم إنما دفعوا إليها دفعاً، خاصة وهم يسمعون عن عدد الأسرى في الحروب البرية الذي يصل المدينة كل يوم. اطمأن الناس أن الإيطاليين لا يمكن أن يحتلوا المدينة، لكن لا بد من هزيمة ألمانيا حتى يكون الاطمئنان كبيراً. لكن ظل قسم كبير من الناس أيضاً يتمنى هزيمة الجيوش البريطانية في الصحراء، وأن تدخل إيطاليا الإسكندرية أو ألمانيا، المهم أن يخرج الإنجليز..

* * *

رأت زهرة كاميليا وإيفون في الصباح الباكر تقفان وسط الردهة بزيّ المدرسة الجميل، لقد انتهت الإجازة الصيفية إذن، وها هما البنتان مثل فراشتين مرحتين. الجوب الرمادي والقميص الأبيض ورباط العنق

الأزرق، تضفي عليهما براءة طفوالية فوق براءتهما العذبة.

كان مجد الدين قد غادر المنزل إلى العمل منذ قليل. إنه أول من يخرج، ومعه الخواجة ديمتري، في الأسابيع التي يعمل فيها نهاراً.

ـ هل المدرسة جميلة هكذا يا بنات؟

ـ طبعاً يا زهرة. خصوصاً أول يوم، عيد، نقابل زميلاتنا ومدرساتنا، ونحكي عن الإجازة والصيف. أجمل شيء في الدنيا هو أول يوم في المدرسة يا زهرة، بعد كدة المدرسة وحشة.

وضحكتا ببراءة الحمام الوديع. ولأنه لم يكن لزهرة أن تعيد الأيام، فتدخل المدرسة وتسكن المدينة، تمنت أن ترى «شوقية»، في مثل سعادتهما يوماً. كانت إيفون قد فتحت الراديو على صوت لندن، وكانت تنساب منه موسيقى جميلة لم تسمعها زهرة من قبل. موسيقى تبعث على الطيران والسباحة في الفضاء مع الملائكة. كيف حقاً لم تسمع موسيقى دون أغان من قبل، وهل يمكن أن تكون الموسيقى دون أغان جميلة هكذا؟

وغادرت البنتان المنزل إلى المدرسة، وحملت نسمة الصباح الطرية زهرة إلى سماوات من سعادة. لن تعود للنوم مرة أخرى. استلقت جوار طفلتها فوق السرير، ورفعت عينيها إلى السقف الخشبي الأبيض. هل يمكن أن تكون الإسكندرية جميلة وهي لا تدري؟ بالأمس خرجت إلى الأنفوشي مرة أخرى بعد وقت طويل في صحبة الست مريم. رأت الناس في الترام أكثر نضارة من المرة السابقة، رغم الغارات التي لا تنقطع؟ وعندما شاهدت تمثال محمد علي باشا لم تفكر أن تشكو له، خافت عليه أن تهدمه الغارات، وضحكت من فكرة أنه يمكن أن يهرب على حصانه، اندهشت للعمارات العريضة المهيبة ذات الشرفات المزخرفة على جانبي ميدان المنشية، كيف حقاً لم ترها من قبل بهذه العظمة.. وحين اقترب

الترام من نهاية لسان بحري، بدأت تسمع صوت الموج نغمات وادعة، وتشمّ رائحة اليود منعشة، ولما خرجت الترام إلى الهواء الطلق من الشارع الطويل البارد رأت زهرة البحر أزرق بلا نهاية، تتهادى أمواجه زبدية الذرى إلى الشاطىء، وعلى الشاطىء علقت الشباك البنية لمسافات طويلة، تتدلى من حافتها السفلية قطع الرصاص الفضية الثقيلة. وجوارها سفن ذات أشرعة ملمومة، وفلائك صغيرة بلا أشرعة، متوقفة أو مركونة فوق الرمال، وبعيداً السفن الرمادية الضخمة، ذات المدافع الطويلة والقصيرة، تنعكس ظلالها، وظلال صواريها وأعلامها، تتراقص فوق الماء، وعلى الشاطىء زحام النساء الشديد المبهج أيضاً على باعة السمك، لقد جاءت هنا مرة، ولم تر ما تراه الآن كان ذلك في العيد الصغير الماضي. حقاً يختلف الصيف هنا عن الشتاء. وها هي ترى بعيون جديدة. أي طاقة أعطتها المدينة التي يهجرها أهلها لتبقى فيها وتحبها؟ هذا زحام حقاً لكنه مبهج. نسوة ملفوفات في الملاءات تَركْتها تسقط من على رؤوسهن وأكتافهن فتأبطن أطرافها العليا، وكشفن عن أكتاف حمراء غضّة وأذرع لامعة، وبان شعرهن تحت أغطية رؤوسهن أحمر أو أسود الحواف، وكلهن يدخلن في أحاديث طويلة مع الباعة، وينطلقن في الضحك العفوي، والباعة ارتفعت أصواتهم، وبانت السعادة في عوينهم فتهللت أساريرهم، لكن كثيراً من النساء كن يتحركن حركات مقصودة، تترك الواحدة منهن الملاءة يسقط طرفها عن رأسها لتظهر كتفها العارية، وترفع الملاءة، متعمدة فرد ذراعها البيضاء المغرية، إلى أقصى ارتفاع، بحيث يرى البائع إبطها المنتوف بالأمس فقط، ناعماً حريرياً يكاد يشد فم البائع الملهوف. نساء كثيرات يشربن دم الترسة الذي قدمه الباعة في الأكواب، وقد صحبن معهن فتيات صغيرات مشرقات الوجوه، بناتهن اللاتي يردن لهن أن يكن مشرقات للأبد.

ـ لا تفزعي يا زهرة، دم الترسة كله غذاء، ويسمِّن أيضاً.

ـ ما هي الترسة؟

ـ إنها السلاحف المائية، يأتي بها الصيادون يذبحونها، جسدها يقطع ويباع لحماً بالأقة، ودمها يشرب، إنها أرخص أنواع السمك.

ورأت زهرة الأسماك الأخرى أكثر رونقاً مما رأت من قبل، راحت تتذكر أسماءها وتسأل عما لا تعرفه. ولاحظت أن الأنواع الآن أكثر من المرة السابقة، جمبري أحمر وكابوريا برتقالية ودنيس فضي ومرجان أحمر مرقط. وبوري أبيض ووقار أبيض وأحمر وقاروص فضي وسيوف طويلة بيضاء ملتفة كالأحزمة وموزة صغيرة بيضاء مكتنزة، وثعابين خضراء طويلة قوية وبربون أحمر قاتم و«سبارس» تميل إلى الرمادي قصيرة شبه بيضاوية ثقيلة وبطاطا بيضاء وبطاطا سوداء ومغازل مليئة باللحم طويلة سميكة، وسردين فضي شاهق البياض لامع ينتشر بكثرة في عشرات الطاولات الخشبية عليه زحام شديد، فهو من أرخص الأسماك، وهذا موسمه، والكثير من النساء يذهبن لشراء كميات كبيرة لتمليحه واستخدامه في الشتاء..

لقد اشترت أمس كابوريا وجمبري وثعابين، أكثر من أقة من كل صنف. أنفقت نصف جنيه كاملاً من الجنيهات العشرة التي تركتها لها أمها، اشترت خمس أقات من السردين أيضاً لتمليحه. ما الذي جعلها تسرف هذا الإسراف، وهي تعلم أن راتب زوجها لا يتجاوز ثلاثة جنيهات كل شهر. من المؤكد أنها العشرة الجنيهات التي تركتها أمها هي التي شجعتها على التبذير، لكن الأكثر تأكيداً أنها فطمت البنت أمس، وهي تعرف أنها لا تحمل طوال أيام الرضاعة. ورثت ذلك عن أمها. اليوم ستحمل. قالت لنفسها. ارتعش جسدها، ويرتعش اليوم وهي تستلقي فوق السرير يقظة. هل يمكن للمرأة أن تعرف بوقوع الحمل

لحظة وقوعه؟. يمكن. هي أحسّت بذلك الليلة المنتهية. أحسّت بشيء صغير داخلها يعلق بشيء آخر. أحسّت بتوتر داخلها ينتهي لسكون عميق حتى أن إحساساً عارماً بالراحة مشى في دمها. سيسعد بها مجد الدين لأنها ستنجب ولداً هذه المرة. هو لا يوضح أبداً حبه للذكور عن الإناث، لكنه نشأ مثل كل الفلاحين، وربما كل الناس، يحب الذكور ويتمناهم. وستحقق له ذلك، وستساعدها هذه المدينة البيضاء الواسعة التي تسع كل هؤلاء الناس من كل الدنيا ولا تشتكي.

* * *

ما كاد مجد الدين يتناول غداءه متأخراً كعادته إذ يؤجل الغداء حتى العودة من العمل حتى سُمعت صرخة نسائية عالية قادمة من أسفل. إنها لولا. هذا صوتها. هتفت زهرة وأردفت:

ـ إنني أعرف صوتها.

وعندما ارتفعت الصرخة مرة أخرى بسرعة، خرجت زهرة من الحجرة لتقابل الست مريم في الردهة. سبقتها الست مريم إلى أسفل إذ لم تنقطع صرخات لولا، ولحقت بها زهرة وكاميليا وإيفون. لحظة وهتفت الست مريم وزهرة معاً يناديان مجد الدين المتعب. لم يكن الخواجة ديمتري قد عاد بعد، وكان مجد الدين قد ارتدى جلبابه، استعداداً لأي موقف، بعد أن كان يأكل مرتدياً ملابسه الداخلية!

في طريقه للنزول رأى مجد الدين كاميليا وإيفون تصعدان السلم. لم تكلماه. كانتا تهرولان، وسمع أصوات رجال أسفل السلم، وأصوات حشد هائل من الناس، رجال وشباب وأطفال ونساء يقفون في الشارع أمام البيت. وسمع لولا تصرخ في غرفتها «حرام عليكم، حرام عليكم».

كانت الست مريم وزهرة تقفان أمام الباب. ما الحكاية؟. تساءل مجد الدين فلم تردا عليه. أشارا إليه أن يدخل الغرفة. ما كاد يدخل حتى

أغمض عينيه. كانت لولا في قميص نوم أبيض شفاف شبه عارية، شعرها منكوش حقاً، وعيناها متورمتان من البكاء، لكنها في النهاية امرأة شبه عارية. و«لولا» ما إن رأته حتى انهارت أمام قدميه وأمسكت بإحدى ساقيه:

ـ أبوس رجلك يا شيخ مجد الدين ـ وباستها بالفعل إذ كان حافياً ـ استرني، استرني من أولاد الكلب.

قالت الجملة الأخيرة بحرقة حقيقية. ونظر هو للرجال الواقفين بالحجرة. زوجها وشرطي ورجل هزيل شبه مريض. كانت زهرة قد اقتربت من الباب مع الست مريم، فطلب منهما إحضار شيء يستران به الست، لكن الشرطي هتف:

ـ لا.

وتابعه الرجل الهزيل:

ـ تأتي كما هي.

ـ ما الحكاية بالضبط؟

تساءل مجد الدين، ولا تزال لولا مقعية على الأرض جوار قدميه، لكنها تبكي بهدوء، بألم حقيقي. وقال الشرطي.

ـ هذا الرجل ليس زوجها؟ هذا هو زوجها.

كانت زهرة قد صعدت وأحضرت شالاً أبيض، ودخلت ووضعته فوق كتفي لولا، ما إن سمعت كلام الشرطي حتى خرجت فزعة لتقف مع الست مريم تحت السلم ترتعش.

ـ صحيح يا ست. . .؟

تساءل مجد الدين ولم يستطع أن ينطق اسمها. صرخت:

ـ يا أولاد الكلب.

كان بالباب الخارجي شرطيان، يمنعان دخول الناس المتجمهرين في غضب، اندفع الرجل الهزيل إلى «لولا» الجالسة، يحاول أن يرفعها لتقف

وتمشي معهم، بينما وقف عشيقها فاغراً فاه بلا مبالاة بالأمر كله. وقامت لولا وبدأت الحركة معهم، فهتف مجد الدين للشرطي:

- انتظر.

ونظر مجد الدين إلى عشيق لولا وسأل الشرطي:

- لماذا لا تجرّ هذا النطع إلى القسم؟

- سوف يأتي معنا كشاهد على جريمة الزنا.

قال مجد الدين بسخرية:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وهل الزنا تقوم به المرأة وحدها؟

- القانون يحتّم ذلك.

لم يجد مجد الدين أمامه إلا أن يتقدم، وبأقصى قوة يهوي بكفه على صدغ العشيق، الذي لدهشة الجميع، لم يبد مقاومة، لم يحتج، لم يرد الضربة لمجد الدين.

رأت لولا الزحام الشديد خارج الباب، فتعلقت بيديها في درابزين السلم الخشبي.

- سيقتلونني يا شيخ مجد الدين، استرني الله يسترك.

راح الرجل النحيف الذي هو زوجها الحقيقي، يشدها ويحاول تخليص يديها من الدرابزين ولا يستطيع، وسقط الشال الذي سترت به نفسها على الأرض فتركت الدرابزين واستدارت إلى الرجل النحيف، الذي هو زوجها الحقيقي، وصرخت فيه «كله منك يا ابن الكلب»، وبأقصى قوتها ضربته بيديها في صدره، فتراجع ليصطدم بالحائط، ويسقط على الأرض. ثم استدارت إلى الشرطي تضربه أيضاً، لكنه بسرعة كان قد أخرج مسدسه من جرابه، وصوب نحوها، فزعت وتراجعت، وسقطت فوق الأرض جالسة تبكي.

- أرجوك انتظر نحل المشكلة بهدوء.

قال مجد الدين الذي فكّر في زحام الناس الذين قد يقتلونها بالفعل، ثم خاطب زوج لولا الحقيقي:

ـ خذ مراتك يا بني وروح طلقها عند مأذون بعيداً عن القسم، القسم سيطلقها ويسجنها أيضاً، ماذا تستفيد من سجنها؟ اتركها لحالها.

لكن الرجل لم يرد. كانت «لولا» خلال ذلك قد اندفعت داخلة حجرتها، وأغلقت الباب خلفها بسرعة من الداخل. حاول الشرطي تحطيم الباب لكن مجد الدين أمسك بيديه.

ـ أين ستذهب.. ستفتح بعد قليل؟

جاء الصوت من الداخل:

ـ أنا خارجة يا أولاد الكلب.

وفتح الباب، وظهرت لولا في فستان جميل تنظر إلى الجميع في تحدٍّ انحنت على يد مجد الدين تقبّلها وتبكي. قالت «لا تصدقهم يا شيخ مجد الدين» ثم نظرت إلى زهرة والست مريم، وقالت الكلام نفسه. كانت زهرة تبكي بحق، كانت الست مريم تغالب دمعها وهتفت «لولا» للشرطي:

ـ هيا بنا، ولو حتى إلى جهنم.

بدا واضحاً أنها لم تعد تخشى شيئاً الآن بعد أن سترت نفسها، وارتدت الفستان، بدا الأمر عجيباً للغاية لمجد الدين، كيف حقاً وهي المرأة الزانية تخاف المشي في الشارع بقميص النوم؟ حتى إذا سترت جسمها لم تخش الموت نفسه؟ وقال في نفسه من يدري قد تكون هذه المرأة في طهارة أي ولي أو قديس.

* * *

«إن الحديد وإن أصبح احمر اللون، فليست الحمرة لونه، وما شعاعه إلا من نار تصليه..»

14

الوقت من الثانية عشرة إلى الثانية ظهراً، مخصص للغداء كل يوم. تعوَّد العمال الذهاب إلى بيوتهم، في سكن المصلحة الذي يبعد حوالى الميل، لتناول الغداء والاسترخاء، ثم العودة إلى العمل. في أيام كثيرة كان مجد الدين لا يعود للغداء في بيته، رغم أن بيته أقرب إلى العمل من بيوت زملائه. لقد تعوّد، هو الفلاح، الغداء في الحقل، وهو الآن يأخذ معه غداءه في معظم الأيام. يظل هو وحده بالبوسطة، التي يجعلها موقعها وجدرانها الخشبية، مكاناً يبعث على الراحة في الصيف والشتاء، يعتبر هاتين الساعتين فرصة، لقراءة القرآن من المصحف الصغير، الذي لا يفارق جيب صدره فوق قلبه، وينام أيضاً لبضع دقائق قد تصل إلى نصف ساعة على المقعد الطويل المرتفع فوق الأرض بقليل. لم يكن دميان في الأيام الأولى من العمل يحب البقاء ظهراً، كان مثل بقية العمال، يحب الغداء والراحة في البيت، لكنه وجد الطريق دون مجد الدين بلا طعم، بل يزداد إقفاراً على قفره. فضّل أن يبقى معه، يتغديان ويسترخيان، ويقطعان الوقت بالحديث، الذي كثيراً ما يكون قصيراً، بسبب قراءة مجد الدين للقرآن.

كان للبوسطة رائحة التراب والشاي. التراب الذي هو فوق الأرض، رطب، حيث لا نوافذ إلا الباب المفتوح، ومنافذ النور الرفيع بين الفلنكات التي تشكل الجدران، ولأن المساحة تزيد على خمسين متراً مربعاً، لا يبدو أن الضوء المنسكب من الباب المفتوح، كاف لطرد الرطوبة، ولأشعة الضوء الرفيعة، الهاربة من بين الفلنكات. أما الشاي فهم لا يكفون عن صنعه، حين يأتون في الصباح، وحين يأتون بعد الظهر، وفي أوقات الراحة يصنعونه على نار يوقدونها في «كانون» خارج البوسطة، ويشربونه ثم يلقون ما يتبقّى في الكوب من شاي وتفل، أمام أرجلهم ليشربه تراب الأرض على مهل. اليوم قال دميان الذي كان يسترخي في مواجهة مجد الدين:

ـ وماذا بعد يا شيخ مجد الدين؟

ـ فيم يا دميان؟

ـ في الشغلة السوداء التي نشتغلها، أنا ظهري انكسر أو أوشك.

ـ تشتكي الآن يا دميان لقد تعوّدنا يا رجل.

ـ لكن الجنيهات الثلاثة التي نحصل عليها كراتب لا تكفي شيئاً في هذا الغلاء.

ـ لكنها أفضل من الملطشة، وقضاء الوقت في قسم البوليس.

قال مجد الدين ذلك بلا مبالاة. كان يتحدث إلى دميان بطريقة أوتوماتيكية. الحقيقة أن هذا الحديث تكرر بينهما كثيراً. لذلك مد مجد الدين يده إلى جيب صداره، وأخرج المصحف الصغير، واعتدل بعد أن كان مسترخياً على ظهره، قام واستند بظهره إلى الجدار، ومدّ ساقيه، وفتح المصحف، وبدأ يقرأ بلا صوت فقال دميان:

ـ يا رجل أسمعني، أنا كلما كلمتك فتحت المصحف وبدأت تقرأ، ألا تقرأ ما يكفي في البيت؟ أنت هكذا ستجعلني أحضر الإنجيل أنا أيضاً، أقرأ فيه أمامك كلما كلمتني!!

انطلق مجد الدين يضحك من غيظ دميان وطريقته في الكلام، ومن كلام دميان عن قراءة الإنجيل وهو في الأصل لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وحين تمّ تعيينه، كان هناك شرط أن يمحو أميته قبل مرور عام، وقد مضت الآن أربعة شهور، ولم يلتحق دميان بمدرسة لمحو الأمية إلا منذ أسبوع فقط.

أغلق مجد الدين المصحف بعد أن كفّ عن الضحك وسأل:

ـ ماذا تريد مني يا دميان؟

ـ أموت وأعرف الحكاية الحقيقية للرجل الجالس عند الغراب، كلما مررت من أمامه نظر إليّ شذراً، هل أنا الذي قال للعصافير أن لا تأتي إلى الشجرة؟ يبدو لي أنه يريد قتلي.

ـ إنه ينظر إليّ أيضاً النظرة نفسها كلما مررت أمامه.

ـ لا بد أنه يريد أن يقتلنا معاً يا شيخ مجد.

فكّر مجد الدين قليلاً ثم قال:

ـ يا دميان سيب الملك للمالك.

وسكتا طويلاً. قرأ مجد الدين عدة صفحات من القرآن وبدأ صوته يرتفع قليلاً وهو يختم سورة «المؤمنون» قال «كم لبثتم في الأرض عدد سنين، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين، قال: إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون، أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً، وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله المالك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم، ومن يدعُ مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح

الكافرون، قل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين». وقال دميان في صوت غير مسموع: «كيرياليسون، كيرياليسون. كيرياليسون». ثم سأل مجد الدين:

ـ لماذا يا شيخ مجد كلما دخلت معك في نقاش تقول لي «سيب الملك للمالك؟» أولاً أنا لا أمسك شيئاً ـ ضحك مجد الدين واستمر دميان ـ ولا أنت تمسك شيئاً يا شيخ مجد. تعرف فيمَ أفكر الآن؟

ـ لا. لا أعرف.

ـ هذا الباب المفتوح، لو جاء شخص ما، وأغلقه علينا في هذا المكان المقطوع، هل سيعلم بنا أحد؟. هل سيصل إلينا أحد؟. ممكن أن يحدث ذلك وأنت نائم بعد الغداء، وأنا نائم أيضاً، يأتي أي شخص ويغلق الباب ويمضي، ولا يأتي أحد بعد ذلك أو يمرّ علينا، فنموت. يا شيخ مجد، أنت فعلت شيئاً كبيراً في البلد، وهربت منه، أنت مطمئن للدنيا جداً، راض بأي شيء يحصل، كأنك تريد أن تموت.

علت الدهشة وجه مجد الدين من هذا الحديث العجيب لصديقه، وأحسّ بارتفاع الحزن، وتمدّده في صدره، وانتقال الشجن إلى عينيه، فكاد يبكي لولا صفّارة قطار عالية جعلت دميان يقفز من مكانه خارجاً ينظر، بينما ترقبه مجد الدين. عاد دميان يهتف:

ـ قطار لا نهاية له يا شيخ مجد مشحون أفريكان، قطار أسود كله. العفريتة سوداء والجنود، لا أبيض فيه غير العربات، وبياضها حائل جربان.

نهض مجد الدين، وخرج مع دميان، فرأى أمامه بالفعل، قطاراً طويلاً عديد العربات، تطلّ من نوافذه عشرات الوجوه السوداء، ذوي الأنوف العريضة المفلطحة. وقال دميان بصوت خفيض كأنه يتأمل:

ـ الدنيا كلها مع الإنجليز، هتلر لن يكسب الحرب أبداً.

كان القطار قد توقّف قليلاً للتزوّد بالمياه عند الغراب، ثم تحرّك بطيئاً وسط شبكة القضبان المزدحمة أمام البوسطة حيث توجد عدة تحويلات، وكان من الممكن لأي جندي أن ينزل من القطار ثم يركبه من جديد، ولأي شخص أن يركب القطار ثم ينزل بسهولة قافزاً فالسرعة ليست بالخطيرة.

ـ هؤلاء لهم ذيول يا شيخ مجد، لو نزل واحد منهم سترى ذيله يطلّ من الشورت.

ضحك مجد الدين، ولوّح للجنود الذين كانوا يلوحون له من النوافذ، ويرفعون أكفهم بعلامة النصر، التي اخترعها تشرشل وذاعت في الدنيا، ثم ظهر أحدهم يقف بباب إحدى العربات حاملاً صندوقاً صغيراً من الكرتون، ويشير إلى مجد الدين ودميان.

ـ اجرِ أنت يا شيخ مجد خذ منه الصندوق، أنا لو رأيت ذيله أموت.

ضحك مجد الدين، وهرول حتى لحق بالقطار، ومد يده يمسك بالصندوق، الذي تركه الجندي باسماً. الحق أن مجد الدين تردد للحظة، خاصة أن الجندي نزل درجة في سلم العربة، وأمسك بالصندوق في يده، وبالأخرى أمسك بالعامود المعدني اللامع لباب العربة. كان من السهل على مجد الدين أن يرى ساقي الجندي العاريتين تحت الشورت، وأن يرى ما إذا كان هناك ذيل أم لا، لكنه لم يفعل. ركّز بصره على الصندوق، وعلى اليد السوداء التي تحمله، والتي بان سوادها أكثر حين مدّ هو يده البيضاء ليستلم الصندوق. على أن الذي أفزعه، هو فكرة غريبة قفزت إلى ذهنه، وهو يمد يده يتناول الصندوق، ماذا يمنع الجندي أن يمسك بذراعه ويجذبه إلى العربة، التي تحمله مع الجنود إلى ميادين القتال؟. لقد خطف البهي في الحرب السابقة من الطريق، ويمكن جداً

أن يخطف هو رغم انقضاء زمن السخرة في الجيش الآن. ولم ينقذه من أفكاره وخوفه، إلا إحساسه بخفة الصندوق. قال لدميان:

ـ يبدو أنه صندوق بسكويت.

سكت دميان قليلاً، وفتح مجد الصندوق، فرآه ممتلئاً بالبسكويت.

قال دميان:

ـ تعرف يا شيخ مجد أنا نفسي في إيه؟

ـ لا.

ـ في صندوق بلوبيف أسترالي.

* * *

ضحك العمال حتى استلقى بعضهم على قفاه، من خوف دميان من التقدّم إلى الجندي الأفريقي. كانوا يتناولون شاي القيلولة بعد عودتهم إلى العمل الساعة الثانية، ولم يكن هناك عمل مهم بعد ظهر ذلك اليوم.

كان «الأسطى غبريال» دائماً لا يشاركهم الضحك، يكتفي بابتسامة.. هو ملاحظ العمّال، قريب ديمتري الذي أخبره بوجود فرص عمل بالسكة الحديد، ضئيل الجسم، رشيق ودقيق التكوين. دائماً يأخذ ركناً بعيداً، ويتكوّم حول نفسه، ناظراً في نوتة صغيرة لا تفارقه طول الوقت، يكتب فيها بالقلم الكوبيا أشياء غامضة، بين الحين والحين يشد البيريه الذي فوق رأسه، والذي لا يخلعه حتى في جلوسه، يشدّه إلى عينيه قليلاً، أو يرفعه إلى أعلى أكثر، ويحرص أن يضع القلم الكوبيا ذا اللبيسة البيضاء، في الجيب الأعلى لسترته الخضراء، بحيث تبرز اللبيسة من أعلى حافة الجيب، كأنما يشير إلى استعداد القلم في أي وقت للانطلاق للكتابة، ورغم أن العمال يعرفون أنه يكتب في النوتة، ملاحظته على سير العمل اليومي، تمهيداً لنقلها آخر الأسبوع، في تقرير رسمي إلى الإدارة، رغم

ذلك، فإنهم لا يكفون عن الدهشة مما يكتب، ويتخيّلون أنه عمل من أعمال الأسرار أو السحر، خاصة أنه يبدو يتأنق في الكتابة، حتى إن حمزة علّق على ذلك يوماً فقال: «إن الأسطى غبريال يحب الكتابة بخط نمنم، وبالليل لا يجد شيئاً يفعله فيروح يمسح ما كتبه بالنهار، يؤكد ذلك أن النوتة لا تتغيّر أبداً».

اليوم كان حمزة أكثرهم ضحكاً من خوف دميان، ولم يستلق على قفاه، لأنه كان قصيراً أكثر مما ينبغي.

لحمزة طريقة غريبة في المشي، فهو دائماً متباعد الساقين كمن يمشي على أطراف أصابعه، ورغم أن عمره لم يتجاوز الأربعين بعد، يبدو دائماً أكبر من ذلك، وهو ذو وجه أحمر وعينين زرقاوين، مثل كثير من أهل رشيد، ويبتسم بالأدب الشديد، إلى درجة تصيبك بالارتباك فهو دائم السلام على كل من يقابله، ولو حدث وترك البوسطة، ثم عاد بعد دقائق، يلقي السلام على زملائه، كأنه لم يكن موجوداً معهم منذ قليل، فضلاً عن كونه دائم الاعتذار، عن أي خطأ مهما كان تافهاً، حتى لو نهض قبلك من مكانه!. لقد كان سلوك حمزة في البداية، مفاجئاً لمجد الدين ودميان، وشيئاً فشيئاً لم يعد يدهشهما، إذ رأى فيه مجد الدين إنساناً طيباً، بينما رأى فيه دميان شخصاً نصف معتوه.

لكن في حمزة كانت عادة سيئة، كثيراً ما سبّبت سخرية زملائه منه، وهو أنه كلما تحدّث أحدهم حديثاً أو روى حكاية، لا يكاد ينتهي حتى يقول حمزة، أن ذلك حدث له بالضبط، بالطريقة نفسها التي حدثت لزميله، وفي الزمن نفسه. صار ذلك معروفاً لهم، حتى إن بعضهم كان يؤلف الحكايات خصيصاً، ليعيدها حمزة باعتبارها وقائع جرت له، فينطلقون في الضحك، ويعلنون أنهم ألفوا الحكاية، فيقول لكن حكايتي حقيقية، ويضحك معهم، شاعراً بالزهو، إذ انتصر عليهم. وهكذا ظلّ

بطلاً لكل الحكايات الخرافية والحقيقية طوال الوقت، فإذا هرب القاتل في الصعيد في زمام زراعة الأذرة، مما اضطر رجال البوليس إلى حرق كل الذرة للقبض عليه، فقد حدث له مثل ذلك لكن في الدقهلية وليس الصعيد، أما الرجل الذي خرج ليلاً يتغوط على شاطىء المحمودية فخرجت له جنية سحبته من «صرمه» إلى الماء ولم يخرج، فقد رأى مثله تسحبه الجنية أمامه، وهو يصرخ مستنجداً به، لكنه تسمّر في الأرض، غير قادر على الحركة لإنقاذه، ولم تتركه الأرض إلا بعد أن استقر الرجل إلى قاع الترعة، أما الحمار الأبيض الذي قابله أكثر من واحد منهم في قريته بالليل، حتى إذا اقترب منه اختفى، فقد قابل حمزة عدداً لا يحصى من الحمير البيض، وركبها جميعاً.

كانت أغرب الحكايات حقاً، حكاية الرجل الذي ذهب عند الفجر يتوضأ من مياه ترعة المحمودية. لقد أنهى الوضوء، ووقف يرفع سرواله إلى وسطه، ثم مشى، فشعر بشيء يتحرك بين ساقيه، وأسفل مؤخرته. شيء يعبث بأصابعه فيه، رفع جلبابه، وشد تكة السروال ليرى ما بداخله، فوجد عدداً من الأرانب البيضاء الصغيرة. عشرات من الأرانب البيضاء الصغيرة كالفئران الضئيلة تلهو في «لباس» الرجل، الذي جرى إلى بيته، لكنه لم يستطع الوقوف مرة أخرى في مكان ثابت، بسبب حركة الأرانب العجيبة هذه، ثم لم يستطع النوم، أين يذهب بهذه الأرانب التي تعلّقت داخل سرواله؟ لقد اضطر إلى النزول إلى الشارع مرة أخرى، ولم يجعله يكف عن الصياح إلا الصمت مَن حوله، وظل غير قادر على التماسك، حتى سقط مغشياً عليه، فرأى الناس عشرات من الأرانب تخرج من بين ساقيه، بيضاء تجري إلى كل ناحية، ومات الرجل من الرعب. يقسم حمزة بأغلظ الأيمان أن ذلك حدث في قريته أيضاً، حتى انحنى دميان على مجد الدين يوماً.

ـ حمزة هذا أكيد رجل هجاص.

ـ وأنت ماذا يضايقك؟ دع الملك للديان يا دميان.

لكن دميان لم يستطع السكوت:

ـ لا يغيظني شيء قدر صبرك وحلمك يا شيخ مجد.

ابتسم مجد الدين، وقال:

ـ لن تستطيع أن تغيّر طباعه، لقد تعوّد الرجل وتعوّد الرجال عليه.

اليوم، وحمزة يضحك من خوف دميان، بدا وجهه شديد الحمرة، لأنه كان قد قام على الفور من إعداد الشاي فوق النار، كما كان يختنق أثناء الضحك، فتجمّعت في وجهه دماء كثيرة، من الضحك النار والاختناق، فكاد يشتعل، وقال حمزة بعد أن زال عنه الاختناق:

ـ أنا أيضاً أول مرة رأيت الأفريكي خفت من ذيله، كان يناولني كرتونة بلوبيف أسترالي محترم لكني خفت. ابتعدت وقلت له: إرميها لي، فلم يهتم، قلت «ثروا إت» فرماها. فهم الإنجليزي ولم يفهم العربي. عجيب!

تأمّله دميان في غيظ مكتوم وقال:

ـ وشفت ذيله يا حمزة.

ـ شفته لكن خفت أمسكه، أي والله.

انطلق العمال في الضحك وقال دميان:

ـ تلاقيك خفت تمسكه يطلع حاجة ثانية!!

وهنا صار الضحك توحشاً، وشارك معهم حمزة، الذي عاد يختنق من جديد مما زاد غيظ دميان، ولم يزد الأسطى غبريال على ابتسامته الشاحبة والاستمرار في الكتابة السحرية. سأل حمزة مجد الدين:

ـ ما رأيك يا شيخ مجد، هل صحيح الأفريكان أصلهم قرود؟

فكّر مجد الدين قليلاً، وانتظر العمال كلامه فقال بهدوء:

ـ العلم عند الله. ما سمعته أن القرد أصله بني آدم مسح إليته برغيف فسخطه الله قرداً. هذا ما نسمعه من الصغر، وأنا لا أصدق ذلك، لأن الإنسان كرمه الله أحسن تكريم فلا يمكن أن يحوله إلى قرد، كما لا يمكن أن يكون أصله قرداً.

بدا الارتياح على العمال، بمن فيهم الأسطى غبريال الذي قال:

ـ كلامك حكم يا شيخ مجد، ما رأيك يا حمزة، أم أنك شفت واحداً انسخط قرداً؟

ضحك العمال ضحكاً مضاعفاً، لأن المتحدث هذه المرة، هو الأسطى غبريال الصامت.

واستجمع حمزة نفسه وقال:

ـ والله خائف أقول إني شفت لا يصدقني أحد، الأفضل أسكت يا أسطى.

وسكت الجميع، على الطريقة الغريبة التي تحدث للمصريين بعد كل ضحك. ذلك السكوت المفاجىء الذي يشمل كل شيء حتى الدنيا في الخارج، وقال أحد العمال: «اللهم اجعله خيراً». وقال مجد الدين:

ـ أنا عندي حكاية طريفة أحب أحكيها لكم.

نظروا إليه متلهفين، اهتمّ حمزة للغاية، أرهف السمع، بل سبقهم وقال:

ـ احكِ يا شيخ مجد، لعلك تحكي لنا شيئاً جديداً لم أعرفه، أو أراه.

ابتسم مجد الدين، وغمز لدميان بعينه أن يتابع الموقف، واندهش دميان من صديقه الذي قال:

ـ ذات مرة وأنا صغير في الغيط، أمسك بي فلاح شاب، عمل فيَّ حاجة وحشة.

وسكت الجميع سكوت الصدمة. ما الذي يقوله الشيخ مجد الدين؟ ولماذا؟ وماذا يقصد بالضبط؟ وهنا قام حمزة ممسكاً بكوز الشاي الفارغ، متجهاً للخروج كأنما سيعد شاياً جديداً فسأله مجد الدين:

ـ لماذا سكت يا حمزة. لماذا لم تقل: إن ذلك حدث معك أيضاً؟

سمعوا صوت الأسطى غبريال يضحك عالياً لأول مرة، وقفز دميان قائلاً: «الله. الله. الله أكبر. الله» أما حمزة فقد تحوّل وجهه الأحمر إلى الأصفر المائل إلى الزرقة، أما الشيخ مجد الدين فقد قام إلى حمزة، واحتضنه وقبّل رأسه قائلاً:

ـ لم أكن أعرف أنها مزحة ثقيلة يا رجل.

عندما كفوا عن الضحك عاد الأسطى غبريال إلى النوتة يكتب، ولاحظوا أنه ينظر بين الحين والحين خلسة، نظرات ثعلبية إلى مجد الدين، أما حمزة فقد خرج لإعداد شاي لا يريده أحد.

بعد قليل خرج إليه مجد الدين فرآه يجلس بعيداً عن «ركية النار» ولم يضع الكوز فوقها. جلس جواره فتأمله حمزة باسماً وقال:

«من عادة المرء مش ممكن يعادي جميل»
«والحُرُّ مهما افتقر ما يضِعش عنده جميل»

أحس مجد الدين براحة كبيرة تتمدّد في صدره، وقال:

ـ أنا لا أعرف كيف اندفعت في الهزار هكذا، وحينما رأيتك خجلان تضايقت من نفسي جداً.

قال حمزة:

ـ يا شيخ مجد نحن نقول، ما هو أكثر من ذلك كل يوم، أنظر إلى هذا القطار.

كان قطار بضاعة، عرباته مسطحة محملة بالمعدات العسكرية له صوت

ثقيل فوق القضبان حتى إن العمال جميعاً خرجوا يشاهدونه. كان فوق كل عربة، دبابة أو عربة مصفحة، مغطاة بالشباك، وفوقها أو جوارها جندي أو جنديان، كان القطار قادماً من السويس أو القاهرة، متجهاً إلى الصحراء حيث توجد تجمعات كبيرة لقوات الحلفاء، في العلمين وفوكة ومرسى مطروح، الجنود لم يكونوا «أفريكان» هذه المرة. إنجليزا أو أستراليين يرتدون الشورت الأصفر الكاكي رغم أن الجو شتاء، ولكنهم قادمون من الجنوب. ربما من جنوب أفريقيا، وفوق الشورت القمصان الصفراء بنصف الكم، والسترات المشغولة التي بلا أكمام، إن حمرة وجوه الجنود، وبياض بشرة أذرعهم وسيقانهم، تدل على أنهم جنود لم يروا الصحراء من قبل، وحداثة سنهم تدل على أنهم حديثو العهد بالجندية.

كان القطار سريعاً أكثر مما ينبغي، ورفع العمال أيديهم بالتحية للجنود وارتفعت أصواتهم هالو، ويلْكم، إنجليش إذ جود جيرمان إذ نو جود، تشرشل إذ رايت، هتلر نو رايت.

وهكذا مما يقولون في مثل هذه الحالات، من كلمات قد لا يعرف أكثرهم معناها، لكن فوائدها مضمونة!. وبدأ الجنود يقذفون إليهم، بعلب السجائر لاكي سترايك، والبسكويت المغلف، والشيكولاته، علب البلوبيف الأسترالي والنيوزيلاندي والجبن الشيدر، وحذرهم الأسطى غبريال من التقدم حتى يمر القطار، لقد تعوّد على ذلك وتعوّدوا!، وبعد أن يمر القطار يجرون هم يجمعون ما فوق الأرض، ثم يدخلون به إلى البوسطة ويبدأون في تقسيمه بينهم بالعدل، حسب الرغبة، عادة يكون المحصول كافياً لهم وزيادة، فهم لا يزيدون على عشرة عمال. وصار كل واحد يعرف ما يريده الآخر أو يحبه، فالأسطى غبريال مثلاً يحب الشاي السيلاني، بينما حمزة يحب البسكويت والشيكولاته لأنه يوزعها على

الأطفال، أطفاله الثلاثة، أطفال جيرانه، الذين هم أبناء العمال زملائه أنفسهم، لأنهم جميعاً يسكنون في سكن المصلحة من عمال البوسطة رقم «1»، «2»، «3»، «4»، «5»، «6»، الذين لا يبعدون في العمل عنهم كثيراً، وغالباً ما يلتقون معهم في الأعمال الكبيرة، أو حين تقع حوادث، وفي هذه الحالة أيضاً لا يختلفون على توزيع ما يلقي لهم به الجنود. القطارات تمر أكثر من مرة في اليوم الواحد، الجنود يلقون لهم الحلوى والطعام والشاي المعلب بسخاء، والحرب فيما يبدو ستطول.

* * *

في الطريق قال دميان لمجد الدين:

ـ لماذا كل هذه الأسلحة اليوم؟

ـ ألا ترى قطارات الأسرى الطلاينة القادمة كل يوم من الصحراء؟ الحرب شديدة هناك.

ـ يبدو أن الحرب ستطول يا شيخ مجد.

ـ الأسلحة تأتي من السويس، ومن الميناء بالإسكندرية، والجنود يأتون من كل الدنيا يا دميان، يخيّل لي أنها ليست الحرب ولكن القيامة.

ـ صحيح. هل يختلف شكل القيامة عن حال الدنيا الآن يا شيخ مجد؟

سكتا طويلاً. وانتقل مجد الدين بذهنه إلى حمزة الذي تندر عليه اليوم، وكيف بدا له شخصاً نبيلاً، ثم ابتعد عن تذكّر حمزة ليدخل في تذكر لولا وما حدث منذ أيام، وازداد توتره. ليس بالأمر السهل، أن تتعرف زهرة، بامرأة يتضح بعد ذلك أنها زانية. وليس بالأمر السهل أن يسكن في بيت ديمتري، الذي بدا منذ ذلك اليوم، يشعر بالخجل كلما رآه، لأنه لم يدقق في اختيار السكان. ماذا يقول الناس عن ديمتري الطيب وأولاده الآن؟ وهل كان بوسع ديمتري أن يرفض ساكناً للحجرة

سيدفع له ستين قرشاً في الشهر؟. والبهي، أخوه، هل كان يعرف بأمر لولا، وإذا كان ذلك فكيف اختار له أن يسكن في البيت نفسه؟ لكنه ابتسم ساخراً من تساؤله الأخير، وسمع دميان يقول:

ـ أنظر، المخبر وحيد.

كان المخبر «وحيد» يقترب منهما، في جلبابه الأزرق ذي الخطوط البيضاء الطولية، فوقه البالطو الكاكي الأصفر، على رأسه الطاقية البيضاء، والكوفية الرمادية حول عنقه، وفي يده خيزرانته الطويلة، يطوح بها في الهواء بين الحين والآخر، إنهما يعرفانه جيداً، يقابلانه كل يوم تقريباً يعطيانه شيئاً مما أعطاهما الجنود. لقد تعوّد على ذلك، والحقيقة أنه يفعل ذلك مع كل من يقابله في الطريق من العمال. ورغم مظهره الأنيق، إذ تبدو دائماً ثيابه نظيفة، ورغم وجهه المشرق ذي السمات الهادئة، فإنه حين يتكلّم يبدو متوحشاً سمجاً جاهلاً جهل أبي جهل، كما يقول عنه الشيخ مجد الدين دائماً. ووحيد مشهور في المنطقة كلها، بأنه «يرمي بلاه» على الناس، ولا يتورع عن تدبير مصيبة لأي شخص. رآهما كما يراهما كل يوم فهتف كأنه يراهما لأول مرة:

ـ ماذا تحمل يا رجل أنت وهو؟

ـ كما ترى. معلبات إنجليزية.

أجاب دميان باسماً فقال وحيد:

ـ من المخازن الإنجليزي تقصد.

لا يعرف أي منهما أين تقع المخازن الإنجليزية، وفهما أنه يريد مما معهما اليوم أكثر من كل يوم. قال دميان وهو يزداد ابتساماً:

ـ لا مخازن ولا غيره، خذ لك باكوين شاي وخلاص يا وحيد.

لكن هذا صرخ فيهما:

ـ قدامي على النقطة. هذه سرقة.

ورفع خيزرانته في الهواء يهددهما، فنظر إليه مجد الدين نظرة شرسة طويلة، وكان قبل ذلك قد نظر حوله، فرأى الخلاء واسعاً، والشمس تنسحب عن الدنيا في هدوء، والنسمة الباردة تزداد، والظلام يتهادى إلى الأرض، حتى إنه لا يكاد يميّز شكل القضبان فوق العوارض، إذ أخذ الجميع لون التراب وقال:

ـ تعرف يا وحيد أنني أستطيع الآن أن أمددك على الأرض، وأذبحك على القضيب، ولا أحد يراك.

ـ ماذا تقول يا شيخ مجد! تذبحني؟

اعتدلت نبرة وحيد وخفض خيزرانته، فقال له مجد الدين:

ـ أجل، ويمر القطار فيعرف الناس في الصباح، أنه هو الذي فصل رأسك عن جسدك.

كان دميان يرتعد حقيقة من كلام صديقه الذي لم يتوقف.

ـ إن معنا كرتونتين كما ترى، في كل واحدة شاي وبسكويت وبولبيف وجبن. سنعطيك واحدة كاملة، وسنقتسم نحن الثانية، لكن بشرط ألا تعترض طريقنا أبداً بعد ذلك، وتذكّر في كل مرة تنوي فيها ذلك أنني أستطيع أن أذبحك ولا يراك أحد، خذ هذه الكرتونة وامض بأمان.

أخذ وحيد الكرتونة شبه مخدر، ومشى دميان ومجد الدين صامتين، ثم سأله دميان:

ـ هل كنت حقاً ستذبحه يا شيخ مجد؟

ـ أجل.. اليوم يمكن أن أذبح أي أحد..

واستمرا في طريقهما إلى البيت دون كلام..

* * *

«لم أكبح جماح نفسي. تركتها على مطلق سجيتها، ومضيت إلى المتع التي تتارجح بين الواقع والخيال. مشيت في الليل المضيء وشربت النبيذ القوي، لمحبي المتع الشجعان..»

15

هجمت اليابان على الهند الصينية، واتسع نطاق حربها مع سكان قارة آسيا على طول الساحل الغربي وجنوبه، فالحرب مستعرة بينها وبين الصين من قبل. لقد تململ المارد الياباني وبدأ يتمطى وينفخ ناره، ورأت أميركا في قوة اليابان العسكرية، ونشاطها الحربي، تهديداً لها فبدأت ترتاب، لكن الأهم هو أن الناس بدأت تدرك أن الكرة الأرضية تشتعل من كل الجوانب، وأن الحرب ستسري كالنار في كل مكان.

في مصر أغارت الطائرات البريطانية لمدة أربع ساعات كاملة على مواقع الإيطاليين الجديدة في سيدي براني، وتجاوزتها إلى بنغازي لإصابة خطوط مواصلاتها، وقللت وزارة التموين حصة الفحم المنصرفة للكوائين بسبب انقطاع استيراده من إنجلترا وبسبب تشغيل عدد كبير من القطارات في النقل العسكري فضج الكواؤون بالشكوى، وبدأ بعض الشباب العابث يخرج ليلاً بالقناع الواقي على وجهه لمفاجأة البنات والنساء في الطرقات

المظلمة، والحقيقة فإن مشهد الشخص والقناع يغطي وجهه بالليل أمر مخيف، وصارت جماعات من هذا الشباب العابث ترى معاً وفي وقت واحد وهي تمشي بالقناع وكأنها ثيران تمضي إلى حظائرها أو خارجة منها إلى المراعي البعيدة. وكان الإيطاليون قد بدأوا استخدام نوع جديد من القنابل يشبه «الترموس» لا ينفجر عند سقوطه فوق الأرض، بل بعد ذلك إذ يتفاعل عند تحريكه ثم ينفجر، فبدأت حملة تحذير للجمهور السكندري منه، خاصة أنها قنابل ذات سطح لامع، إذا سقطت فوقها أشعة الشمس تلمع وتنعكس، فلا يراها الإنسان العادي إلا بعد تدقيق.

وازداد الهم على الناس لدخول رمضان للسنة الثانية بلا أنوار ولا سهر، لقد ارتفعت أسعار كثير من السلع، ودخل الجاز البطاقة، وارتفعت أسعار البطاطس فبلغ سعر الأقة الإنجليزي سبعة وعشرين مليماً بعد أن كان خمسة عشر، وسعر الأقة من النوع البلدي عشرين مليماً بعد أن كان عشرة، وتهدم جزء كبير من حائط كورنيش الإسكندرية عند سيدي بشر بسبب تسرب مياه البحر، والولائم الملكية لم تعد تكفي لإسعاد الفقراء، ففي الإسكندرية لا توجد إلا وليمة واحدة أمام جامع المرسي أبو العباس، بينما هي منتشرة في القاهرة كما يقول الناس. وفي الوليمة يقدمون للشعب القلقاس واللحم والأرز والفول والخضار والحلوى، ولقد افتتحها وكيل المحافظة بنفسه وأكل مع الفقراء، واعتذر لهم عن عدم حضور المحافظ لسفره إلى القاهرة ليبارك للملك السعيد بحلول شهر رمضان، وعقدت وزارة الشؤون الاجتماعية لجنة لمناقشة ازدياد تبرج النساء الزائد الآن، بسبب ازدياد أعداد الأجانب وحاجتهم إلى الترفيه وحاجة كثير من فئات الشعب إلى المال. ولم يختلف «رمضان» عند مجد الدين عن العام الماضي، فقط كانت السهرة الآن بين النساء دون لولا، ولاحظت زهرة أن كاميليا عادت إلى صمتها القديم، وذهولها عن الآخرين، تكلمت مرة وقالت: إنه لم يعد مسموحاً البقاء في السينما أثناء

الغارات لا بالليل ولا بالنهار، وسألت مريم زهرة لماذا حقاً لا تترك الإسكندرية والجميع يرحلون عنها الآن خاصة أنها حامل ومن الأفضل أن تلد في قريتها؟ قالت زهرة إنه يتبقى وقت طويل حتى تلد، وإنها لا بد ستفعل ذلك. كانت تكذب فهي لا تستطيع أبداً أن تترك مجد الدين، ولكن لم يكن أمامها غير ذلك، فهي لا تستطيع أن توضح كيف أن زوجها مطرود من القرية، ومع اقتراب عيد الفطر حبس العالم أنفاسه من التحرّش الإيطالي باليونان حتى جاء الثامن والعشرون من أكتوبر، الذي وافق عيد الفطر في الإسكندرية، فهاجم الإيطاليون اليونان من ناحية ألبانيا، تجلت شجاعة الجنرال ميتاكياس رئيس وزراء اليونان الذي رفض كل طلب إيطالي، بل وشنت اليونان هجوماً مضاداً، وثار اليونانيون في الإسكندرية وتجمع شبابهم أمام القنصلية اليونانية يطلبون التطوع للدفاع عن بلاد أخيل وأجاممنون وهرقل، وزيوس وهيرا وأفروديت، وأبوللو والموسيات وفايدروس، وأوديب وإلكترا وبيجماليون، عن اليونان التي لا يكرهها أحد، ولا يستطيع، وأعجب المصريون بشجاعة اليونانيين في القتال، وصاروا يحيون اليونانيين جيرانهم بإعجاب وتقدير، واليونانيون كانوا لا يكفون عن التفاؤل «خبيبي دوتشي واخد غلبان» يقولون لجيرانهم المصريين، ويعقدون الأمسيات الشعرية والحماسية ويغنون ويرقصون بابتهاج.

كان هتلر قد اجتمع مع فرانكو منذ أيام على الحدود الفرنسية الأسبانية، لكن لم يبد أن أسبانيا ستدخل الحرب، وصدرت التعليمات الجديدة في فرنسا باستبعاد اليهود من العمل في المصالح الإدارية والمناصب الحكومية، والصحافة والسينما والإذاعة باستثناء من أدوا خدمات علمية ممتازة من قبل أو كانوا ممن أبلوا بلاء حسناً في الحرب العالمية السابقة وحصلوا على نياشين وأنواط، وفي الإسكندرية وصل

قطار قادماً من السويس يحمل جنوداً قادمين من جنوب أفريقيا قيل إنهم يهود من الشباب الهارب من جحيم النازي، وأن من سيبقى منهم سيذهب إلى فلسطين بعد الحرب، وقابلهم في الإسكندرية عند محطة سيدي جابر أعيان الجالية اليهودية، شملا وشيكوريل وداوود عدس وغيرهم، ونثرت عليهم الفتيات اليهوديات الورود وتعلقن بهم يقبلنهم من النوافذ وحياهم كثير من المصريين الواقفين في المحطة وصفقوا لهم، وأخذ القطار طريقه إلى الصحراء في المساء فلم يتوقف في المحطات ولم يصادف عمالاً حتى وصل إلى مرسى مطروح بعد يومين حيث أنزل الجنود وعاد بفوج من الجنود الأستراليين للاستجمام وخصصت عربة للأسرى الإيطاليين الذين كان بينهم عدد من الليبيين العرب أطلق سراحهم في الإسكندرية لأنه ثبت للسلطات أنهم يقاتلون في صفوف الإيطاليين غصباً وبالقوة، وأنهم يشتاقون ليوم دخول الحلفاء ليبيا لتخلصهم من جرازياني ممثل الدوتشي المجنون، وذاع في الإسكندرية صيت الراقصة الجديدة لولا وزوجها عازف الأكورديون الهائم بها الذي يعزف لها الألحان اليونانية وهو معلق البصر بها نشوان والطبال يغني أيضاً لها «بص بص عالطعامة بص، تعالى بص بص أنا واحدة وأنت نص» لقد احتكرها الباشوات فهي لا ترقص إلا في سهراتهم وقصورهم، وأن الحرب قامت بين الفرق النسائية بسبب لولا، فهي من قبل كانت تعمل مع الأسطى نعيمة الصغير ببحري والسيالة، لكنها اختفت مع عشيقها حتى وجدها زوجها الذي كان قد ترك الفرقة، والتحق بفرقة باتعة السلاموني التي يشمل نشاطها كرموز وكوم الشقافة والقباري أيضاً. والآن دخلت الأسطى سومة النجيلي من الفراهدة واللبّان المعركة، وكذلك الأسطى فوزية المسيري منافسة نعيمة اللدود في بحري. لكن متعهدي الحفلات الذين صاروا الآن بلا عمل بسبب عدم السهر، ولم يبق لهم إلا تنظيم سهرات الباشوات، جمعوا بين الأسطوات وأوقفوا الحرب، «مش كفاية الحرب اللي في الدنيا» ودفعت

باتعة السلاموني عشرين جنيهاً تعويضاً لنعيمة الصغير، واتفقت بقية الفرق أن تحيي لهم لولا ليلة واحدة كل شهر في أي مكان يختارونه، وكذلك الحال مع متعهدي الحفلات الرجال، حمامة العطار من بحري وسعيد الحضراوي من الحضرة، وأنور سلامة من كرموز، والسيد الحلواني من باكوس، وهكذا صارت لولا نعمة على فرق الغناء والرقص في الإسكندرية، ولم يعد ينقصها غير الرقص في أتينوس أو الوندسور أو غيرهما من ملاهي الكورنيش التي تضجّ بزحام الجنود وفتيات الـ A.T.S.

وصلت قصة لولا إلى الست مريم وزهرة، واندهشتا من كيد النساء، والرجال أيضاً، فزوجها الذي بدا غيوراً يوم ضبطها، هو نفسه الذي يقود حفلاتها في البيوت، وسرعان ما نسيتا الأمر من جديد حتى جاء يوم خرجتا فيه معاً إلى البياصة بكرموز، ووسط باعة الأسماك الرخيصة، والخضر واللحوم ورائحة السوق المكتومة شاهدا تاكسي يقف بعيداً في فم شارع جامع السلطان وامرأة تشير إليهما من داخل التاكسي. نظرت كل منهما إلى الأخرى وترددتا، فجاءهما الصوت «ست أم كاميليا. ست أم إيفون» إنه صوت لولا لا تخطئه الست مريم ولا زهرة. تقدمت بعد أن تلفتت كل منهما. ماذا في لولا يشدهما حتى تستجيبا لندائها رغم خوفهما أن يراهما أحد.

ـ أدخلوا التاكسي. ما تخافوش.

كانت تجلس في الخلف فجلستا جوارها. وقالت:

ـ سوق يا أسطى.

ـ على فين؟

ـ على البيت.

ـ البيت قدامك أهه؟

ـ سوق يا بن الخايبة لحد الباب دول هوانم عايزهم يبانوا معايا؟

سكت السائق وسكت الجميع، واقتربت زهرة من الست مريم ولصقت بها. وأحسّت الست مريم بالأسف لركوبها التاكسي. لا بد أن زهرة ركبت بسببها. وقال السائق الذي دخل زقاقاً جانبياً ووقف.

ـ اتفضلوا.

نزلن. نظرت إليه لولا وضحكت بينما ابتسمت الست مريم في الوقت الذي بان فيه الذعر على وجه زهرة. وجاءهن صوت السائق:

ـ يا ست لولا، هو إحنا مش هوانم والا أيه؟

ـ امش يا ابن العرجا.

زعقت لولا فمشى سائق التاكسي ضاحكاً.

ـ لا تؤاخذوني يا جماعة، أنا عازماكم عندي على فنجان قهوة، وتشوفوا شقتي، علشان خاطري يا ست مريم، ما تكسفينش يا ست زهرة. أنا صحيح مش كويسة لكن مجوزة، والنبي وكويسة كمان.

ودخلتا معها مسحورتين من باب المنزل المواجه المعتم، وصعدتا على سلم بالكاد ترى درجاته في الظلام في الدور الأول فقط، ووضعت لولا المفتاح في الباب الخشبي فانفتحت ضلفتا الباب، وسبقتهما تفتح النوافذ فدخل قليل من الضوء. قليل لكنه يكفي للرؤية والحديث على كل حال.

جلست الست مريم وزهرة على أول مقعدين قابلاهما في الصالة. وعادت لولا بعد قليل ومعها «السبرتاية» والكنكة وثلاثة فناجين للقهوة وإبريق ماء وجلست أمامهما على الأرض. بدت لولا أجمل مما كانت في بيت ديمتري.

ـ أنا حاسة أني سرقتكما من الشارع، أليس كذلك؟

لم ترد زهرة وقالت الست مريم لنفسها: إن السكوت أفضل.

وتساءلت لولا:

ـ كيف حال الشيخ مجد الدين، والخواجة ديمتري؟ والله أنا كنت أسمع صوت الشيخ مجد وهو يقرأ القرآن بالليل. كان الصوت يتسلّل من الجدران ويصل إليّ. صوت جميل مريح طيب. أنا قبل أن يكتشفني زوجي بيومين كنت نويت أعود إليه وأتوب بسبب صوت الشيخ مجد الدين رغم أني لا أفهم شيئاً من القرآن، لكن كان كلما قال «فبأي آلاء ربكما تكذبان» أبكي. أبكي صحيح.

قالت زهرة في نفسها: «أستغفر الله العظيم». لقد شعرت أنه ليس من الطبيعي أن يأتي كلام الله على لسان هذه المرأة أبداً. وطالت الجلسة قليلاً وحكت فيها لولا عن الصراع بين الفرق النسائية عليها وكيف انتهى على يد المتعهدين الرجال، «يا أختي الرجال رجال في أي مكان، لا تأخذي من النسوان إلا الكذب والكهن»، وحدثتهما عن ليالي الباشوات التي هي ولا ألف ليلة وليلة، «مثل مين يا لولا، طبعاً عبود باشا منهم»، و«حياتك كلهم. عبود وفرغلي باشا وسباهي والطويل، الطويل مرة رقصت عنده في حضور النحاس باشا شخصياً. أيوه كان طالع من عملية خرّاج في مصر وجاء إسكندرية يومين يستريح يا عيني. لكن الحقيقة كانت عينه دائماً في الأرض. يمكن مرة أو مرتين رفع عينه عليّ. كنت حاسة أنه خايف خايف مني مش من الأحزاب التانية. يا أختي هو فيه كام حزب في مصر. على أي حال كل الباشوات فنجرية حتى سلفاتور شيكوريل وسلفاجو بتاع الترماي اشترالي الترماي».

وضحكن. ضحكن جميعاً لأول مرة. لم يعد هناك حذر ولا ندم.

واستمرت لولا:

ـ لم يبق إلا الملك السعيد. أنا رقصت عند الأمراء. هو الباقي. لو رقصت عنده أشتغل في السينما مع عبد الوهاب وأروح مصر وأسيب

إسكندرية وغاراتها. هناك أمل الصيف القادم أن أرقص في المنتزه. ستكون الحرب انتهت. لا بد. أنا من الآن مكلفة الست «ديدي» الساكنة هنا في شارع جامع السلطان، وهي أحسن واحدة تفصّل بدل الرقص، قلت لها تفصل بدلة مفتوحة كلها من كل ناحية. من ورا ومن قدام ومن الوسط. وتحطّ لي فيها من الترتر والخرز خرج النجف وألماظ حقيقي. تعرفي يا ست مريم أنا ساعات أشتاق لكم خالص.

وشربن القهوة ولاحظت زهرة أن الصالة نظيفة، والمقاعد وثيرة، ليست جديدة لكنها لامعة، وأن هناك بعض الآلات الموسيقية، عود، طبلة، رق، صاجات، أكورديون، مبعثرة في أكثر من ركن، بعضها لامع وبعضها قديم مترب، لكن المكان بشكل عام مريح ويجلو البصر..

قامت لولا بعد أن شربن القهوة لتحضر بعض بدل الرقص تطلعهما عليها ونظرت زهرة إلى الست مريم في هلع. لكن هذه قالت بهدوء:

ـ نرى البدل ونمشي لا نلتفت، ولا نأتي للبياصة أبداً.

وهما تهرعان نازلتين السلم هتفت لولا:

ـ السلام أمانة للخواجة ديمتري والشيخ مجد الدين، وكاميليا وإيفون، لا بد سأرقص في فرح كل منهما. لا بد.

كانت قد حدثتهما أيضاً عن «الأمبريزاريو». متعهد الحفلات الأجنبي، الذي وعدها برحلة إلى أوروبا بعد الحرب، وقالت إنها هناك «حتأبج كويس» ولما رأتهما مندهشتين قالت ضاحكة: «آه يأبج يعني يقبض أجرة، والأبّيج هو الأجرة» واهتزّت وهي تضحك قائلة «أصل العوالم لهم لغة. يعني مثلاً يقولك النهاردة مجممة، يعني خالي شغل «وأبريز» لا مؤاخذة يعني رايح التواليت، وأرخي يعني آكل، وعايمة يعني المكسب كبير، وفيه حاجات أصعب جداً لا يمكن أن يفهمها أحد خارج كار العوالم، لكن لا مؤاخذة كله كلام أصله تحشيش أي والنبي».

ظل هذا اللقاء العجيب عالقاً في ذهن زهرة لعدة أيام، تنظر دائماً إلى الست مريم وفي عينيها ارتباك ورعب. لقد ارتكبت جريمة في حق مجد الدين، حتى فاجأتها الست مريم قائلة:

ـ يا زهرة أنت محيّرة نفسك، ممكن تخبري الشيخ مجد بلقائنا بلولا. لا توجد مشكلة، أنا حدثت ديمتري عن ذلك وضحك، لكنه قال أن لا نذهب إلى البياصة. تماماً كما قلت لك. نشتري كل حاجتنا من هنا. من سيدي كريم أو من بعيد، من بحري.

الأمر إذن ليس خطيراً للغاية، ويمكن لها أن تخبر مجد الدين، لكنها لم تخبره أبداً. لقد بدا لها مجد الدين دائماً في حالة صمت، ماذا يشغل باله هذه الأيام. إنه لا يختلف عن البنت كاميليا، التي عادت لحالتها السابقة من الصمت والهيام. إنها لا تكلم زهرة إلا بكلمة أو اثنتين. إزيك. صباح الخير. مساء الخير. ولا شيء آخر، وزهرة تلمح دائماً في عينيها بدايات بكاء. والحقيقة أن كاميليا كانت قد أيقنت أنه لا رجعة في طريقها الجديد، إذ تقدمت في اللغة الفرنسية في مدرسة بيرليتز طوال الصيف، وعندما بدأت الدراسة الثانوية لم تنقطع عن الفرنسية، فقد حوّلت نفسها من الدروس الصباحية إلى دروس بعد الظهر، حيث كانت دروس المساء قد ألغيت منذ بداية الحرب. كان هناك يومان تخرج فيهما من مدرسة نبوية موسى، فتذهب إلى مدرسة بيرليتز لتعود إلى المنزل في حوالي الرابعة. اكتفت إيفون بما تعلّمته في الصيف من فرنسية، وقرّرت أن تستكمل دراستها في الصيف القادم. لكن كاميليا التي سألت نفسها كثيراً عن سر دأبها على دراسة الفرنسية، وتشوقها لقراءة شعراء فرنسا الكبار، بودلير وفيرلين ورامبو وإيلوار وأندريه بريتون وأراجون، لم تجد إجابة ولم تعرف. وجدت نفسها مرة أثناء الدرس تكرر الجملة التي قالتها دون قصد في الدرس الأول Je l'aime واكتشفت أنها دائماً ما تكررها

لنفسها، ثم أضافت بلا قصد et il m'aime aussi فتفتحت عيناها كزهرتين وارتعش ثدياها الصغيرين المكورين ومشت النار في جسدها الرقيق وأحست بأنفها يحمر ويشتعل. وبعد يومين، بعد أن خرجت من المدرسة ومشت حتى دخلت شارع فؤاد، ومشت بين ظل العمارات البارد في اليوم الخريفي السكندري البديع، أحست أن هناك من يمشي قبالتها على الطريق الآخر لا يتأخر عنها ولا يتقدم. أشعة تخرج منه تعبر الشارع تضرب خدها الأيمن توقظ الدم في روحها. والتفتت ورأته ولم يكن الإغماء حلاً كافياً، لقد أوشكت قدماها أن تخذلاها وتسقط في الطرق لولا أنها استندت إلى جدار إحدى العمارات للحظات ورأته أمامها باسماً سعيداً.

ـ ما أخبار اللغة الفرنسية؟

مشت القوة فيها. أجابت بسؤال:

ـ كيف عرفت؟

ـ لن تصدقيني إذا قلت لك أني رأيت في عينيك قبل أن أتركك رغبة في عمل كل ما أحبه أنا.

ومشيا. تركت يدها ليده. لقد عاد وعاد معه الكلام الغريب الذي لا تفهمه. يبدو لها كقوس قزح يقطع الفضاء. إنها لا تفهم أي معنى لهذا الإحساس، ولا تعرف هل سبق وفكرت فيه أم لا، لكن هكذا بدا لها بحق، قوس قزح يقطع الفضاء، عربة نارية تجري في السماء بخيول قزحية. «يا ويلك يا كاميليا يا ويلك» قالت لنفسها بعد أن خيّم عليهما الصمت قليلاً:

ـ ماذا تقولين؟

ـ هل ستنتظر حتى أنتهي من الدرس؟

ـ سأنتظر حتى نهاية العمر.

ضحكت.

ـ أنت كلامك غريب جداً يا رشدي، أنا لا أفهمك بالمرة.

ـ ما رأيك لو غيّرنا الدرس هذه المرة ومشينا معاً بعض الوقت؟

مشيا إلى محطة الرمل. وقفا على الكورنيش ينتعشان بالهواء البارد ورذاذ البحر، وخاف عليها من عيون الجنود الشرهة، البيض من الإنجليز والأستراليين والسود من كل مكان في الدنيا فمشى معها بسرعة على الرصيف حيث المقاهي السكندرية العتيقة مليئة باليونانيين والبحارة والجنود أيضاً، ومن الوندسور يخرج عدد من الجنود السكارى مهرولين ومعهم عدد من الفتيات يرتدين جوبات كاكية قصيرة فوق ركبهن رغم برودة الجو يتأبط كل جندي فتاة ويمشيان يغنيان على الطريقة الأوبرالية قال لها ضاحكاً إن الطلاب الآن يتحدثون عن ضرورة جلاء الإنجليز بعد الحرب لكن بدون فتيات الـ A.T.S ولم تكن هي تعرف إلا أنهن مجندات لكنه قال: إن عملهن الرسمي هو أعمال السكرتارية والتليفونات بالمعسكرات والمنشآت الإنجليزية، وأنهن على رتب عسكرية مختلفة مثل الرجال تماماً، لكن عملهن الحقيقي هو الترفيه عن الجنود، وأنهن لسن إنجليزيات فقط بل فيهن فرنسيات ويونانيات ومن قبرص ونيوزيلانده والهند وجنوب أفريقيا وسائر دول الأمبراطورية البريطانية. لم يكن يدور في ذهن كاميليا شيء أبعد من المعنى الحقيقي للمسمى الإنجليزي لهاته الفتيات الجميلات المجندات Auxillary territorial service وهو المعنى الذي اختصرته الصحافة إلى A.T.S، واختصره أولاد البلد إلى «الآتسا».

وأمام تمثال إسماعيل باشا في المنشية توقفا. قال:

ـ نقف هنا قليلاً مثل اثنين من السياح الأوروبيين!

ـ أنت سافرت أوروبا قبل اليوم؟

كان قد أحاطها بذراعه. أحست بضلوعه تحت قميصه والبلوفر الخفيف الذي فوق القميص، وأحس هو باكتنازها ودفئها.

ـ لا بد أن أسافر في يوم ما.

ـ وتأخذني معك؟

كانت قد دخلت فيه أكثر. قال:

ـ سنجد أن هذا هو الحل الوحيد أمامنا.

هكذا أعادها إلى ما تحاول أن تنساه. لقد حاولت في الصيف، ونجحت، لكن ليتها ما درست اللغة الفرنسية.

ومشيا وظهرت حركة الطرابيش كبيرة الميدان، حيث مقاهي السماسرة والتجارة وخبراء البورصة والباحثين عن الشهرة والمال والمجد والسعادة أيضاً، وأنصاف الباشوات والبكوات القادمين من الريف للتجارة، والبحارة الذين ملّوا خمارات بحري الرخيصة ونساء شارع الحجاري الأرخص فجاءوا هنا بحثاً عن خمارات أفضل ونساء أجمل، وعربات الحنطور التي تتسابق بزبائنها ومحمد علي باشا يطل على الجميع على أهبة الانطلاق والهواء يمرح في الفضاء، وفوق الأرض يدحرج الأوراق الصغيرة المهملة الساقطة من الأشجار التي تتوسّط الطرقات وسألته:

ـ أين تسكن؟

ـ قريب منكم. أنت تسكنين في غيط العنب. لقد تبعتك مرة حتى باب البيت من بعيد ـ بانت الدهشة الشديدة على وجهها واستمر هو يتحدث ـ أنا أسكن في المسافة بين كوبري كرموز وكوبري كفر عشري. هناك سكن لعمال السكة الحديد، وحيد، في مكان هادىء، أمامه ترعة المحمودية، ومساحة كبيرة خالية من الأرض، أمان كامل.

قالت:

ـ أنا أعرف هذا المكان جيداً، إنه مكان جميل بحق. أجمل ما فيه أنه لا أحد يلتفت إليه أو يدركه بسهولة.

أوقفها، ونظر إليها يتأمّلها ممسكاً بكتفيها بلا خوف أو خجل.

ـ لقد صرت تقولين كلاماً جميلاً.

ضحكت. ومشت بعد أن أبعدت يديه برقة. قالت:

ـ رحت كثيراً مع ماما هناك نشتري سمك من الملأحة، بالأمارة فيه قبو مظلم وطويل تعدى منه فتصل إلى الملاحة مباشرة.

ـ بالضبط.

ولم تشأ أن تقول له إنها ذهبت إلى السكن نفسه مع أبيها وأمها وإيفون أكثر من مرة لزيارة قريبهم الأسطى غبريال، الذي لا بد يعرفه رشدي، ولا بد أن يكون رئيساً لأبيه في العمل.

قالت:

ـ في بيتنا يسكن رجل يعمل بالسكة الحديد.

ـ لا أعرفه. لا يسكن عندنا!!

ردَّ عليها فانطلقا يضحكان إلا أنها أحسّت بالأسف لكنها سرعان ما أشرقت، فهي لم تذكر لا اسمه، ولا اسم غبريال على أي حال.

لقد دخلت كاميليا البيت ذلك اليوم كعصفور طليق في فضاء بديع، لكنها ما إن جلست حتى نزل عليها وجوم لم تخرج منه. لم تفهم الأم شيئاً ولا أحد غير إيفون التي أدركت أن أختها عادت للمحظور. وصار على كاميليا كل يوم أن تقرر ليلاً قطع علاقتها للأبد مع رشدي، وفي الصباح تنتظر الظهيرة حيث موعد حضوره. لقد كان مهذباً للغاية إذ طلب منها أن تتركه يمشي خلفها أربعة أيام، وتخرج معه يومين إلى أي مكان

بعيد. وظهر القسيس في المنزل بوجهه الأحمر وذقنه السوداء وعباءته. رأته زهرة يدخل المنزل لأول مرة، الحقيقة أنه أتى كثيراً من قبل، لكنها لم تره إلا هذه المرة، وصارت تسمع كلاماً متصلاً لا تفهم منه شيئاً، وأدعية وغناء لا تفهم منها شيئاً. في كل مرة يأتي القسيس يحط الصمت على المنزل، وتغلق الست مريم باب الغرفة دون حتى النظر لأي شخص قد يكون أمامها، ولا يختلف الأمر حين يتواجد الخواجة ديمتري، وبعد ساعة أو أكثر يخرج القسيس وتسمع أصواتاً عالية تودعه «مع السلامة يا أبونا مع السلامة في حراسة العذراء» وتسمع نحيباً لا تميز ما إذا كان كاميليا أو إيفون، وبدأت لا ترى كاميليا أو إيفون إلا قليلاً، فهما لم تعودا تجلسان مع أمهما، بل تظلان بالحجرة الداخلية بعد عودتهما من المدرسة، حتى دوت صفارة الإنذار بشكل ينذر بخطر جسيم. صفارة الإنذار تنطلق متقطعة مع كل غارة وكل يوم، وصوتها هو هو في الغارة الصغيرة أو الكبيرة، لكن حدساً تكون عند الناس بتوقع الغارات الصعبة، والإحساس بها من صوت صفارة الإنذار. هل يتغيّر صوت الصفارة فعلاً؟ أم هي الحرب وحدت من مشاعر الناس، ورققت منها فصاروا أنبياء أو على الأقل من أهل الطريقة المستبصرين؟ كان العيد الصغير قد انتهى منذ عشرة أيام بغارة كبيرة استمرت من السادة مساء حتى العاشرة لكنها كانت متفرقة على أحياء عدة في المدينة فلم تترك خلفها إصابات مركزة، أما اليوم فالناس يشعرون في كرموز وغيط العنب وراغب ومحطة مصر والعطارين أن الغارة تستهدفهم هم، قلب الإسكندرية ونبضها.

كانت في ذلك اليوم قد سألت مجد الدين كثيراً عن القسيس، وعن حضوره المتكرر لأكثر من مرتين كل أسبوع، وعن الصمت والبكاء والهمهمة وغيرها، فقال لها «دعي الملك للمالك يا زهرة، وانتبهي للذي في بطنك». وحين دوت صفارة الإنذار التصقت به، وصرخت البنت

شوقية التي صارت تعرف خطورة الصفارة المتقطعة من ذعر الآخرين، وأمان الصفارة المتصلة فكانت تصفق بيديها الصغيرتين. ووضعت زهرة بسرعة شالاً على كتفيها، فالدور الأرضي بارد رطب، ونزلت وخلفها مجد الدين يحمل الطفلة شوقية. رأت أمامها الست مريم والبنتين صامتتين، وكذلك الخواجة ديمتري. نزل الجميع إلى أسفل. الرعب الذي سيطر على زهرة لم يمنعها من رؤية كيف ذبلت كاميليا، وصارت مثل سنبلة تركت في الشمس كثيراً. دخلوا غرفة البهي المفتوحة دائماً، والتي لم يسكنها أحد، كما لم يسكن أحد غرفة لولا المفتوحة بدورها. هجرة الناس من المدينة تركت كثيراً من الشقق والغرف الخالية. وما إن دخلوا غرفة البهي حتى قالت الست مريم:

ـ أطفي النور يا ديمتري.

بدا لزهرة أن المرأة لا تريد لأحد أن يرى ابنتها في حالتها السيئة هذه، وليس السبب هو الغارة، رغم أن تعليمات الوقاية، تؤكد ضرورة إطفاء الأنوار. كانوا في النصف شهر الأخير من شوال، والقمر يتضاءل ليكون هلالاً لكن كان ضوؤه كافياً للناس. فتح مجد الدين شباك الحجرة ليسمع تعليقات الناس في الشارع ويراهم ثم قال لديمتري:

ـ ما رأيك أن نخرج من البداية إلى الشارع مع الرجال.

ـ فكرة جيدة.

وخرجا. رأى مجد الدين أشعة الكشافات المنبعثة من ناحية الميناء وكوم الشقافة تملأ السماء، ثم بدأ الطنين العريض العالي للطائرات التي تقترب، ثم تدخل في مرامي النيران التي تنطلق من كل المواقع العالية بالإسكندرية خطاً متصلاً من القذائف الحمراء. لقد ترددت أصوات المدافع المضادة بشكل كثيف، ومن كل الآفاق، وصفق الصبية والشباب في الشارع، وهم يرون النار تشتعل في بعض الطائرات، لكن سرعان ما

سمعت أصوات الانفجارات، وارتفعت أعمدة الدخان في أماكن متفرقة من المدينة، في الغرب والشرق والشمال. ثم تركّزت الانفجارات في وسط المدينة، وارتفعت أصوات بكاء الأطفال في أكثر من بيت، وأصوات تلاوة القرآن من أكثر من مكان، ثم شقّ الليل صوت غفارة من خلف الطربوش عريضاً رناناً وهو يقول:

ـ جرازياني ابن الهرمة لا يحبنا، الذي يغيظني ويكاد يفجرني هو كيف تأتي الطائرات من إيطاليا لتضربنا، ولا تذهب إلى إنجلترا الأقرب أليست إنجلترا أقرب؟

وجاء صوت من أحد التجمعات الشبابية يقول:

ـ الطائرات تأتي من ليبيا يا عبيط.

وفجأة ظهر دميان. بدا قادماً من سباق عنيف. قال متهدجاً:

ـ يا شيخ مجد أنا لم آت للاختباء. النار مولعة في البياصة وكرموز وباب سدرة، نار لحد السماء أكثر من غارة الست ساعات لازم نجري نساعد إخواننا.

سكت مجد الدين قليلاً يفكر أنه تقاعس مرة من قبل، فهل يتقاعس هذه المرة؟ وجد ذلك لا يليق، ثم سمع غفارة يقول:

ـ هذه ليلة سوداء. يا شباب ـ وخاطبت تجمعات الشباب ـ هيا إلى كرموز، البيوت وقعت والناس ماتت.

كانت ليلة فوق حدود العقل، في الظلام صارت الأقدام تخب خبب الخيول، تتعلّق عيونها بالسماء المشتعلة بالقذائف الصاعدة والقذائف الهابطة، حتى إذا اقتربوا من ترعة المحمودية رأوا الظلام شديداً فوق الماء وصنادل الشحن قليلة يقف فوقها بعض النوتية يتابعون المعركة الدائرة في السماء، وفي وقت قياسي كانوا! قد قطعوا مسافة كبيرة في شارع كرموز،

ودخلوا البياصة من ناحية «الساعة»، ورأى مجد الدين حرائق لم يسبق له رؤيتها. صفحة حمراء في الفضاء أعلى من المباني العالية، والبيوت فوقف عاجزاً يتأمل.

- يا أرحم الراحمين.

- كيرياليسون. كيرياليسون.

كذلك ردّد دميان. هتف غفارة:

- يا رب ارحم عبيدك.

لقد رأى مجد الدين حرائق من قبل كثيرة في الريف شمّ فيها رائحة الروث والقش والحطب.

لكن هذه المرة يشم رائحة لحم محترق مختلطة بصرخات من كل ناحية والنساء يجرين بملابس النوم في الطرقات، والرجال يحملون الأطفال ويتركون بيوتهم ويقفون بعيداً، والكل ينتحب وأصوات الطائرات لا تنقطع من فوق المدينة والمدافع المضادة تطاردها، والكشافات تمسح السماء، وأصوات عربات الإطفاء قادمة من كوم الدكة تقف بعيداً أمام البيوت المحترقة، ويهرول من عليها من الجنود بخوذاتهم، ويعرفون أماكن الحنفيات المعدّة لإطفاء الحرائق وسط الأرصفة فيسرعون يوصلون إليها الخراطيم الجبارة، ويبدأون في الإطفاء. لقد انتقل ضرب الطائرات إلى منطقة مينا البصل. والآن، مجد الدين يرى دميان واقفاً بلا حول أمامه، وغفارة كما هو يرتدي القناع المصنوع من الطربوش، وحميدو والشباب يجرون إلى بيوت تهدمت جدرانها، ينزلون من تعلق أو ظل بها من سكان، كانت في الأرض آلات موسيقية كثيرة متناثرة. أعواد وطبل ودفوف وأكورديونات وساكسافونات ونايات كالحيات والثعابين في كل مكان، وكانت هناك تجمعات النساء أشباه العاريات اللاتي فاجأتهن الغارة، والتدمير والحرائق فبدأت بعض النساء من البيوت غير المصابة

تناولهن أرواباً وجلابيب يسترن بها أنفسهن، وبدأت اللعنات تنصب على الألمان والطليان والإنجليز الذين تسببوا في هذا كله، وشاعت في الجو رائحة العرق البشري المختلط بالتراب والغبار، وبدأ الجميع يرفعون الجثث من تحت الأنقاض. دوت صفارة الأمان وابتعدت الطائرات والحرائق لم تزل تضيء المكان وسُلِّطت عليه كشافات سيارات الإطفاء. أصوات صراخ تأتي من تحت الأنقاض وأصوات استغاثة وأصوات ألم. أنين خافت مثل النزع الأخير، وكلما أخرج الرجال شخصاً حياً من تحت الأنقاض ارتفعت الصيحات الله أكبر الله أكبر. ولم يكن مجد الدين يتوقع أبداً أن يقابل هنا أحداً يعرفه، فما بالك أن يجده بين الأنقاض. لقد شاهد ثلاثة يحملون امرأة فوق محفة ويجرون بها. اثنان من الأمام وواحد من الخلف، وسمع الصوت يناديه:

ـ شيخ مجد الدين.

كانوا يضعون المصابين بعيداً على الرصيف متجاورين حتى تحملهم عربات الإسعاف بنظام.

وكان الذي يحمل المرأة على المحفة من الخلف صديقه دميان الذي عاد إليه وقال له:

ـ أخرجنا امرأة من تحت الأنقاض رأتك فنادتك ألم تسمعها؟

ـ سمعتها ولم أصدق. أنا لا أعرف أحداً هنا.

ـ إنها هناك بين المصابين على أي حال يمكن أن تذهب إليها.

وجرى دميان من أمامه يساعد في إنقاذ الآخرين بينما أخذ مجد الدين طريقه إلى المصابين، حتى إذا اقترب رآها تنظر إليه، والفرح الذابل يطل من عينيها «الولا» هي ولا أحد آخر. يا أرحم الراحمين. أشارت إليه أن يجلس جوارها فجلس.

ـ سامحني يا شيخ مجد. لقد حاولت إغراء أخيك البهي لكنه رفض. عشرات المرات أعترض طريقه وأخرج له بالليل ويرفض.

ـ هو الذي يسامحك يا ست لولا.

ـ هو سامحني. لكني أحتاج أن تسامحني أنت أيضاً. لقد فكرت فيك كثيراً.

ـ أستغفر الله العظيم.

ـ إذن سامحني.

ـ الذي يسامحك هو الله. أنا مسامح في كل شيء مع أني لا أراك فعلت شيئاً يغضبني.

ـ حتى خيانتي لزوجي.

ـ مكتوب يا ست لولا. ما هي إصابتك؟

ـ ساقاي مكسورتان.

ولاحظ أن ساقيها تتضخمان جداً تحت قميص نومها، لا بد أن الدم ينسكب داخلها. لا بد أن هناك نزيفاً حاداً داخل الساقين. ما إن ظهرت عربة الإسعاف حتى حمل المحفة من ناحية واحدة، ورآه دميان فأسرع إليه يساعده، ونقلا لولا داخل الإسعاف ثم نقلا ثلاث مصابات أخريات وهرولت بهن العربة إلى مستشفى المواساة.

قالت لولا تهذي قبل أن تأتي الإسعاف مباشرة:

ـ لم أحب أحداً مثل الملك فاروق، لم أتمنّ أحداً مثلما تمنيته، والآن لن أرقص أمامه، لا أظن أني سأعود للرقص مرة أخرى.

وانسكبت من عينيها دموع وأمسكت بيده فقبلتها، وهو بدوره تركها لها.

في الصباح قابل مجد الدين الخواجة ديمتري في الردهة. مجد الدين

خرج يغسل وجهه وديمتري انتهى من الاغتسال.

ـ هل ستذهب إلى العمل اليوم؟

تساءل مجد الدين فأجاب ديمتري:

ـ لا أظن أن أحداً سيذهب إلى العمل اليوم. سأذهب إلى المقهى. إلى الناس أعرف أحوال المدينة بعد هذه الغارة. هل تأتي معي؟

وذهب معه. منذ عمل بالسكة الحديد لم يجلس بالمقهى في الصباح. وبالمقهى حدثه ديمتري عن كرموز. «راقودة» التي وصل الإسكندر بينها وبين «فاروس»، بحري، وأن راقودة منطقة خطرة مليئة بالمخدرات والمجرمين، لكنها في التاريخ منطقة العذاب للمسيحيين وأن عمود السواري مبني على تل باب سدرة الذي كانت فوقه قديماً معابد وملاعب رومانية تقام فيها مباريات المصارعة حتى الموت، أو إطلاق الأسود على الداخلين في الدين الجديد. وقال ديمتري: إنها منطقة استشهاد قديمة وبسبب شهدائها بدأ التقويم القبطي في السنة نفسها التي قتل فيها دقلديانوس مئات الآلاف من المسيحيين. إنها منطقة دم منذ قديم الأزل لن يمحوه منها عمود السواري الذي أقامه السكندريون تخليداً لحاكم ظالم!

* * *

لا احد ينام في السماء

لا احد ينام في العالم

لا احد ينام

لا احد

لا احد

16

اقترب العام من نهايته، وانفتحت فوق الإسكندرية أبواب المطر. لم يبدُ أن الإسكندرية ستحتفل بنهاية العام، ستسهر الليلة الأخيرة من ديسمبر دون أن تنطفىء الأنوار المضاءة، فالأنوار مطفأة!

لن يلقي أحد بالزجاجات الفارغة، وقطع الخزف والفخار القديم من النافذة وداعاً للعام الغائب، وأملاً في عام قادم أن يكون أجمل. لن يسهر المونسنيور ولا الأكسلسيور ولا اللوفر، ولا كازينو الشاطبي أو الميرامار والوندسور وهوليوود والكيت كات ولا غيرها. وربما يقضي الناس الليلة الأخيرة من العام في المخابىء. لقد كان الشهر الماضي، نوفمبر، عصيباً بحق. لقد حدثت فيها غارتان كبيرتان في أسبوع واحد، في الثامن عشر وفي التاسع عشر، في السادسة مساء، وفي الثامنة، فازدادت حركة الناس إلى محطة السكة الحديد. تدافعت مواكب السيارات والحنطور والكارو والتاكسيات القديمة حاملة الناس والمتاع القليل. امتلأت أرصفة المحطة

بالمنتظرين، جالسين ونائمين يملؤهم الصبر والخوف وعدم يقين عميق. رائحة العرق البشري اختلطت مع رائحة المازوت وأبخرة القطارات فملأت هواء المحطة فثقل وانكتم، وكاد يظهر له قوام!! حركة القطارات قليلة، أكثر القطارات تم سحبها لنقل الجنود والعتاد.

لكن دائماً في المحطة ترى المهرولين بسبب ولا سبب، والزاعقين الآن يضافون إليهم، أولئك الصارخون بسبب الزحام ونكد العيش الباكون من المرض والإملاق والفزع، وقد مازجت أصواتهم أصواتهن وأصوات الأطفال وباعة السميط والجبن والفول السوداني والبرتقال الذي انتشر قشره مع قشر الفول وبقايا الأطعمة في الأركان وبين البلاط وفوقه وحول الجالسين وتحت أقدام الماشين والمهرولين وفي عيون الصارخين واللاهين والشاردين. إنها أيام «الهِجار» التي لن تُنسى في الإسكندرية، والتي سيؤرخ بها الناس لحياتهم بعد ذلك.

كان مجد الدين يلمح السؤال في عيني زهرة ولا يعطيها الفرصة. يهرب من ذلك الخوف المطلّ من العينين العسليتين، وهي كلما أشاح بوجهه بعيداً أحسّت بالراحة. قليل من الراحة. ماذا يحدث حقاً لو سألته وأجابها بالإيجاب؟! لو طلبت السفر سيسافر معها ولو سافر سيقتله العمدة. سيترك الحرب إلى الموت. الإسكندرية هي دار الأمان رغم الغارات الثقيلة الآن والظلام المقيم، وهذه الرغبة التي تستيقظ ناعمة للسفر، يجب عليها أن تقمعها وتظل كما هي المرأة التي لا تترك زوجها أبداً. لكن بالليل وكان البرد قد اشتد آخر العام، دخلت هي في صدره أكثر من كل وقت، وأحسّ بها أصغر من كل وقت رغم ارتفاع بطنها. طفلة هي لا تزال تحبو على صدره.

قالت وقد نسيت كل شيء:

ـ أنا خائفة يا مجد الدين.

ـ لا تخافي. الغارات صارت بعيدة الآن. أكثرها يكون فوق الدخيلة والميناء ومعسكرات الجيش الإنجليزي في الضواحي.

ـ أنا لا أقصد الغارات. أنا خائفة أن ألد هنا وحدي، وخائفة أرجع للبلد.

ـ إذا اضطررنا للسفر سأسافر معك.

ـ......

ـ ألا تزال الست مريم قليلة الكلام؟

ـ جداً. وتبدو مهمومة دائماً، والقسيس لا يكف عن الحضور، والبنت كاميليا صارت مثل شعاع نور اللمبة السهارى.

ـ اشغلي نفسك مع الست مريم. لا تتركيها. اختلقي الفرص لتخرجي معها إلى الأسواق.

لكن زهرة التي كانت قد عرفت كيف تخرج إلى الأسواق وحدها بعد أن مضى عليها بالإسكندرية أكثر من عام، وجدت أن الخروج إلى السوق لم تعد له البهجة القديمة نفسها. البضائع شحيحة والشوارع تخلو يوماً بعد يوم من الناس. البائعون والمشترون قليلون، وأم حميدو فقط هي التي صارت تؤنس وحدتها، لا تزال تفرش خضارها في مدخل البيت المواجه وتحب زهرة أن تجلس معها بعض الوقت كلما اشترت منها شيئاً، وأم حميدو بدورها أعجبت بهذه الفلاحة الصغيرة الشاطرة التي لا تكف عن الأسئلة، فكانت تستبقيها كثيراً، تقدم لها كرسي حمّام خشبياً صغيراً لتجلس عليه، لكن زهرة في أغلب الأحوال كانت تجلس على الأرض. تسألها أم حُميدو عن أحوال زوجها مجد الدين الذي لا يكاد يعرفه أحد في الحي، وكيف لا يرى إلا برفقة دميان المسيحي، كيف حقاً يصاحب زوجها دميان المسيحي؟. تتساءل أم حميدو ثم تتذكر أن زهرة

وزوجها يسكنان في بيت الخواجة ديمتري فتقول في نفس طويل «آه» وتقول زهرة دائماً: «كلنا أولاد تسعة يا أم حميدو» أو تقول «أهو اللي خلق المسلمين هو برضه إللي خلق القبط» فتقول أم حميدو شبه مقتنعة: «صحيح والنبي» لكنها غالباً ما تعود للتساؤل في يوم آخر، وتستمر في أحاديثها عما لا تعرفه زهرة في الإسكندرية. سألت زهرة هل شاهدت تمثال محمد علي باشا؟ وتمثال سعد زغلول بمحطة الرمل، وهل شاهدت المجندات الإنجليزيات يركبن البسكليتات الملونة على الكورنيش، أو شاهدت العساكر الإنجليز السكارى يعاكسون البنات على الكورنيش وفي بحري والعطارين ويخطفونهن في بعض الأحيان؟ وكثيراً ما تقص عليها أنباء عجيبة عن عائلات ضاعت أموالها في بورصة القطن، وناس معفنة في الأصل، اغتنت بسرعة مذهلة من التجارة مع معسكرات الإنجليز أو كسبت في يانصيب مستشفى المواساة الذي كسبه هذه المرة الوجيه عفت «عشرة آلاف جنيه كاملة راحت لواحد مش محتاج، ودائماً يكون اسمه عفت، همت، طلعت، دولت، بهجت، ولا مرة يكون اسمه بهلول أو شحات أو حتى مصطفى أو علي وليس من الضروري أن يكون حميدو». كذلك حدثتها كثيراً عن الملك فاروق الذي يحب الصلاة في جامع المرسي أبو العباس بالنهار، وبالليل يسمع الناس صوت الرقص والجري في حديقة قصر المنتزه طول الصيف. وقالت لها: إنها إذا كانت رأت قصر رأس التين في بحري فقصر المنتزه في الناحية الأخرى من الإسكندرية، في أقصى الشرق. آخر حدود الرمل، قصر حواليه خمسمائة فدان فيها كل شيء من أشجار الدنيا الجميلة بناه إسماعيل باشا جد فاروق الصغير هذا. كل شيء جميل في إسكندرية يقولون بناه إسماعيل باشا. يقولون عنه: إنه كان «فنجري» ويحب الدنيا وعمل قنال السويس علشان تيجي واحدة ملكة من فرنسا اسمها «أوجين» تفتحها. يعني عمل القنال علشان يشوف الملكة، كان بيحبها، وعطاها القنال!

تفتح زهرة فاها وعينيها عند سماع هذه الحكايات وتستمر الست أم حميدو فتقول بنى لها الأوبرا في مصر «مرسح» كبير علشان تسمع فيه غناوي سي عبده وست ألمظ، إسماعيل باشا كان ابن عز بصحيح!.

لكن الحديث أيضاً كان ينتقل إلى الجثث الجديدة التي طفت، وظهرت بترعة المحمودية. عادة تكون لفتاة صغيرة، وحديث عن اللقطاء الذين يوجدون هذه الأيام بكثرة ملفوفين في خرق قديمة على الشاطىء بين كوبري راغب وكوبري كرموز يبكون بأصوات تصل بالكاد إلى أحد المارة أو إلى ركاب الفلائك الصغيرة الذين يتنزهون بالترعة، والعادة أن يتمّ تسليم اللقيط للحكومة، بدورها تدخله ملجأ أيتام. قليل من يستمر حياً منهم. يموتون من الإهمال لكن قادر ربنا يحميهم ويمكن يطلع منهم واحد مشهور. مغني ولا زعيم يحكم البلاد. ما هي بلادنا دي ياما حكمها ناس مالهمش أصل زمان كانوا بيسموهم «المملوكين»، ويمكن كانوا بيلاقوهم على الترع كده مرميين، وتسأل أم حميدو زهرة ضاحكة عما إذا كانت رأت عساكر الجيش المرابط الواقفين حول وابور الطحين، وعلى الكوبري وحول النقطة للحراسة. المساكين العرجان والبرصان والعور أحسن واحد فيهم مثل أبو رجل مسلوخة. يأتي الواحد منهم إليها ويحاورها ويداورها ليشتري بمليم يوسفندي! «يصعبو عليّ قوي. فيهم واحد ظريف بيجي يغني لي» وتضحك أم حميدو يهتز لحمها المترهل، يغني بصحيح ويهزّ كتفه زي الغوازي.

«يا بتاع اليوسفندي
ما تقوللي العشرة بكام».

أبص له وأضحك وأعطيه واحدة مجاناً، يأتي في اليوم الثاني ويرقص ويغني وهكذا حتى جئت يوماً وقلت له وأنا باهز كتفي:

«العشر اليوسفندي

يا حبيبي بنص ريال».

ضحك وضحكني معه، ولأنه صاحبي يسألني كل يوم عن حالي، وقال لي إنه لا يريد العودة لبلده بعد الحرب، ويتمنى يعيش في إسكندرية، وطلب مني الزواج. أي والله. قلت له تتجوز ست لا تتحرك عن الأرض وليه تدفن نفسك بالحيا.. ولم يقتنع. يأتي كل يوم يغني لي ويقول إنه صابر وسوف ينال، وتندهش أم حميدو من الغارات الألمانية والإيطالية على الإسكندرية التي يحرسها الجيش المرابط هذا الذي لا يستطيع أن يحارب نملة، «والواجب يصعب عليهم ويبعتوا له أكل». ولا يفوت أم حميدو أبداً أن تتحدّث عن مسخرة البوليس في «كوم بكير» والعطارين ومينا البصل والهماميل وشارع مارسيليا. كانت ترى ازوراراً من زهرة حين تصل إلى هذه السيرة خصوصاً بعد أن عرفت فحواها أول مرة، لكن أم حميدو كانت تهوى العودة إليها ولو بسرعة. وتقول لها ما أكثر العائلات المحترمة التي تذهب بناتها إلى هذه الأماكن بالنهار، ويعدن إلى بيوتهن عفيفات شريفات أمام الناس، وما أكثر الفقيرات اللاتي يرسلهن رجالهن إلى هناك أيضاً «رجالة وسخة». وهناك أيضاً نسوان أرامل تبيع نفسها ولا تتجوز على عيالها، هذا طبعاً غير المطلقات والهاربات من الأرياف. «يعني البلد بتحدف» على إسكندرية الممتلئة هذه الأيام السوداء بالعسكر من كل الدنيا البيضاء والسوداء أيضاً. وقالت لها إن حميدو ابنها الذي يعمل بمسح الأحذية في محطة الرمل والمنشية وبحري والعطارين دائماً يأتي إليها بحكايات تشيّبْ عن النسوان والعساكر والأجانب كلهم. حميدو دائماً «كربان» من المناظر التي يراها، ويقوم بأعمال مؤذية للإنجليز، وآخرته ستكون الموت أو النفي إلى جبل الطور. وتسأل زهرة أين جبل الطور؟ تقول أم حميدو: «هناك بعيد في الحتة إللي بينفوا فيها المجرمين» تسكت زهرة التي لم تعرف أين جبل الطور! وسألتها أم حميدو مرة هل لاحظت شيئاً في عائلة الرشيدي في البيت

المجاور لبيت الخواجة ديمتري؟ الرجال قصار جداً والنساء طويلات جداً تحتاج الواحدة منهن إلى رجلين فوق بعضهما، يبوسها واحد والثاني. . «يا أختي ما بتضحكيش ليه؟». تسأل زهرة التي تندهش دائماً من جرأة هذه المرأة البدينة التي تبدو، وهي جالسة كأنما اندلقت على الأرض ولا سبيل لقيامها إذ ينغرز وسطها في عجيزتها المترهلة في محيط واسع! وتندهش زهرة أكثر من إقبالها هي ذاتها على سماع أحاديث أم حميدو. وقالت لها زهرة حكاية واحدة فقط عن الغارة التي حدثت الشهر الماضي. وهي أن زوجها مجد الدين وصديقه دميان عندما جرى مع الناس إلى كرموز للمساعدة في الإنقاذ عثرا على لولا مصابة تحت الأنقاض إصابة شديدة، وبدا الأسف حقيقياً على وجه أم حميدو والتي قالت إن لولا مسكينة لم تهرب من زوجها مع عشيقها ولكن زوجها عازف الأكورديون هو القواد، وأنها سمعت عن شهرتها الشهور الماضية في بيوت الباشوات، وتمنّت أن تراها لكن هذا ما أراده الله. وقالت: إنها كانت تعمل فترة في فرقة نعيمة الصغير ببحري. «رقاصة؟!» تساءلت زهرة مندهشة، فأدركت أم حميدو سر دهشتها، فأين هي الراقصة السمينة التي لا تبرح الأرض طول النهار. أجابت لا. «لبِّيسة» وشرحت لها كيف كانت هي تقوم بتلبيس الست نعيمة الصغير ملابسها. ملابسها في الغناء وملابسها في الرقص، البدلة يعني، وملابسها في حفلات الباشوات. لكن الست نعيمة عصبية، وكلما قابلت منتج سينما طلبت منه أن يجد لها دوراً في فيلم، ويعدها ويخلف فتقوم «ببهدلة» العاملين معها، فتركتها.

وحدثتها عن دنيا العوالم. قالت: إن البياصة حيث ماتت لولا هي مركز العوالم في إسكندرية، هناك قهاوي الفنانين، وبيت المتعهدين والمعلمات وورش تعليم البنات. كل واحدة هربانة تأتي إلى البياصة فالرقص أهون من عمل الحرام! والمثل يقول كل فولة ولها كيال، وعند العوالم «كل رقاصة ولها طبال» دايماً الرقاصة يجوزها طبال أو رقاق،

قليل التي يتزوّجها عازف مثل لولا، العازف يحب المغنية، وكل معلمة لها بناتها ولها منطقتها. يعني نعيمة الصغير لا تستطيع أن تدخل كرموز، باتعة السلاموني تأكلها!. وهكذا والآن بعد السينما كل رقاصة تريد أن تصبح حكمت فهمي. وكل رقاصة بعد أن كانت تحلم بالرقص في ملاهي الكورنيش تحلم بالرقص أمام الملك. الملك فاروق شاب صغير وسيم وجهه مثل البدر تحبه كل الراقصات والنسوان تتوحّم عليه! وتقول أم حميدو موشكة على إنهاء الحديث إسكندريا ماريا وترابها زعفران، يقولون إن الذي بنى الإسكندرية واحد مجنون اسمه الإسكندر، وملأها مصانع خمور فكانت الناس ترقص وتغني طوال النهار والليل وتتبغدد مع النسوان، وإنهم حتى الآن يجدون آثاراً للإسكندر والإسكندرية القديمة، تماماً مثلما يجدون كنوزاً تحت أنقاض البيوت بعد الغارات. عمال الإنقاذ بعد كل غارة يجدون أموالاً ذهبية مختومة بخاتم الملكة ناعسة اليونانية التي حكمت الإسكندرية زمان «أيوه» أُمال الحتة اسمها جبل ناعسة ليه؟ كانت الملكة تسكن فيها» يقولون: إنها كانت جبارة لذلك فسكان جبل ناعسة جبارين. تجار مخدرات ولصوص لا تقدر عليهم الحكومة. قدام جبل ناعسة من ناحية، البياصة، ومن ناحية، عمود السواري. البياصة حي قديم وعمود السواري أقدم. حول عمود السواري كوم الشقافة فيه مغارات تحت الأرض يعيش فيها النوبيون والسودانيون الذين يدورون يبيعون اللب والفول السوداني بالنهار وبالليل ينامون في المغارات كالخفافيش. المغارات كلها آثار «محدش يعرف دروبها غير البرابرة دول والغجر». الغجر أيضاً يعيشون هناك لكن منذ قيام الحرب لا أحد يراهم في الشوارع «راحوا فين؟. الله أعلم».

* * *

هكذا دخلت زهرة العالم المسحور لمدينة الإسكندرية بعد أن شاهدت

منها البحر والميادين الكبيرة مع الست مريم من قبل. حكايات أم حميدو أعطت المدينة التي تخلو من أهلها الآن روحاً دافئة في شتاء يبدو قارساً بحق. لكن المطر بعدما ينزل يشيع الدفء أيضاً في الفضاء. يتسع الفضاء وتبتعد السماء وتصفو وتزرق وتبتهج. الإسكندرية مدينة تبعث على السعادة دائماً رغم ما يبدو عليها من كدر الآن بسبب ارتحال الناس عنها. وحكايات أم حميدو تجعلها تبعث على السعادة مرتين.

وهذا المطر المستمر منذ أيام سينقطع مع بداية العام الجديد. لا بد، حيث ستدخل الأعياد في بعضها لأول مرة منذ سنين طويلة، أعياد الميلاد الأرثوذكسية مع عيد الأضحى، أو سينزل على المسلمين والمسيحيين معاً. ستكون البهجة للجميع وسيكون المطر للجميع أيضاً حتى الغطاس الذي هو كما قالت إيفون العام الماضي عيد مصري قديم.

والذي حدث أنه صدرت الأوامر في البلاد بالاحتفال بنهاية العام الميلادي لكن دون أن تضاء الشوارع وليحذر الجميع من الغارات المفاجئة، فرغم أن المتحاربين في أوروبا أعلنوا عن توقف الغارات المتبادلة بينهم في الليلة الأخيرة من العام إلا أن أحداً لا يضمن تصرفات هتلر وموسيليني، خصوصاً «أن بلادنا لا علاقة لها باحتفالات ميلاد المسيح الأوروبية فهي بدعة أتت مع الاحتلال». على أي حال كانت الغارات قد توقفت في أوروبا في اليوم قبل الأخير من ديسمبر بسبب رداءة الجو فنعمت الشعوب هناك بليلتين ويومين بلا غارات وبصفة خاصة أهالي بريطانيا الذي أعلن هتلر ضرورة إبادة مدنهم، وبالطبع إبادتهم. لكن الليلة قبل الأخيرة من العام شهدت غارات بريطانية مكثفة على مطاري «الغزالة» و«طبرق» في ليبيا، كما أغارت الطائرات الإيطالية بدورها على القواعد البريطانية في مالطة، وكان العالم لا يزال يتابع تقدم اليونانيين المدهش على حساب الإيطاليين في ألبانيا وسط حيرة الألبانيين

أنفسهم الذين لم يستقروا على محتل واحد للبلاد حتى الآن، ووجه الهر هتلر رسالة إلى الجيش الألماني أحصى فيها انتصارات ألمانيا في السنة الماضية، ووعد بانتصارها النهائي في العام الجديد «إن جيش الاشتراكية الوطنية الألماني قد أحرز انتصارات باهرة عام 1940، وهذا الجيش وهو على أعتاب عام جديد قد استعدّ بتسليح لم تعرفه البشرية» لكن في القاهرة كانت ببا عز الدين قد أعلنت أنها ستبدأ برنامجها الجديد على مسرح الماجستيك برواية «اطلع يا نمس» التي سيكون بينها مونولوجات لمحمد عبد المطلب وفتحية محمود وثريا حلمي وسيد فوزي، كما أعلن كازينو الشاطبي في الإسكندرية عن استعداده لاستقبال المحتفلين بالعام الجديد، ورقص المحتفلون وأكثرهم من جنود الكومنولث في المونسنيور على الأضواء الخافتة التي لا يتسرب نورها من الزجاج المعتم والستائر الثقيلة، وعلى سيرانادات الغرام، ولم يفهم مجد الدين أو زهرة للمرة الثانية لماذا يلقي الناس بأشيائهم القديمة من النوافذ آخر العام، هذا رغم ندرة من فعلوا ذلك هذا العام، فأكثر السكان قد أخذهم «الهجار!».

في القاهرة حضر الملك فاروق حفلاً بعيد رأس السنة، بدار الأوبرا للترفيه عن الجنود الإنجليز بالشرق الأوسط، وتقدّم إليه حزب الوفد بعريضة عن موقف مصر الداخلي والخارجي انتقد فيه الوضعين معاً، كما عاود سلاح الطيران الملكي في الشرق الأوسط غاراته على الغزالة والبردية في ليبيا، حيث كان شهر ديمسبر قد شهد زحف القوات المدرعة البريطانية، وحلفائها الذين لوحت الشمس جلود جنودهم، على سيدي براني فجأة، وبقوة هائلة فأسروا «ما يملأ خمسة أفدنة من الضباط وما يملأ مائتي فدان من الجنود الإيطاليين» وعاد الناس يتساءلون وهم يرون قطارات الأسرى القادمة من الصحراء هل يحارب الإيطاليون حقاً أم يحارب الدوتشي وحده وجرازياني؟ وما كاد ينتصف الشهر حتى كان

الإيطاليون خارج الحدود المصرية والحلفاء يتابعونهم حتى «البردية» التي اخترقها الجنود الأستراليون بمعاطفهم الطويلة الثقيلة، وأسروا من الإيطاليين خمسة آلاف، وعادت الغارات مع العام الجديد في أوروبا، واستخدم الألمان نوعاً جديداً من القنابل فوق لندن، قنابل حارقة تشعل النار الجهنمية في كل مكان وتترك وراءها بعد كل غارة ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف أو أكثر من القتلى والجرحى، وسقطت إحدى قنابل الغارات على مجلس العموم البريطاني نفسه الذي لم يكن هناك أحد من الساسة بقاعاته لكنها أتلفت جانباً منها تلفاً شديداً، بينما صارت مدينة بريمن الألمانية أثراً بعد عين كما يقال، من جراء الغارات البريطانية، وكان الأستراليون، قد حاصروا طبرق مع الإنجليز في ليبيا فسقطت سقوطاً مدوياً واستسلم فيها ثلاثون ألف أسير، وبلغ مجموع الأسرى الإيطاليين أكثر من مائة ألف فتهاوى الجيش الضخم، وسقط من الحساب كقوة عسكرية وانتشرت قوات الحلفاء على طول الساحل من السلوم حتى بقيق، وعرض يوسف وهبي مسرحية «صفارة الإنذار» كما عرضت سينما أوليمبيا فيلم «دنانير» لأم كلثوم وسينما مصر «فتاة متمردة» لماري كويني وسينما الكوزمو «مليون سنة قبل الميلاد» للوجه الجديد فيكتور ماتيور، وشاهدته كاميليا مع رشدي ورأت الحزن الذي في عيني رشدي، وهو نفس الحزن الذي في عيني فيكتور ماتيور، وصدر قرار من قومندان قلم المرور «محمد شكري بك» بتوحيد زي سائقي الأجرة بأن يرتدي كل منهم معطفاً من التيل الكاكي فوق ملابسه أسوة بسائقي البلاد الإفرنجية، وفي الإسكندرية أقام الاتحاد الرياضي الإسرائيلي حفلاً لإعانة منكوبي الغارات حضره سلفاتور شيكوريل ووجهاء كثيرون، وذاع اسم الجنرال ويفل، وراقب الناس تطور الهجوم البريطاني الكاسح على ليبيا غير مصدقين الهزائم التي تنزل بإيطاليا كالمطر، لكن مجد الدين كان يصدق فهو يرى الأسلحة الذاهبة بالقطارات إلى جوف الصحراء كل يوم، وهي

أسلحة لا يصنعها إلا «الجنون الحمر» ولا يحارب بها إلا الشياطين والمردة، وكان حمزة يضرب كفاً بكف وهو يرى الأسرى الإيطاليين الشباب حليقي الرؤوس حفاة مشحونين في عربات قطارات البضاعة المغلقة والمفتوحة. كانوا يبدون في كل وقت كالأطفال المشردين مستسلمين نائمين في دعة غير آبهين. وبعضهم كان ينظر إليهم ويبتسم ويلوح بيديه يحييهم، وحمزة يعلق على أعدادهم الهائلة قائلاً صحيح «إن جار عليك الزمن يا ابن الكرام طاطي، وعف نفسك ولا تمشيش ورا الواطي» ويضحك زملاؤه الذين لا يجدون علاقة بين ما يقول وما يحدث، ويعلق دميان قائلاً هم الذين حاربوا فيقول حمزة «والله قلبي يقول ليّ إنهم طيبين لا عارفين يحاربوا في مصر ولا اليونان وأنه هو موسيليني الشيطان»، وكان روزفلت قد خطب وأعلن أن أميركا ستصبح مصنعاً للسلاح للدول الديمقراطية، واشتكت عاهرات الإسكندرية المرخصات من قلة الزبائن بعد الهجرة الواسعة لأهل المدينة، وطالبن الدولة بأن تستخدمهن في الترفيه عن الجنود الإنجليز في معسكراتهم نظير دخل ثابت، لأن جنود الكومنولث الذين يذهبون إلى المواخير، يكونون سكارى ولا يدفعون للعاهرات، كما أن الزبائن المحليين يعرفون أنهم صاروا مثل العملة النادرة لذلك لم يعودوا يذهبون إلى المواخير الفقيرة في الفراهدة وكوم بكير ولكن إلى المواخير الفاخرة في الهماميل ويدفعون ما كانوا يدفعونه في الأولى، وأعلنت الصحف عن إعدام المتخلفين عقلياً في ألمانيا والبلاد التي احتلتها إذ «سيقتل هذه الأيام مائة ألف من المخلوقات التعسة، بُلهاء ومجانين لا يُرجى شفاؤهم في ألمانيا وحدها».

وضحك العمال وحمزة يقول: إنه اليوم فقط لا يحب أن يدخل الإيطاليون مصر لأن ذلك يعني دخول الألمان وإعدام كل عمال السكك الحديدية أمثالنا، ولما رأى النظرة الثعلبية لغبريال قال على الفور «ما عدا الأسطوات» فضحكوا أكثر، وبدأ دميان يشعر بالتقارب الروحي مع

حمزة، ونسي مجد الدين إهانته السابقة له، وخطب تشرشل مشيداً بالتعاون الأنجلو أميركي قائلاً «نحن الآن فوق البرج القائم على حراسة التاريخ» وأحصيت الغارات التي نالت من الإسكندرية منذ دخول إيطاليا الحرب فوصلت إلى المائة أعنفها كانت غارة الست ساعات، وغارتا نوفمبر الماضي، ولكن لم يأت الإيطاليون للشرب من ماء النيل، أتوا أسرى ضائعي الأرواح يمشون على أقدامهم مئات الأميال من ليبيا حتى مرسى مطروح، يموت منهم كثيرون في الطريق تحت الشمس والمطر والريح القارية، ومن مرسى مطروح يتم شحنهم في القطارات أو السفن إلى الإسكندرية، وأعلنت الصحف المصرية عن استمرار محاكمة المتهمين في قضية الخوذ المقلدة للجيشين المصري والبريطاني وهي القضية الكبيرة التي شغلت الصحف كثيراً والناس، خصوصاً في المقاهي والبارات، وحيث أعلن الجيش الملكي البريطاني والجيش الملكي المصري منذ بداية الحرب عن مناقصة لتوريد خمسين ألف خوذة لجنود الكومنولث وعشرين ألفاً للجنود المصريين وفاز بالمناقصة مقاولون مصريون ويونانيون معاً، وقدموا الخوذ في الموعد المقرر للتسليم، ولكن ظهر بعد ذلك أن الخوذ مقلدة وليست حقيقية، حيث صنعت كلها من الصفيح وليس من الصلب كما هي العادة، وقال أحد المتهمين في معرض الدفاع عن نفسه: ماذا تفيد الخوذة، صلباً كانت أم صفحياً، أمام قنابل الطائرات والمدافع، وهل تمنع الخوذة الموت عن الجندي إذا كان الله قد قدره له في الكتاب؟!. لقد صارت القضية وأخبارها مثل نسيم رقراق يهب على المصريين بين وقت وآخر أثناء الحرب. وتأجلت المحاكمة كما تمنّى المتهمون وكما تمنّى المصريون أيضاً، وسقطت كسلاً في الحبشة في يد القوات الإنجليزية والحبشية وتقهقر الإيطاليون إلى أريتريا، واستعد النجاشي، هيلا سيلاسي لدخول الحبشة على رأس جيشه الوطني، واحتفل الأزهر بالسنة الهجرية، ولا يزال غفارة يضع الطربوش

الواقي من الغارات على وجهه، ولم يعد يعمل في نقل النشارة، فمعظم مصانع الأخشاب قد توقفت بعد انقطاع الخطوط الملاحية مع أوروبا، والمستهلكون من أصحاب المحلات صاروا قليلين بعد الهجار، فخلع صندوق العربة الخشبي، وترك جانباً واحداً فقط كتب عليه، الحمولة عشرة طن، مستعدون لنقل المهاجرين إلى المحطة «بالعفش» وبدونه، لكنه راح يحيي الناس الآن على طريقة جوبلز كما يقول، فيرفع ذراعه أمامه قائلاً «هايل هتلر» لأي شخص.

ومع نهاية شهر يناير مات في مصر محمد محمود باشا رئيس وزراء مصر الأسبق المشهور بصاحب اليد الحديدية، وافتتحت مطربة العواطف ملك مسرحها برواية «بترفلاي» على مسرح برنتانيا بعماد الدين، وتوفي في اليونان زعيمها العظيم الجنرال متاكياس، فأقيم الحداد بالقنصلية اليونانية في الإسكندرية وجميع أندية اليونانيين، وصدر قرار بمنع ركوب الدراجات ببعض شوارع العاصمة، وتقهقر الإيطاليون إلى بنغازي وخطب تشرشل في مجلس العموم قائلاً إن مصر نجت والسويس، وعرضت سينما مصر فيلم «سلامة في خير» وبدأ زحف الإنجليز إلى طرابلس فتفحمت دبابات الإيطاليين وآلياتهم وبلغ قتلاهم وأسراهم مائة وخمسين ألفاً منذ بدء الهجوم البريطاني، وعم الحزن إيطاليا والسخط المكتوم على زعيمها الجبار، وأقيمت في مصر الزينات بمناسبة عيد البلاد الملكي، فعزفت الموسيقى في الميادين، وأقيمت الحفلات في قصر الزعفرانة، ونوادي ضباط البوليس، والدار البطريركية، وفتحت مطاعم الشعب للفقراء، وغنى التلاميذ لمليكنا السعيد، وانتهت أحلام جرازياني أن يكون حاكماً على مصر، نائباً للملك، وأعلن التوجيه الملكي السامي مشروع مقاومة الحفاء «إن الحفاء ليس علّة ولكن نتيجة ومن الخير للمواطن أن يشتري هو من ماله الحذاء الذي يستر قدميه، أما إعطاؤه حذاء على سبيل

الإحسان فإنه يغض من كرامته ويزيد شعور المهانة في نفسه» وفي الوقت نفسه أهدى الملك حديقة حيوان الجيزة «حيوان الوبر» البري الذي اصطاده، فنشرت جريدة الأهرام تعريفاً لحيوان الوبر قالت فيه:

«تلقينا من حضرة القس بولس رومان بأسيوط كلمة قال فيها إن هذا الحيوان يشبه الأرنب، وهو يجتر ولكنه لا يشق له ظلف، وهو من الحيوانات التي أمر الله بني إسرائيل، بألا يأكلوها لأنها نجسة، وهو معروف في بعض الأماكن بغنم بني إسرائيل، وسكنه في الصخور لذلك كان من الحيوانات التي اشتهرت بالحكمة. وقد ذكره سليمان في سفر الأمثال قائلاً «أربعة هي الأصغر في الأرض لكنها حكيمة جداً: النمل طائفة غير قوية لكنه يعد طعامه في الصيف، الوبار طائفة ضعيفة لكنها تصنع بيوتها في الصخرة، الجراد ليس له ملك لكنه يخرج كله فرقاً فرقاً، العنكبوت تمسك بيديها وهي في قصور الملوك، وعندما عدد النبي داود مراحم الرب وعنايته بالإنسان والحيوان والطير ذكر أنه خلق الصخور وجعلها للوبر ملجأ، وفي بعض الترجمات ذكر أنه الأرنب، وأنه كان شبيهاً له في شكله لأنه ذكر هو والأرنب كل منهما على حدة في الكتاب المقدس «الوبار» أولاً وبعده «الأرنب» ومن ذكره في الكتاب المقدس نفهم أنه يوجد بكثرة في فلسطين».

* * *

«جنس البشر، ومهما كثرت أعداد الناس، من منهم يعرف شيئاً عن نفسه؟»

17

كان العمل كثيراً في الأيام الأخيرة للشتاء. والهواء البارد يلفح الوجوه في الصباح الباكر.

الريح تشتد خاصة بعد أن يعبر مجد الدين ودميان السور إلى الفضاء الواسع فوق خطوط السكك الحديدية. مكان تتجلّى فيه السمات الأمشيرية بأجلى صورها، حيث تطوف الزوبعة حاملة تراب الأرض فجأة، تاركة المجال للهواء البارد، الذي يندفع بعده المطر المجنون من سحابة هرولت من مكانها البعيد.

في طريقهما اليومي المعتاد في الصباح، لم يعد يثيرهما عامل الغراب الصامت الذي لا يكف عن التحديق فيهما، إلا أن دميان لاحظ أن الرجل أطلق لحيته، ونادراً ما ظهر جالساً، بل دائماً يمشي إلى الأمام، وإلى الخلف، مما جعله يسأل مجد الدين ما إذا كان الرجل قد أصيب بالجنون بحق، فكان رد مجد الدين المغيظ له دائماً «يا دميان دع الملك للمالك!».

كان على العمال تركيب خط حديدي جديد يمتد لحوالى الكيلومترين،

ذلك أن العربات الواقفة تنتظر دورها في الدخول إلى الميناء كثيرة ولم تعد تكفيها الخطوط الحالية، فضلاً عن ضرورة ترك الخطين «الطوالى» الذاهبين إلى الصحراء والقادمين منها خاليين دائماً إلا من القطارات المسافرة.

كانت المنطقة الواسعة الممتدة خلف الإسكندرية، من محرم بك حتى القباري، مروراً بغيط العنب وكفر عشري، مزدحمة بمئات العربات، وعشرات القطارات البخارية السوداء، وفي حركة لا تنقطع لتحميل السلاح من الميناء، والانطلاق به إلى الصحراء، أو نقل السلاح والجنود القادمين من السويس، أو الذين أنفقوا وقتاً للترويح في الإسكندرية، كذلك نقل الأسرى.

جاء أكثر من قطار من مخازن القاهرة يجر عشرات العربات المسطحة تحمل الفلنكات والقضبان وآلاف المسامير والقواعد الحديدية المربعة التي توضع بين الفلنكات والقضبان، كذلك حملت القطارات تلالاً من الزلط قادمة من الصحراء الغربية، وامتلأت المنطقة فجأة برجال شرطة السكة الحديد بزيهم الأصفر المميز يتوزعون على هذه المعدات التي شغلت حيزاً كبيراً من الفراغ. بعد أن أنزلها العمال والأوناش المتحركة على القضبان. واجتمع العمال من كل بوسطة فبلغوا أكثر من مائة يشتركون في هذا العمل الجبار الذي يجب إنجازه في وقت قياسي حتى لو واصلوا الليل بالنهار.

كان البرد، يتسلل إلى العمل، رغم ثيابهم الصوفية، من الرقبة ومن تحت الأكمام ونهايات البنطلونات فوق الأقدام. وحرارة العمل لم تعد تكفي وحدها للدفء فالريح لا تكف عن حمل البرد، والمكان فضاء واسع، ولم يعد مسموحاً لأحد بالغداء في بيته، وصارت الراحة ساعة واحدة وكانوا يتحملون ذلك العنت كله برضا لا يضايقهم إلا زخات

المطر المتقطع التي تضطرهم للجري إلى أقرب عربات للاحتماء جوارها أو تحتها، ولا يكادون يعودون للعمل بعد انقطاع المطر الذي لا يستمر طويلاً حتى يعود مرة أخرى، وكثيراً ما استهانوا به وظلوا في مواقع عملهم فإذا به يفاجئهم بالاستمرار وقتاً أطول مع حدة وكثافة. أجل. هكذا صارت بينهم وبين المطر مباراة وعناد.

لقد قسموا أنفسهم، بواسطة أسطواتهم الذين هم خبراء تقليديون بالعمل، إلى فرق، فرقة لتسوية الأرض عدتها الفؤوس والكوريكات، وفرقة لفرش الزلط فوق الأرض في الأماكن التي ستوضع فوقها الفلنكات وعدتها المقاطف والفؤوس، وفرقة لصف العوارض، وعدتها أكتافهم التي يحملون العوارض فوقها، وفرقة لحمل القضبان ووضعها فوق الفلنكات والقواعد وفرقة لتثبيت القضبان بالفلنكات بواسطة المسامير التي تخترق القواعد الحديدية تحت القضبان وفوق الفلنكات وتضغط على جانبي القضيب من أسفل، ثم الفريق الأخير الذي يقوم بدك الزلط تحت العوارض بعد ذلك، الأسطوات يكون عليهم ضبط المسافة بين وصلات القضيب نفسه أفقياً وضبط المنحنيات والتأكد من المسافة المتروكة بين كل وصلتين من القضيب الواحد. المليمترات المتروكة لتمدد القضيب صيفاً وانكماشه شتاء بحيث إذا تمدد لا تتصادم كل وصلة بالأخرى، وإذا انكمش لا تلتوي القضبان أو تترك مكانها. ومثل كل عمال الدنيا، لم يكن ممكناً تحمل مشاق العمل دون غناء. هيلا هوب هيلا. هوب هيلا. يا مهون هون يا مهون. خاصة أولئك الذين يحملون القضبان، فالقضيب الواحد لا يزيد عن ثمانية أمتار يحمله عادة عشرة رجال يغنون وهم ينقلونه ثم ينزلون به برفق حتى أقدامهم. ثم هوب، يتركونه معاً في وقت واحد فوق القواعد والفلنكات. ويتراجعون إلى الخلف تاركين المكان لفريق «الرُباط» الذي بسرعة يضع المسامير في فتحات القواعد الأربع،

فتحتان على كل جانب من القضيب، ثم يبدأون في إدارة المسامير التي تخترق الفلنكات، بمفتاح طويل على شكل ماسورة في أسفلها تجويف مربع بحجم رأس المسمار، مدد. مدد. يا أم العواجز يا طاهرة. يا سيدي المرسي. يا أبو العباس. يا شيخ العرب. يا سيد. يا ظهري اللي انكسر. يا ظهري. امتى الفرج. امتى. ونشوف الشام. مدد. وعيالي تكبر. مدد يبقوا باشوات. مدد. كله على الله. مدد. والإنجليز. مدد. خطفوا النسوان. مدد. . .

وينطلقون ضاحكين. وحمزة يتأمل، فهو دائماً من حملة القضبان رغم قصر طوله عن بقية زملائه، يتأمل عمال الرباط المنتشرين حول القضبان بكثرة فيبدون له كالزنابير الصحراوي لتقاربهم وحركة أذرعهم التي لا تنقطع. ويتخيل أحياناً أن أجنحة ظهرت لهم، فطاروا في السماء ممسكين بالقضيب ثم ركبوا فوقه كالبساط السحري ويضحك، ودميان بين الحين والحين يتوقف عن دك الزلط تحت الفلنكات، وينظر إلى حمزة الذي يتوسط الطابور حامل القضيب، ويفكر في دهشة وإعجاب أن هذا القصير لئيم لا يحمل شيئاً، فالقضيب فوق أكتاف زملائه الطوال، ولا يكاد هو يصل بكتفه إليه، ولا بد أن حمزة كان يدرك مغزى نظرات دميان بين وقت وآخر إليه فكان ينطلق بالغناء:

أنا جمل صلب لكني علّتي الجَمّال.
جَمّال مآوح ولا هوش في الحمول جمّال»

أو يزعق قائلاً:

«من كان يتيم ضاعت أهله
في البلد دي أهو ضاع»

ثم يلحق الكلام بصوت أقل ارتفاعاً مليء بالحسرة:

لو كان أسير كان على مهله

للذوات ينباع،
لكن أهالي بلاد حرة
شغلوه خدم»

«أيوه يا حمزة. الله يفتح عليك» يرتفع صوت العمال، الذي لا يسكته إلا هطول المطر السريع المفاجىء وجريهم للاحتماء بالعربات.

لم يكن عملهم هذا ثابتاً، فهم يتبادلون المواقع كل يومين. كان رأي الأسطى غبريال أن يحدث التبادل كل يوم، فذلك أكثر راحة للجسم وأكثر اتساقاً مع قدرات العمال لكن «البيّاع» أسطى عمال البوستة رقم (2)، قال إن التبادل يكون أوفق كل يومين!. والبياع أسطى قديم، مشهور بتهوره حتى لقبه العمال «بالمجنون» فلم يكن لأحد أن يناقشه. قال البياع: «كل يومين أفضل للعمال، صحتهم عال زي الحمير»، وكان حين يتحدث «يتفتف» مما يجعل محدثه ينهي الحديث بأسرع ما يمكن. والحقيقة طبعاً أن الأعمال كلها في المشقة متساوية رغم ما يبدو من تفاوت ظاهري. ورأي دميان فيها أنها كلها طين في طين حتى أنه هتف في سره داعياً الشهيد ماري جرجس الذي ألحقه بهذا العمل الصعب أن يملأ السماء بالسحب السوداء، وألا ينقطع المطر عن الأرض حتى تخرج القضبان من أماكنها وتنقلب القطارات ويكف الحلفاء عن الحرب مع المحور ويجد هو وقتاً لتعلم الكتابة التي لم يتقدم فيها كثيراً إذ عليه أن يمر باختبار بعد أسابيع وإلا لن يزيد راتبه العام القادم. ويقول في نفسه «قدوس قدوس بالحقيقة أيها الرب الذي خلقنا ووضعنا في الفردوس لكنا خالفناك بوصاية الحية فسقطنا من الحياة الأبدية، لكنك لم تتركنا بل أوكلتنا إلى الأنبياء والقديسين، وفي أحد الأيام ظهرتَ لنا نحن الجلوس في الظلمة بابنك الوحيد الجنس مخلصنا يسوع المسيح الذي أسلم ذاته فداء عنا إلى الموت. اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من

قدساتك طهارة لأنفسنا وأجسادنا ارحمنا يا الله الأب ضابط العمل. كيرياليسون. كيرياليسون». . على أن الرضا قديم عند بقية العمال الذين تعودوا على هذه البقعة الواسعة. فردوس هي أو أشبه باتساعها وانقطاعها عن العالم. العمل مهما كان متعباً فلحظات قليلة من الراحة يتمددون فيها فوق الأرض، ويتأملون هذا الاتساع الغامض، لا يفكرون فيها أبداً أن هناك حول هذا المكان عالماً آخر قد يكون أفضل. إنهم ينسون حتى بيوتهم وأسرهم، والقطارات المارة بالجنود والسلاح وغيرها، تظهر كأنها نزلت من السماء وعادت إليها، ولحظات الانفعال بها والحديث عن الجنود وتلقي عطاياهم، لا تلبث بعد قليل أن تغيب وتنتمي لزمن آخر غير مُدرك، زمن برزخي، أبعد غموضاً من الأثير، لا يفكرون حتى في العالم وإن العالم هو الفضاء الواسع الذي يهبهم هذا الرضا الأبدي المثير.

وأقبلت بحق السحب السوداء منخفضة ثقيلة مثل الطائرات الألمانية حين تهجم على المدينة في الليل. ابتعدت الشمس الواهنة واختفت خلف السحاب الأسود العريض الذي ينذر بأنهار المطر، وفي لحظة واحدة انفتحت القرب من السماء وهطل السيل فتركوا كل شيء وأسرعوا إلى العربات. لم يكن منجياً لأحد الاختباء بجانب أي عربة، فالمطر لا يأتي من اتجاه واحد لذلك بحثوا جماعات متفرقة عن عربات مغلقة بجانب أي عربة خالية أو سبنسات وقال دميان لنفسه إلى هذا الحد صار الود بيني وبين الشهيد ماري جرجس، ودمعت عيناه وهو يشعر بالسكينة تسري في روحه. هل أحبه الرب حقاً كل هذا الحب؟.

دخل دميان إلى سبنسة قريبة سبقه إليها البياع وحمزة والأسطى غبريال ومجد الدين وعدد آخر من العمال، في السبنسة جلس غبريال على المقعد الجانبي وعلى الفور وبرشاقة أخرج النوتة من جيبه العلوي والقلم

الكوبيا وراح يكتب فيها بخطه المنمنم ولم يخلع البيريه عن رأسه، وبينما خلع البياع الكوفية من فوق عنقه والطاقة من فوق رأسه الذي بان أصلع تماماً شديد الاحمرار مثل وجهه بالضبط، وزادته الهرولة اشتعالاً. في اللحظة نفسها سمع صوت قطار يقترب من بعيد وصوت غناء الجنود الإنجليز وموسيقى القرب الاسكتلندية. لم يكن ممكناً لأي من العمال ترك العربة أو السبنسة التي اختبأ فيها، فالمطر ينهمر شديداً مرعباً يملأ الأرض الترابية بالمياه في ثوان معدودة فنظروا من فتحات العربات ونوافذ السبنسات وأبوابها إلى الجنود الذين كان بعضهم ينظر أيضاً من خلف زجاج القطار.

قال حمزة وهو يضحك ضارباً كفاً بكف:

- يسكرون في القطار والله العظيم.

ولكن لا أحد انتبه لكلامه. لقد نزل على الدنيا ظلام شديد وبرقت السماء ثم توالت أصوات الرعد بلا انقطاع وبدا أن السموات السبع ستقع فوق الأرض الجرداء وسرى الخوف قليلاً في القلوب، إذ نزل بينهم الصمت للحظات حتى قال البياع:

- يبدو أن الإنجليز يدبرون شيئاً يا أسطى غبريال.

رفع هذا رأسه عن النوتة وكف عن الكتابة:

- الإنجليز طول عمرهم أهل تدبير يا أسطى بياع.

وتدخل حمزة قائلاً:

- الإنجليز كسروا جرازياني واطمأنوا. التدبير أنهم لن يخرجوا من مصر. كنت أتمنى أن يكسرهم جرازياني. طلع أهبل. كسفني الله يخرب بيته.

نظر إليه البياع شذراً وقال:

ـ إذن أنت تفضل إيطاليا على إنجلترا يا بهلوان؟

ضحك دميان والعمال على بهلوان هذه التي لا يسمعونها إلا من البياع ويجدونها منطبقة تماماً على حمزة لكن مجد الدين الذي كان قد أخرج المصحف الصغير يقرأ فيه في صمت ابتسم، ورأى في عيني البياع غيظاً وشراً. عينان عجيبتان تنظران إليك وإلى بعيد في وقت واحد وزرقتهما تساعد على ذلك، وقال البياع:

ـ لماذا لا ترد؟ أجبني.

انقلب الظلام في الخارج إلى عواصف ترابية، والمطر لا يزال ينهمر، وصوت الحصى والرمال الطائرة وهي تضرب السبنسة صار مسموعاً، وأسرع مجد الدين بإغلاق النوافذ لكن التراب كان يدخل إليهم مع الريح من الأبواب المفتوحة والتي هي بلا ضلف. وهتف حمزة وهو يسعل:

ـ أنا عارف أن هذا اليوم أسود وأغبر من أوله.

فضحك الجميع بمن فيهم البياع، أما مجد الدين فلم يعد قادراً على النظر إلى المصحف، فأدخله إلى جيبه وتذكر زهرة وكيف يقترب موعد وضعها، هل يعطيه الله الولد هذه المرة، وحرر أن تلد في القرية حتى لو لم يسافر معها، فقط هو لا يقدر على فراقها الآن لكنه سيقدر حين يقترب أكثر موعد الوضع. وسكت الجميع وقال البياع:

ـ يا حمزة. أنا أيضاً كنت أتمنى أن ينتصر جرازياني مثلك، أنا أكره تشرشل...

كانوا نسوا الحديث الذي جرى منذ قليل فأعاده البياع من جديد، وإذا بحمزة يقول في انبساط واطمئنان لجانب البياع:

ـ أنا أيضاً أكرهه. تشرشل بالذات. أنا أعرف أنك قابلته يا أسطى حين زار مصر سنة ستة وثلاثين، أنا أيضاً قابلته ولم يعجبني كلامه. هجاص.

ضحك على النحاس باشا وخلاه مضى على معاهدة فالصو.

وحطّ الصمت المنذر فوقهم جميعاً، فما يقوله حمزة لا أساس له من الصحة لكنهم فوجئوا بالبياع يقول:

ـ كلامك صحيح يا بهلوان.

ولم يستطع دميان أن يكتم ضحكه، فانطلق بعده العمال يضحكون، أما الأسطى غبريال فقد ابتسم لنفسه وكذلك فعل مجد الدين. وقال حمزة للبياع:

ـ شوف يا أسطى بياع، بيرم التونسي قال إيه عن تشرشل والنحاس سنة ستة وثلاثين.

«إن كان سير أوستن تشامبرلين راجل طماع.
عايز يضيّع لنا ثروت في لعبة، ضاع.
يكون في علم الفخامة إننا قاعدين،
فاضيين لجر المشاكل كلنا صيّاع»

ونظر الجميع إلى بعضهم في ذهول، يريدون أن ينطلقوا في الضحك ولا يستطيعون. لكن دميان انفجر مغتاظاً وقال وهو يكتم الضحكة:

ـ شامبرلين إيه وثروت مين يا رجل يا بكاش أنت. الكلام دا كان واحنا شباب. وإيش جاب تشرشل لشامبرلين وثروت للنحاس..

لكن حمزة لم يرد، لم يكلف نفسه عناء النظر إليه. نظر إلى البياع وفي عينيه انكسار، وانتظر الجميع رد البياع الذي قال بهدوء:

ـ كلامك صحيح كله يا بهلوان، كانت أيام.

ولم يُسمع بعد ذلك غير صوت الرعد وصوت زخات المطر الذي استمر حتى المساء. لقد كفّ المطر قليلاً كأنما ليمنحهم الفرصة في العودة إلى بيوتهم، وخرجوا من العربات والسبنسات كأفراخ صغيرة

ترتعش من البرد. قرروا أن يتركوا كل شيء في مكانه حتى الصباح لكن ظهر قطاران طويلان محملان بالجنود البيض والسود والهنود يتحركان على مهل خلف بعضهما. اصطف العمال على الجانبين، وارتفعت الأصوات المعتادة. ويلكم جوني. ويلكم إنديان، جود إنجليش. نو جود جيرماني. وسمعت ضحكات الجنود من خلف النوافذ المفتوحة ومن أبواب العربات. لقد ألقى الجنود كثيراً من معلبات التونة والسلمون والبلوبيف والجبن وكثيراً من الشيكولاتة وعلب الشاي وكراتين البسكويت تلك الليلة، وانفرط نظام العمال فصاروا يجرون جوار القطار بلا نظام. كان مجد الدين قد قنع بما ألقاه الجنود جواره فلم يجر، وكذلك فعل دميان الذي كانت عيناه على حمزة الذي كان قصره يجعل شكله مضحكاً، وهو يقترب من سلم عربات القطار رافعاً ذراعه إلى الجندي الأفريقي أو الهندي أو الإنجليزي فلا يطول ما يقدمه له من معلبات مما يضطر الجندي للنزول درجة بالسلم. يتناول حمزة ما يعطيه له ويضعه على الأرض وبسرعة يتابع عربة أخرى وجندياً آخر. حمزة يعرف أن لا اعتداء لأحد منهم على ما يفوز به الآخر، وأنهم لولا الظلام الهابط لكانوا اقتسموا غنائهم بالعدل. لقد كان حمزة نشيطاً للغاية ذلك المساء. ورآه دميان يمد يده لجندي أفريقي يترك فجأة علبة البسكويت التي في يد ويمسك بيد حمزة وبحركة واحدة يرفعه إليه على سلم العربة ثم يدفعه ليدخل. صرخ دميان: حمزة. ولم يسمعه أحد. انتهى مرور القطارين وراح العمال يجمعون غنائمهم وبقيت غنائم حمزة ملقاة فوق الأرض. وهتف دميان:

ـ لقد رأيت الجندي الأفريقي يحمل حمزة إلى العربة.

ضحك العمال وقال البياع:

ـ حمزة بهلوان سينزل أمام سكن المصلحة بالتأكيد، اجمعوا حاجاته

واحملوها إلى بيته.

لكن دميان الذي اقترب جداً من مجد الدين كان يشعر بشيء آخر فهمه مجد الدين ولا يريد أن يصدقه.

* * *

«قلوب العاشقين لها عيون

ترى ما لا يراه الناظرون»

18

ترعة المحمودية هي التي خلقت الإسكندرية في العصور الحديثة. أصدر محمد علي باشا أوامره السنية بحفرها عام ألف وثمانمائة وتسعة عشر، وأمر حكام الجهات المختلفة بجمع الفلاحين للعمل، فكان الحكام يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم من المراكب فيموت منهم كثيرون من التعب والجوع، فيدفن من يموت مكانه، يهيلون عليه التراب ويمشون، كثيرون منهم دفنوا وهم أحياء أصابهم الإعياء فأمر حكام الجهات بدفنهم، فوارت الأرض أجساداً تركت أرواحها وأجساداً بها أرواح، وبلغ الموتى والقتلى في العام الواحد عشرة آلاف. لقد استمر حفر الترعة واحداً وعشرين سنة، فمات وقتل أكثر من مائتي ألف ولم يقلّ العدد المستخدم في حفرها دائماً عن أربعمائة ألف، وجرت السفن في الترعة فوق مائتي ألف حكاية، بعدد الموتى، وربما حكايات أكثر، وانتقلت هذه الحكايات كلها إلى الإسكندرية حيث مصب الترعة في الميناء. هل تحتاج أمة من الأمم إلى أكثر من مائتي ألف قتيل ليتكون عندها تاريخ من الأساطير والأشباح والجنون والعفاريت. لقد ازدهرت الإسكندرية بحركة النقل بين الميناء والدلتا والصعيد، وازداد سكان

المدينة إلى ستين ألفاً، واستمرت المدينة في الازدهار والناس في الازدياد والمحمودية مستودع الأسرار.

المحمودية بالنهار طريق السفن والبضائع ومراسي للعمل، وفي الأصائل نهر للفسحة والمرح فوق الفلائك الشراعية الصغيرة، وغير الشرعية. وبالليل لصوص ومهربون يهاجمون السفن خلسة يسرقون ما يستطيعون حمله، وحملات بوليسية عليهم فيدوي الرصاص ليلة وأخرى، والآن ازدادت حوادث السرقة بسبب الظلام الذي شمل البلاد. والمحمودية أيضاً بالليل مثوى للجثث، للقتلى بحق وبدون حق يأتون في أجولة مغلقة من الريف ولا يصلون إلى الميناء أبداً. دائماً الأجولة تصطدم بالقواعد الأسمنتية تحت الكباري وتتوقف. عادة لا يفطن إليها أحد إلا عند الظهيرة وفي العصر. في الصباح يكون ذهن المارة مركزاً في العمل، وفي العصر يبدأ المرح فوق المياه وتزداد حركة الفلائك الصغيرة. وهكذا لا يمر شهر إلا ويتم اكتشاف جثة. لكن من النادر اكتشاف ثلاث جثث متتابعة كما حدث هذه الأيام. دائماً هي جثث نساء وفتيات.

لم يكن شيء من ذلك في ذهن رشدي حين قابل كاميليا، واقترح عليها أن يقطعا معاً نزهة بالمحمودية في الصباح على عكس كل العشاق. تحب منه دائماً هذه المخالفة لكنها انكمشت خوفاً أن يطلب منها بدء الرحلة من كرموز، ورأته يبتسم ويقول: سنبدأ من النزهة بعيداً بعيداً عن كل العمران. عادة تكون النزهة هي آخر إبحار الفلائك ومنها يعود الجميع إلى الغرب، لكنهما سيستأجران زورقاً صغيراً، ويستمران في الرحلة إلى الشرق حيث لا يوجد أحد، لا يوجد غير أراض زراعية وفلاحين في الحقول. لا مباني ولا عمال ولا أحد يمكن أن يكون قريباً لأهلها أو لأهله.

كان الجو صحواً كما يريده العشاق، هطل مطر خفيف وهما ينزلان

من الترام في محطتها الأخيرة هناك لم يستمر غير ثوان. مشياً بين أشجار الكافور الضخمة المتعانقة في الفضاء، والتي يتراقص ظل أوراقها دوائر صغيرة بسرعة فوق الأرض. أخذ بيدها نازلاً الدرجات الثلاث إلى مرسى الفلائك الملونة. شباب كثير وبنات كانوا قد فكروا التفكير نفسه فيما يبدو ذلك اليوم.

ـ أرأيتِ ها نحن لسنا وحدنا، أغلبهم أكثر شجاعة منا إذ سيأخذون الطريق إلى راغب وكرموز.

قالت باسمة:

ـ فلنكن جبناء اليوم. اليوم فقط.

جلست أمامه في الفلوكة الضيقة الانسيابية وجلس أمامها ممسكاً بالمجدافين، وبدأ يجدف. ومن جديد هطل المطر الذي أربكهما لكنه كان خفيفاً ومنعشاً وسرعان ما انتهى.

ـ ما رأيك أن نسبق الجميع؟ نريد أن نكون لوحدنا. جدفي معي.

مدّت يدها وأمسكت بالمجدافين معاً. وضع كفيه على كفيها فانتقلت إليه حرارتها وراحا يجدفان بسرعة. تألمت من ضغطه وتململت أصابعها فأبعد يديه قليلاً عن يديها لكنهما ظلا معاً يجدفان ويضحكان.

المحمودية بعد «النزهة» يرتفع الهيش والحشيش على جوانبها من الإهمال. كانت العصافير تطير من الهيش وهما يضربان بالمجدافين. لقد صارا وحدهما الآن حقاً. . تترامى على الناحيتين حقول واسعة مزروعة بالخضر وعلى حواف الترعة بدأت تظهر أشجار كافور وكازورينا وخروع وصفصاف منسدلة جدائلها. شعر العروسة. قال لها رشدي: إنه هكذا تسمى هذه الشجرة التي قرأت عنها كاميليا ولم يسبق لها أن رأتها.

بالحقول كان ثمة فلاحون قليلون. رجال ونساء وأطفال يتفرقون على

مساحات واسعة. وساقية واحدة هي التي صادفتهم حتى الآن وأشجار جميز متفرقة وسنديانة شامخة تقف وسط الحقول.

ـ لقد ابتعدنا كثيراً يا رشدي.

ونظرت في ساعتها وقالت:

ـ مضت ساعتان الآن، ونحن نجدف، لقد استأجرنا الفلوكة ساعة واحدة.

ـ لا عليك، معي خمسون قرشاً هي مصروفي الشهري سأنفقها كلها اليوم.

كانا قد توقفا عن التجديف ووقفت الفلوكة وسط المحمودية وحملها تيار خفيف منحرفاً بها حتى اصطدمت بالشاطىء وركنت عليه.

ـ يمكن لنا أن ننزل، لا تخافي فلن تتحرك الفلوكة.

قال ذلك ووقف فاهتزّت الفلوكة تحته وكاد يقع لولا أن تماسك وضحكت هي. لقد مضى وقت طويل حقاً حتى إنه فرد ساقيه بصعوبة، وقفت هي أيضاً وقد ناولته يدها واهتزت الفلوكة من جديد لكنه كان يقف بالبر الآن فساعدها على ترك الفلوكة، وجذبها إلى أعلى فوقفا على شفا مساحة هائلة من الحقول الخضراء وفوقهما الشمس حانية.

ـ يا للروعة. ماذا يحتاج الإنسان من الآلهة أكثر من ذلك؟

هتف وهو يفرد ذراعيه على اتساعهما ثم قال:

ـ هيا نجري.

وجرى من أمامها وجرت خلفه، ولم يتوقف عن الجري إلا بعد أن أحس بأنفاسها متعبة فانهار فوق الأرض تحت جميزة كبيرة ومد ساقيه مستنداً بظهره على جذع الشجر وانهارت هي إلى جواره جالسة على نفس الطريقة.

كانا يتنفسان بسرعة وكانت ساقاها تبدوان لامعتين فوق جوربيها الأبيضين القصيرين، وظهرت بدايات ركبتيها فوضعت حقيبتها الجلدية عليهما. رفع ذراعه اليسرى وأحاطها وجذبها إليه فاختفت في صدره هو النحيل الهش.

ـ هذا أصلح مكان في العالم للجنون.

جفلت إذ توجست من كلامه وابتعدت بصدرها عنه لكنه قال:

ـ لا تخافي مني أبداً، فقط أحسست أنني سأموت بين يديك.

عاد للكلام العجيب، وسمعت صوت غراب فانزعجت. فقال لها: إن هذا الغراب مسكين، هو الذي أرشد البشرية إلى أعظم سر، سر الدفن، وهو أكثر الطيور لعنة، وسألها:

ـ هل قرأت مسرحية «أنتيجون» لسوفوكليس؟

ـ قرأتها في الصيف الماضي في برنامج القراءة بالإجازة.

ـ هل فعلت أنتيجون غير أن وارت جسد أخيها التراب، دفنته. لا كرامة للإنسانية دون دفن موتاها.

سكتت لحظات وقالت:

ـ هل جئت بي لتحدثني عن الموت؟

ضحك. وقال:

ـ المشكلة أن قراءاتي كلها في الأدب. لم أصادف القصة المضحكة بعد. إذا صادفتيها أخبريني.

ونهض واقفاً.

ـ لا تتحركي. سأقرأ لك شعراً مجنوناً عبقرياً اليوم.

وأخرج من حقيبته كراسة صغيرة.

ـ لقد ترجمته لك هذا الأسبوع.

وراح يقرأ بصوت تمثيلي:

«أيتها الساعة. يا إلهاً مشؤوماً جباراً
يا من يهددنا ويقول لنا «تذكر
إن إرتعاشات قلبك المرعب
بالجوى،
ستنغرز قريباً في هدف»
«ستهرب المتعة نحو الأفق
مثل طرقة ضيقة إلى الكواليس
فكل لحظة تفترس من متعتك
التي أعطيت لك طول عمرك»
«ثلاثة آلاف وستمائة مرة في الساعة تهمس
الثانية «تذكر! ـ بصوتها الذي يشبه دبيب الحشرات
تقول اللحظة: أنا الماضي
رطبت حياتك بترياقي الكريه»
«عما قريب تحل الساعة التي فيها
يقول لك كل شيء. متى أيها
الجبان الهرم. فات الأوان»

كانت معجبة بأدائه ورعونته. بعينيه المسبلتين الحزينتين دائماً. بهشاشته وسط الفراغ الأبيض الكبير، والأرض الخضراء العظيمة. هذا الكائن الرقيق جداً الذي يمكن أن يحمله الهواء مثل ريشة يطيره فلا يعود، هو نفسه الذي يخضع له كل هذا الفضاء وكل هذه الخضرة. إنه

السيد الذي صنعته الآلهة ولم تدر أنه سيكون عاصياً يفكر دائماً أن يلعب دورها، وسيكون هذا أيضاً سر عذابه السرمدي..

مدّ يده آخذاً يدها فتركت حقيبتها جوار حقيبته ووقفت. أسندها على جزع الشجرة التي كانت ثلاثة طيور من أبي قردان قد طارت منها حين ارتفع صوته بالشعر.. اقتربت منه وراح يقبل عنقها وهي تقاوم خفيفاً وهو يقول:

ـ معذرة، أنا لا أعرف ما الذي يجعلني أتحدث عن الموت اليوم حقاً؟.

ـ كفى.

قالت بهدوء وهي تضع يدها على كتفه. لقد تعود ذلك منها. وتعودت هي أن يستجيب. قال وقد أخذ يدها في يده يمشيان على هامش الحقول.

ـ أعجبني أن يكتب شاعر عن ساعة الحائط. القصيدة لبودلير اسمها l'horloge ولم أعرف أنها سوداء إلا بعد أن مضيت فيها. لم أتراجع. في المرة القادمة سأترجم لك قصائد بيضاء بل سأترجم لك قصائد مجنونة من رامبو وفيرلين.

لم ترد. ومشيا صامتين. وظهر فلاح وزوجته وطفلان خارجين من كوخ راحوا ينظرون إليهما بدهشة. لم يسبق لهم أن رأوا أحداً نظيفاً وصغيراً وجميلاً هكذا.

ـ لا تخشي شيئاً، لا تتحدثي إليهم.

قال ذلك وأمسك بيدها بقوة. وما إن وصل إلى الفلاح وأسرته حتى قال «السلام عليكم» فرد الجميع بسرعة «وعليكم السلام. اتفضلوا» وابتسم وابتسمت هي وعادا إلى الشجرة بينما ظل الفلاح وأسرته

يشبعونهما بنظرات الدهشة. كانت نظافة الجو أيضاً ورقة النسيم تضيف إلى بهائهما بهاءً، وسمعا صوت الفلاحة تقول: «يا حلاوة على أولاد البندر» فارتفعت ضحكاتهما، وأسرعا إلى الشجرة. لا بد أنهما ابتعدا بالفلوكة كثيراً مما جعل المرأة تعتبرهما من البندر. لقد دخلا إذن في الريف العميق. أو هكذا خيل لهما، ورفع رشدي وجهه إلى السماء فوجد الشمس قد تجاوزت منتصفها.

قال في نفسه «الساعة دائماً». وأخذ بيدها إلى الفلوكة التي لم تبرح مكانها وجلسا قبالة بعضهما بينهما طرفا المجدافين، وبدأ هو يجدف.

ما كاد ينتصف الترعة حتى مدت يديها فوق يديه قائلة:

ـ سأساعدك.

وابتسمت. اشتعلت الدنيا بالضياء أكثر، اهتزّ الفضاء. أي سعادة حباه الله بها، كيف تجرأ ذلك اليوم الذي تسابقت فيه المدرستان، وكيف انتهت الجرأة إلى ما هو أكثر من الحقيقة. إن جسمه يرتعش. يحتاج أن يدخل فيها دخولاً لا عودة منه. يحتاج أن يمزقها إلى كل ناحية. يفنيها فيه ويفنى فيها. من يصدق أن هذه تجربة الحب الأولى له. بدأت بسرعة لا معقولة مع فتاة لا معقولة في بساطتها وجمالها وديانتها أيضاً. من يتذكر الديانات الآن؟ إنها تضحك والشمس خلفها تضيء الدنيا حول جسدها الدقيق. في المرة القادمة سيختار مكاناً أبعد. لن يستمع إلى ندائها الهادىء وهي تقول مرتجفة «كفى» سيتوغل أكثر «إنها فتاة جميلة ثرية العنق تترك شعرها يتسكع في خمرة بشرتها. إنها تمشي كالملوك وتجلس كالسلاطين وتدعو بعينيها الجنس البشري للانفجار، للذوبان بين ذراعيها المفتوحتين ونهديها المكتنزتين. إن جمال جسمها هبة إلهية».

ـ ماذا تقول؟

ـ أتذكر شعراً جميلاً، لكن للأسف لا يبدو أنني سأرى فرنسا.

ـ كنت أتقدم في اللغة الفرنسية كثيراً فجئت أنت وعطلت كل شيء.

ـ هل كنت ستواصلين؟

ـ أجل. لقد جعلتني أحب فرنسا.

ـ لكننا للأسف لن نراها.

ـ لا تكن متشائماً. الحرب لا بد ستنتهي قريباً. ولدينا الوقت الكافي.

سكت قليلاً ثم قال:

ـ هل تظنين ذلك؟

ابتسمت ولم ترد. كان هناك مركب شراعية قادمة من بعيد محملة بالأجولة وفوقها بعض النوتية من الجنوب بجلابيبهم الزرقاء والرمادية. قال:

ـ إنهم يقطعون رحلة كبيرة من الجنوب إلى الشمال.

ابتسمت أكثر وقالت:

ـ هل تعرف أنني صعيدية؟

ـ صعيدية بيضاء. لا بد أنك صعيدية من الجنة. هل تعرفين الأغنية التي تقول: «في الأصل أنت حورية، سهيتي رضوان وفتحتي الفردوس».

ـ أسمعها كثيراً وأضحك. أستمع أيضاً إلى عبد الوهاب وأحبه وسيد درويش وأحبه، وأمس بالليل كانت هناك سهرة لسيد درويش بكيت فيها.

نظر إليها ملياً وقال:

ـ لما غنى «والله تستاهل يا قلبي، ليه تميل للحب ليه».

ـ كيف عرفت؟

ـ استمعت إليها. إسمعي.

وراح يغني لها وهي تضحك من صوته الأجش، وكانت قد حاذتهم

مركب شراعية صغيرة يقف أحد النوتية على سطحها يراقبهما مبتسماً. سمع غناء رشدي فإذا به ينشد متوجهاً إليهما:

«يا ريس البحر خذني معاك أحسن لي
أتعلم الكار قبل العار ما يحصل لي
وأترك بلادي وأعيش في الغربة أحسن لي
أنا بامسيّ عليكم صبح وعصاري
ياللي هواكم صحن جسمي وعصّاري
بابص بعيني لقيت الريح عالصاري
سبت المداري وقلت البر أحسن لي»

ابتسم رشدي، وهتف له يسأله ما إذا كان يحب أن يسمع موالاً إسكندرانياً. فقال النوتي الصعيدي «يا ريت» سكت رشدي قليلاً وكاميليا مبتسمة لا تصدق ما يحدث وتشعر بانتشاء جميل من جنون حبيبها الفائق.

وأنشد رشدي:

عيني رأت غليون في وسط البحور شاحط
ريسه جدع يا خسارة دفته راحت
قبطانه يا عيني اتعمى والميه عليه ساحت
حتى الشراع انقطع، فيه حتى طيبة راحت.

مدت كاميليا يدها تلكزه في كتفه برفق مندهشة، ثم صفقت في إعجاب فإذا بالنوتي ينشد:

غزالين كووني بنارهم والعقول ألباب
راكبين هجين حلو والهجين الباب
الأم شمس الضحى والبدر هو الباب
والقلب دار المحبة والعيون ألباب

انطلق رشدي ضاحكاً وبدأ يسرع بالفلوكة وقال للنوتي:

ـ لكن إحنا راكبين سفينة؟

قال النوتي على الفور:

ـ والسفن ألباب!

ففهم رشدي وراح يشرح لكاميليا التي اندهشت جداً من المعاني العميقة للكلام وكان آخر ما هتف به النوتي إليهما: «أوعو تلوموا المجروح إذا لا لا».

ثم فجأة أربد وجهها وأشارت إلى الماء وصرخت واقفة فاهتزّت الفلوكة وكادت تقع فوقف رشدي بسرعة وأمسك بذراعيها وهي تصرخ في هستيرية شديدة:

ـ لا تخافي. لا تخافي. أغمضي عينيك. أغمضي عينيك.

أغمضت عينيها وخطا إليها خطوة وأخذها في حضنه والفلوكة لا تكف عن الاهتزاز ثم جلس بحيث يكون هو من الداخل وهي من ناحية الشاطىء. وأجلسها جواره، وأمسك بالمجدافين وراح يجدف بسرعة مذهلة.

ـ لا تنظري للترعة. انظري إلى الشاطىء.

كان بالماء جوال منتفخ تخرج من فتحة صغيرة فيه يد بشرية زرقاء ضاربة إلى الحمرة، بها خاتم يلمع تحت الشمس. يد صغيرة رقيقة لفتاة أو امرأة.. لم يستطع هو أيضاً النظر إلى الجوال العائم وراح ينظر إلى الأمام مجدفاً بجنون ليبتعد أكثر ما يمكن. حين وصل إلى موقف الفلائك بالنزهة كان يتخيل أنها في وعيها ومرتكنة إلى جانبه تنظر ناحية الشاطىء، وهو في جنونه في التجديف لم ينظر إليها. عند الموقف ما كاد يقف حتى سقطت على جانبها مكان جلوسه. كانت فاقدة الوعي طوال الطريق

وهو لا يدري. لقد احتاجت دقائق كي تفيق إذ وجد عشرات الفتيات يقدمن إليه زجاجات كولونيا وبارفانات رخيصة، لكنها احتاجت لساعة من الراحة قبل أن تستطيع الوقوف والعودة معه إلى البيت.. لقد تجاوزت ذلك اليوم كل المواعيد الممكنة لفتاة مثلها، وكانت في البيت نار تتقد في انتظارها. كانت المدرسة قد أرسلت خطاباً إلى والدها تخبره بغيابها المتكرر، وكانت إيفون قد وقفت عاجزة عن الكذب أمام والديها وحكت القصة كلها وهي تبكي وتنتفض.

* * *

«بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين تباح»

19

ابتدأ هجوم الربيع في أوروبا. بدأ الجليد يذوب من فوق الجبال وانداح الضباب من فوق الأرض فاشتعلت النار وحطّ الدمار ببرلين وهامبورج من الغارات البريطانية، واشتعلت المدن الإنجليزية بدورها من الغارات الألمانية التي أخذت تنفذ خطتها الجديدة (التجوال على الموانىء)، فتعرضت موانىء بريطانيا لغارات كثيفة استمرت بعضها ثلاث ليال متوالية كما حدث في بورتسماوث ومانشستر، وقتل في كل غارة وجرح أكثر من ألفي مواطن، وفي الوقت نفسه أخذت الغواصات الألمانية تطبق أسلوبها الجديد (جماعات الذئاب) فصارت كل جماعة من الغواصات تشترك في هجوم واحد في وقت واحد على فريسة واحدة فتقضي عليها في الحال. لقد كان «برايان» أشهر قائدي الغواصات الألمان وغيره من القادة يطبقون هذا الأسلوب المرعب الذي اخترعه الألمان في البداية خلال الحرب العالمية السابقة. لكن برايان ورجال الغواصة (يو 47) غرقوا جميعاً بواسطة المدمرة البريطانية وولفرين، كذلك تم تدمير الغواصة (يو 99) والغواصة (يو 100) الألمانيتين في قتال شديد وكان قائداها مع برايان السابق يشكلون أهم قادة البحرية الألمانية فتأثر بذلك

هجوم الغواصات الألماني وإن ظلت الطائرات (فوكاد ولف 200) أو (الكوندور) كما هو اسمها الشائع تقوم بدورها الأكثر فتكاً من الغواصات إذ كانت تدخل إلى مسافات بعيدة بالمحيط بحثاً عن السفن البريطانية وتغرقها. وبدأت أميركا تصدر معدات حربية بالفعل إلى إنجلترا وفق قانون الإعارة والتأجير فقدمت إليها خمساً وسبعين مدمرة وأسطولاً من الزوارق في وقت واحد، وخطب روزفلت في الشعب الأميركي معلناً أنه ليس من حق عنصر أن يسود على عنصر آخر، ولا أن تستبعد أمةٌ أمةً أخرى، وحدثت غارات ثقيلة على القاهرة والجيزة فلم يعد السكندريون ينفردون بالغارات الثقيلة وحدهم، وحملت القطارات أعداداً كبيرة من الجنود الهنود القادمين من بلادهم بالسفن حتى ميناء السويس. كانوا في معظمهم شباباً تحت العشرين فرحين بملابس الحرب وعدة المقاتلين غير مدركين معنى الموت بعيداً عن بلادهم، وعرضت سينما مترو بالقاهرة فيلم: «ثورة على السفينة بونتي» لكلارك جيبل وتشارلز لوتون، كما عرضت سينما ستوديو مصر بالقاهرة فيلم «انتصار الشباب» لفريد الأطرش وأخته الحسناء أسمهان، واستمرت شكوى الناس بالإسكندرية من الدقيق المخلوط واكتشف الشباب في كرموز وغيره من الأحياء الوطنية أن هناك عربات عسكرية صغيرة تجوب الشوارع بالليل أثناء الغارات وتطلق قذائفها على الطائرات المغيرة من مدافع مضادة مثبتة فوقها وأن هذه العربات التي تجوب الأحياء الوطنية أثناء الغارات هي سبب تركز الغارات على هذه الأحياء وأن هدف العربات هكذا هو تشتيت انتباه الطائرات بعيداً عن المعسكرات الإنجليزية بالضواحي كذلك بعيداً عن الميناء حيث تقف الزوارق والمدمرات البريطانية وما كان موجوداً من الأسطول الفرنسي قبل استسلام حكومة فيشي واستولى عليه البريطانيون بعد ذلك بلا قتال. تكونت جماعات وطنية من الشباب لمطاردة هذه العربات بقنابل المولوتوف في البداية ثم بالقنابل اليدوية مما أثر في ظهورها أثناء الغارات

ثم اختفائها تماماً، وبعدها قلّت الغارات على قلب الإسكندرية وصارت هناك في ضاحية الدخيلة والمكس غرباً أو في سيدي بشر وباكوس شرقاً، وساهم في ندرة الغارات الآن انكسار جرازياني الذي انهار جيشه تماماً والذي كان انهياره أكبر من إمكانية إخفائه مما جعل الدوتشي يخطب معترفاً بالهزيمة «نحن لا نكذب مثل البريطانيين فقد أُكتسح جيش برمته هو الجيش الخامس مع جميع وحداته تقريباً ومُحيت القوة الخامسة الجوية محواً تاماً تقريباً ولكنا قاومنا ما استطعنا مقاومة شديدة وفي بعض الأحيان مقاومة عنيفة» وسقطت مقديشيو عاصمة الصومال الإيطالي في يد البريطانيين ثم سقطت بربرة عاصمة الصومال البريطاني وأقيل جرازياني من جميع مناصبه كما أقيل الجنرال كافاليرو من القيادة العامة بألبانيا بعد انتصارات اليونانيين الكاسحة وتمّ تعيين الجنرال جاريبالدي بليبيا، وهدّدت بريطانيا بلغاريا إذا ما تخلت عن حيادها، والألمان يضغطون بالحشود على حدودها، ونزل بعض المظليين البريطانيين جنوب إيطاليا كما تمّ ضرب جنوا من البحر لكن تمّ القبض على المظليين الإنجليز، وزار الملك إدريس السنوسي في جبته الأزهرية وبلحيته التي تستدير حول وجهه معسكر الأورط الليبي المؤلف من اللاجئين الليبيين في مصر وأذيع في ليبيا منشور الحاكم العام الإنجليزي الجديد (أنا هنري ميتلاند ولسون القائد العام للقوات البريطانية في ليبيا أعلن بموجب هذا إنذار جميع السكان في المنطقة التي كانت تحت الحكم الإيطالي سابقاً أن يكفوا عن كل عمل يسبب تعكير الأمن العام) ودخل هيلا سيلاسي أثيوبيا وخطب في شعبه مهنئاً إياه على الانتصار، واستضافت الباخرة النيلية (بيوريتان) الطيارين من سلاح الجو الملكي الإنجليزي العائدين من ميادين القتال لمدة ليلة واحدة بمرساها بالجزيرة في القاهرة ورقصت في السهرة راقصة مصر والشرق حكمت فهمي وغنى عباس البليدي ومحمد أمين وعقيلة راتب، وأقيمت حفلة خيرية بسينما استوديو مصر لتدعيم الهلال الأحمر

والصليب الأحمر المصريين حضرتها سمو الملكة نازلي وسمو الأميرة فايزة في المقصورة الملكية، وكشف النقاب عن اسم قائد الفرقة المدرعة التي قامت بالهجوم الخاطف على سيدي براني في ديسمبر الماضي فأوقع الاضطراب في صفوف الإيطاليين هزمهم، إنه الميجور جنرال ميشيل أومور كريج، وانضمت يوغسلافيا إلى المحور لكن اندلعت فيها المظاهرات وحدث بها انقلاب أودى بالنظام الملكي وأعلن حياد يوغسلافيا ومن إحصاء عدد الطائرات الإيطالية التي فُقدت تبين أنه في شهر واحد هو فبراير الماضي فقدت إيطاليا ثلاثمائة وأربعاً وستين طائرة، واحتفل يوسف وهبي بافتتاح مسرح رمسيس بمسرحية (المجنون) بمناسبة مرور تسعة عشر عاماً على قيام مسرح رمسيس وشاركته التمثيل السيدة البارعة روز اليوسف وحضر إيدن وزير خارجية بريطانيا إلى مصر وقابل الزعماء المصريين وكذلك قابل الجيش الثامن، وأعلن الأسطى غبريال في العمل عن حاجة المصلحة إلى عاملين يعملان على مزلقان العلمين. لقد استدعى إلى الإدارة صباح اليوم وتمّ تكليفه بإنجاز المهمة، وسيكون ذلك خلال شهر من الآن «فعلى من يرغب في الذهاب أن يتقدم إليّ لأنقل اسمه إلى الإدارة» ثم قال «أنا أعرف أنكم جميعاً متزوجون ولديكم أولاد ولا تحبون التغرب لأوقات طويلة لكن أمامكم وقت لتفكروا وأرجو أن أجد بينكم من يوافق طواعية لأني إذا لم يتحقق ذلك سأختار بنفسي واختياري نهائي كما أبلغت» وأحس مجد الدين ودميان أنه قد ينتهي الأمر إليهما، إذا لم يتقدم أحد فلا بد أن غبريال سيختارهما لتخفيف الضرر قدر الإمكان فهما على الأقل جديدان هنا. وبدأ غفارة يهجر غيط العنب وكرموز بعد أن خلت معظم البيوت من سكانها، وراح يعمل بعربته في أحياء غبريال وبوالينو ومحرم بك كل يوم منذ الصباح الباكر، لكنه يعود منتصف الليل يائساً متعباً فمحصوله ضئيل يكفي بالكاد نفقات عليقة الحمار، كما سقطت قطعة زجاج من القطعتين اللتين تغطيان عينه ولم

يضع بدلاً منها، أما زهرة فقد ارتفع بطنها كثيراً، فهذا هو شهرها السابع يكاد ينتهي ولم يعد الجلوس مع أم حميدو مشجعاً كيف حقاً تجلس امرأة حامل في مدخل بيت أمام الرصيف، لذلك حرمت من حكاياتها في وقت هي أحوج ما تكون إليها، فمن ناحية صار باب حجرة الست مريم لا يفتح إلا لدخول أحد أو خروجه، وبدا أن الأسرة كلها لا ترغب في الحديث مع أحد، وصار حضور القسيس كثيراً، كل يوم تقريباً الآن، وزهرة تسمع دائماً همهمة وشجاراً مكتوماً وأنيناً خافتاً وأحياناً بكاء صامتاً ولا تعرف ماذا تفعل مع الأسرة الطيبة التي بدا فجأة أنها لا تريد الحديث مع أحد. وأم حميدو أيضاً كانت حاجتها إلى زهرة أكثر هذه الأيام، فحميدو، ابنها الوحيد، تم اعتقاله ونقل إلى جبل الطور مع المجرمين الذين يهددون الأمن وسلامة البلاد زمن الحرب، والسكان القليلون الباقون في الشارع شملهم الحزن، يأتي الواحد أو الواحدة لشراء ما يريده من خضر أو فاكهة صامتاً ويمضي صامتاً لا يرفع عينيه عن الأرض كأنه يحمل جبلاً من العار، والحقيقة أن الإحساس بالفراغ المحيط من ناحية، وتوقع الموت تحت الغارات في أي لحظة يجعلان الإنسان رقيقاً كشعاع من أثير، ولم يبق لأم حميدو غير مورّد الخضر الذي يمر عليها عند الفجر كل يوم قادماً من الوكالة بعربته التي يجرها حصان قوي، أما جندي الجيش المرابط الذي كان يغني لها ويعرض عليها الزواج فقد نقل إلى دمنهور. وقالت زهرة لمجد الدين:

ـ عاد القسيس يظهر من جديد كل يوم الآن. لا أرى أياً من البنتين. لا أعرف متى يخرجان في الصباح. إنهما تتسللان بلا صوت فيما يبدو حتى لا أراهما والست مريم لا تفتح بابها طوال النهار.

وفوجئت بمجد الدين يقول لها:

ـ أنا أيضاً قابلت ديمتري أكثر من مرة على السلم فلم يقف للحديث

معي. اكتفى بالتحية ولم يبد أنه يريد الكلام. اليوم سألني بأدب ما إذا كنت أستطيع الانتقال إلى غرفة البهي أسفل، لكني أحسست أنه يطلب مني مغادرة البيت.

ـ البيوت كثيرة وفاضية وألف من يتمنّى أن يؤجر غرفة.

ـ لا. لن نترك البيت. سننزل أسفل. ديمتري في نكبة حقيقية، وهو اليوم لا يريدنا أن نعرف شيئاً عنه، لكن غداً قد يحتاجنا.

واستعان بدميان يساعده على نقل الأثاث القليل إلى غرفة البهي. ما إن دخلتها زهرة وفتحت نافذتها المطلّة على الشارع ورأت أم حميدو أمامها في حلق باب البيت المواجه حتى استأنست. لن تجد هنا الصمت الذي يعشش في الدور الثاني. ستسمع حركة المارة في الشارع وأصوات الأطفال. وأخذ دميان مجد الدين بعد نقل المتاع ومشيا إلى المقهى البعيد على المحمودية عند بائعي الترمس، لقد انقطعا عنها كثيراً الآن. هناك بادره مجد الدين بالسؤال:

ـ لماذا جئت بي إلى هنا يا دميان. لقد كنا نسينا المكان؟

ـ أولاً أنا تقدمت كثيراً في الكتابة والقراءة. بعد أيام سأقرأ الجرنال.

ـ الحمد لله.

ـ ثانياً أحببت أخبرك أن الخواجة ديمتري في أزمة كبيرة.

ـ أدرك ذلك لكني لا أعرف ما هي الأزمة ولا هو يتحدّث إليّ...

سكت دميان قليلاً ثم قال:

ـ أظن أنها أزمة لا يمكن إفشاؤها. إنها تشغل قساوسة الكنيسة أيضاً. لقد سمعت لغطاً في الكنيسة حول الموضوع لكن لم يتأكد لي ما إذا كان الحديث عن ديمتري أم غيره.

وسكتا طويلاً. مجد الدين لا يحب التطفل أو السعي لمعرفة أخبار

الناس. حتى ما يأتي إليه من أسرار الناس لا يحمله، وبالطبع لا يفشيه. إنه يكره النميمة بكل أنواعها. وقال دميان:

ـ هناك كلام يقال عن حب بنت مسيحية لولد مسلم.

اتسعت عينا مجد الدين دهشة. هذه أول مرة في حياته يسمع شيئاً من ذلك، واستمر دميان يتحدث:

ـ هذه مسألة تحدث نادراً يا شيخ مجد، ودائماً تفشل، لكنها تكون قد تسببت في أزمات بالكنيسة والبيت. عندكم في الإسلام لا توجد أي مشكلة في ذلك، عندنا لا.

ـ . . . .

ـ أنا طبعاً لا أعرف هل الموضوع يخص أسرة ديمتري أم غيرها، لكن على أي حال ديمتري في أزمة ستتضح مع الأيام.

عاد مجد الدين إلى البيت واجماً. سألته زهرة عن سر وجومه فلم يجد إلا حمزة ينقذه. قال إنه لم يعد حتى الآن. وكان ذلك حقيقياً. قالت له إنه سبق وقال لها ذلك. قال هناك كلام كثير عن كونه صار أسيراً لدى الألمان. ولم تفكر هي كيف عرف ذلك وهو لم يدر أيضاً كيف ولماذا قال ذلك. لقد شغله اختفاء حمزة الأيام الماضية كما شغل زملاءه في العمل. لقد أبلغ الأسطى غبريال الإدارة التي أبلغت بدورها حكمدارية الإسكندرية التي قالت إنها اتصلت بالقيادة العسكرية للجيش الثامن بمرسى مطروح وأنها تنتظر ما يفيد في الموضوع. ولم ينقطع بكاء زوجة حمزة وبناته الثلاث الصغيرات في بيته في مسكن المصلحة وجاء أهله من رشيد فظهر أنهم ناس موسرون محترمون للغاية، وله ابن عم من الوجهاء يشغل مركزاً كبيراً في حزب الوفد ويتولى هو كل الاتصالات من أجل الوصول إلى خبر عن حمزة المسكين.

في العادة يحط الصمت الحزين على زملاء حمزة في البوسطة بعد أن يتحدثوا عما جرى باستنكار ودهشة، لكن الأمر أيضاً لم يعد يخلُ من دعابة فيقول أحدهم إن حمزة سيعاني من الصمت أكثر من أي شيء آخر لأنه لن يفهم الإنجليزية أو الهندية، لن تسعفه الكلمات القليلة التي يعرفها، ومن ثم لن يجد الفرصة ليقول عما يقوله الجنود إنه رآه أو حدث له قبلهم، ولن يفيده شعر بيرم أو غير بيرم. لكنهم في النهاية يضربون كفاً بكف. من كان يصدق أن ذلك مكتوب ومقدر لحمزة؟ وصاروا حريصين في إقبالهم على قطارات الجنود. لم يعودوا يقتربون منها كثيراً. وفي كثير من الأحيان لم يعودوا يتحدثون إلى الجنود أو يهتموا بالفوز بما كانوا يفوزون به من معلبات وغيره. لقد ظهر لهم أن كل ذلك لا قيمة له أمام اختفاء زميلهم الذي اختطف من بينهم في الظلام. وبالأمس انتحب دميان بشدة، إنه هو ومجد الدين أكثر الناس تأثراً منذ تأكد غياب حمزة صباح اليوم التالي لاختطافه. دميان يشعر بالأسف لأنه كان يعارضه دائماً ويسعد بكشف أكاذيبه اللذيذة، ومجد الدين لأنه أهانه مرة، ولأنه أيضاً فكر في إمكانية اختطافه هو، حمله من يده إلى القطار، والذهاب به إلى الجبهة كما حدث للبهي أخيه في الحرب السابقة، فهل كان يعرف بمصير حمزة ولا يدري، أم لعله السبب بتفكيره المجنون ذاك!؟ لقد كان حمزة مسالماً مع دميان دائماً ورقيقاً مع مجد الدين، وعطوفاً على الأطفال ومحباً للجميع. إنه شخص جدير بالشفقة والحب معاً. وهذا ما يبدو على وجوه الجميع الآن وخاصة شاهين، أطولهم وأقواهم، مفتول العضلات الذي يحمل الفلنكة الواحدة بيد واحدة، وعادة في العمل يحمل الفلنكات اثنتين اثنتين بين ذراعيه. لقد كان أكثرهم وجوماً وغماً. لكنه في الحقيقة كان يعاني من هم آخر، لذلك حين اقترب منه مجد الدين يقول «إن حمزة ذكي ولا بد سيعرف كيف يعود» فوجىء به وقد دمعت عيناه ويقول بصوت خفيض:

ـ أنت رجل طيب يا شيخ مجد تحمل كتاب الله، ليتك تأتي معي تعالج ابني بالقرآن أو تدله على الهداية.

* * *

في ظهيرة اليوم نفسه، كانت إيفون قد عادت ترتعش من المدرسة. ما إن صعدت إلى الشقة حتى نزلت تجري على السلم وأمها خلفها. كانت زهرة عائدة من الخارج. اصطدمت بها إيفون آخر السلم، فتركت نفسها تسقط في حضنها وتصرخ.

ـ كاميليا راحت يا تانت زهرة، كاميليا مش راجعة تاني.

كان قلب البنت الرقيق يرتجف وعيناها تهميان دمعاً، وجسدها كله ينتفض، وظهرت الأم خلفها قوية تفتح عينيها في غيظ وأمسكت بابنتها من ذراعها تشدها.

كانت زهرة قد تركت ما اشترته ليسقط من يدها إلى الأرض وأحاطت إيفون بذراعيها تربت على ظهرها.

ـ اتركي البنت يا ست مريم إحنا بيننا عيش وملح.

ـ زهرة. لا تتدخلي بيننا.

هكذا قالت الست مريم بخشونة حتى إن ذراعي زهرة استرختا وسحبت الأم ابنتها إلى أعلى ودخلت زهرة ذاهلة عما اشترته وسقط منها، وفي حجرتها جلست تبكي بشدة.

* * *

مشى دميان إلى اليمين، ومجد الدين إلى اليسار في صحبة شاهين في اتجاه مسكن المصلحة مع بقية العمال.

كانت هناك غيوم خفيفة في السماء تنذر بمطر قد يتأخر في النزول إلى منتصف الليل. ذلك المطر الذي يفاجيء الإسكندرية بعد أسابيع من

انقضاء الشتاء ولا يشغل من الوقت إلاّ قليلاً، ويتكرر مرة أو مرتين.

شاهين يمشي بهمة فهو قوي واسع الخطوات، مجد الدين يجاريه في المشي بصعوبة. العمال جميعاً، باستثناء دميان طبعاً، كانوا يمشون في اتجاه السكن وبدأوا السير معاً، وبعد قليل انفرط عقدهم. أسرع من أسرع وتأخر من تأخر. كل وطاقته. قال شاهين لمجد الدين وهما يتجاوزان البوابة التي تفصل السكن عن السكة الحديد:

ـ سكن قديم منذ الحرب الأولى كان مخازن ومأوى للقوات الإنجليزية. حقك تتقدم بطلب لتحصل على بيت فيه. في الأيام القادمة سيصل أكثر من عامل إلى نهاية الخدمة.

ـ يحصل إن شاء الله.

قال مجد الدين ذلك بأمل حقيقي. لو فاز ببيت هنا يكون قد أنجز أفضل خطوة له في الإسكندرية. سيخبر دميان ليتقدم بطلب معه. يتفاءل بأن يفعلا كل شيء معاً.

خرجا من الطريق الترابي الضيق فظهرت أمامهما ترعة المحمودية والطريق الموازي لها.

يعرف مجد الدين هذا المكان جيداً منذ أيام البحث عن عمل. كثيراً ما جاء ليعمل في شركة الزيوت والصابون على هذا الجانب بعد السكن بقليل. انحرفا إلى اليسار، جوارهما على اليسار أيضاً نوافذ البيوت الخشبية الصفراء مغلقة. البيوت منخفضة من دور واحد كلها. بعد خطوات دخلا من بوابة السكن ذاتها. لهذه البوابة قديماً كانت ضلفتان من جذوع الأشجار، باب يغلق على الجنود في المساء، الآن ضاعت الضلفتان.

أمام البيوت عشش من الصفيح تضيق مسافة الأزقة، تجعلها بالكاد

تكفي لشخصين، ومن العشش ترتفع رائحة ماعز وغنم وأصوات للماعز والغنم والدجاج أيضاً، دخل به شاهين إلى شارع عريض قصير يتوسط صفين من البيوت على الجانبين لا يظهر غير نوافذها المغلقة إذ أن أبوابها من الناحيتين الأخريين. في نهاية الشارع توقف، بعد أن انحرفا يميناً خطوات أمام باب إحدى العشش.

ـ هذا هو البيت يا شيخ مجد.

وطرق شاهين باب العشة الصفيح. جاء من الداخل ضوء محمول وصوت يسأل عن الطارق، فتحت المرأة حاملة اللمبة السهاري الباب وانحرفت بحيث صارت خلف الضلفة ودخل شاهين وفي أثره مجد الدين. تحرك الدجاج الكائن في ركن العشة، وتحركت عنزة صغيرة في ركن آخر. رفست بأقدامها وهي نائمة على جانبها ودخل شاهين إلى صالة واسعة خالية إلا من حصير وبعض حشايا متفرقة بينها عدة كتب مبعثرة ومنضدة من خشب قديم فوقها كتب بلا نظام وخلفها مقعد قش. ثم دلف شاهين إلى حجرة داخلية كبيرة بها سرير متوسط الارتفاع وكنبة يتمدد فوقها «رشدي» الذي ما إن رأى والده وضيفه حتى اعتدل جالساً. كان يرتدي جلباباً نظيفاً وكانت الجدران مطلية باللون الأزرق السماوي ونظيفة وكان السقف أبيض وتضيء الغرفة لمبة جاز كبيرة (نمرة 10) موضوعة فوق رف على الحائط. قال شاهين:

ـ ابني رشدي يا شيخ مجد ـ ثم خاطب رشدي ـ عمك الشيخ مجد الدين.

لم تدخل المرأة زوج شاهين وأم رشدي. ظلت بالصالة الخارجية تفكر في هذا الشيخ الذي يشع من وجهه النور والسكينة والذي كثيراً ما تحدث شاهين عن تقواه، هل يفلح في علاج ابنها مما دهمه فجأة هكذا.

كان مجد الدين قد جلس جوار رشدي، وكان شاهين قد جلس أيضاً

من الجانب الآخر على الكنبة. ورأى مجد الدين كثيراً من الكتب الصغيرة في أركان الحجرة، ومكتبة خشبية قديمة هزيلة معلقة بالحائط فأدرك أنه أمام شاب مختلف عما توقع، لكنه ابتدأ الكلام. قال:

ـ ما لك يا أستاذ رشدي. ما هي وجيعتك بالضبط؟

ـ هل جئت تعالجني يا سيدنا الشيخ؟

كان رشدي شاحباً شحوب الموت، سكن الحزن العميق عينيه وترك ذقنه لكنها لم تطل كثيراً فهي لا تزيد عن بؤر متفرقة من الشعر لا تلتحم ولا تصل إلى سوالفه، ووجهه خلفها يكاد يشف فيه الجلد عن العظم:

ـ الشافي هو الله يا أستاذ رشدي.

هزّ رشدي رأسه بهدوء وقال:

ـ مهمتك مستحيلة يا سيدنا.

وانفجر في بكاء سرعان ما صار نحيباً فسمع صوت أمه تنتحب في الخارج واحتضنه أبوه وراح يقول:

ـ لا تقتلني يا ابني، لا تقتل أمك، قل لنا ما هي وجيعتك.

استدار رشدي ونظر إلى الشيخ مجد الدين نظرة طويلة وقال:

ـ القرآن لن يشفيني يا سيدنا. لا تؤاخذني. أنا لا أقصد الإهانة. أنا مؤمن شديد الإيمان ومشكلتي هي أن إيماني يتسع لكل الناس، ولكل الأديان، لذلك أحببت فتاة مسيحية. هذه محنتي يا مولانا الشيخ.

غمغم رشدي بحشرجة في محاولة لمنع البكاء. وتأكد لمجد الدين أنه أمام شاب شديد الذكاء. ضرب الأب كفاً بكف أما الأم في الخارج فقد سمع صوتها وهي تقول «الشرّ بره وبعيد. ليه يا ابني تضيع نفسك. تحب كافرة». ولم يستطع مجد الدين أن يقول لرشدي إنه لا يزال صغيراً على الحب، فهو حقاً يبدو هشاً نحيلاً لكنه أيضاً يبدو واسع المعارف صعب

أن يقتنع إلا بما يفهم لذلك ظل مجد الدين صامتاً واستمر رشدي يتكلم.

ـ أنا أعرف مقدار خوف أبي وأمي عليّ. أنا لست مجنوناً ولن أترك الجنون ينال مني. أنا فقط لم أعد أراها منذ عشرة أيام. يخيّل إليّ أن أهلها عرفوا القصة وقتلوها. لم تعد تذهب إلى المدرسة، حتى أختها لا أعرف ما إذا كانت انقطعت هي الأخرى عن الدراسة أم لا لكني أيضاً لا أراها. لقد ذهبت إلى بيتهم ووقفت بالنهار وبالليل فلم أعرف شيئاً ولم يفدني أحد بشيء.

كانت شفتا الولد ترتعشان وهو يتحدث في الضوء الأصفر الشاحب وكانت عيناه تدمعان بلا توقف. هؤلاء الأشقياء بالحب يموتون سريعاً. قال مجد الدين لنفسه وتذكر البهي وأيقن من العاقبة. ومن وجه الغلام الشاحب تشع هالة القداسة التي كانت للبهي. الفارق بينهما هو الفارق بين القرية والمدينة. ابن المدينة يقدم على الحب بذاته. لا يترك نفسه للريح.

ـ ما رأيك يا شيخ مجد؟

تساءل الأب البائس بعد أن وجد الشيخ مجد يصمت طويلاً. تأمّل الشيخ مجد الدين الغلام ومدّ يده إلى كتفه يجذبه إلى صدره فترك الغلام نفسه يرتاح عليه بينما راح مجد الدين يتلو ما استطاع من القرآن، سورة الإخلاص، وألم نشرح لك صدرك والمعوذتين وآية الكرسي وسورة يس وأجزاء من سورة التوبة والأم تبكي في الخارج وتنتحب والأب يطلب الشفاء لابنه صامتاً ضارعاً بيديه ومجد الدين الوحيد الذي يدرك أن الفتى منذور للعذاب سريع الذهاب ليس نداً لهذا الزمان. ورفع وجه الولد من على صدره وراح يجفف له دموعه بمنديله يقول:

ـ لو طلبت من الله شيئاً يا أستاذ رشدي لا يكون إلا غلاماً في عقلك ورجاحتك ـ ثم خاطب الأب ـ يا شاهين اسمع. الإسلام رخص

للمسلمين الزواج من الذميات من المسيحيين واليهود، والنبي أوصى على قبط مصر، وهو زوج ماريا المصرية وأم إبراهيم ـ ثم عاد بالكلام إلى رشدي ـ لكن المشكلة يا أستاذ رشدي إنك في بداية حياتك وتحتاج إلى وقت. وأنت أيضاً اخترت أضيق السبل. لا أبوك ولا أمك سيمانعان زواجك من المسيحية ـ وسمعت همهمة لأمه في الخارج ـ لكن هل تعرف طبيعة أهل الفتاة. هناك مسيحيون طيبون وهناك مسيحيون غير طيبين، تماماً مثل الناس في كل الدنيا، وإذا كانت البنت اختفت كما تقول بواجبك أن تختفي أنت أيضاً حتى تعطيها الفرصة لحياة طبيعية. يا أستاذ رشدي لقد عرفت من والدك أنك في البكالوريا هذا العام وأنك شاعر تقتطع من قوتك لشراء الكتب وتعلم اللغات، وإنك تعد نفسك للسفر إلى أوروبا، التي إن شاء الله ستنتهي فيها الحرب هذا العام، لتكون مثل طه حسين عبقرياً. الحب والزواج الآن يعطل هذا كله. ثم يا أستاذ رشدي لا تخف على الفتاة. عندنا في المثل «اكسر للبنت ضلع يطلع لها اثنين»، والنساء عادة ينسين أسرع من الرجال، فيندفعن في الحب ويندفعن في النسيان.

سكت الجميع طويلاً تلك الليلة حتى قال رشدي فجأة:

ـ سأذهب إلى أهلها أعلن لهم ابتعادي عنها.

دخلت الأم فزعة إلى الحجرة تقول:

ـ لا. لا تذهب. . لا يذهب أحد. كل شيء سينتهي من تلقاء نفسه.

لكن مجد الدين الذي لمح عذاب الغلام على وجهه قال له:

ـ اجعلني بديلاً عنك. أعطني عنوانها واسمها أطمئن لك عليها وأنهي المشكلة.

قال رشدي بعد تردد:

ـ اسمها كاميليا. تسكن بشارع البان، بيت نمرة ثمانية وثمانين. لقد قالت لي مرة إن في بيتهم رجلاً يعمل بالسكة الحديد ولم تقل لي اسمه.

لم يعلّق مجد الدين. نهض واقفاً بعد أن شحب لون وجهه. ارتعشت يده وهو يصافح الغلام يربت على ظهره، خرج معه شاهين حتى المحمودية، لكن مجد الدين لم يشعر بوجوده.

* * *

أسرع مجد الدين بعد ذلك كأن شيئاً يطارده. هل هو عينا الغلام الذابلتان؟ أم وجهه الشاحب المعذب؟

صار «يخب» وسط شارع قنال المحمودية المظلم ولا هادي له في الطريق فلا مصابيح، فقط ضوء واهن يتسرّب من فجوات بين السحب لقمر صغير، وضوء عليل ينعكس على أسطح برك المياه الضحلة فوق الأسفلت غير المستوي فيقفز مجد الدين فوقها أو يدور حولها، ووسط المحمودية أضواء خافتة لمشاعل قليلة بالصنادل والسفن المتباعدة وسط الظلام. الأشرعة البيضاء للسفن ملفوفة حول صواريها، والسفن تبدو كتلاً عملاقة من الظلمة، والمصانع على الضفة الأخرى معتمة تتسرّب من نوافذها الزجاجية العالية أشعة بنفسجية مقتولة. لكن المداخن العالية تنفث دخاناً أبيض واضحاً في الظلام ورغم أنه متقطع وغير كثيف والترام التي تتحرك على الشاطىء الآخر أيضاً مضيئة بأضواء صفراء شاحبة لكنها تكشف له رجلاً يزحف صاعداً سفح الشاطىء خارجاً من الماء. لا بد أنه كان يتبول أو يتغوط أو لعله من سكان هذا الخراب.. إنه لا يميزه لكنه يراه كتلة من السواد تتدحرج إلى أعلى، وعلى يمين مجد الدين كانت بناية مخازن بنك مصر الكبيرة الممتدة لمسافة طويلة رأى أمام إحدى بواباتها المفتوحة، والتي ميّز أنها مفتوحة لاشتداد الظلمة خلفها عن ما حولها، رأى سيجارتين تشتعلان للحظات فتظهران وجهين غير واضحي

الملامح. إنهما وجها دركيين من الجيش المرابط بالتأكيد.

ـ السلام عليكم.

ولم يرد أحد. عادت السيجارتان للاشتعال للحظات، نقطتان ناريتان صغيرتان أمام دائرتين من الجلد الشفاف!. أسرع في الخطو حتى جاوز بناية المخازن فدخل في خلاء وعماء مطلق. لا بيوت ولا أضواء، ولا بد أن سحباً كثيفة حجبت كل ضوء للقمر، وبالمحمودية لا توجد الآن سفن وعلى الشاطىء الآخر لا مصانع ولا تتحرك أي ترام. ثم ارتفع عن يمينه جدار مشوه شديد الظلمة له رائحة الشحوم والصابون. إنها آلاف البراميل التي استطاع تمييزها، وهي قريبة منه جداً، مصفوفة إلى ارتفاعات عالية، هل ممكن أن تقع الآن وتجري أمامه إلى مياه المحمودية؟ وفي كل فضاء كبر أو صغر بين هذه التلال أكوام من المعادن الخردة، لها رائحة لحام المعادن، تلمع في وسطها شرائط من النحاس الأصفر والألومنيوم والصلب والكروم والتوتياء. إنه لا يميز هذه المعادن، لكن لا بد أنها هي التي تلمع أو بعضها. ثم رأى كشكاً خشبياً مدهوناً بالأصفر اللامع تمكن شعاع هارب من بين السحب أن يصل إليه. اقترب منه فسمع همهمة وغمغمة وشيئاً أشبه بالحشرجة ثم صوت نسوي عصبي يقول «بالراحة» وصوت رجل يقول «ما هو بالراحة أهو. أكثر من كدة راحة» ثم ضحك منقطع فأسرع مبتعداً مستعيذاً من الشيطان، ويبدو أن صوت قدميه كان مسموعاً فلاحقته ضحكة طويلة اختلط فيها صوت المرأة بالرجل ثم وجد أمامه فجأة شيئاً ضخماً، عملاقاً حقيقياً، يقف مشعلاً سيجارة في فمه قاطعاً عليه الطريق. من أي جب خرج له هذا العملاق وماذا يريد، تناول العملاق السيجارة من بين شفتيه وقال بصوت خشن «لا تخف. ممكن تنضم إليه. السعر بسيط قرش صاغ واحد» واتت مجد الدين الشجاعة والقوة أن يمد ذراعه فينحى العملاق جانباً، بل تعثر العملاق وكاد

يسقط، وسمعه يقول له «على مهلك يخرب بيتك. عنتر بن شداد»، وابتسم مجد الدين الذي كان مرعوباً منذ لحظات لكنه أسرع يخب من جديد وإحساس مفاجىء بأنه يتعثر في خيوط كثيرة ملونة متشابكة من المطاط وبالونات عديدة تدخل بين ساقيه تربك خطواته، وتذكر حكاية الرجل الذي نزل يتوضأ بالمحمودية فعلقت في سرواله الأرانب وكاد قلبه ينخلع من مكانه ولولا سور أبيض قصير مهمل يمتد لمسافة طويلة لا يخفي شيئاً وراءه أضاء له الطريق ببياض حجارته، وذكره بأنه يمشي في شارع معروف له نهاية، لولا هذا السور لاستبد به الخوف وربما جرى صارخاً، أسرع جوار السور وظهر كوبري كرموز قريباً، يقترب أكثر كلما أسرع، كانت على طرفي الكوبري أربعة أعمدة معدنية، عمود في كل ناحية، أعلى كل منها لمبة وسط غطاء من الزجاج الأزرق القاتم لكنها تظهر له جيداً فجعل عينيه عليها لا يحيد حتى وصل إلى الكوبري فأخذ أول نفس حقيقي هادىء. لاحظ جوار الكوبري كثيراً من عربات اليد عليها بضائع مما تبقى من النهار مغطاة بالمشمع أو الكرتون ينام تحتها أطفال يتدثرون بقطع من البطاطين فأدرك أنه تأخر كثيراً لدى شاهدين، وأخذ طريقه عبر المَنْزَل الموجود على اليمين الذي سيفضي به إلى شارع البان الذي سيأخذه بدوره إلى بيته. أين كان بالضبط؟ يتمدد فيه إحساس بأنه قادم من الجحيم، أو العدم! هل كان الولد صادقاً حقاً فيما قال أم راح يجاريه لينتهي من اللقاء. على أي حال، لا ينسى مجد الدين الزوال الرابض في عيني الغلام، إنه ابن لزمن غير زماننا ولن يطول في الدنيا مقامه. يا لأبيه المسكين. ومشى في شارع البان يفكر في هذا الشخص السعيد الذي أطلق هذا الاسم على الشارع، وأطلق أسماء الزهور على كثير من الشوارع الموازية والمتقاطعة مع شارع البان. شارع النرجس والفل والريحان والرند والكروم والقرنفل وكلها شوارع رثة سقيمة متخمة بناس متعبين مشردين لا يدرك أحد أنهم ينتمون إلى المدينة الكبيرة التي

يتحرك فيها كل شيء إلا هذا المكان، إنهم لا ينتمون إلى الإسكندرية أبداً هؤلاء الذين يعيشون في هذا المكان والإسكندرية البيضاء المرحة المستفزة لاهية عنهم لا تفطن إليهم. إنهم نفايات ألقتها المدن والقرى البعيدة.

متى كان هناك من يتوقف قليلاً من أجل النفايات؟ ومن يصدق أنه من بين هذه النفايات يخرج أحباء وشعراء ومجانين وأولياء لله صالحين، فقط القتلة والمجرمون هم الجديرون بالبقاء في هذا الجنوب العفن.

ـ لماذا تأخرت هكذا يا مجد الدين.

ـ غطيني يا زهرة. شدي الجزمة من قدمي وغطيني. لا تتركي جزءاً في جسمي إلا وتغطيه.

* * *

،والآن فإن الآلهة على دراية بما يحدث من أمور، والبشر على دراية بالأحداث التي جرت، أما الحكماء منهم فعلى دراية بما هو وشيك الوقوع.

20

ـ لقد اخترت مجد الدين ودميان للعلمين..

قال الأسطى غبريال فسكت الجميع ونظروا إلى الأرض. لم يتفقوا على ذلك حقاً، لكن أحداً منهم لم يتقدم للانتقال إلى العلمين، فكان العدل هو أن يختار الأسطى غبريال هذين العاملين الجديدين اللذين لم يمضيا عاماً كاملاً بعد. كان مجد الدين ودميان يجلسان متجاورين ذلك الوقت. في الحقيقة كانا يتوقعان اختيارهما. قال مجد الدين في نفسه، الآن وجب سفر زهرة إلى البلد، لا مناص. أما دميان فقد ابتسم، لكن الشحوب الذي اعترى وجهه ظل قائماً، وقال متظاهراً بالرضا:

ـ العلمين. السلوم. كلها بلاد مصرية.

كانت هناك أنباء عن وصول قوات ألمانية كبيرة إلى ليبيا، وأن جيش المحور يعيد ترتيب قواته، بل وقد بدأ بالفعل يهاجم بنغازي، وهكذا بدا أن حرب الصحراء لن تنتهي كما توقع الجميع بعد هزيمة جرازياني..

بعد حديث الأسطى غبريال بدأ الجميع العمل بعد فترة الراحة. اقترب مجد الدين من شاهين وسأله عن ابنه فقال الرجل وقد تحجّرت الدموع في عينيه:

ـ اختفى ثلاثة أيام وعاد يوماً ثم اختفى أمس، لا أعرف أين يذهب ولا ماذا يفعل في نفسه.

ـ هل أبلغته بما قلته لك؟

ـ أبلغته فلم يعد يتكلم مع أحد.

كان مجد الدين قد غامر وصعد إلى الخواجة ديمتري الذي فتح له الباب مضطرباً. طلب منه مجد الدين أن يخرجا إلى المقهى قليلاً، رحب الرجل بسرعة لكنه لم يستطع أن يخفي القلق الذي ظهر على وجهه.. بالمقهى قال له مجد الدين:

ـ لا أحد يا خواجة ديمتري يختار دينه. أليس كذلك؟

ـ بلى يا شيخ مجد.

ـ لا تؤاخذني إذا قلت لك أني أعرف حكاية كاميليا مع الشاب المسلم رشدي..

سكت الخواجة ديمتري طويلاً ثم قال:

ـ وعرفت اسم الشاب أيضاً يا شيخ مجد!

ـ أبوه يزاملني في العمل..

وسكت لحظات ثم قال ديمتري باندفاع لكن بصوت هادىء:

ـ اسمع يا شيخ مجد. لقد عاش أخوك المرحوم بيننا سنيناً فلم يشعر مرة أننا نختلف عنه في شيء. وعشت أنت الآن عامين تقريباً فهل شعرت أننا نتعصب ضد المسلمين في شيء؟

ـ لا.

ـ بل وكثيراً ما ندفع ثمن أخطاء المسلمين من السكان. «لولا» مثلاً

كانت مسلمة وكذبت علينا وألحقت بنا العار.

ـ معك حق يا خواجة ديمتري.

ـ أنا أعرف أنه لا أحد يختار دينه. وأنا لا أندهش أن تحب ابنتي شاباً مسلماً في سنها. هي طائشة وهو طائش مثلها، وبقليل من الحكمة يعود كل شيء إلى مكانه.

ـ هذا هو ما أريد أن أتحدث معك فيه.

ـ لقد حاولنا أن نعيد البنت إلى صوابها وفشلنا، أنا وزوجتي «وأبونا» ولم نجد مناصاً من نقلها إلى البلد، أي قطع الطريق بينهما فترة من الوقت. سوف تخسر البنت سنة دراسية ولكن هذا أفضل أن تخسر عمرها. إنها ابنتي يا شيخ مجد.

هل توافق أنت أن تتزوج ابنتك من مسيحي؟

سكت مجد الدين قليلاً مُباغَتاً ثم قال بهدوء:

ـ إذا أسلم لا أمانع.

ـ وإذا استنصر الشاب لا أمانع أنا أو غيري. هل يمكن أن يستنصر؟

ـ يُقتل يا خواجة. هذه ردة في الدين.

ـ هل أخطأنا لأننا لا نقتل من يترك ديننا؟

وعادا إلى الصمت ثم قال ديمتري:

ـ كيف أنجب ابنتي وأربيها ثم بعد ذلك يأخذ شاب يقطع كل طريق بيننا وبينها. زواج البنت يحرمها من عطف أهلها ويحرم أهلها من حنانها، فما بالك بزواجها من شخص له دين آخر، لماذا يكون علي أن أحرم من ابنتي إلى الأبد يا شيخ مجد؟

طامن مجد الدين رأسه يفكر في صدق إحساس ديمتري الذي استمر في الحديث..

ـ أظنك فهمتني الآن. أنا لا يهمني أن يكون مسلماً أو مسيحياً. لكن ما هي الطريقة التي تجعل ابنتي بعد زواجها ابنتي أيضاً؟ إما أن يستنصر هو وإما أن ندخل كلنا في الإسلام وهذا مستحيل وذاك. إذن هو العذاب لبعض الوقت يا شيخ مجد، فقط لبعض الوقت وتُحل المشكلة، أم لا بد أن نتعذب جميعاً وإلى الأبد؟

وظلّ مجد الدين صامتاً. .

ـ أرجوك ساعدني. هل تستطيع؟

ـ أستطيع. . أساعدك يا أخي ديمتري.

ـ ولا يكون في نفسك منا شيء. لقد طلبت منكم النزول إلى أسفل لنتحدث في مصيبتنا بحرية، حتى إذا ارتفع صوتنا بشيء في الدين لا تسيء فهمنا، وليدخل «أبونا» ويخرج دون خجل لقد كان خجلاناً من دخوله إلينا وخروجه وأمامنا جار مسلم لا بد يعرف سبب مجيئه وقال لي بالحرف الواحد قد يظن الجار أني أكره المسلمين بينما أنا أحاول شفاء البنت من طيشها.

ـ أنا أيضاً لم أترك البيت استعداداً ليوم تحتاجني فيه، لقد أمضينا بينكم أياماً جميلة في زمن صعب يا أخي ديمتري.

وقفا وعادا إلى البيت معاً، وصعد الخواجة ديمتري وهو يقول لمجد الدين بصوت عال:

ـ يمكن لزهرة أن تصعد أي وقت تجلس مع مريم وإيفون كما تعودت. .

كان ما فعله ديمتري هو نفسه الذي اقترحه مجد الدين على رشدي. أن يبتعدا لبعض الوقت.

ها هي قد ابتعدت قبله، أو أبعدت، فلا فرق، المهم أن لا يلتقيا

فيندمل الجرح الطائش.

في اليوم التالي لهذا اللقاء مع ديمتري نقل مجد الدين الخبر إلى شاهين الذي نقله بدوره إلى ابنه، ووجد مجد الدين أن هذه النهاية مريحة وطبيعية، وأن المشكلة على هذا النحو ستنتهي تلقائياً دون أن يكلف رشدي نفسه عناء الذهاب إلى أهل كاميليا. لم يعد هناك جدوى لأن يعلن لهم ابتعاده كما سبق ووعده. لكن الذي حدث بعد ذلك ينذر بالشر. فالولد بدأ يغيب عن البيت، وزهرة صعدت مرة واحدة إلى أعلى فوجدت إيفون تبكي وأمها تعمل على الماكينة في صمت. حاولت الأم وابنتها الظهور بمظهر أفضل، وسألت الأم زهرة عن أحوال حملها، وأحوال الشيخ مجد في العمل، وعن موعد ولادتها، وفي كل الوقت كانت إيفون كلما توقفت عن البكاء عادت إليه حتى اضطرت لدخول الغرفة الأخرى، الغرفة التي كانت بها زهرة ومجد الدين من قبل، وهناك أيضاً لم ينقطع نحيبها. قالت زهرة للست مريم:

- إلى هذا الحد تحب إيفون أختها ولا تصبر على فراقها.

قالت الأم:

- إنها تخشى أن لا تعود. لا أعرف من أين تأتيها هذه الأفكار؟

لكن زهرة رأت الأم أيضاً تغالب دموعها.

* * *

عاد الزحام إلى المحطة من جديد بعد الأخبار بنزول الجيوش الألمانية إلى ليبيا. لقد بدا في وقت أنه لم يعد في الإسكندرية سكان. لذلك بدا الزحام مفاجئاً لمجد الدين وزهرة معاً. لقد جلس مجد الدين على الأرض جوارها بين رائحة العرق المكتومة التي تملأ فضاء المحطة الكبيرة، وحولهما وفي كل مكان المئات من الجالسين متشحي السواد من

النساء وبالجلابيب والملابس الإفرنجية من الرجال والأطفال في كل مكان يجرون بين الجالسين والقفف والحقائب والصناديق أو يبكون أو ينامون على أفخاذ أمهاتهم. . حالة من الكدر تستولي على وجوه الجميع. لكن كانت هناك بين الحين والحين ضحكة طويلة لامرأة أو رجل ترتفع من مكان ما. وكل هذا السكون كان يهتز حين يدخل المحطة قطار، فالمحطة الكبيرة خالية. والقطار الذي يدخل يهرع إليه الجميع، ويقف الجميع أيضاً في حيرة يسألون عمال المحطة عن وجهة هذا القطار، والجميع يدخلون إلى عرباته، والجميع يعودون وينزلون فليس هو القطار المناسب لهم.

وهكذا يبدو دائماً أن «الجميع» هم الذين يفعلون كل هذه الأفعال المتضادة في وقت واحد من شدة الحركة والزحام.

كانت زهرة قد صعدت تودع الست مريم التي بدت متماسكة: قبّلت زهرة قبلتين على خديها وتمنّت لها السلامة في السفر والسلامة في الوضع، لكن إيفون لم تتمالك نفسها فبكت كثيراً على صدر زهرة وهي تقول «حتوحشيني موت» ولأول مرة تدرك زهرة أنه لا فرق بين إيفون وكاميليا فالبنتان مثل النسيم ومثل الملائكة التي لا يراها أحد. ولم تستطع زهرة أن تمنع دموعها من الانحدار على وجنتيها ممتزجة بالكحل الأسود. وقالت وهي لا تقصد: «السلام أمانة لكاميليا لو شفتوها قريب. ولو حتى شفتوها بعيد. والنبي يا ست مريم ما تجرحوا البنت. علشان خاطر سيدنا عيسى وستنا مريم كمان» وبينما قالت الست مريم «حاضر يا زهرة. ما تقلقيش» جرت إيفون إلى الحجرة باكية. ونزلت زهرة مخلوعة القلب. لم تكن تدري أنها أحبت جيرانها إلى هذا الحد. إنها لا تشعر بالفرحة لعودتها إلى البلد فهي تترك خلفها مجد الدين الطيب الأمير ابن الأصول عارف كتاب الله. وبعد أن جففت دموعها عبرت الشارع تودع أم حميدو

التي أبت إلا أن تنهض من على الأرض. قالت ضاحكة «ما أهو أنا كل يوم أقوم مرة واحدة بالليل، مش قضية لما أقوم مرة كمان النهاردة علشانك يا زهرة» وأخذتها في حضنها وقبلتها طويلاً على الطريقة البلدية الجميلة حيث وضعت شفتيها مكورتين على خدها وراحت تصدر صوتاً طويلاً لقبلات متقطعة متتالية. وكرّرت ذلك على كل خد ثم قالت لزهرة، إذا عادت لا تعود إلى هذا البيت، ففي أقل من عامين قتل البهي وضبطت لولا واختفت كاميليا. قالت إنه بيت مشؤوم العتبة. أجل فالبيوت أعتاب يا زهرة.

وقالت لها إنها تعرف حكاية كاميليا مع الولد المسلم وكل الناس تعرفها. وإن الرجل ديمتري مسكين. لا عاجب المسيحيين علشان ما عرفش يربي بنته، ولا عاجب المسلمين علشان كسر قلب الولد المسكين. وقالت إن المسكين حقيقة هو ديمتري ومريم مراته طول عمرهم ناس محترمين وفي حالهم لكن نعمل إيه في حكمة ربنا. وتحركت زهرة وهي تمسح دمعها ولم تجلس أم حميدو إلا بعد أن ابتعدت زهرة كثيراً في الشارع مع مجد الدين.

استطاع مجد الدين أن يقفز إلى القطار ويجلس جوار النافذة وتناوله زهرة بعد ذلك السلالي الوحيد الذي معها والذي به ثيابها لا غير وعلبة حلويات من حلواني «جزر». بعد أن دخلت العربة جلست مكان مجد الدين ونزل هو ووقف جوار النافذة لا يريد أن يتركها قبل أن يتحرك القطار. كانت شوقية أمام قدميها واقفة وقالت له زهرة وعيناها احمرتا من البكاء:

ـ خد بالك من نفسك يا شيخ مجد.

لم يرد، ظل ناظراً إليها طويلاً، كان يود حقاً لو يسافر معها. مكتوب له أن يبتعد أكثر. إلى العلمين سيذهب بعد أيام. لم يسمع قبل وصوله

إلى الإسكندرية بهذا الاسم، ولا حتى قبل أن يعمل بالسكة الحديد. ها هو يسمع اسماً غريباً لبلدة صحراوية. لم يسبق له العيش في الصحراء. لكنها بلاد الله في النهاية، ولا بد أن الله يوليها عنايته. اشترى أربع بيضات وقطعتي سميط ناولها لزهرة التي وضعتها مع السلالي على الرف.

ـ ربما يتأخر القطار وتجوعين في الطريق.

وتذكّر كيف لم تسافر زهرة إلا بعد أن أعدت له «قراقيش» تكفيه على الأقل شهراً، وملأت له «بطرمانات» صغيرة بالملوخية الجافة والشاي والسكر والسمن ومسحت له وابور البريموس ونظفته ووضعت كل شيء في قفتين، القراقيش وسائر الأطعمة في قفة، وغير ذلك في قفة أخرى، ولم تنس أن ترتب ثيابه وتضع بينها بكرة خيط وعدداً من الإبر، حتى الكبريت وضعته له وأصابع الشمع لزوم الطوارىء. لم يعد على مجد الدين غير أن يحمل هذا إلى العربة التي ستقله لمحطة قطار الصحراء «بالقباري» بعد ثلاثة أيام. وتحرك القطار وهو يقول:

ـ لا تنسي أن تخبريني بسلامتك بعد الولادة.

لكنها قالت متأثرة:

ـ لا تبك يا مجد الدين. لا تبك يا شيخ مجد.

لم يكن يشعر بدموعه التي ظهرت تترجرج في عينيه. أمسك بيدها وهرول جوار القطار الذي لم يسرع بعد، وقبّلها قبل أن تخذله سرعته أمام سرعة القطار مما أثار دهشة الواقفين بالرصيف والجالسين جوار زهرة وأمامها. وقالت هي بصوت خفيض مع السلامة يا حبيبي. وتركت الطريق مفتوحاً لدموعها، أما هو فقد أحسّ بقلبه ينخلع من بين ضلوعه ويمضي بعيداً. إلى هذا الحد صارت الدنيا كبيرة، بيضاء حقاً، لكنها واسعة سماواتها بعيدة وأرضها تميد، وهو، هو طفل صغير يبكي ويرتفع صوت بكائه من شدّة القهر واليتم.

لقد صارت المسافة من الرصيف إلى خارج المحطة أطول مسافة يمكن أن يمشيها إنسان لولا أن ظهر دميان واقفاً وسط الحشود الجالسة ينظر في كل اتجاه. رآه مجد الدين فأحس بشيء من الراحة وتقدم ناحيته. صديقه هذا هو الوحيد القادر على التسرية عنه. ترى ما الذي جاء به إلى المحطة الآن. هل جاء يرسل زوجته وأمه وبنتيه إلى بلد من البلاد؟

* * *

كان دميان قادماً مباشرة من الكنيسة بعد أن مرّ على مجد الدين وعرف من الست مريم أنه توجه إلى المحطة لوداع زوجته. لم يستطع الانتظار وأسرع يركب الترام ليصل ويلتقي بصديقه قبل عودته. الحقيقة أنه كان يمكنه الانتظار حتى عودة مجد الدين. لقد أدرك الآن فقط أنه لم يكن هناك ما يستوجب حضوره ولا هذه العجلة. إنه الحلم الذي رآه. الكابوس الذي رآه في المولد الذي حضره لأول مرة منذ سنوات بعيدة. لقد امتلأ حوش الكنيسة منذ أول أمس بالقائمين والممددين والجالسين على الأرض. عائلات متفاوتة أحضرت فرشها وأكلها وفرشت الأرض وجلست. حُصر هنا. ملاءات هناك، أحرمة من الصوف هنا. أكلمة من القطن هناك. رجال بجلابيب قطنية ورجال بجلابيب من حرير ورجال بجلابيب من الصوف ورجال ببنطلونات قديمة أو جديدة ونظارات. نساء عاريات الأكتاف يجلسن بقمصان البيت ونساء مغطيات بالطرح الحريرية وأطفال من كل سن وشكل عراة وبجلابيب، وحفاة وبصنادل خفيفة، ولا أضواء غير الشموع بالشمعدانات التي علقت حول الأعمدة أو ثبتت في الحوائط تحت القبة المظلمة. والجميع تحت القبة وأمامها، في صحن الكنيسة، في صلاة وخشوع. وأصوات القداس تتهادى إلى قلب دميان وفي قلب القبة أمامه صورة ماري جرجس الشهيرة الكبيرة الكريمة وهو يطعن الحية. هذا هو ماري جرجس الذي يرعاه في الدنيا الآن فيا لها من

رعاية ويا لها من غبطة تجعله ينسى زحام الحوش وآلام الناس وهذا الزحام الشديد حول الكنيسة. مسلمون ومسيحيون جاءوا يشاهدون ويشاركون في الألعاب الشعبية ويتسامرون حول عربات اللب والفول السوداني والمكرونة أو يجلسون على الدكك الخشبية التي وضعها بعض القهوجية لتقديم الشاي الذي يعدونه جوار الجدران على بوابير البريموس وهم عادة لا يظهرون إلا بين العام والآخر أي كل مولد، الوشامون بالإبر الدقيقة الملتهبة يدقون الوشم الأزرق والأخضر. علامات صليب للنساء والفتيان والرجال أيضاً وصور الشهيد للرجال، على أكتافهم وأذرعهم وفي صدورهم، وللمسلمين يدقون صورة أبو زيد الهلالي رافعاً سيفه مهاجماً الأسد أو راكباً الأسد نفسه في كثير من الأحيان فضلاً عن كتابة الأسماء على زنود الرجال وأماكن ولادتهم. وجل هؤلاء الفنانين والباعة هم الذين تراهم في مولد المرسي أبو العباس، وسيدي بشر، وسيدي جابر، وأبو الدرداء، وسيدي العدوي وغيرهم من أصحاب المقامات بالإسكندرية، وهم أيضاً الذين يسافرون إلى القرى القريبة لإحياء موالد المشاهير من الأولياء. إنها حرفة جميلة ومَنَاسبة للشعب أن يفرح ويخرج عن القانون في الحب ومغازلة النساء والفتيات. وليس للاحتفاء بماري جرجس خارج الكنيسة طقوس تختلف عنها خارج المرسي أبو العباس!!

كانت رائحة البصل تملأ المكان خارج وداخل الكنيسة الصغيرة، والشوارع ممتلئة بالجالسين حتى المحمودية من ناحية وحتى شارع البان من الناحية الأخرى وكذلك حتى سيدي كريم. في كل عام قبل الحرب كانت الأضواء تمتد حتى راغب ومحطة السكة الحديد، محطة كوم الدكة التي أسماها السكندريون محطة مصر لأنهم لا يتصورون أنه توجد بلاد أخرى خارج الإسكندرية غير القاهرة التي هي مصر.

لقد نام دميان في حوش الكنيسة ولم يفعل ذلك من قبل أبداً. كان

يسمع في شبابه حكايات المراهقين حول النساء، وكان يعرف أنها حكايات مراهقين دائماً. الليلة فكر أن يستيقن لكنه بسرعة طلب الغفران من سيده وراعيه ماري جرجس ذاته وخرج ليجلس على دكة في زحام الشارع. في منتصف الليل دخل الكنيسة فوجد أكثر الرجال والنساء يقظين. أخذ مكانه جوار أمه وزوجته. كانت أمه نائمة، وتمدد هو ناظراً إلى السماء. غفلت عيناه قليلاً فوجد الدنيا تشتعل بالنار حول جورجيوس، ماري جرجس، صاحبه وحاميه، وعبثاً يحاول ماري جرجس الخروج بالحصان من وسط النار. استيقظ دميان فزعاً مرعوباً تاركاً المكان كله. كان الوقت بعد الفجر. عبر الشوارع الملاصقة، والناس جميعاً نيام على الأرصفة. وخرج إلى المحمودية يستنشق هواء صافياً، لم يعد إلا بعد أن بكى كثيراً وحده على الشاطىء، أخذ زوجته وأمه وبنتيه إلى البيت ثم قصد بيت مجد الدين. فلم يجده فأتى خلفه.

لقد ابتعدا الآن عن أبواب المحطة وعن زحام المهاجرين ورائحة العرق وروث الخيل والحمير أمام الأبواب وجلسا في أول مقعد قابلهما في الحديقة، الشمس طالعة والجو منعش، لا هو بالبارد ولا هو بالدافىء. واتضح لدميان أن الفضاء هنا بعيد والبياض فوق الميدان شاهق يبعث على الراحة وسأله مجد الدين:

ـ هل جئت حقاً لتراني يا دميان؟

لكن دميان لم يرد على السؤال. قال:

ـ أنا خائف من العلمين يا شيخ مجد. خايف خالص..

ورفع ذيل جلبابه يمسح دمعاً تسرب من عينيه فجأة. ومجد الدين في دهشة من صديقه الذي لا يصدق أحد أن داخله روح الطفل الوحيد هذه..

قص دميان رؤياه على مجد الدين الذي بدوره شمله الخوف، لكن

على دميان ذاته، قال:

ـ أين تذهب يا دميان؟ ليس أمامنا غير المكتوب لا يعرفه أحد. ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً، ولا تدري نفس بأي أرض تموت.

وأحس دميان بالأسف لأنه لمح آثار البكاء في عيني صديقه. ما كان له حقاً أن يشغله به الآن. الأولى أن يجد طريقة يسري بها عنه.

قال إنه أصبح يتقن القراءة والكتابة وغداً سيشتري الجرنال لأول مرة ويقرؤه. ولم يعلق مجد الدين الذي بدا لم يفارقه الحزن بعد على فراق أسرته..

* * *

كانت الليلة الأخيرة لمجد الدين ودميان هي ليلة «قداس عيد القيامة». خرج فيها دميان وأسرته إلى الدير، وكذلك خرج الخواجة ديمتري والست مريم وإيفون، وظل مجد الدين لا يبارح حجرته أسفل البيت.

هل حدث كل ذلك حقاً منذ خرج من القرية قبل أكثر من عام ونصف العام؟ هل تغيّرت الدنيا إلى هذا الحد. هل حقاً وقعت كل هذه النوائب والأحداث؟ هل قابل كل هؤلاء الناس؟ يخيّل إليه أن الزمن بين يوم خروجه وليلته هذه، لا يزيد على يوم واحد وليلة واحدة. نهار واحد أو ليل واحد. ساعة واحدة. طرفة عين لا أكثر. لكن ذلك اليوم صار بعيداً جداً في الذاكرة الآن. إذن هو وقت أطول بكثير مما هو عليه وليس كما يظن أقصر من يوم... الرجل القصير قال إن الغارات قد تصل إلى الإسكندرية إذا دخلت إيطاليا الحرب وقال إنهما، هو وصديقه، يسافران الإسكندرية يوم وقوع الحرب نفسه. ترى أين يجد الرجل القصير وزميله الآن؟ لا بد أنهما عادا. سمعهما يقولان إنهما لن يمضيا في الإسكندرية أكثر من عام. لكن الغارات بدأت قبل أن ينتهي العام. هل هما حيان أم قتلا في الغارات الثقيلة التي نزلت بالمدينة، ها هو مجد الدين قد رأى

الغارات كلها، وها هو يذهب إلى العلمين، إلى الصحراء حيث يدور القتال. العلمين اسم غريب لكنه يعلق بالذاكرة. اسم يفرض نفسه على السامع فلا ينساه. هل يصل العلمين فتستمر الحرب ولا تنتهي. لقد وصل الإسكندرية فاتسعت رقعة الحرب وشملت الدنيا. يقولون إن الجيش الألماني الذي نزل بليبيا يختلف عن الإيطاليين.. والحقيقة أنه كان قد جرت وقائع كثيرة في الدنيا حول مجد الدين في الأسابيع الأخيرة، تحالفت بلغاريا مع ألمانيا ودخلتها القوات الألمانية لتنطلق منها بعد ذلك إلى يوغسلافيا واليونان، وخسرت إيطاليا سبع سفن حربية في معركة بحرية واحدة مع البوارج البريطانية شرق البحر المتوسط وتم إنقاذ تسعمائة بحار إيطالي كأسرى، وتبرعت الآنسة دنيز موصيري بسندات قيمتها ثلاثون ألف جنيه مصري يتولى ديوان أوقاف الخاصة الملكية صرف ريعها على أغراض التعليم مما حدا بالملك فاروق الذي شفي من وعكة طويلة ألمّت به أن يصدر أمراً كريماً بقبول الهدية وتنفيذ شروط الآنسة دنيز والإنعام عليها بنيشان الكمال تشجيعاً لها ولأمثالها على هذه التبرعات للمشروعات العلمية والإنسانية، وقالت الآنسة دنيز إنها لا تنسى عطف المغفور له الملك فؤاد الأول على والدها إيلي موصيري والذي كان له الفضل فيما وصل إليه والدها في ميدان الصناعة والزراعة بمصر، في نفس الوقت أعلن قلم قضايا الحكومة عن ثلاث وظائف شاغرة لمندوبين فيه فتقدم للوظائف حوالى أربعمائة شخص، وتبرع الملك فاروق بألف جنيه ليوم الفقير الذي تقرر أن يكون في ذكرى وفاة والده نهاية شهر أبريل وعرض فيلم «علامة زورو» في مصر لأول مرة وتم الاحتفال بالمولد النبوي في جمعية الشبان المسلمين بتلاوة القرآن ولم يسمح بالإضاءة في الشوارع هذا العام أيضاً. وزحف الجيشان البريطاني والهندي إلى أسمرة وسجل الهنود انتصارات باهرة، واستولت أمريكا على ستين سفينة للمحور بموانيها وبموانىء أمريكا الجنوبية تحت دعوى

حمايتها من تخريب البحارة واعتقلت البحارة أنفسهم ووصل الجنرال ديجول إلى القاهرة لأول مرة قادماً من الخرطوم بعد زيارة القوات الفرنسية الحرة التي ساهمت في تحرير مدينة «كرن» بأريتريا مع القوات الهندية التي كان لها الفضل الأكبر لتحرير هذه المدينة بالذات بعد الاستيلاء على أسمرة العاصمة واستقبله في مطار القاهرة الجنرال ويفل القائد العام للقوات في الشرق الأدنى وممثل عن السير مايلز لامبسون والبارون دي بنوا رئيس اللجنة الوطنية الفرنسية في القطر المصري ومعه أعضاء مكتب اللجنة، وزار ديجول بعد ذلك قصر عابدين حيث سجل اسمه في التشريفات ثم عقد اجتماعات مع رئيس الوزراء والمندوب السامي البريطاني وقادة فرنسا الحرة العسكريين في مصر، وسافر إلى الإسكندرية وخطب في نادي الفرنسيين الأحرار بشارع النبي دانيال وزار معسكر القوة البولونية وأثنى على ما يبديه الأحرار في مصر من تعاون وعزفت الموسيقى النشيد الفرنسي والسلام الملكي البريطاني والسلام الملكي المصري ثم غادر الإسكندرية إلى القاهرة ومنها إلى لندن وقل السكر في الإسكندرية وضجّ الناس بالشكوى فأسرعت المحافظة بنقل شحنات كبيرة من الصعيد وانتهت الأزمة في بضعة أيام، وفشلت في إيطاليا محاولة لقلب نظام الحكم قام بها المارشال بادوليو الذي لجأ إلى قصر الملك الذي فرض عليه أن يظل تحت حراسة حرسه هو الملكي الخاص فصار كأنه في سجن لكن أكثر أماناً من أن يقع في يد موسيليني وقبض موسيليني على أعوان بادوليو وأرسلهم إلى الجبهة الألبانية وعرض على الكسار فيلم «ألف ليلة وليلة» في مصر، وانفجرت في الإسكندرية أزمة أخرى هي تأخر شحن الغلال من الأرياف إلى المطاحن تصرفت فيها الحكومة بسرعة كما تصرفت في أزمة السكر وتم تخصيص قطارات لشحن الغلال، وخطف أربعة شبان عربة بحمار من حوذي مسكين تأخر بالليل، وطعن شاب صديقه الحلاق بسكين فكاد يقتله، واعترف أمام

النيابة أنه متعطل من زمان وأن الحلاق صديقه من زمان أيضاً ويعرف حالته، لذلك لم يكن يتقاضى أي أجر على الحلاقة له، وتعود المعتدي على ذلك حتى جاء يوم اصطحب صديقاً له لا يعرفه الحلاق وطلب منه أن يحلق له بالمجان أيضاً إكراماً لخاطره لكن الحلاق خذله أمام صديقه مما جعله يخرج عن شعوره ويوجه له طعنة بالسكين. ولما سأله وكيل النيابة عن السبب الذي جعله يصطحب شخصاً ليحلق له بالمجان قال إنه متعطل مثله ولا يجد عملاً ثم قال إنه في الحقيقة كان ينوي أن يأخذ منه قرش تعريفة في السر بعد الحلاقة بدلاً من أن يدفع للحلاق قرش صاغ.
وانتحر رئيس وزراء المجر الذي لم يوافق على النزول على رغبة الألمان، ولم يستطع المقاومة. وحشدت ألمانيا اثنتين وعشرين فرقة على حدود يوغسلافيا ثم قامت الطائرات بالإغارة على بلجراد وأعلنت ألمانيا الحرب على يوغسلافيا واليونان معاً. لقد ظهرت الطائرات الألمانية في سماء بلجراد في صباح السادس من أبريل وظلت ثلاثة أيام تلقي بقنابلها على العاصمة بصورة منتظمة ونموذجية في التكتيك حتى إنها كانت تحلق قرب أسطح العمارات دون خوف فحل الدمار بالمدينة حتى إذا انتهت الغارات في اليوم الثالث كانت بلجراد قد امتلأت بجثث عشرين ألف قتيل من أبنائها في الطرقات أو تحت الأنقاض، وانطلقت الوحوش الضارية التي فك حصارها بعد ضرب حديقة الحيوان فراحت تفتك بالجثث وبالأحياء في المدينة التي أصابها الرعب والهلع في أجلى صورهما. في الوقت نفسه كانت القوات الألمانية تجتاح يوغسلافيا من كل جانب لتستسلم بعد سبعة أيام. لقد أطلق هتلر على هذه العملية اسم «عملية العقوبة» وبعدها مباشرة انتقل هتلر إلى العدوان على اليونان. راح يطبق بنجاح سياسته «عدو واحد في كل مرة» ولم تفلح القوات البريطانية في حماية اليونان.
لقد بلغ عدد القوات البريطانية التي ذهبت من الشرق لمساعدة اليونان خمسين ألف جندي استشهد أو أسر وجرح منهم أحد عشر ألفاً فضلاً عن

القوات اليونانية أيضاً لكن الإنجليز نجحوا تحت ضغط الهجوم الألماني في الانسحاب بالباقي من قوتهم بالإضافة لعشرة آلاف من جنسيات أخرى، يونانيين ويوغسلاف وقبارصة، في الوقت نفسه تقهقر الجيش البريطاني أمام القوات الألمانية الجديدة في ليبيا ووصلت المعارك إلى القرب من السلوم بعد أن خسر البريطانيون مواقعهم السابقة، وبدأت قوات المحور مهاجمة قاعدة طبرق وسجل مكتب الآداب في مصر عموماً القبض على ثمانمائة وخمسين متسولاً وجامعي أعقاب السجائر وستة وأربعين بلطجياً وقواداً وخمسين فتاة يحرضن على الرذيلة في الطرقات بينهن عشرون قاصرات وثلاث عشرة قضية قمار ومراهنات وثمانية منازل مشبوهة وثلاثة وخمسين مكتب تخديم تعمل في تسهيل الدعارة وخمسين بنسيوناً أيضاً، وصمدت القوات البريطانية في طبرق وأسرت ثلاثين ضابطاً ألمانياً وألف جندي وصف ضابط شحنتهم في القطار إلى الإسكندرية ورآهم العمال لأول مرة. لقد سبق لهم كثيراً من قبل أن رأوا الإيطاليين. هذه أول مرة يشاهدون الألمان الذين ظلوا لغزا منذ اندلاع الحرب. رأوهم شديدي البياض والشقرة زرق العيون دائماً، طوالاً أصحاء، ينظرون من عربات البضاعة إلى كل شيء بلا مبالاة غير مصدقين ونقل ملك اليونان وولي عهده ووزراؤه العاصمة إلى كريت وأرسل الملك إلى شعبه رسالة يطالبه فيها أن يظل متماسكاً غير منقسم على نفسه حراً طليقاً ودخلت القوات الألمانية إلى أثينا وانتحر شاب في الإسكندرية من فوق فندق إيكاروس، كما ألقت فتاتان بنفسيهما أمام ترام الرمل في شارع الإسكندر، وخيّم الحزن على الإسكندرية وتعاطف شعبها مع جيرانه من اليونانيين والقبارصة واكتشفت آثار ذهبية بمقابر يونانية بكوم الشقافة وعرض فيلم (إلى الأبد) لفاطمة رشدي وسليمان نجيب بسينما كونكورديا وفيلم «سي عمر» للريحاني بسينما الماچستيك، وقررت أمريكا بناء أربعمائة بارجة وتسعمائة سفينة وعدد هائل من الطائرات تمول به الحلفاء

هذا العام، واشترى دميان جريدة الأخبار الأسبوعية وذهب إلى مجد الدين في البيت في اليوم التالي لسفر زهرة وطلب منه أن يسمعه وهو يقرأ الأخبار المكتوبة بخط صغير بعيداً عن العناوين الكبيرة السهلة. وقرأ: «و ف ا ة م هرا جاميْ سور أل حال في لندن» ثم توقف قليلاً وعاد يقرأ:

«جاءنا من مراسلنا في لندن أنَّ هُو قد توفي أمس مه راجا مي سور الحال في لندن».

وتوقف ناظراً إلى مجد الدين الذي سأله أن يكمل الخبر فقال دميان:

ـ خلاص كده، فيه خط وخبر جديد.

قال مجد الدين:

ـ مبروك، لقد استطعت القراءة يا دميان.

لكن دميان سكت قليلاً ثم قال:

ـ ما رأيك في الخبر الذي قرأته يا شيخ مجد؟

ـ من أي ناحية؟

ـ أقصد يعني إيه لزمته. يفيد بإيه؟

ابتسم مجد الدين وقال:

ـ والله يا دميان أنا احترت مثلك عندما سمعته.

وسكتا قليلاً مرة أخرى وتساءل دميان:

ـ هل هذه هي الجرائد التي تعلمت القراءة من أجلها؟

ضحك مجد الدين بلا صوت. وقال دميان كأنه يحدث نفسه:

ـ جرايد هبله بصحيح، ما لي أنا والمهراجا الميسور ولا المفلس حتى.

وألقى دميان بالجريدة من نافذة حجرة مجد الدين وخرج. ولم ينحن لالتقاطها. وخطب تشرشل معلناً أن على بريطانيا أن تنتصر أو تموت ولم يعرف عن حمزة أي شيء جديد، ولم يعد شاهين يتكلم عن ابنة لمجد

الدين، وأعلن الحكم في قضية الخوذ المقلدة، اعتبرت الجريمة غشاً تجارياً وليس خيانة عظمى فكانت الأحكام خفيفة فعم السرور الناس وتمّ تقييد بيع الخمور في الإسكندرية إلا بتصريح عسكري بعد العشرين من أبريل بسبب كثرة الحوادث الناجمة عن السكر في الفترة الأخيرة وبسبب استخدام الخمور في المفرقعات وألقت الطائرات الألمانية في غاراتها الجديدة على الإسكندرية بقنابل صغيرة حارقة تم إرشاد الناس إلى كيفية التعامل معها إذا لم تنفجر، ونظرت المحاكم العسكرية بالإسكندرية أيضاً سبعين قضية للإيطاليين الذين يعيشون بالمدينة ولم يستجيبوا للأمر العسكري السابق بضرورة تسليم أجهزة الراديو التي يملكونها إلى البوليس وتمت مصادرة الأجهزة ولم يكتشف من بينهم أي جاسوس وأعلن أنه سيعرض في الاثنين الأخير من الشهر فيلم شارلي شابلن «الدكتاتور العظيم» في أكثر من سينما بالعاصمة وفي سينما رويال بالإسكندرية وسجل يوم عرضه أكبر زحام ممكن أمام السينمات أيام الحرب ولم يبد على دميان أنه تحدث يوماً عن شوقه لمشاهدة فيلم لشارلي شابلن. عرف وسكت ولم يسمح لنفسه حتى بالتفكير فيه، وقابل غفارة مجد الدين في الطريق فعتب عليه أن يصحب زوجته إلى المحطة دون أن يطلب منه توصيلهما بعربته، ابتسم مجد الدين وشكره وقال إن ذلك تم في الضحى ولم يكن غفارة بالشارع ثم أخبره بسفره إلى العلمين في الغد وسأله عما إذا أمكنه الحضور في الخامسة صباحاً لنقله وصديقه دميان وما معهما من متاع فأبدى غفارة استعداداً كبيراً ثم سأله أين تقع هذه العلمين فأخبره مجد الدين.

والليلة طالت به الآن، وطافت بذهنه حياته الماضية، وأحس كأن دهراً مضى على سفر زهرة، ولولا أن نزل ديمتري وجلس معه وقتاً طويلاً ما كانت تمر به الليلة. سأله ديمتري هل سيأتي إلى الإسكندرية في الإجازات فقال مجد الدين إنه لن يأتي، وإذا أخذ إجازة سيذهب إلى

القرية ـ أجل هكذا قال بعزم لم يفهم ديمتري سببه ـ ثم أخبره مجد الدين أنه سيعطيه إيجار ثلاثة أشهر وبعد ذلك سيرسل له الإيجار كل شهر مع دميان الذي لا بد سيأتي ليرى أسرته. وسأله ديمتري من يكون دميان، فاندهش مجد الدين وسكت قليلاً، ثم راح يذكِّر ديمتري به، لكن الرجل الذي بدا عاجزاً عن التذكر قال «آه، تذكرته». والحقيقة لم تكن كذلك، مما سبب إرباكاً حقيقياً لمجد الدين، الذي بدأ يفكر فيما يمكن أن يكون قد أصاب عقل الرجل. لكنهما تحدثا طويلاً في أحوال الناس والبلاد والحرب وسأله ديمتري فجأة ما إذا كان يعرف شيئاً جديداً عن رشدي فأجاب مجد الدين بالحقيقة وهي أن أباه لم يعد يتحدث عنه أمامه. قال ديمتري آسفاً إنه يتمنى لو أدرك الفتى خطورة المسألة وتركها تمر بسلام، وأنه شخصياً لم يكن يحب أبداً أن يعطل رغبة لابنته، لكن هذه رغبة صعبة، وهو واثق بأن الأيام ستشفي كل جريح. وشكره مجد الدين على الوقت الذي أمضاه في بيته، وقال له إنه تقدم ومعه دميان إلى الإدارة بطلبين للسكن بمساكن المصلحة إذا حدث وخلا مكان، وأنه يأمل خيراً، وطمأنه ديمتري بدوره على متاعه بالحجرة «كأنه موجود تماماً يا شيخ مجد» وصافحه بحرارة وصعد إلى أعلى تاركاً مجد الدين الذي تمنّى لو يأخذ قسطاً قليلاً من النوم الليلة.. فأخذ يقرأ في سره شيئاً من قصار السور بالقرآن علها تريح أعصابه.

كانت صحف اليوم السابق قد أعلنت عن استعداد البلاد لاستقبال تحفة هوليوود الجديدة التي أنتجها دافيد سلزنك، وقام ببطولتها أشهر النجوم كلارك جيبل وفيفيان لي وأوليفيا دي هافيلاند ولسلي هوارد. كما شارك فيها بالتمثيل لأول مرة أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة ممثل وممثلة، أما هذه التحفة فهي القصة الشهيرة لمارجريت ميتشيل «ذهب مع الريح» كذلك أعلنت في صفحاتها الأولى اسم القائد الألماني الذي يتولى قيادة قوات المحور في ليبيا الآن. إنه «إيروين روميل» القادم من الجبهة

الفرنسية والذي بدأ يظهر براعة في حرب الصحراء. وكان مكتب الصحة في المحافظة قد أعلن أن مواليد الإسكندرية هذا الأسبوع قد بلغوا أربعمائة من أبناء المدينة وعشرين أجنبياً أما الوفيات فكانت مائة وعشرين من أبناء المدينة بسبب الشيخوخة والحمى بأنواعها والملاريا والسل والدوسنتاريا والسعال الديكي والتيتانوس والغارات، أما وفيات الأجانب فكانت عشرة بسبب السكر والجنون والانتحار . .

* * *

«ستدوم رحلتي كثيراً. وإن الطريق التي امامي لطويلة.
لقد خرجت فوق عربتي، عند تباشير الفجر. وتابعت
رحلتي عبر صحارى العالم..»

21

ساحل مريوط، ساحل ليبيا كما أسماه القرطاجنيون قديماً، الممتد من الإسكندرية حتى السلوم، قبل أن يدخل في الأراضي الليبية، هو الساحل المنسي في مصر، وهو الذي يسافر إليه مجد الدين ودميان هذا الصباح.

يرتمي أمام الساحل، البحر المتوسط، أزرق مما هو في الإسكندرية، شفاف المياه، ظاهر الصخور والرمال رقراق، يغريك أن تفتح كفيك وتقربهما معاً، تحفن منه وتشرب، ناسياً إنه ماء أجاج، لكن الساحل دائماً، عند كل من يسمع به أو يراه، هو الصحراء ذاتها. إنه ساحل مهجور تمتد خلفه الصحراء إلى ما لا نهاية ولها من كل ناحية أفق، ولكل أفق سراب.

على هذا الساحل المهجور مشت من قبل جيوش كثيرة وكبيرة، «شيشنق» الليبي أول من جاء عليه يغزو مصر عام 945 ق.م. في ذلك الوقت وصلت الأمجاد الفرعونية إلى السماء، تربع ملوك الفراعنة على عرش الآلهة، وتتالت الأسر الحاكمة حتى بلغت إحدى وعشرين أسرة،

وكان لا بد من الضعف.. ثم جاء دور المصريين في المشي على الساحل، إلى ليبيا هذه المرة. كان ذلك في عهد «إيريس الأول» رابع ملوك الأسرة السادسة والعشرين. لقد خرج قاصداً «قورينا» لتخليصها من حكم الإغريق ولم يفلح. لكن بطليموس الأول نجح فيما بعد، وصل إلى قورينا وضم ليبيا إلى مصر التي منها انتقلت عبادة إيزيس فأقام الليبيون لها معبداً في قورينا لم يزل، كما لا يزال باقياً حمام كيلوباترا الثامنة ابنة كليوباترا السابعة التي حكمت مصر، وتماماً مثل حمام أمها بمرسى مطروح كلاهما في البحر فراغ بين صخور منحوتة ومسقوفة. هل كانت الأم وابنتها ابنتين لبوسايدون إله البحر أم كانتا إلهتين بحريتين؟

لم يكن الطريق خراباً إذن..

مشى عليه الإسكندر حتى مرسى مطروح قبل أن ينحرف داخلاً في جوف الصحراء قاصداً معبد الإله آمون في واحة سيوة. مشت فوقه بعد ذلك بألف سنة، القبائل العربية من بني سليم وبني هلال مهاجرة من نجد إلى المغرب، ثم عادت تحمل اسم «الفاطميين».

الفاطميون هم آخر من مشوا فوق هذا الطريق قبل أن يمشي فوقه جنود إنجلترا والكومنولث، الهنود والأستراليون والإسكتلنديون والإيرلنديون والنيوزيلانديون وأبناء الكاب. كذلك جنوب إيطاليا وألمانيا في الاتجاه المضاد، الساحل الشمالي طريق حرب وموت في معظم الأوقات. في السلم هرب فوقه المسيحيون من الاضطهاد الروماني وبنوا الأديرة الصغيرة في الأغوار السحيقة للصحراء. لقد وصلوا إلى الوادي الجديد، وبنوا الكنائس والأديرة في «البجوات». وفعلوا الشيء نفسه قريباً من الإسكندرية في «بهيج» و«كنج مربوط» و«برج العرب» وفي السلم ظلت القبائل العربية تروح فوق الطريق وتجيء قبائل «علي الأبيض» و«علي الأحمر» من أولاد «علي» من عرب «السعادي» وقبائل المرابطين من «الجميعات» و«القوابيص» و«السمالوش» هؤلاء الذين تُوكل إليهم أعمال

الحراسة فيرابطون وسط النجوع والقبائل لحمايتها حين تنشغل عرب «السعادي» في القتال.

«العامرية» هي أول مدن هذا الطريق قرباً من الإسكندرية.. ثلاثون كيلومتراً إلى الغرب، جنوب غرب بحيرة مربوط التي تحصر الإسكندرية وتضغطها إلى البحر وهي التي عرفت أيام محمد علي الكبير باسم «كنجي عثمان» ولم يكن عثمان غير أمين الضيافة عند الوالي. صارت في عهد عباس باشا «برنجي مريوط» أي أول مريوط، فجاءت «كنجي مريوط» الثانية من المدن. العامرية هذه سوق بزرميط يلتقي فيه عرب محافظة البحيرة بعرب مريوط ببعض تجار الإسكندرية مرة كل أسبوع، وغير ذلك لا شيء. مجرد عدد قليل من البيوت الصغيرة المتناثرة، ومحطة سكة حديد قديمة، وقطار يحمل المياه إلى الصحراء مرة في الأسبوع فيخرج إليه السكان القليلون ويملأون «الچراكن» المحمولة على أجناب الحمير.

«كنجي مريوط» هي الأكثر شهرة، منطقة جافة طوال العام مشتى ومصيف معاً، ومنتجع دائم، تبدو كأنها خصها الله بهواء ساحر عجيب فتدور الطواحين الجميلة رافعة الماء النقي المحبوس في جوف الأرض منذ ملايين السنين ليروي أشجار التين واللوز والرمان والعنب وذكريات الزائرين، «كنجي مريوط» تدخلها فتنسيك البلاد الأخرى وتلخص حياتك في إحساس بالراحة والصفاء.

تتشبع بالرضا والسكينة فلا يكون هناك مكان في المكان ولا زمان في الزمن.

العامرية تختلف، تبدو في كل وقت بلدة بلا هوية يتكاثر فوقها التراب من كل جانب لخلوها من الحدائق ولوقوف الشمس فوقها باستمرار، بالنهار وبالليل أيضاً!! وهذه من عجائب العامرية فعلى قربها من الإسكندرية والبحيرات قائظة طوال الوقت، ويقال إنها حملت اسمها من قرية «ماريا» اليونانية القديمة المدفونة قرب البحر والتي كانت مصنعاً

للخمور والرقص والحب. إسكندرية ماريا وترابها زعفران! ويقال إن قبائل ربيعة وهلال بن عامر استقرت هنا بعض الوقت قبل أن تأخذ طريقها إلى الغرب فحملت العامرية لقب القبائل العربية.

وهذا أقرب إلى الصواب فرائحة الوبر الشعر لخيام القبائل العربية لا تزال في الفضاء. إن البيوت القليلة المتربة المتناثرة بالعامرية تبدو من بعيد كأوتاد الخيام، وأحياناً تصرخ بالرغبة بالحركة فوق الأرض بحثاً عن الماء والعشب.

على بعد خطوات من العامرية توجد بلدة (برج العرب) كانت نقطة حراسة حدودية قديمة لا أكثر. لكن الميجور «براملي» مفتش البوليس في محافظة الصحراء الغربية عام 1918، اختار ربوة عالية أقام فوقها قصراً ضخماً جمع فيه ألواناً من التحف وأحاطه بحديقة جميلة ودق فوق الأرض طواحين الهواء تأتي بالماء العذب فقامت على السفح بعيداً بيوت قليلة لخدمة القصر المرمري الذي نقل براملي أعمدته الرومانية واليونانية من منطقة «أبو مينا» القريبة. في «أبو مينا» بقايا آثار رومانية ويونانية مبعثرة وكنيسة «بومنا» التي أقامها الأمبراطور أركاديوس عام 405 م على قبر القديس «سانت ميناس» الذي فرّ من اضطهاد دقلديانوس، لكن هذا أرسل خلفه قواته حتى عثروا عليه وقتلوه هنا. لم يكن يعرف أن لا أحد يموت من أبناء الرب وحوارييه. دائماً لا أحد يموت. مات دقلديانوس وعاش سانت ميناس.

مات براملي، وآل قصره إلى الخاصة الملكية، وينزل الجنود، حرّاسه، إلى السكان القليلين بحكايات عن الجدران المرمرية التي تضيء، وعن أصوات الغناء الجميلة التي تسري في القصر بالليل مع ريح البحر، وعن حالة النشوة التي تتلبس الجنود كل ليلة فيضحكون بلا سبب مشبعين بخمرة لم يشربوها. إنهم يتحولون بالليل دائماً إلى أطفال

سعداء، ويمضون النهار في دهشة مما جرى بالليل!!

للتين في حديقة القصر مذاق عسل النحل وللوز رائحة التفاح، وللرمان برودة الثلج! بعد «برج العرب» الصغيرة هذه وحتى «العلمين» لا بد من المرور ببلدة «الحمَّام» التي قامت على أنقاض مدينة كامينوس اليونانية التي كانت تشتهر بحماماتها الطبيعية، لقد بنيت حول سوق قديم يفد إليه أبناء الغرب ليلتقوا مع أبناء الدلتا من التجار، فيها مسجد «زياد بن الأغلب» بناه وهو في طريقه إلى فتح أفريقيا، واستوطنها بعض المغاربة منذ زمن بعيد. مدينة صحراوية تشم فيها رائحة الجمال والماعز والغنم. حركة الناس منها وفيها وإليها سريعة كأنما كل شيء يتحول فجأة إلى سراب. من الصعب الاحتفاظ بوجه تلقاه فيها في الذاكرة. مدينة لا تقف فيها إلا متحفزاً للمسير، خلقت للتجارة السريعة، الخروج منها غرباً يعني الدخول إلى العلمين، والعلمين أرض منسية. محطة سكة حديد صغيرة ذات رصيف منخفض لا يرتفع عن الأرض بأكثر من نصف متر، فوقه حجرتان خشبيتان لناظر المحطة وعامل التلغراف، وعند نهاية الرصيف مزلقان بدائي. مجرد عمود خشبي ينتهي بحبل من ناحية، وثقل من الحجارة من الناحية الأخرى، يشد عامل المزلقان الحبل فينزل العمود يسد الطريق. يترك الحبل بعد مرور القطار فيرتفع العمود إلى أعلى بفعل الثقل المربوط فيه من الخلف فتمر السيارات الحربية والجنود. هذا الطريق المار بالمزلقان هو الوحيد بالعلمين، يأتي من البحر ويدخل إلى البلدة التي هي صفَّان من البيوت القليلة المبنية بالحجر الأبيض المقطوع من جبال الحمَّام.

والبيوت هنا خالية الآن. لقد بناها وسكنها بعض البدو الذين تركوا نجوعهم، إلا أنهم مع بداية الحرب ابتعدوا مرة أخرى تاركين البيوت الحجرية عائدين إلى خيامهم والنجوع على حافة المنخفض. بين العلمين

والإسكندرية مائة كيلومتر، وبين البحر ومنخفض القطارة خمسة وعشرين كيلومتراً. إنها إذن عنق زجاجة لا تصلح للمناورات الحربية. وتصلح منطقة دفاع أخير للجيوش إذا حدث وتراجعت أمام المحور، والمنطقة الآن مستودع للأسلحة والذخيرة والتموين وتدريب الجنود. العلمين هضبة ترتفع عن البحر بستمائة قدم، وتنحدر جنوباً إلى منخفض القطارة عبر منطقة من الرمال الناعمة والمستنقعات الملحية المخيفة. على تخوم هذه الرمال والمستنقعات يعيش القليل من البدو من أولاد الأحمر والأبيض، من السعادي ومن المرابطين، في سلام قديم، بحيث لم تعد لغتهم تحمل لفظاً للحرب أو القتال.

بعد العلمين لا توجد مدن أخرى مأهولة تستحق الوقوف غير «سيدي عبد الرحمن» و«مرسى مطروح» كثبان العلمين مميزة بلونها المائل إلى الأبيض الجيري، وهو اللون الذي يظل يرافقك حتى سيدي عبد الرحمن، المصيف الذي لم يفطن إليه أحد بعد، والبلدة الصغيرة التي لا تزيد عن الجامع الذي بناه البدو تقديراً «لعبد الرحمن أبو بطيخة» الذي صار ولياً.

كان عبد الرحمن شاباً وسيماً يمشي مع صديقه الحلاق القبيح الذي أظهر الشر، ابتعد كثيراً وسط الصحراء فأخرج الحلاق الموس من صداره وقطع رقبة عبد الرحمن ثم تركه في الخلاء بعد أن دفنه تحت الرمال. بعد عام مشى الحلاق في الطريق ذاتها. كان قد نسيها. في الصحراء تتشابه الأرض والكثبان. رأى شجرة بطيخ تحمل ثمرة كبيرة ناضجة على الأرض. لم يستطع المقاومة، من يستطيع مقاومة بطيخة في الصحراء!! حمل البطيخة وفي عودته فكر أن يهديها إلى شيخ القبيلة ففي ذلك فائدة أكثر من أكلها.

فرح شيخ القبيلة بالهدية لكنه ما كاد يغرس بها السكين حتى انسكب

منها الدم. غرس السكين مرة أخرى فخرج الدم. رفع الشيخ المجرب عينيه إلى الحلاق الذي شمله الرعب وسط الحاضرين. كان قد تذكر كل شيء.. طلب من شيخ القبيلة الأمان قبل أن يحكي حكايته. أمّنه الشيخ فراح يحكي كيف قتل صديقه عبد الرحمن في المكان نفسه. بنى البدو ضريحاً لعبد الرحمن فوق شجرة البطيخ، ودفنوا البطيخة التي أدركوا أن بها رأس عبد الرحمن. صار القبر مقاماً قامت حوله البلدة الصغيرة.

لا قصص بعد ذلك حتى مرسى مطروح «الضبعة» قرية منسية هجرها البدو الآن ونزلوا إلى سيدي عبد الرحمن والعلمين. «فوكة» منخفض استراتيجي تتجمع فيه القوات والمركبات التي تنطلق بعد ذلك إلى الحدود الليبية، مرسى مطروح المدينة التاريخية لكليوباترا وأنطونيو صارت مركز قيادة الجيش الثامن ترمح فيها السيارات العسكرية طوال النهار. مرسى مطروح بلد الحب والموت فيها تعبد أنطونيو في محراب جسد كليوباترا وفيها غدرت به كليوباترا وعادت هاربة من أكتيوم، وفيها انتحرا، كانت محافظة الصحراء والآن صارت مقر قيادة الجنرال ويفل الذي كسر جرازياني منذ أسابيع ليأتي روميل الألماني قائداً للفيلق الأفريقي الذي صارت أغلبيته الآن من الجنود الألمان. ترى ماذا سيفعل هذا القائد الجديد القادم من الجبهة الفرنسية منتصراً؟ إنه يحمل اسمها سهلاً يبدو وكأنه مكرس للشهرة. هكذا دائماً أسماء المشاهير من الأخيار والأشرار على السواء لنابليون سهولة اسم روبن هود وليهوذا سهولة يسوع وليزيد سهولة الحسين ولأم كلثوم وأسمهان سهولة ريا وسكينة!!

الشهرة تسوي بين الجميع ومع تقدم الأزمان قد يصبح للأشرار مكانة الأولياء والقديسين.

* * *

ـ صباح الخير. جاهز يا شيخ مجد.

ـ صباح النور. جاهز إن شاء الله.

ولم يكن مجد الدين قد نام غير ساعة بعد الفجر، وقبل أن يناديه غفارة كان هو قد سمع صوت عجلات العربة وتخلّعها، وصوت غفارة وهو يتوقف قائلاً للحمار «هِس» خرج الشيخ مجد حاملاً قفة من الاثنتين اللتين أعدهما. تناولها منه غفارة ورفعها فوق العربة التي لاحظ مجد الدين أن بها حمارين الآن.

قال غفارة:

ـ مشوار بعيد وحمل كبير، كان لازم حمار تاني. أجّرته.

ابتسم مجد الدين ودخل إلى حجرته ليعود حاملاً القفة الثانية. لاحظ أيضاً أن غفارة لا يضع القناع على وجهه. قال غفارة:

ـ الوقت بدري والهواء نظيف بعد...

الساعة تتجاوز الخامسة بقليل، ولا يزال النهار يقاوم للانعتاق من الليل، نسمة طرية مرهفة تشيع في الغبش، ورائحة طيبة للنور القادم بعد قليل. إن العيون تنفتح مع صعود النهار كما تنفتح الزهور للنور..

حانت من مجد الدين التفاتة للبيت الصغير بعد أن قفز يجلس جوار غفارة فوق العربة. تمنّى لو صعد وصافح الخواجة ديمتري وأسرته رغم أن الرجل نزل إليه بالليل. هل يقدّر له أن يراهم مرة أخرى؟ وكان غفارة قد أخذ طريقه إلى بيت دميان..

* * *

كانت هذه أول مرة يرى فيها مجد الدين محطة سكة حديد «القباري». المسافة طويلة حقاً من البيت إلى هنا. قطعت العربة بهم طريق قنال المحمودية كله حتى «كفر عشري» ثم تجاوزته لتمشى في طريق المكس حتى شارع القباري الذي دخلت إلى نهايته عند المحطة. لأكثر من ساعة

مشت بهم العربة ولم يكن في الطريق غيرهم، وخاصة إزاء ترعة المحمودية، فجأة غمر الدنيا النور كأنه ماء منسكب. ولم تكن هناك حركة على اليمين فالسفن ساكنة على صفحة المحمودية ونوتيوها نائمون، على اليسار لم يكن غير مخازن سلفاجو ومخازن بنك مصر التي رآها مجد الدين بالليل بعد أن قابل رشدي المجنون بحب كاميليا. هل كان هو ذلك الذي لمحه مجد الدين جالساً أمام المحمودية، يعطي ظهره لمساكن السكة الحديد.

لقد بدا له الجالس شاباً نحيلاً ضائعاً. وفكر أنه لم يصادف أحداً من زملائه خارجاً للعمل. بعد أن ابتعدوا عن المساكن قليلاً سأله دميان:

ـ أليس غريباً أننا لم نلتق أحداً في الطريق؟

ـ الوقت مبكر يا دميان.

ـ فكرت أن الله قد خلقنا الآن فقط، أجل خيّل لي أننا نزلنا للتو من السماء أنا وأنت وغفارة والحماران.

ضحك غفارة وقال:

ـ والحماران أيضاً؟!.

ـ والحماران يا غفارة!

ـ خيالك بعيد جداً يا مقدس دميان.

وحطّ صمت فكر دميان خلاله أن أحداً من قبل لم يناده «بالمقدس» هذه.. لماذا حقاً لم يحدث أن عامله أحد باحترام؟

وظلت العربة تمشي تكاد تتخلع على الأرض المفروشة بالمربعات البازلتية، وما إن عبرت بهم شارع التجارة الذي يقسم كفر عشري إلى نصفين، ومدرسة الشيخ عبد الله النديم وبيته المهجور، ثم دخلوا في شارع المكس حتى شاهدوا حركة قليلة للسيارات وتراماً يمشي وئيداً شبه

خال من الركاب. لقد غمر النور الشوارع، ونزل غفارة من فوق العربة، وأوقفها لحظات تناول خلالها قناع الغارات، الذي يضعه في مخلاة معلقة أسفل العربة، ووضعه فوق وجهه، ثم صعد العربة من جديد، وأخذ يضرب الحمارين برفق يحثهما على الإسراع. ابتسم كل من مجد الدين ودميان من قناع غفارة، أو طربوشه العجيب، ولم يتكلما.

بالمحطة لم ينتظرا كثيراً، سرعان ما وصل القطار. لم يكن فوق رصيف المحطة غير ثلاثة رجال من البدو يقفون متباعدين. وصل القطار فركب كل منهم في عربة. قطار قديم عرباته حال لونها وسقط قشر دهانها وعلق بها غبار ورمال كثيرة. ودخلا إلى العربة المقابلة لهما مباشرة، وضعا متاعهما فوق الرف وجلسا متقابلين، على يسارهما النافذة مهشمة الزجاج مغلق شيشها فلم يفكرا في فتحه فلا تزال في الجو برودة ستزداد مع حركة القطار وتدخل إليهما من فتحات الشيش. وكما يحدث عادة لأي راكب أدارا رأسيهما يستطلعان العربة فلم يجدا بها أحداً غير رجل متوسط العمر، في عمر كليهما تقريباً، يرتدي جلباباً سمني اللون نظيفاً وعمة بيضاء حريرية وتحت الجلباب يبرز الصديري الصوف التقليدي.

كان الرجل قد عقد ذراعيه أمام صدره وارتاح فوقهما برأسه ونام، وراح يصدر شخيراً مزعجاً، لكنه كان ينهض فجأة من نومه فزعاً يمسح لعابه الذي سال على جانبي فمه ثم ينام مرة أخرى لحظات كي ينهض فزعاً من جديد يمسح لعابه، وهكذا..

القطار يمشي مترنحاً، لا مواعيد خلفه أو أمامه. يخرج من الإسكندرية في الصباح ليصل مرسى مطروح في اليوم التالي ليبدأ العودة في اليوم الثالث. ليس هناك قطار آخر غير قطار الثالثة بعد الظهر الذي ينتهي سيره عند الحمام في السابعة مساء ليعود في الليل. لقد اختصرت حركة القطارات على هذا الطريق الحربي الآن ولم تعد ترى فوقه غير قطارات

العتاد العسكري أو الأسري أو الجنود. ورأى مجد الدين ودميان على يسارهما لأول مرة بحيرة مريوط تمتد منبسطة إلى مسافات بعيدة فوقها فلائك صغيرة وصيادون بكروا في العمل فراحوا يلقون بشباكهم الصغيرة ثم يجذبونها لتظهر فيها لآلىء الأسماك المتحركة تبرق من بعيد تحت ضوء الشمس الذي ملأ الدنيا الآن. على اليمين كانت بحيرات مريوط أيضاً لكنها المنطقة الجافة التي تميل إلى اللون الأحمر. إنها أحواض الملح التي ستأخذ اللون الأبيض مع اشتداد الصيف، فتبدأ الأوناش والعمال في جمع الملح الخشن ونقله إلى الشركة القريبة لتنعيمه وتعبئته. هنا يتجمع الماء في الشتاء ليبدأ في الجفاف مع بداية الربيع ويصير في الصيف ملحاً. مساحات كبيرة من الأراضي الملحية ذات اللون الوردي تبهر الأبصار وتمنعها في آن. لقد ترك دميان مكانه أمام مجد الدين على يسار العربة وانتقل إلى اليمين يطل من النافذة مخلوب الرشد.

جاء صوت الرجل النائم.

ـ هذا ملح وهذه أحواض ملح. بعد شهر يصير أبيض.

لقد تكلم الرجل النائم ومسح بكمه اللعاب السائل على شفتيه ودعك عينيه وسعل عدة مرات فتغيرت نبرة صوته وصارت أكثر صفاء وقال:

ـ من هنا يخرج الملح لكل بر مصر.

ـ يا سلام!

قال دميان الذي ما زال مأخوذاً فصار الرجل يقول:

ـ مصر كلها خير يا أخ. كلها نعم. شوف قدرة ربك. على الناحية هذه الماء يتبخر ويطلع ملح وعلى الناحية هذه الماء مهما يتبخر لا ينتهي وتظل البحيرة مليئة بالسمك.

كان مجد الدين قد بدأ يهتم بالحديث الدائر. ولم يمنع نفسه أن

تشرئب عنقه ليرى من مكانه أحواض الملح الوردية الباهرة ممتدة بعيداً.

ـ أين نحن الآن؟

تساءل دميان فرد الرجل:

ـ في المكس.

ـ إذن بعدنا عن الإسكندرية.

ابتسم الرجل وتساءل:

ـ إنتم رايحين فين؟

ـ العلمين.

ضحك الرجل بلطف وقال:

ـ مشواركما طويل.. الله معكما..

قال ذلك ووقف فبدا يميل إلى القصر. كان مربع الجسم أو يكاد. وضع يديه في جيبي الجلباب الجانبية وتقدم ناحية مجد الدين ثم جلس جواره. عاد دميان وجلس أمامهما. أخرج الرجل علبة سجائر معدنية مذهبة من جيبه وقدم لكل منهما سيجارة ثم تساءل:

ـ هذه أول مرة تدخلان فيها إلى الصحراء؟

ـ نعم.

أجابه دميان فسكت الرجل قليلاً ثم قال:

ـ أنا دخلت الصحراء ومشيت فيها بعدد أيام عمري، لا أعرف في الدنيا غير الصحراء.

تساءل مجد الدين:

ـ شغلك فيها أم سكنك؟

ـ الاثنان.

كان القطار قد بدأ يتوقف فسكتوا قليلاً. قال الرجل:

ـ محطة «مرغم» أول محطة.

صعد إلى العربة أعرابي شاب يرتدي لباس البدو الواسع وفوقه الحرملة وعلى الجميع الحرام الصوف وفوق رأسه القلنسوة ذات الزر الصغير. تطلع إلى العربة الخالية وإليهم ثم أسرع إلى عربة أخرى بعد أن ألقى السلام بلهجة سريعة جداً.

ـ كل البدو هنا يتحدثون بسرعة ويمشون بسرعة. قضيت عمري كله أسأل نفسي عن سبب ذلك ولم أصل إلى إجابة. الصحراء تجلب السكينة والهدوء لكن البدو هنا يتحدثون ويمشون كأنهم يركبون الخيل. أي والله.

ضحك دميان وابتسم مجد الدين من حديث الرجل الغريب هذا. واستمر الرجل يتحدث فقال:

ـ أنا اسمي رضوان الفلاح. الحقيقة اسمي رضوان أحمد لكن البدو أعطوني لقب الفلاح لتمييزي وفي الغالب يسمونني رضوان إكسبريس!

ـ وأنا مجد الدين.

ـ وأنا دميان!

اتسعت عينا الرجل وعاد يتساءل:

ـ دميان!

ـ أجل. نصراني يعني.

قال دميان ذلك ليقطع على الرجل أي دهشة أو ارتباك. تأمله الرجل لحظات ثم قال:

ـ غريبة!

ـ ما هو الغريب يا أخ رضوان؟

تساءل دميان فتأمّله الرجل ملياً ثم قال:

ـ يا أخ دميان. أنت ذكرتني بصاحب لي كان اسمه دميان. كان يبيع البيبسي هنا بالقطارات. كان ولد حلو. شكله حلو وكلامه حلو وروحه حلوة. لا أعلم بأي أرض هو الآن. الله يخرب بيت الحرب والإنجليز والألمان سوا.

وطال الصمت بينهم هذه المرة حتى تساءل مجد الدين:

ـ لكنك لم تقل ماذا تعمل في الصحراء وأين تسكن.

ـ قلت لكما إن شهرتي رضوان إكسبريس. الحقيقة أنا شغلتي «أبونيه» هل تعرفانه؟

ارتبك دميان ولكن مجد الدين قال بعد تردد قليل:

ـ أظن الأبونيه هو مثل البوسطجي لكن في القطر.

ـ عليك نور يا أخ مجد الدين. هو مثل البوسطجي لكن لا يعمل بمصلحة البريد ولا بأي مصلحة. يعمل لنفسه. يحصل على تصريح من السكة الحديد بركوب القطار. وأبونيه يعفيه من قطع التذاكر. يقوم بنقل بريد ومتاع الناس بين المحطات. أنا كنت أبونيه قطار الصحراء حتى دخل موسيليني الحرب. كان لي ركن عند باب العربة هنا، ركن الأبونيه. في كل محطة كانت الناس تأتي تعطيني خطابات وحقائب وقفف وسلال وصناديق وكل ما يمكن إرساله كبر أو صغر واسم المطلوب توصيل الحاجات إليه واسم المحطة. في كل محطة يأتي من يريد الاستلام. وإذا لم أجد أحداً أترك الرسائل وغيرها مع ناظر المحطة. لكن الناس كانت تأتي إليّ كثيراً تسألني عن الرسائل وغيرها بشكل عفوي. وكثيراً ما كانوا يجدون رسائل لديَّ من ذويهم أو أحبائهم. في كل محطة كنت أرى وجوه الناس فرحانة وهي تتسلم رسائلها، وكنت أرى اللهفة على

الرسالة. وفي كل محطة أرى الوداعة والطيبة في عيون الذين يرسلون لأبنائهم أو أقاربهم أو أحبائهم. كثيراً ما كان الواحد يبكي بمجرد تسلم رسالة. طبعاً. الرسالة في الصحراء شيء آخر. كنت أعرف مضمون الرسائل من عيون المرسلين والمستلمين. الآن. الآن كما تريان. القطار خال. الأعمال توقفت في الصحراء. صارت ميدان قتال. لم يبق غير الجيوش والبدو. الجيوش لا ترسل رسائلها مع «الأبونيه» والبدو لا يرسلون شيئاً. عاد أبناء الريف والدلتا إلى قراهم ولم يبق غيري وهذا القطار الذي لا أحب أن أفارقه.. في الحقيقة لا أعرف أين أذهب إذا فارقته..

وسكتوا. تبادل مجد الدين ودميان النظرات وكان القطار قد توقف بإحدى المحطات فسكت الأبونيه ثم وقف يطل من النافذة على الرصيف ويقول:

ـ لا أحد ركب ولا أحد نزل. حتى ناظر المحطة لم يخرج من غرفته.

وتحرك القطار..

* * *

«ماذا تكون جيوش الأرض؟ انظر إلى القمر في السماء...»

22

لم ير مجد الدين مثل هذا الاتساع الأجرد من قبل. في الريف اتساع حقاً لكن من الحقول الخضراء الطرية فوقها طيور سابحة وعلى أرضها يمرح الناس أو يعملون هادئي البال، وجوار الترع والسواقي يلهو الأطفال وتنام البهائم وتتحدث النساء ويلعب المسنّون «السيجة» والبط يعبث في الماء والصفصاف يلقي بظلاله عليه، وعلى الأرض ظل الكافور والكازورين والجميز والسنديان.

الآن لا يرى مجد الدين غير خلاء بلا طيور أو أشجار وهو يقف فوق رصيف محطة العلمين القصير الواطىء وجواره يقف دميان يدور بعينيه في الاتساع المهيب مأخوذاً غير مصدق، لقد تحرّك القطار وئيداً ثم ابتعد فبدا لهما مثل دودة خضراء مزركشة بالأصفر تتلوى ذاهبة إلى اللانهاية. آلات عسكرية بعيدة متناثرة وغيرها متجمع في مناطق متباعدة، وبينها أكشاك خشبية وجنود يتحركون عراة تلمع أجسادهم من بعيد فوق الشورتات الكاكي التي يرتدونها وجنود آخرون لا تلمع أجسادهم السوداء. إن القطار الذي أسرع كدودة صفراء مبرقشة مدهشة والسماء العالية البعيدة وتجمعات الجنود الغامضة والخلاء الذي لف كل شيء أعطى كلاً من

مجد الدين ودميان الإحساس بالضياع. لقد نزل معهما عدد قليل من البدو من العربات الأخرى، خمسة أو ستة، لكنهم لم يتوقفوا للحظة. كان في انتظارهم عدد آخر فارتفعت أصوات الجميع كأنها قعقعة سلاح. لم يميِّز مجد الدين ولا دميان كلمة أو حرفاً ورأيا الجميع يسرعون في الطريق الضيق المجاور للمحطة الذي تحف به البيوت المنخفضة من حجر أبيض هجرها سكانها. كان البدو يثيرون التراب كما لو كانوا قطيعاً من الماعز تجري تتقافز بالعرض. وكان ناظر المحطة قد خرج يستقبل القطار وتحدث قليلاً مع السائق وما كاد القطار يتحرك ويلتفت الناظر ليعود إلى حجرته حتى رآهما، مجد الدين ودميان، عرفهما وتقدم منهما على مهل، لن ينزل بالمحطة أحد يرتدي البنطلون الأخضر والسترة الخضراء غير عمال السكة الحديد.

فوق الرصيف غرفتان من خشب مسقوفتان بالخشب أيضاً على شكل «جملون» مدهونتان باللون الرمادي الكابي وتبدو طبقات الدهان متعددة في إسراف الجاهل بالصنعة كونت ما يشبه التجلط بين ألواح الخشب.

ـ أهلاً وسهلاً.

قال ناظر المحطة الذي كان قد اقترب منهما للغاية وهما مذهولان من الاتساع، ولم يردا عليه، أو هو الذي لم ينتظر الرد فسألهما:

ـ أنتما العاملان الجديدان؟

ـ نعم.

ـ تفضلا.

مشى أمامهما فتبعاه إلى غرفته. في اللحظة نفسها ظهر بباب الغرفة الأخرى رجل آخر وقف يتأملهما. حدثه ناظر المحطة قائلاً إنهما عاملا المزلقان الجديد فرحَّب بهما الرجل بدوره وقبل أن يدخلا غرفة ناظر المحطة هتف دميان:

- متاعنا على الرصيف.

ابتسم ناظر المحطة وقال بهدوء:

- لا تخف. لا شيء يضيع هنا.

في حجرة الناظر جلس الجميع. دميان ومجد الدين على دكة خشبية صغيرة والناظر وزميله على دكة أخرى مقابلة. وقال الناظر:

- اسمي هلال زميلي اسمه عامر. هو عامل التغراف. إن عمله شديد الأهمية. التأخر في إرسال أو استقبال برقية يؤدي إلى نتائج سيئة.

- وسكت قليلاً ونظر إلى عامر كمن يحتاج دليلاً على صدق كلامه ثم تابع الحديث - قد يأتي يوم لا تكون فيه حاجة لوجوده أو حاجة لوجودي. ربما لن يبقى غيركما لتنظيم حركة سيارات الجيش على المزلقان. القطارات الحربية لن تنقطع. عملكما إذن مهم جداً. ونحن هنا نتبع القيادة البريطانية مباشرة. المسؤول عن احتياجاتنا ضابط إنجليزي صغير يعرف قليلاً من العربية. متغطرس لكنه خفيف الدم. وهنا مسكن قديم للمصلحة خال الآن. أنا وعامر نحتل بيتاً فيه. يمكن لكما احتلال البيت المجاور لنا. قطار المياه يأتينا كل أسبوع وإذا انقطع نستعيرها من الجنود. لا أحد في البلدة غير قليل من البدو هناك من الجنوب في النجع. قد يظهر بعض رجالهم عند حضور قطار المياه يملأون جراكنهم لكنهم لا يختلطون بأحد. يمشون بسرعة ولهم هيئة الجمال. الواحد منهم طويل يكاد يقع على بعضه!، أي والله - وضحك وحده ثم استمر يتحدث - إنهم لا يشعرون بالجوع أبداً. يعيشون على دهن أجسادهم. تماماً كالجمال. يحتفظون بكرامتهم بإصرار، تأتي من بينهم راعية مع غنمها وأخيها الصغير، حذار أن يعابثها أحد. . لكن لم أتشرف باسميكما. .

- مجد الدين.

تردّد دميان قليلاً في النطق باسمه. كان قد ضاق ذرعاً من كلام الرجل وثرثرته، أجبره الأدب خصوصاً أن هذا هو اللقاء الأول، على الإنصات والاحتمال، ثم قال:

ـ دميان.

بدا الامتعاض على وجه عامر التلغرافجي. وسكت هلال لحظات ثم قال كأنما يرد على عامر الذي بان امتعاضه:

ـ على أي حال عيسى نبي ومحمد نبي أيضاً.

لكن دميان لا يزال يفكر في حديث الرجل الطويل. الرجل يحمل اسم هلال ويبدو وجهه كالبدر حقاً.

كان الوقت ظهراً. وكانت بحجرة الناظر ساعة حائط دائرية كبيرة فحمد مجد الدين الله على ذلك وإلا كيف كان سيعرف مواقيت الصلاة ولا جامع يرتفع هنا صوت أذانه ولا ساعة يحملها هو أو دميان. لم يكن يدري أنه سيلتقي بجنود مسلمين من جنود الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس!

نهض ناظر المحطة ليصحبهما ليرتاحا قليلاً في البيت الذي خصّص لهما.

ما كادوا يخرجون إلى الرصيف حتى رأوا أمامهم الضابط الإنجليزي الشاب يرتدي الشورت الكاكي والقميص نصف الكم. كانت ركبتاه سوداوان مما يعني أنه جندي قديم في الصحراء على عكس الجنود الجدد في العادة تبدو ركبهم بيضاء وحمراء باستثناء الأفارقة طبعاً، وكان على رأس الضابط كاب أخضر.

ـ هاللو مستر سبايك.

هتف ناظر المحطة بسرعة، تظاهر الضابط بعدم الاستماع إليه فخاطب

مجدالدين ودميان:

- Do you speak English?

فهما السؤال لكنهما توقفا عن الإجابة. ارتبك مجد الدين للغاية. على الفور طار ذهنه إلى حمزة الذي كان يعرف قليلاً من الإنجليزية، كثيراً في الحقيقة بالنسبة إليهما، لقد ضاع حمزة.

وأحس مجد الدين بأنّ وجهه يربّد وأن الغم يصعد إليه وإلا ما هذه الحرارة ودبيب النمل في وجنتيه. طامن رأسه وأطرق ينظر إلى الأرض وكاد يسأل الضابط الشاب ما إذا كان يعرف شيئاً عن حمزة! وسمع الضابط يتساءل بضيق موجهاً بصره إلى ناظر المحطة.

- What happened helal?

لكن دميان قال فجأة:

ـ يس سير أفندم؟!

حملق فيه الضابط مضطرب الوجه حقاً. وعلى وجوه الجميع ظهر الاضطراب. لقد أدرك مجد الدين الفوضى الكبيرة التي سببها كلام دميان غير المفهوم. وقال الضابط لنفسه بصوت مسموع:

- «two Foolish egyptians»?

ثم قال للناظر:

ـ كله donkies.

لكن دميان ابتسم وقال وقد احمرّ وجهه للضابط:

ـ أنت تعرف عربي ووندر فول جنرال.

وتأمّله الضابط الذي لم يملك في النهاية غير أن يبتسم فزال الرعب من على وجهي هلال وعامر والاضطراب من على وجه مجد الدين. وقال الضابط لهلال:

- Give them some blankets, Tins of Food, and anything else they may need.

صحبهما هلال حتى سكن المصلحة ثم تركهما بعد أن فتح لهما باب البيت الذي سيقيمان فيه.

لقد سبق لمجد الدين أن دخل سكن المصلحة بالإسكندرية ليلة أن دعاه شاهين ليرى ابنه رشدي، وتقدم مجد الدين ودميان بطلب إلى المصلحة للحصول على بيت في ذلك السكن في أقرب فرصة. ها هما يتسلمان بيتاً في سكن لا يختلف كثيراً عن سكن الإسكندرية. لكن هنا الجدران بلا بلاط ولا دهان. الأحجار البيضاء الكبيرة حال بياضها واتسخت. بين شقوقها تظهر العناكب وحشرات صغيرة. السقف الخشبي هنا أيضاً قديم وبلا دهان. يعرف مجد الدين أن ابن آدم إذا حل بمكان صار فيه سيد الكائنات. سيقوم إذن بتنظيف الجدران وطرد كل الحشرات حتى لو اضطر لتسليط لهب وابور الجاز عليها. سيجد لدى الجنود مادة تقضي على الحشرات تماماً. ولعل دميان يشعر بالإحساس نفسه. إن أياً منهما لا يستطيع أن يمضي بقية حياته هنا. هذه أرض حرب. أرض موت. هذا الخلاء الرهيب سيبتلع كل شيء.

وفتح مجد الدين نافذة الغرفة الداخلية الصغيرة فرأى أمامه الصحراء القاسية. كان دميان بالصالة الخارجية الملحقة بالغرفة يتأمل الجدران الشديدة القذارة ويندهش من الرائحة التي تصعد من دورة المياه الجافة والخالية من المواسير والحنفيات، ودخل الغرفة فوجد مجد الدين جامداً أمام النافذة يطل على الفراغ السحيق. قال:

- وحد الله يا شيخ مجد! هل اشتقت لأم شوقية؟

أخذ مجد الدين نفساً عميقاً وطويلاً وقال:

- أنا فلاح يا دميان لم أر صحراء من قبل.

ـ وأنا والله لم أر الصحراء من قبل وحالي من حالك رغم كوني ابن مدينة . .

وسكت لحظات فكر فيها مجد الدين في نظام العمل. سيكون عليهما اقتسام اليوم على المزلقان، إذا عمل نهاراً عمل دميان ليلاً والعكس. وتساءل مجد الدين:

ـ تفتكر أن الوقت هنا ممكن أن يمر يا دميان؟ يخيل لي أن الدنيا لا تتحرك.

تأمله دميان في دهشة، بينما انتاب الخجل مجد الدين الذي ظهر لأول مرة مرتبكاً لا يتجمل بالصبر. وقال دميان بوداعة:

ـ دع الملك للمالك يا شيخ مجد. قادر ربنا يخلي العمر يجري مثل طرفة العين.

ثم ضحك وقهقه وقال:

ـ هل تعرف يا شيخ مجد فيما فكرت الآن؟ في الأبونيه، رضوان إكسبريس، يخيل لي إنه غير طبيعي.

ـ لأنه لا يترك القطار؟

ولم يرد دميان. سكت وسكت مجد الدين بدوره. وظهر أن دميان يكاد يشرع في البكاء. بل دخل فيه بالفعل وقال فجأة:

ـ أنا حاسس إني سأموت هنا يا شيخ مجد.

بسرعة أخذ الشيخ مجد الدين سمت الواثق القديم، وربت على كتف صديقه وقال:

ـ مثلك لا يموت سريعاً يا دميان. أجل لا بد أن يكون في الدنيا ناس أخيار.

* * *

الوقت لا يتوقف من أجل أحد. وقعت غارة خفيفة على الإسكندرية

التي وفد عليها مهاجرون ليبيون من برقة أودعوا الحجر الصحي ثم سكنوا منطقة المكس والورديان. رآهم دميان ومجد الدين في القطار القادم من مرسى مطروح والذي توقف كثيراً بالعلمين. لقد صعد مجد الدين يجوس بين العربات ولم يقابل وجهاً يعرفه غير رضوان إكسبريس الذي كان يجلس بين جماعة من المهاجرين يتحدث إليهم بحماس. ويستمعون إليه مسحورين بكلامه. لم صعد إلى القطار ذلك اليوم؟

حقاً إنه لا يعرف لماذا صعد إلى القطار ذلك اليوم. الآن يدرك إنه كان يود لو قابل حمزة. لا يزال يخيّل إليه أن إهانته لحمزة كانت وراء ضياعه. لا تكفي أبداً سماحة حمزة لينسى. وكانت خمس سنوات قد مرّت على جلوس الملك فاروق على العرش فاحتفلت البلاد لمدة أسبوع بعيد الجلوس الملكي بدءاً من السادس من مايو. وأقيمت حفلة عظيمة بدار سينما مترو بالقاهرة بأسعار خاصة لفيلم ذهب مع الريح يخصص دخلها لضحايا الحرب وامتلأت الصحف بصور فيفيان لي وتحتها إعلانات عن كافة المنتجات المصرية والعالمية. العطور والأثاث والثياب والأحذية والغذاء والسيارات والسجائر والكبريت والأسبرين والرياضة والصحة. وافتتح مطار جديد في الإسكندرية بالنزهة لاستقبال الطائرات المدنية في وقت توقفت فيه جميع الرحلات المدنية من أوروبا وأمريكا إلى مصر، واحتفل اليونانيون بزجاجة ملأها مقاتل يوناني من تراب أثينا وكان الاحتفال بكنيسة «مارسابا» اليونانية الأرثوذكسية القريبة من بيت «كفافيس» المهجور وكتب اليونانيون على الزجاجة من الخارج «التراب الحر للشعب الحر» وفي يانصيب المواساة فاز بالجائزة وقدرها «عمارة» ثمنها خمسة وعشرون ألف جنيه مدرس إلزامي لكن ظهر له زميل يدعى محمد إسماعيل قال إنه اشترك مع المدرس في شراء ورقة اليانصيب التي ثمنها خمسون قرشاً إذ دفع كل منهما نصف الثمن ومن ثم فهو يستحق نصف

الجائزة، وأن المدرس الذي كانت الورقة في حوزته رفض إعطاءه نصيبه مما حدا به لرفع قضية أمام المحاكم لوقف فوز المدرس حتى يقر له بأحقيته في نصف الجائزة. وانتشرت القصة بالإسكندرية وعموم القطر، فمطت أم حميدو شفتيها ثم مصمصتهما وقالت «الما فاز بها واحد مش عفت ولا بهجت طلع له فيها عفريت». وفرّ الهر هيس بطائرته إلى اسكتلندا حيث هبطت بها وعثر عليه أحد الفلاحين الاسكتلانديين فعرفه إذ سبق له أن رأى صورته في الصحف.

انشغل العالم بهروب هيس، قيل إنه مختل عقلياً، وقيل أيضاً إنه الرجل الثالث في الحزب النازي بعد هتلر وجورنج، وظهر أن هيس قد أمضى طفولته في مصر وتعلم في إحدى مدارسها الإنجليزية وكان والده يقيم بالإسكندرية قبل الحرب العالمية الأولى وفتح مكتباً كبيراً في الشارع الذي حمل اسم سعد زغلول فيما بعد، وكان وكيلاً للشركات الملاحية الألمانية وشركات الأدوية والأقلام الحبر والرصاص والأجهزة الكيمائية كما أقام بعض الوقت في «زفتى» قبل الاستقرار في الإسكندرية ومن زفتى أرسل «روفائيل مسيحة» الحاصل على ليسانس الآداب رسالة إلى الأهرام يقول إن زفتى من أكثر بلاد مصر علاقة بهيس فقد أمضى فيها طفولته مع والده صاحب الورشة الميكانيكية ومطاحن الغلال ولا تزال عزبته تعرف باسم «عزبة هيس» وبين سكان زفتى من لا يزال يذكر الفتى هيس وهو في الخامسة عشرة يمشي في شوارع البلدة قبل الحرب الأولى. تساءل صاحب الرسالة في النهاية ترى هل كانت هذه البلدة المتواضعة على شاطىء النيل تدري أنها ستكون يوماً موطن شخصية يتحدث عنها العالم بأسره وهو يجتاز أعظم حرب عرفتها البشرية؟.

وتبارت الصحف في إثبات أن ميلاد هيس كان بالإسكندرية عام 1896 ثم التقى مع هتلر عام 1914 في الجبهة الغربية وكانا صغيرين متبرمين من

الحياة والحرب فاجتمعا على الإحساس بالظلم الفادح الذي لحق بألمانيا وتزاملا في الكفاح، لكن المشكلة أن الألمان الآن يقولون عنه إنه مجنون. والسكارى في حانات الإسكندرية يعترفون بجنونه ليس لأنهم يصدقون الدعاية النازية لكن لأنه عاش طفولته في «زفتى!؟» ويضحكون، وكتب أحد الشعراء في المسألة فقال:

أفـــرارٌ أم خـــدعـــة أم جـــنـــون؟
أم تـــرى هـــيـــس أخـــطـــأتـــه الـــمـــنـــون؟
إن يـــكـــن فـــرّ فـــالـــفـــرار قـــبـــيـــح
أو يـــكـــن جـــن فـــالـــجـــنـــون فـــنـــون

وفرَّ عزيز المصري ومعه الطياران عبد المنعم عبد الرؤوف وحسن ذو الفقار صبري بطائرة قصدوا بها مقابلة روميل في الصحراء لكن الطائرة سقطت بهم قرب قليوب فاختفوا في الريف ورصدت الحكومة ألف جنيه لمن يرشد عنهم.

وحدث إنزال جوي بالغ الضخامة على جزيرة كريت، هجوم فريد لم يسبق أن رأى العالم مثله سبقه ضرب جوي عنيف لمدة ساعات وقال جورنج إن الهجوم المظلي على كريت هو أعظم ما يمكن أن يقوم به سلاح مظلات في العالم.

كان على الإنجليز أمام هذا الهجوم الجبار إخلاء الجزيرة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من جنودهم في السفن إلى الإسكندرية. وترك الملك اليوناني ووزراؤه الجزيرة إلى إنجلترا، وفي النهاية كان هناك ثلاثة عشر ألف قتيل وجريح وأسير فضلاً عن ألفين من جنود البحرية البريطانية، ووصل الإسكندرية ستة عشر ألف جندي. كانت كريت أعجوبة أخرى من أعاجيب الانتصارات الألمانية التي لم يبد حتى الآن أنها يمكن أن تنتهي.

سافر دميان إلى الإسكندرية آخر الشهر وعاد في اليوم التالي مباشرة حيث صرف راتبه وراتب مجد الدين وأمضى ليلة مع أسرته. قال لمجد الدين إنه لم يستطع الابتعاد عنه، وضحك وقال. وربما هي أيضاً بريكة تشدني بعنف.. وبريكة هي الأعرابية الصغيرة التي حذرهما ناظر المحطة من الاهتمام بها. رآها دميان تأتي كل يوم في الضحى بأغنامها مع أخيها الصغير فلم يستطع أن يمنع نفسه عن التقدم للحديث معها، وجدها تحدثه بعفوية وعذوبة فأعطاها شيئاً مما يعطيه له الجنود الهنود الذين تعرف عليهم، وبصفة خاصة البسكويت والشيكولاته، وصارت بريكة تعود تاركة خلفها في الفضاء رائحة الوبر والغنم لا تفارق أنف دميان حتى المساء، يحمل الرائحة معه إلى البيت ويندهش ويدرك أن قصة ما ستحدث بينه وبين الفتاة الصغيرة ويشعر بالخوف ممزوجاً بفرح غريب.

وكانت فتاة في الصعيد قد ماتت ودفنت ثم بعد ستة أيام عادت إلى الحياة فكانت معجزة شغلت الناس لكن أحد الشعراء دعاها للعودة إلى القبر حيث الهدوء، بدلاً من الحياة في هذا العالم القاتل. وفي القاهرة تم تقسيم المدينة إلى مناطق محددة يتبع كل منطقة عدد من الحانوتية لا يحق لهم العمل في منطقة أخرى مما دعا إلى احتجاج عام للحانوتية على هذا التقسيم وتقدموا بعريضة الاحتجاج إلى قلم القضايا الداخلية قائلين إن عددهم كبير بحيث لا يمكن تقسيم القاهرة بينهم كما أن موتى مصر الجديدة ليسوا مثل موتى السيدة زينب، وهذا التقسيم سيجعل موتى كل منطقة تحت رحمة حانوتييها الذين سيحتكرون الدفن والتكفين وسيبالغون في طلب الأجرة لانعدام المنافسة الحرة، وأطلق سراح عدد من المعتقلين من محجر الطور بينهم عشرون شخصاً من الإسكندرية بينهم حميدو الذي أقامت له أمه الزينات على مدخل البيت في الشارع شبه الخالي من السكان الآن حتى إن عدداً قليلاً للغاية هم الذين جاءوا يهنئونه بالعودة إذ عرفوا أن اعتقاله إنما كان بسبب أعماله ضد الإنجليز وليس لخطورته على

الأمن كما قالت الحكومة، وسمع مجد الدين ودميان صوت الطائرات الألمانية وهي تمر في الفضاء فوقهم بالليل، ورأيا أضواءها الحمراء وانطلقت المدفعية المضادة من أكثر من مكان بالصحراء، لكن الطائرات كانت عالية للغاية فلم تصب بسوء، لم ينم مجد الدين ولا دميان تلك الليلة. جلسا أمام البيت قليلاً، كان القمر يقترب من الاكتمال.

تساءل دميان:

ـ ما اسم القائد الألماني الجديد هنا؟

ـ روميل.

ـ اسم مخيف.

كانا يستمعان حيناً لضجة، أو حركة لبعض الجنود بعيداً، أو عدة أعيرة نارية تنطلق في الفضاء، أو دبيب حشرات ليلية لا ترى، بعد وقت ليس بالقليل رأوا الطائرات تعود والمدفعية المضادة تطاردها في الفضاء بلا نتيجة، لقد جاءت الطائرات وعادت أكثر من مرة تلك الليلة.

كانت تأتي مرتفعة فوق الصحراء، وما تكاد تدخل فضاء المدينة حتى تقترب من الأرض بلا حذر، بل بتصميم من يعرف أهدافه بدقة، وكان أهم أهداف تلك الليلة المدفع الجبارة بباب سدرة الذي لم تفلح الغارات السابقة في إسكاته. مدفع مضاد للطائرات تدور معه ثلاثة كشافات قوية تمسح له السماء ولا تنقطع قذائف الطائرة طوال الغارة. استطاعت غارات الليلة إسكاته ودمرت عشرات البيوت في باب سدرة وكرموز، ما كاد يمر يومان حتى وقعت غارة أعنف طوال الليل أيضاً شملت الأحياء الوطنية والأجنبية واستهدفت السفن والبوارج البحرية اليونانية والإنجليزية الراسية في الميناء وكانت القذائف تسقط في الماء فترتفع أعمدة هائلة من المياه تشق سواد الليل، لكن الغارة لم تصب السفن بسوء بقدر ما أصابت الأحياء الشعبية. خرج الناس في ذعر بثيابهم إلى محطة السكة الحديد

تاركين خلفهم كل شيء ووصلوا إلى القاهرة بجلابيبهم وبيجاماتهم وملابسهم الداخلية أيضاً. بينما وصلت نساء كثيرات بقمصان نومهن. تحولت الإسكندرية إلى محرقة لأهلها ومات كثير من العائلات ولم يتبق من بعضها غير طفل واحد أو امرأة واحدة أو فتاة وظهرت لأول مرة مشكلة النساء والفتيات الوحيدات والأطفال المشردين. وأقيمت على عجل خيام الإيواء بأبي حمص وكفر الدوار ودمنهور وقرى الغربية والمنوفية لكل من ليس له أهل بالريف أما الذين لهم أهل فقد وقف أهلهم في انتظارهم بالمحطات حتى أسوان واستقبلوهم بلا زاد ولا مال ولا ثياب، وجوه شاحبة للرجال وذعر على وجوه الأطفال وحسرة في عيون النساء وحزن مقيم. لقد بدا أن ألمانيا قد قررت تدمير المدينة.

اتسع عمل رجال الإنقاذ في الأماكن المنكوبة، وانقطت الخضر والفاكهة عن الوصول وتوقفت السلخانة عن الذبح بعد غارة قصيرة سقطت معظم قذائفها على السلخانة نفسها لقربها من مستودعات الذخيرة العسكرية. لقد اختلط لحم الباعة مع المشترين بلحم الذبائح ذلك اليوم وسال دم كثير. وقيل إن ألمانيا تعمل على إخلاء المدينة من سكانها تمهيداً لدخولها بلا مقاومة. وشن الإنجليز هجومهم على روميل غير أنه بعد يومين، في السابع عشر من يونيو، انقلب كل شيء على عقبه، وبدأ الحلفاء يتقهقرون تحت حماية الطيران ويتعقبهم روميل مما جعل تشرشل ينحي الجنرال ويفل وينقله ليكون القائد العام في الهند وفي الوقت نفسه يأتي بأوكنلك القائد العام السابق في الهند ليكون القائد العام للشرق الأوسط. كذلك وقعت أربع حوادث كبرى في ليلة واحدة هي ليلة الثاني والعشرين من يونيو. قبض في أولها على سيدة تسمى بدرية بتهمة تعدد الأزواج، وفي منتصف الليل وقعت غارتان عنيفتان على الإسكندرية تسببتا في هروب جماعي عند الفجر، وعند الفجر كان ريبنتروب وزير

خارجية ألمانيا يقدم إعلاناً رسمياً بالحرب على الاتحاد السوفيتي إلى سفيره في برلين، وفي نهاية الليلة، كان مجد الدين قد قام وصلى الفجر وجلس منتشياً يقرأ القرآن. لاحظ أن عيني دميان تلمعان في الظلام فقال له:

ـ الليلة. وضعت زوجتي يا دميان.

ـ. . . . .

ـ لقد رأيتها، زهرة، توقظني من نومي، تقدم إلى كوبا من اللبن الدافىء. . هل تعرف ماذا وضعت؟

ـ. . . . .

ـ غلاماً، لقد قلت لها إذا حدث تسمية شوقي، ولا بد أنها فعلت ذلك.

* * *

«كان النهار.. ولم اكن قد هيات نفسي لاستقبالك.
ولكنكِ دخلتِ قلبي. بلا دعوة ولا سابق معرفة..»

23

قبل الهجوم على روسيا كان الفوهرر قد طلب من قادة جيوشه أن لا يعامل الجنود الروس كأسرى حرب. بل يقتلوا ويبادوا. وبعد الهجوم على روسيا استمع العالم إلى خطبة تشرشل في الإذاعة البريطانية وانتشرت كلماته عن هتلر: «سنقاتله في البر وسنقاتله في البحر وسنقاتله في السماء حتى ننقذ الأرض من شروره ونحرر الشعوب من قبضته وكل من يقاتل هتلر سنمد له يد العون وكل من ينحاز إلى جانبه فهو عدونا اللدود».

كانت الجيوش الألمانية الجرارة تكتسح الجبهة الروسية الواسعة الممتدة من القطب الشمالي حتى البحر الأسود، والطائرات الألمانية تحطم سلاح الجو الروسي على الأرض، وخمسة ملايين جندي ألماني يغزون المدن والقرى فسقطت «ريجا» عاصمة «لاتفيا» بعد أسبوع من القتال وحدثت معركة فاصلة في «مينسك» فبدأ الروس ينسحبون أمام الألمان انسحاباً كبيراً، لم تفلح الغارات البريطانية الشديدة على ألمانيا في التخفيف عن الروس، كذلك لم تفلح الغارات البريطانية هنا في الصحراء

على ميناء طرابلس وتدمير سفن ألمانية وإيطالية فلقد ردت الطائرات الألمانية والإيطالية بغارة على الإسكندرية التي لم تعد يرى فيها شخص إلا مهاجراً، وجه ستالين رسالة عبر الإذاعة إلى هتلر ينذره فيها بالخسران الذي لحق بنابليون بونابرت في القرن الماضي، لكن الروس تراجعوا أكثر إلى خط ستالين الدفاعي وبدأت حرب مدفعية على الحدود المصرية بين الجيشين الثامن والفيلق الأفريقي وحضر الملك جورج من إنجلترا إلى الإسكندرية واستعرض الفيلق اليوناني ووزع النياشين على جنوده وزارت أم المصريين الإسكندرية وبدأت الدعوة للزواج من السكندريات المهاجرات الوحيدات قبل أن تتلقفهن سوق الرذيلة وأنشئت مراكز إطفاء وإنقاذ جديدة وتغير طعم الماء بالمدينة فقيل من أثر القنابل التي سقطت بالمحمودية وقيل بسبب الطحالب التي نمت في النيل بكثرة واحتفلت البلاد بعيد ميلاد الملكة نازلي في الوقت الذي وضعت فيه فلاحة طفلاً أقرب إلى القرد مات فور ولادته، كما توفي الرئيس بادوفسكي أول رئيس لجمهورية بولندا بعد الحرب الأولى والذي صار من أكبر عازفي البيانو بأمريكا بعد أن ترك الحكم، وعرضت الست بديعة استعراض (لازم نضحك)، ووصل الألمان إلى أبواب كييف وعبروا نهر «دنييستر»، وبلغ عدد الغارات على الإسكندرية خلال شهر يونيو أربع عشرة غارة قتلت سبعمائة وخمسة وعشرين وجرحت ثمانمائة وخمسين وتسببت في هجرة أكثر من أربعين ألف إنسان وتشريدهم، وبلغ عدد الجنود المقاتلين من الناحيتين على الجبهة الروسية تسعة ملايين جندي في حرب لم تعرفها البشرية ضراوة، ونجح الألمان في احتلال سمولنسك وبسارابيا وأخذوا طريقهم ناحية لينجراد فاشتد القتال هناك وبُني بالإسكندرية مائتا مخبأ جديد رغم كثرة المهاجرين، وظهر نشاط ياباني كبير في الهند الصينية حيث احتلت اليابان قواعد جديدة لها ونزلت بجيوشها في المستعمرات الفرنسية والغريب أن الشواطىء في الإسكندرية شهدت زحاماً هذا العام

وبدأت الدعوة لعودة المهاجرين من الموظفين لانسياب الأعمال الحكومية وبلغ ما خسره الألمان خلال شهر في روسيا مليوناً ونصف المليون من الجنود وثلاثة آلاف دبابة وألفين وثلاثمائة طائرة وبدأت حرب العصابات الروسية الموجهة ووقعت في مصر أول غارة على بورسعيد قتل فيها سبعة عشر وجرح ستون شخصاً، وبلغ طول سعيد غازي، مائتين وخمسة وستين سنتيمتراً، ويأس الأطباء من علاج نمو عظامه بهذا الاطراد السريع لكن سعيد غازي، صار حديث المرضى في المستشفى الأميري وصار كل زائر لمريض يحرص على المرور بقسم العظام ليرى سعيد غازي ولو من بعيد. لقد صرفت المستشفى لسعيد كرسياً متحركاً حيث لم يعد قادراً على الوقوف فضلاً عن السير والاصطدام بأفاريز الأبواب، وازدادت قطارات الجنود القادمة إلى الإسكندرية، إنجليز وإيرلنديون وسكوتلنديون ومن جنوب أفريقيا وهنود وأستراليون ومتطوعون من اليونانيين والفرنسيين واليهود، والقطارات تفرغ كل هؤلاء في العلمين التي منها يعاد إرسالهم إلى مرسى مطروح والسلوم حيث يجري القتال المتقطع على الحدود، وعندما وصلت فرقة من الجنود الاسكتلنديين بزيهم الموسيقي المميز حاملين القرب على صدورهم، وقفوا مصطفين فوق الرصيف وراحوا يعزفون موسيقى مرحة صاخبة ملأت الفضاء، ووصل صوتها إلى دميان في البيت فجاء مسرعاً إلى المحطة ليروعه المشهد الجميل للجنود السعداء العازفين. تحرك القطار مغادراً المحطة وتحركوا هم على الطريق الأسفلتي الضيقة شمالاً حيث تقع بعد نصف كيلومتر ثكنات الجنود والقيادة.

ـ ماذا يفعل هؤلاء الآلاتية هنا؟

تساءل دميان الذي صار يقف بين ناظر المحطة وعامل التلغراف ومجد الدين.

أجاب هلال ناظر المحطة:

ـ إنهم جنود اسكتلنديون مهمتهم العزف في القتال.

نظر إليه مجد الدين ودميان بدهشة واستمر هو يتحدث:

ـ آخر فرقة اسكتلندية جاءت هنا كانت في العام الماضي، مشت مع الجنود ودخلت معهم ليبيا أيام جرازياني. لم يعد منهم أحد.

ـ إذن هم يحاربون مع الجنود؟

هكذا تساءل مجد الدين فقال ناظر المحطة:

ـ إنهم يعزفون وسط القتال، تشجيع يعني!

وصمت الجميع ثم تفرقوا إلى أعمالهم بينما ظل دميان واقفاً وحده قليلاً وسط ضوء النهار الباهر القوي. (يا إلهي. أي ظلم)، وكانت الفرقة الأسكتلندية قد ابتعدت وسط الثكنات واختفت فلم يعد يراها وذاب صوت آلاتهم في الضوء والصمت الكبير. ولأول مرة يرى دميان جيداً العتاد العسكري المتفرق على أرض الصحراء حتى انقطاع النظر. مئات من الدبابات الصفراء المغطاة بالشبك الأصفر أيضاً المائل للإخضرار وفوقها أشجار صبار صناعية وشوك للتمويه، ومئات من العربات التي لا تتوقف عن الحركة ويأتي هدير صوتها من بعيد خافتاً، وصفوف من المدافع الجبارة التي لم تستخدم بعد والمغطاة بالشبك والأغصان وأكشاك صغيرة متفرقة، وحركة لا تنقطع للجنود داخلين أو خارجين من الأكشاك والخنادق، وفجأة أحس دميان بحاسة الشم تستيقظ عنده. لم يطل تفكيره وأدرك أنها بريكة قادمة في الطريق بأغنامها وأخيها وعرقها الصحراوي. وظهرت فجأة ثلاث عربات جيب يقودها جنود عراة الصدر قادمة من الشمال مسرعة تتقافز على الأرض غير المستوية وشوهد أخو بريكة الصغير يتدحرج وسط الغنم قائلاً «هر. هر». منظماً حركتها في الشارع الأسفلتي متوقعاً الخطأ من العربات الجيب. كان هو يأتي من الجنوب والجنود من الشمال لكنه استطاع أن يتفاداهم ببراعة ووقفت بريكة تتابع حركة العربات المسرعة وتقذفها بكلمات غير مفهومة.

كان دميان يعرف أنها ترعى الغنم خلف المحطة فسبقها إلى هناك. وأقبلت هي رقيقة صغيرة لامعة ثيابها تحت الشمس. كانت هذه أول مرة يرى زياً بدوياً، عرف منها فيما بعد أن هذا الذي فوق هو «حولي» من الحرير المشغول على نول يدوي وبه قصب مذهب، وهو يشف عن «مريول» من القطن، يغطي كل البدن، أما الذي فوق الحولي فهو حرملة من الجلد تغطي الصدر حتى الوسط ستخلعها قريباً حين يشتد الحر، وعلى رأسها «برنوس» من الحرير أيضاً يغطي الرأس كله وينتهي بزهور مصنوعة من الخيوط الملونة والترتر الأصفر والأبيض يبرق في الضوء ولا يترك من رأسها إلا خصلة شعر ناعمة تستدير فوق الجبهة فتلفت النظر إلى لمعانها، وإلى الحاجبين الرقيقين تحت العينين الواسعتين السوداوين والأهداب الطويلة الجارحة، وكان يلمح عند القدمين، وفوق الحذاء الصغير المشغول أيضاً بالأسلاك المذهبة والفضية نهاية سروال ذات كرانيش دقيقة.

وتمنّى لو حدث له اليوم ما حدث أول مرة التقاها حين توقفت شاة صغيرة لأمر غير مفهوم جوار قدمه والتصقت بساقه حتى إذا اقتربت منها بريكة وراحت بعصا رفيعة طويلة تخذها راحت الشاة تلتف حول ساق دميان ولا تبتعد أبداً حتى ضحك دميان في النهاية، وضحكت بريكة التي شم رائحة المسك تتضوع من تحت رائحة الوبر العالقة بثيابها. لم يفكر أن هذه الفتاة الصغيرة قد تتعطر بالمسك أو غيره، فكر على الفور أن هذه رائحة عرقها. لم يفكر أنه قد مضت عشرة أيام على وصوله هنا ـ ذلك اليوم الذي التقاها أول مرة ـ وأن شوقه للأنثى قد بدأ يستيقظ، لقد وجد نفسه يبحلق في عينيها السوداوين الواسعتين وسمرة وجهها الشاحب قليلاً والنونتين الجميلتين في خديها ورأى شفتيها ترتعشان دون كلام، وكذلك وهي تتحدث، وفوق الشفة العليا زغب ناعم مثير حقاً ورأى كفيها من

تحت كمي جلبابها صغيرين رقيقتين يكاد يظهر عظمهما تحت الجلد.

ـ هرّ. هرّ.

قالت تبعد الشاة التي التصقت بساق دميان وأبت الابتعاد حتى إن دميان اضطر لإبعاد ساقيه عن بعضهما لتدور بينهما الشاة المتلذذة بالوضع، ولما صار الموقف مربكاً قال دميان:

ـ اتركيها لي، لا تكسري قلبها.

لكن بريكة انحنت وحملت الشاة ورفعتها إلى صدرها فاستكانت بين ذراعيها وادعة ذلولاً، وولت خطمها نحو دميان وثغت بصوت رفيع فضحك دميان وبريكة التي قالت:

ـ تعرفك.

استمرت تضحك وهي تسرع إلى الغنم وأخيها وتركت الشاة بينها وزعقت «هر» وكذلك أخوها الصغير وابتعد الجميع عن دميان الذي وجد نفسه في اليوم التالي ينتظر بريكة ومعه قطع البسكويت والشيكولاته.
وتكرر اللقاء كل يوم لوقت قصير حتى وجد نفسه اليوم يقول لها:

ـ بريكة. أنا أعرف اسمك من هلال ناظر المحطة. لكنك لم تسألي عن اسمي.

ابتسمت وقالت:

ـ إش اسمك؟

ـ دميان.

سكتت قليلاً ثم رددت الاسم «دميان. دميان. دميان».

وقالت:

ـ مليح.

تركها قليلاً إلى البيت، وعاد حاملاً كمية أكبر من الشيكولاته اليوم.

كانت تنتظره خلف المحطة، وأمامها غير بعيد، يدور أخوها حول الغنم حتى لا تشرد إحداها. أكلت بريكة قطعة شيكولاته باستمتاع

وقدمت لأخيها قطعتين وقال دميان.

ـ تحبين الشيكولاته؟

ـ نعم. بوي يشتريها لي حين يسافر العامرية، هذه أفضل.

ووجد دميان نفسه يتحدث بطريقتها:

ـ إش يدير بوكي في العامرية؟

ـ يبيع ويشري.

ـ يتاجر؟

ـ لا. يبيع ويشري.

سكت دميان مرتبكاً لكنها أضافت:

ـ يبيع الغنم ويشري ما نريد. لا يزيد، لا يربح كثير.

فهم دميان وبدا له الأمر معقولاً لكنه وجد نفسه يقول دون إرادة:

ـ وهذا الصغير؟

ـ ما له؟

ـ يخبر بوكي إنك جلست معي.

ضحكت وقالت:

ـ أنا أخبر بوي.

أدهشته شجاعتها. تساءل:

ـ لا تخافين؟

ـ ليش أخاف. نحنا عرب، بدو، لا نخاف.

ثم سكتت وقالت:

ـ اسمك دميان؟

ـ أجل.

ـ اسمك ينفع لبنية!

أدرك أنها تثني على الاسم، أو هكذا فهم، وأدهشه أنها لم تنتبه لكونه مسيحياً. ربما انتبهت ولم تتوقف عند ذلك. وربما كانت هي أيضاً مسيحية. أجل. إلى هنا هرب مسيحيون قديماً أيضاً كما هربوا إلى الصعيد. لكن ماذا يفيده من كل هذه الأوهام، أو حتى الحقائق.

وتعددت اللقاءات، ووجد دميان نفسه مرة يمسك بكفيها يقلبهما أمامه وهي تتركهما له ضاحكة مبتهجة. لم تكن يديها دافئتين. كانتا باردتين وشيئاً فشيئاً ارتفع الدفء إليهما وسرى منهما إليه. لكن ألا يمكن أن تكون هذه البدوية الصغيرة تعامله كوالدها ولا شيء آخر؟. يمكن أن لا يفكر في ذلك. النظرة السعيدة العميقة في عينيها تشي بغير ما يفكر ولن يسمح لشيء أن يجرده من هذه السعادة التي منحتها له الصحراء الطيبة على غير موعد.

* * *

بالليل. أمام البيت وهما ممددان على الأرض يدخنان وعيونهما تلمع في الظلام سأل دميان مجد الدين:

ـ قل لي يا شيخ مجد، هل يمكن لمثلي أن يحب؟

كانت النسمة الطرية تمشي ثقيلة في الصحراء، لكنها على كل حال كانت تمشي فترطب من غلَّة قيظ النهار. لم تكن هناك قطارات كثيرة بالليل. مجرد قطار واحد يأتي عادة عند الفجر فكانت هناك فرصة دائماً لأن يمضيا الليل معاً أو معظمه، والحقيقة أنهما لم يستطيعا اقتسام اليوم بينهما في العمل إلا بضعة أيام في البداية. بعد ذلك كان كل منهما يلحق بالآخر عند المزلقان، يجد نفسه وحيداً في البيت ويأخذه الضيق فيذهب

إلى زميله يجلس معه. هكذا صارا لا يفترقان في العمل أو في البيت.

كان عامر قد مرّ بهما منذ قليل تاركاً مكتب التلغراف لينام مبكراً كالعادة فلا أحد يرسل برقية بالليل. لا أحد يرسل برقية بالنهار أيضاً الآن. ليس من عادات البدو إرسال البرقيات، الجنود القادمون من خلف المحيطات والبحار لديهم طرقهم العسكرية الخاصة لإرسال البرقيات. لقد توقف عامر أمامهما بعد أن ألقى السلام وردا عليه ونظر حوله ثم سألهما:

ـ هل تعرف من أرسل آخر تلغراف اليوم من المكتب؟

تأملاه قليلاً في ارتباك، لكن دميان ضحك قال:

ـ محمد عبد الوهاب.

ـ لا.

ـ إذن هو الملك فاروق.

ابتسم مجد الدين لكن عامر لم يبتسم. ظهرت السخرية في عينيه من كلام دميان وقال بهدوء:

ـ أنا الذي أرسلته.

نظر دميان إلى مجد الدين الذي بانت الشفقة في عينيه وقال لعامر:

ـ اجلس معنا قليلاً يا عامر، لا بد إنك زعلان من شيء، اجلس وتكلم.

وفوجئا بعامر يجلس أمامهما. قدم له مجد الدين سيجارة تناولها الرجل بأصابع مرتعشة. أشعلها له دميان، وراح هو ينفث دخانها بهدوء ويتكلم كأنه يحدث نفسه.

ـ أي والله كان مني أنا، أرسلته لمراتي، طلبت منها أن تحدثني عن الأولاد.

وسكتوا لحظات ثم تساءل مجد الدين:

ـ عندك أولاد يا عامر؟

وعادوا إلى السكوت حتى قال عامر:

ـ ليس عندي أولاد يا شيخ مجد. أنا لم أنجب.

وحطّ صمت أعمق من كل مرة. كان مجد الدين قد تلقى برقية حقيقية تعلنه بولادة زهرة لغلام حمل الاسم الذي أراده، شوقي، قال لدميان في فخر «تماماً كما رأيت في المنام» وبقدر ما أحسّ بالأسف لعدم قدرته على السفر أحس بالرضا لأن الله استجاب له وأعطاه الولد. لقد فكر في ذلك كله الآن بينما قام عامر وانصرف وسط الظلام فراحا يتأملاه معاً، وفجأة قال دميان:

ـ لم تجبني على سؤالي يا شيخ مجد؟

ـ أي سؤال يا دميان؟

ـ سؤالي عمن أحب.

ـ ماذا تقول يا رجل. اعقل. نحن فقراء يا دميان. ثم إنك متزوج ولديك أولاد.

وسكتا وبدا دميان غير مقتنع بكلام صديقه. فكر كيف يمنع الفقر الحب، ولماذا يكون على المتزوج أن لا يحب غير زوجته وبيته. لقد تحرك قلبه ناحية بريكة ولا قدرة له على إيقافه. تساءل:

ـ ماذا حدث لو أحب مسيحي مسلمة؟

لم يرد مجد الدين. تذكر على الفور قصة رشدي وكاميليا. القصة التي يعرفها دميان تعود معكوسة هذه المرة لكنها القصة نفسها لا جدال، فكيف إذن يسعى دميان بقدميه إلى الجحيم؟ وسمع دميان يقول «دنيا لبؤة وزمن خئون» وهنا قال مجد الدين:

ـ لا الدنيا لبؤة ولا الزمن خئون يا دميان. نحن الذين نجلب المتاعب

لأنفسنا، ليس من المعقول أن تضعف في السيطرة على قلبك إلى هذا الحد. .

ـ قلبي غلبني يا شيخ مجد. قلبي تعلق بالعذاب لا أستطيع منعه. لم أكن أقصد. أنا لم أقصد أن أفعل أي شيء في حياتي. هل قصدت أنا أو أنت أن ننتقل للعمل هنا في العلمين وسط الصحراء؟ بل هل قصدنا أن نلتقي أصلاً.

لم يجد مجد الدين جواباً وفكر في شيء يقوله يخفف من حدة دميان وانفعاله. بعد قليل قال:

ـ الرجل منا بعد الأربعين تهفو نفسه إلى الفتيات الصغيرات، لو تجمّل قليلاً بالصبر مرت الأزمة بخير.

لكن دميان كان يفكّر في سبب آخر لحب بريكة. ربما لأنها تأتي من وسع. من أين تأتي؟ لا يعلم. يسألها فتقول «من غادي» وتشير إلى الجنوب. إلى أين تذهب هي والغنم وأخوها؟ لا يبدو أبداً أنها ذهبت إلى مكان معروف، خيمة أو بيت أو نجع. يبدو له دائماً أنها صعدت إلى السماء أو نزلت إلى سابع أرض. تأتي من عند الله وتعود إليه. هي دائماً تأتي من وسع. تظهر فيتسع صدره بالهواء الذي لا يعرف مصدره في هذا القيظ. وقال كأنه يحدث نفسه:

ـ حياتنا في غيط العنب زنقة يا شيخ مجد. بالكاد نشم قليلاً من الهواء على المحمودية. هواء ثقيل غالباً يفسده عليك قتيل يمر فوق الماء، هذه البنت لغز يا شيخ مجد، كما تأتي تروح. ربنا هو الذي أرسلها كي تشغلني. أنا لا أرفض ما يرسله الرب. هل أستطيع؟

وسكتا. . ورأى مجد الدين دميان وهو يمسح دمعة بأنامله.

* * *

«واجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نقبّل بعضنا بعضاً بقبلة طاهرة..»

24

أعلن دميان أنه من الغد لن يأكل البولوبيف واللحوم والبيض والجبن وكل ما أصله روح ما عدا السمك. من الغد سيبدأ صوم العذراء الذي يستمر أسبوعين.

كان الغد هو السابع من أغسطس، وأول مسرى، ورأى دميان مجد الدين قد شرد عنه قليلاً فقال:

ـ تذكُر أني حدثتك عن الصوم الكبير أقدس أصوامنا الذي ينتهي بعيد القيامة، ها هو صوم العذراء، وهناك صوم الميلاد ومدته ثلاثة وأربعون يوماً وينتهي بعيد الميلاد في السابع من يناير، وهناك صوم يونان لثلاثة أيام. هل تعرف يونان؟ إنه مذكور في القرآن. لقد ظل في بطن الحوت ثلاثة أيام وخرج ليعظ أهل نينوى ويهديهم للإيمان.

كان مجد الدين يفكر كيف نسي الشهور القبطية التي لم يكن لينساها أبداً. لا يوجد فلاح لا يعرف الشهور القبطية ولا يتابعها، وها هو يسمع من دميان أن الغد أول مسرى. لكنه انتبه إلى الكلام فقال:

ـ إنه سيدنا يونس عليه السلام.

وسأله دميان:

ـ طيب. هل تعرف نينوى؟ اسم حلو لكن أهلها كانوا أشراراً.

ـ أظن نينوى هذه بالعراق. وأظنها بلد سيدنا إبراهيم عليه السلام.

ـ أنت تعرف أشياء كثيرة يا مجد الدين. أشياء كثيرة جداً. في صيام يونان نمتنع عن الأكل نهائياً ثلاثة أيام، ومنا من يصومها يوماً يوماً حسب القدرة. كذلك نصوم الأربعاء والجمعة من كل أسبوع طول العمر ما عدا الخمسين يوماً التالية لعيد القيامة. أيام الخماسين في مصر، وهي الفترة التي ظل فيها السيد المسيح على الأرض بعد القيامة. نصوم الأربعاء لأنه اليوم الذي اتفق فيه اليهود على صلب المسيح، ونصوم الجمعة لأنه يوم الصلب نفسه، وهما يومان للصوم المقدس لا نأكل فيهما السمك مثل الصوم الكبير تماماً.

عاد مجد الدين إلى شروده. كيف حقاً لصديقه بهذه المعارف الدينية وهو الذي أمضى حياته شارداً متشرداً لم يتردد على الكنيسة إلا منذ عام؟

وتساءل مجد الدين باسماً:

ـ لكنك لا تصوم الأربعاء ولا الجمعة.

ـ صعب عليّ يا شيخ مجد. أنا أيضاً لا أصوم صيام يونان. لا أقصد. لم أتعود. وسبق وقلت لك إن أيامنا لا تختلف كثيراً عن الصيام. أنا أصوم أكثر مما هو مفروض ـ سكت دميان قليلاً ثم تساءل فجأة ـ هل كل قصص الأنبياء موجودة في القرآن؟

ـ نعم.

ـ وهي أيضاً موجودة في العهد القديم. سبحان الله. على أي حال أحببت أن أعلمك بصيامي حتى لا تتقيد بطعامي.

ـ سأصوم معك يا دميان. سآكل مما تأكل وأمتنع عما تمتنع؟

وكالعادة مشى الوقت. كتب مجد الدين خطاباً أرسله إلى زهرة مع الأبونيه رضوان إكسبريس. طلب منه أن يضعه في أقرب صندوق بريد بالإسكندرية. كذلك طلب منه دميان أن يمر على عائلته بغيط العنب ليطمئن عليهم بعد الغارات الثقيلة في الأيام الماضية. وضحك دميان وهو يقول لرضوان «أخيراً وجدت لك عملاً وزبائن». وحمّله بكرتونة مليئة بالشاي والبسكويت والجبن الشيدر والبولوبيف والشيكولاته ليوصلها إلى عائلته، كما قدم هو ومجد الدين له عدداً من علب الشاي والبولوبيف والجبن فبدا مسروراً غاية السرور. صحيح أنهما لن يستطيعا إرسال أشياء معه كل يوم، ولا حتى كل أسبوع، لكن هناك شيئاً يفعله بدلاً من هذا الفراغ المعتم. إنه لم يقابل في القطار أحداً من المسافرين بعد لقائه بمجد الدين ودميان، فقط قليلاً من البدو، يدخل الواحد منهم إلى العربة فيجده جالساً ينظر إليه بحذر ثم يترك العربة كلها إلى أخرى، وإذا حدث ودخل العربة جماعة منهم جلسوا معاً يتحدثون بسرعة فلا يستطيع متابعة حديثهم ولا فهمه، رغم أنه قبل الحرب، أيام الزحام، كان يفهم كلام البدو ويتحدثه. ما الذي حقاً جرى له؟ منذ بدأت الحرب يستسلم للفراغ، ويغط في النوم فوق الكرسي وحيداً في العربة الواسعة.

كان دميان قد تغيّر شكله كثيراً. ضربت السمرة وجهه من أثر الحر والصهد، وخلع لباس عمال السكة الحديد المميز ولبس لباس الجند الصيفي، شورت كاكي وقميص بنصف كم، وبانت ساقاه رفيعتين للغاية فوق حذائه الأسود العسكري الضخم. وسأل دميان ناظر المحطة أن يفعل مثله. في اليوم الثاني ظهر الناظر (هلال) في الملابس العسكرية كذلك عامر، لكن مجد الدين ظل على حاله. الذي يدهش دميان أن مجد الدين، وهو الأبيض البشرة مثله، لا تضرب فيه السمرة، بل يزداد وجهه احمراراً، ولولا أنه يعيش معه في بيت واحد لقال عنه إنه يدهن وجهه

بزيت سحري، أو يشرب الخمر بكميات كبيرة. أجل. لشاربي الخمر وجوه حمراء دائماً. هكذا معظم اليونانيين والإيطاليين بالإسكندرية، صحيح أحياناً ينطفىء لون وجوههم كما يحدث مع كثير من القبارصة، لكن هؤلاء في الحقيقة يشربون الخمر كثيراً ولا يأكلون. هم أفقر الأجانب بالإسكندرية لا يتفوق عليهم في الفقر غير اليهود. لكن البنات اليهوديات جميلات دائماً. هكذا قال دميان لنفسه وهو يشعر بالزهو لهذه المعارف التي تتدفق في رأسه.

أحسّ بشوق شديد إلى زوجته. سأل فجأة:

ـ يا شيخ مجد. هل سنظل دون نساء؟

بوغت مجد الدين حقاً بالسؤال، لكنه قال بهدوء:

ـ حكمة الله يا دميان، ثم إنك تستطيع أن تسافر إلى زوجتك.

ـ وأتركك!؟

ـ أستطيع أن أقوم بعملك حتى تعود. كما ترى نحن تقريباً نعمل معاً. يمكن لك أن تمضي بالإسكندرية الوقت الذي تشاء. لا أحد يأتي للتفتيش علينا.

ـ والضابط سبايك.

ـ إنه في النهاية إنجليزي، لن يخاطب الحكومة المصرية من أجل عامِلَيْن. ثم إنني سأقوم بعملك كما قلت.

ـ لكني فكرت في شيء آخر. إنهم يقيمون للجنود حفلات ترفيهية. تأتي فتيات الأتسا للترفيه عنهم مرة كل شهر. ما رأيك أن تطلب من سبايك الترفيه عنا بفتاتين يهوديتين؟

ضحك مجد الدين بشدة، وقال إنه لو طلب ذلك من سبايك يمكن أن يقتله. وضحكا معاً، وفكر دميان في سهولة سفره إلى الإسكندرية. وأنه

بهذه الطريقة لن يعاني أزمة مع الجنس. مجد الدين هذا شيخ عجيب، يقدم أصعب الحلول بسهولة شديدة. كيف حقاً لم يصل دميان إلى هذا الحل وبدا له دائماً مستعصياً مع قربه؟

هذا هو الفارق بينه وبين مجد الدين. لو لم يكن مجد الدين فلاحاً أو عاملاً بالسكة الحديد لكان سياسياً وربما قائداً عسكرياً. لكن دميان سرعان ما أدرك أنه لن يستطيع السفر، إذ ليس من السهل عليه أن يترك مجد الدين وحيداً في هذا الفراغ. يا له من شعور جميل هذا الذي يحسّ به ناحية صديقه. يدرك ذلك حين يسافر لصرف المرتب نهاية كل شهر. لا يستطيع البقاء في الإسكندرية أكثر من ليلة على كثرة شوقه لزوجته. لكنه أيضاً لا يستطيع الانقطاع عن رؤية بريكة. ربما هي السبب الحقيقي لبقائه. لكن حبه لمجد الدين سبب قوي بلا جدال..

* * *

بالليل، في ليلة عيد العذراء، بعد آخر يوم صيام، قام دميان من نومه على صوت خافت يتردد في الغرفة. كان مجد الدين قد أطفأ لمبة الغاز والظلام شديد للغاية، لكن عيني مجد الدين تلمعان في الظلام وصوت أنفاسه يرتفع. جاءه صوت دميان من الجانب الآخر:

ـ ما لك يا شيخ مجد؟

ـ لا شيء يا دميان.

ـ لكنك تبكي. هل تذكرت زهرة والأولاد؟

ولم يرد مجد الدين. لقد أحسّ الليلة بمدى الظلم الفادح الذي وقع عليه. كيف حقاً يتحمل أن لا يرى زهرة بعد الولادة ولا يرى ابنه المولود؟ لماذا حقاً لا يستطيع أن يسافر؟

كيف ترك نفسه فريسة لكل هذا الظلم ولم يقاوم؟ ما الذي في صدره

يجذبه بعيداً عن القرية ويجعله يرضى كما لو كان الخروج رغبته؟ الحقيقة أنه ظلم نفسه بقدر ظلم العمدة له.

ـ أجل يا دميان، تذكرت زهرة والأولاد لكني حمدت الله. بكيت لحظات ثم حمدت الله وشكرت فضله.

وسكت، وبدوره دميان سكت لبعض الوقت ثم قال:

ـ تعرف يا شيخ مجد أحياناً يخيّل لي أننا سنجنّ هنا. أنا أحب بنت صغيرة لا أعرف من أين تأتي أو تذهب، وأنسى أهلي. وأنت تتذكر أهلك ولا تفكر في الذهاب إليهم. هل كان مجنون ليلى يعيش في صحراء كهذه؟ إذا كان كذلك فلقد كان على حق في جنونه.

ضحك مجد الدين في النهاية واستمر دميان في الحديث لكن كما لو كان لنفسه:

ـ أجل. إذا حدث وأُصيب أحد بالجنون فلا بد أن يكون على حق ـ ثم قال لمجد الدين ـ وقريباً سيلتمس لنا الناس العذر. أقصد أنا وأنت.

ابتسم مجد الدين من هذا الحديث العجيب الذي يتدفق من دميان الذي نهض للتو من نومه.

ـ تقصد أن الصحراء ستصيبنا بالجنون.

ـ لا. هذا الظلام الذي حولنا. لا أحد يتحدّث في الظلام الآن غيرنا في كل الدنيا. نم يا شيخ مجد. أنا سأنام. غداً عيد العذراء. لا بد أن أجد عدداً من الجنود الأجانب يحتفلون بالعيد. سأمشي لأول مرة في الصباح ناحية ثكنات الجنود لعلي أجد قداساً أشاركهم فيه. اسمع يا شيخ مجد. اقرأ بعض آيات القرآن لتساعدك على النوم هادىء البال.

وسكتا قليلاً، لكن مجد الدين تساءل:

ـ ماذا تقولون في القداس يا دميان عن ستنا مريم؟

ـ نقول كلاماً كثيراً لا أحفظ منه إلا القليل.

وراح يرتّل بصوت عميق:

مجد مريم يتعظم
في المشارق والمغارب
كرّموها عظّموها
ملّكوها في القلوب
قد تلالت وتعالت
ما لنورها غروب

* * *

ـ الصافي... النعيم.. هذا اسم جميل يذكرنا بالجنة.

هكذا دار الحوار بين الجندي السوداني ومجد الدين، ودميان يقف مندهشاً حتى أنه قال:

ـ ظننتك تقول إن شخصاً مات وانتقل إلى جنة النعيم.

ضحك الجندي السوداني الطويل الضخم ولمعت أسنانه البيضاء في الفضاء المنير.

لقد نَمَتْ صحبة بين مجد الدين ودميان وعدد من الجنود الهنود منذ الأيام الأولى، حينما شاهد مجد الدين ساعة الحائط في حجرة ناظر المحطة اطمأن على تحديد مواقيت الصلاة، لكنه ما لبث أن سمع في اليوم نفسه أذان العصر يتردّد وسط الصحراء رفيعاً شجياً نبيلاً وإن لم يحدد مصدره، وعرف أن بين الجنود من الهند مسلمين كثيراً ما تأتي جماعات منهم إلى المحطة لإفراغ قطارات المعدات الحربية. ووجد مجد الدين نفسه يقف عند المغرب على رصيف المحطة ويؤذن. كان يعرف أن الهواء سيحمل الأذان وراءَ ناحية الجنوب لذلك أذن بقوة كبيرة وبعدها

وقف يصلي المغرب وخلفه هلال وعامر. في اليوم التالي أقبل أحد الجنود الهنود. شاب صغير أسود البشرة، يميل سواده إلى الاصفرار مربع الوجه ضيق العينين لامعهما، بل وتشع عيناه ذكاء وفوق رأسه العمة الهندية الشهيرة. جاء يسأل عن الذي أذن المغرب أمس. قال إن صوته جميل. ووعد بأني يأتي عند الظهر يصلي خلف مجد الدين. عند الظهر جاء ومعه عدد من زملائه لا يكفون عن المرح. هؤلاء هم الذين راحوا يقدمون كميات كبيرة من البسكويت والشيكولاتة والشاي والجبن والبولوبيف والعدس أيضاً والأرز لمجد الدين ودميان وهلال وعامر معاً، وسمع مجد الدين أسماء لم يسمعها من قبل عن بلاد لم يكن يصدق أنها موجودة. كل الناس تعرف أن هناك دولة اسمها الهند، لكن أن ترى منها أحداً فهي معجزة حقيقية. محمد زمانا ومحمد صديقي وويلايات خان وكرم سنج وتشوهري رام وراج بهادور وغلام سَرْور وأرشاد وجنه وإقبال، مسلمون وهندوس لا تزيد أعمارهم عن الثامنة عشرة بل وأكثرهم في السادسة عشرة. أطفال لا أكثر حملتهم الإمبراطورية البريطانية إلى بلاد غير بلادهم. من بيشاور ولاهور وكراتشي وبومباي وكشمير لم يفكر أحد أبداً يوم ميلادهم أنهم سيحاربون في الصحراء المصرية جيوشاً من أوروبا وفي الأغلب سيموتون. .

كان عامر قد دخل في اكتئاب عميق فصار يمضي اليوم في مكتب التلغراف ينقر بأصابعه على المنضدة ولا أحد يأتيه ببرقيات ولا يستقبل برقية من أحد، أما هلال فكان ينام معظم الوقت في انتظار الركاب الذين لا يسافر منهم غير واحد أو اثنين من البدو في اليوم، لكن كان يضاف إلى عمله تنظيم الحركة، ضبط التحويلات الأرضية، فهناك خط حديدي قديم ينتهي أمام المحطة وهو الخط الذي تبيت فوقه القطارات التي تأتي حاملة العتاد العسكري حتى تتحرك عائدة فارغة في اليوم التالي كذلك

كان عليه تشغيل السيمافور، وإرخاء ذراعه المقسمة الألوان بين الأبيض والأسود حال تحرك القطار، ويفعل ذلك من تحويلة مجاورة للرصيف، كذلك تغيير زيت القنديل المثبت في مؤخرة ذراع السيمافور مرة كل أسبوع وإشعاله بالليل كل مساء. كان هناك إذن مبرر لبقائه.

اليوم انضم الصافي النعيم إلى الجنود الهنود، جاء وحده دون دعوة من أحد. قال إنه كان يسمع الأذان يأتي من ناحية المحطة ويندهش، ثم رأى الهنود يتسربون وقت الصلاة ناحية المحطة فقرر أن يتبعهم. لقد تأخر لكنه أخيراً فعلها. وقال دميان ضاحكاً:

ـ شكلك يقول إنك من السودان!

بانت الدهشة والابتسامة على وجه مجد الدين وقال الصافي النعيم بأدب:

ـ من أم درمان.

ـ أطيب ناس.

قال دميان ولا يزال مجد الدين في دهشة. كان يعد الشاي على نار جوار الكشك الذي تركوه وجلسوا خلفه عند المزلقان، قدم كوباً من الشاي للصافي الذي رشف منه وقال:

ـ شاي تقيل حلو.

قال دميان:

ـ شاي إنجليزي.

قال الصافي النعيم:

ـ لا. شاي سيلاني يعبئه الإنجليز، لكن الأهم أن الصنعة عربي.

ـ الله. الله. الله يفتح عليك يا صافي يا نعيم يا حتة من الجنة!

هتف دميان مثل طفل وضحك مجد الدين بسعادة وسكتوا ليسأل الصافي دميان عن اسمه:

ـ دميان.

عادوا للسكوت. سكوت سرت فيه نسمة طرية. كانت الشمس قد أوشكت على الاختفاء تاركة الفضاء للظلام. الحمرة تعمّ الأفق وتشعل فيه النار. وكان الوقت العاشر من أغسطس الموافق منتصف رجب فبدأ البدر في الصعود مبكراً وليس أجمل من الصحراء وفوقها البدر وقال الصافي:

ـ دميان اسم جميل، اسم قديس!

كان دميان قد سكت معتقداً أن اسمه قد صدم الصافي، أو بالأحرى ديانته لكن جاء الأمر مخالفاً لاعتقاده فقال:

ـ أشكرك يا أخي.

وبعد لحظة سأله مجد الدين:

ـ هل توجد هنا فرقة سودانية؟

ـ فرقة كبيرة جداً، هل تخمن عددها؟

هكذا أجاب الصافي فقال دميان:

ـ ألف.

ـ لا.

ـ خمسمائة.

ـ لا. لن تعرف. أنا أريحك. اثنان فقط. أنا وسراج خليفة. سراج في مرسى مطروح يعمل بخدمة مكتب القائد العام، المستر كانينجهام الآن. أنا هنا. كنت أتعجب من حاجة الإمبراطورية البريطانية لنا نحن الاثنان من السودان، لكنها الآن فرّقت بيننا، وتحتاج إلى كل منا في موضع بعيد عن الآخر. لم تعد تفيدني الدهشة. لا بد أنني أساوي الفرقة النيوزيلاندية أوالهندية، وإلا لما احتفظوا بكل منا على حدة. أنتما أيضاً وحدكما. ماذا تفعلان. لا شيء ويمكن للجيش أن يقوم بعملكما لكنكما هنا مثلنا.

بعد صمت طويل انتهوا فيه من شرب الشاي قال مجد الدين:

ـ ربما نحن هنا لنلتقي بك ونعرفك، وهذا وحده يسعدنا وزيادة.

* * *

جاء برد الصحراء مع السحب السوداء تتدافع كالثيران الهمجية إلى الشرق فوق البحر وفوق البر. يقول دميان لنفسه «من هنا إذن يذهب المطر إلى الإسكندرية كما تذهب الغارات» وفجأة هتف يسأل مجد الدين «من الذي وضع الإسكندرية في مكانها؟» ولم يجبه مجد الدين، وإن تأمله باندهاش شديد.

لقد تغيّرت ملابس الجنود. لبسوا السراويل الطويلة والسترات الصوف فوق القمصان التي صارت بأكمام والجوارب السميكة حتى أسفل الركبة والأحذية الشمواه مرتفعة الرقبة ووضعوا في فوهات بنادقهم قطعاً من الخرق حتى لا يتسلل إليها الندى بالليل إذا كانوا بالخلاء.. ارتفعت في الأرض الواسعة المظلمة التي حجبت السحب نجومها وقمرها ألسنة النيران العشوائية يصنعها الجنود، الهنود بصفة خاصة، من مخلفات الصناديق والكراتين للتدفئة. وبدا أن هناك استرخاء عسكرياً فالقطارات لم تعد تأتي بعتاد ولا جنود من الشرق ولا أسرى من الغرب. لم ير مجد الدين أو دميان جديداً غير الهندي الضخم الذي يتجاوز الأربعين من العمر، والذي يمشي في خيلاء الفيل، صاحب العمة الضخمة الذي جاء أكثر من مرة مع الهنود الشباب ولم يشاركهم الصلاة. جلس بعيداً مع القليلين من الهنود السيخ، إنه العريف بهادور شاند من كشمير التي تمتلىء بالمسلمين والسيخ معاً ويثير الإنجليز بينهم الفتنة دائماً. حين رأى مجد الدين العريف بهادور تعجب من قدرة الله على خلق كل هذه الأمم والشعوب وتذكر الآية «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» وتمنّى لو استطاع أن يلمّ بالكثير من الإنجليزية والهندية ليفهم شيئاً مما يحدث في

هذا العالم الواسع. ما أعظم الخالق الذي يسيطر على هذا كله. والذي ألقى في طريقه بدميان فجعل أيامه سهلة رغم أنه في مكان لو ترك فيه القرد لضجّ وهرب. دميان يعود كل يوم بعد انصراف بريكة في حالة من السعادة الطفولية، بدميان فقط تمر الأيام، وبدونه صمت مقيم. ها هو شهر قد مضى بعد عيد العذراء وغداً يبدأ شهر رمضان، فوجىء مجد الدين بدميان يقول له:

ـ جاء دوري لأصوم معك يا شيخ مجد.

ـ.........

ـ ألا تصدقني؟ وسأصوم معك الشهر كله..

ـ صيامنا صعب يا دميان. انقطاع عن الطعام والشراب طوال النهار.

ـ هذا أفضل من أن يأكل كل منا وحيداً في الصحراء.

هكذا أجابه دميان بسرعة. لقد حدّد هدفه من قبل بوضوح وكان لديه المبرر القوي مما جعل التأثر يظهر على مجد الدين. وسكت الصديقان طويلاً ثم تكلما:

ـ متى تعود إلى الإسكندرية يا دميان؟

ـ تقصد إلى البلدة. أنا أعرف أن رمضان شهر يحب اللمة، لو انضم إلينا بعض الهنود نصبح أسرة عالمية.

وقال مجد الدين على غير إرادة:

ـ طال شوقي يا دميان.

باغته دميان مندهشاً:

ـ كيف حقاً لا تسافر؟

ولم يجد مجد الدين مناصاً من أن يحكي الحكاية من أولها. أحسّ أنه في حاجة إلى أن يحكي لأحد. هي لحظة غريبة تلك التي تداهم الإنسان

فيجد نفسه في حاجة إلى أن يكشف ما اجتهد في إخفائه وقتاً طويلاً ولا يستطيع الإنسان أبداً أن يهرب من هذه اللحظة حين تداهمه. يمتلىء صدره بشجن ثقيل يصعد إلى عينيه حزناً نبيلاً ويبدأ في الحكاية وإفشاء السر الثقيل.

شغلت حكايته معظم الليل. كان دميان يسمع مسحوراً. وقال وهو يتناول طعام السحور مع مجد الدين:

ـ كل ذلك تحمّلته وحدك يا رجل؟

ـ إرادة الله يا دميان.

ـ لكن الله لا يمكن أن يرضى بكل هذا الظلم.

ـ استغفر الله يا دميان.

ـ يا شيخ مجد أفضل ما تفعله هو أن تأخذ بندقية من أحد الهنود وتسافر إلى القرية وتقتل العمدة وتعود. لا أحد سيفكر فيك ولا أحد سيعرف مصدر الرصاص الهندي!!

وسكتا بعض الوقت.

ـ لو كنت أريد كنت قتلته من زمان. أنا خرجت لأمنع إهراق الدم، وأيضاً لأني كنت أريد. أجل كنت أريد الخروج لا أدري لماذا..

ـ لا بد أن تعود يا شيخ مجد..

ـ سأعود يا دميان. سأعود. لا بد.

* * *

انقطعت بريكة في رمضان كثيراً عن الحضور، وحتى العيد لم تظهر غير خمس مرات سريعة. قالت لدميان إنها تستعد «للجلاسة» فلم يفهم ولم يهتم.

في العيد صلى الهنود المسلمون والصافي النعيم صلاة العيد خلف

مجد الدين. هنأوه وهنأهم. لم يكن هناك شيء يمكن لمجد الدين أن يفعله غير إرسال برقية لزهرة وأخواته يهنئهم. فرح عامر كثيراً بالبرقية وما كاد مجد الدين يترك الغرفة حتى سمع صوت عامر يبكي خلفه. هذا آخر يوم لعامر في العمل. لقد سافر مع القطار العائد في المساء. سافر هكذا دون أن يخبر أحداً وترك غرفته مفتوحة للريح. «ماذا يفعل. كاد يجن» قال دميان ضاحكاً لمجد الدين وهلال الذي كان صامتاً، ثم عاد دميان يقول «يحق لنا أن نفعل مثله. نهرب. ماذا يضير الحلفاء من اختفاء ثلاثة مصريين تعساء؟» ومضى العيد في صمت. لا قطارات من أي نوع. بعد العيد ظهرت بريكة. كان يوماً مشمساً على غير العادة.

ـ لماذا لم تعودي تأتين كثيراً؟

سألها دميان في ألم. قالت ضاحكة:

ـ بسبب المطر.

ـ لكنك تأتين في بعض الأيام.

أجابته بلهجتها البدوية:

ـ أيام ما يكنش فيها مطر.

ـ تعرفينها؟

ـ نحن البدو نعرف الريح من مطرحها.

سكتا. تأملته باسمة، ثم سألته:

ـ ايش تشتغل هنا يا دميان؟

باغته السؤال. كيف حقاً لا تعرف عمله؟ أدرك أنه لم يخبرها بنوع العمل. أجاب:

ـ أشتغل على المزلقان.

ـ أعرف ايش تدير؟

- لا شيء. يأتي القطار فأمنع مرور السيارات والناس. يمشي فأترك السيارات والناس.

- عجيب!

- العمل؟

- أني ما شايفاش سيارات ولا ناس. شايفاش قطارات.

ارتبك دميان بحق. ماذا تفعل به هذه الفتاة اليوم. هذه الفتاة التي يخفق قلبه كلما رآها كطفل يتيم ظهر له فجأة أبوان. هذه الفتاة التي يحبها ولا يعرف كيف يعلنها بالحب. ووجد نفسه يسألها بدوره:

- من أين تأتين يا بريكة؟

- من جُبلي.

قالت ذلك وأشارت إلى الجنوب.

- وإلى أين تذهبين بعد الرعي؟

- إلى جبلي. ماريتنيش؟

- ريتك.

أجاب على طريقتها مدركاً سخافة سؤاله فلقد سبق له وسألها الأسئلة نفسها من قبل. لكنه قال:

- إيش الجلاسة التي كلمتيني عنها من قبل؟

ضحكت طويلاً وقالت:

- تريد تشارك فيها؟

- أنا لا أعرفها.

استمرت تضحك وقالت:

- اسمع. إلعب معي. أسألك وتجيبني، وأنت اسألني وأنا أجيبك.

سكت يأساً. وبدأت بالأسئلة. قالت:

- إيش حلى م العسل وإيش مرّ الحنظل؟

لم يعرف أي إجابة. فقالت:

ـ ما أحلى من العسل إلا لعب العييل على الدبش ـ وأشارت إلى أخيها الصغير ـ وما مرّم الحنظل إلا شيل الرچيل على النعش.

وأشارت إلى أحد الجنود الهنود الذي كان يمر أمامها بالصدفة مبتسماً لها.

وفكّر دميان أنه من اللائق أن يخرج عن سكوته. أن يلعب معها. ألا يحبها؟

وبدأ جسمه يرتعش وهو يقدح ذهنه ليسألها حتى قال:

ـ طيّب. أسألك أنا. إيش يغلب النار؟

ضحكت وقالت وهي تلكزه في صدره:

ـ تغلبها المية.

ـ كسبتيني.

ـ لا. لسه ماكسبتكش. دوري أسألك. إيش يغلب الميه؟

فكّر قليلاً وكاد يقول الحائط لكنه أدرك أن الماء يستطيع الدوران حول الحائط أو اختراقه مع الزمن. طال سكوته وتفكيره. قالت ضاحكة:

ـ تغلبها الصعودة!

وأدرك دميان أن ذكاءها خارق، وأحب أن يهزمها بحق. لكزها برفق في كتفها وسألها:

ـ وإيش يغلب الصعودة؟

قالت بسرعة ضاحكة:

ـ تغلبها الخيل، والخيل يغلبها الفرسين، والفرسين تغلبها النساء.

ـ تعرف إيش يغلب النساء؟

ـ الرجال.

ضحكت طويلاً وقالت:

ـ لا. النسا يغلبهن الموت يا دميان.

ووقفت تنادي أخاها ليسوق الغنم. أشارت إلى السماء التي بدأت تمتلىء بالسحب. فهم دميان أنها تريد أن تسبق المطر. سألها:

ـ لم تشرحي لي ما الجلاسة.

قالت ضاحكة:

ـ اليوم عملنا جلاسة. مادريت، وما غلبتني، الجلاسة نعملها بالنجع. الشاب اللي يغلبني يتزوجني. هر. هر. هر.

وزعقت تساعد أخاها في السيطرة على الغنم ثم مشت ضاحكة بينما ظل دميان في مكانه لا يريم يتطلع إلى السحب السود التي تتكاثف على الدنيا ويدرك أنه لا سبيل له إليها، بريكة، أبداً أبداً أبداً.

* * *

في جو غزير المطر على ساحل مربوط، وداخل ليبيا، قفزت قوات الحلفاء على قوات المحور في «سيدي رزق» لكن الألمان انتصروا بعد معركة قاسية في منطقة المطار واستردوا سيدي رزق وفقد الحلفاء كثيراً من مدرعاتهم وفي اليوم التالي لانتصار الألمان، في نهاية نوفمبر، أصدر كانينجهام أوامره إلى الفيلق الحادي عشر بالزحف على سيدي رزق من جديد وأوشك هذا الفيلق أن يستردها لكن روميل الذي أدرك سر حرب الصحراء ترك المعركة واتجه بمدرعاته إلى الشرق، إلى الحدود المصرية، ودخل عشرين ميلاً فيها فأخذث الفوضى في مؤخرة القوات الإنجليزية وحلفائها وأسر الكثير من رجالهم حتى تدخل السلاح الجوي البريطاني بغارات ضارية فاضطر روميل إلى العودة إلى سيدي رزق تطارده الفرقة

الهندية الرابعة وما كاد ينتهي شهر نوفمبر حتى كان الجنرال أوكينلك قد أقال كانينجهام وعين الجنرال ريتشي مكانه، وحاصر روميل طبرق وهي حصن منيع، بل أمنع الحصون في شمال أفريقيا، بها حامية بريطانية عنيدة وشجاعة تصل إلى الثلاثين ألفاً يحدها من الشرق والغرب أرض صخرية وعرة تصبح في الجنوب سهلاً منبسطاً، وكانت قبل عام 1940 حصناً إيطالياً لكن الإنجليز استولوا عليه واستفادوا من الخطوط الدفاعية التي أقامها الطليان حول الحصن، خطوط عميقة في الأرض بها مدافع ومرابض رشاشات تستطيع صب نيرانها على المهاجمين في اللحظات الأخيرة لاقترابهم فتدمرهم تماماً، فضلاً عن الموانع العديدة من الأسلاك الشائكة التي تعرقل زحف المشاة وخندق عميق يحيط المنطقة كلها يمنع تقدم الدبابات وخلف كل هذه الخطوط الدفاعية توجد الحشود الضخمة من المدفعية البريطانية وحقول الألغام الكثيفة. لقد انتهى القتال مع نهاية نوفمبر ولم ينجح روميل في الاستيلاء على طبرق لكنه أوقع بالحلفاء خسائر كبيرة للغاية زادت على الثمانمائة مركبة مدرعة ومائة طائرة وأعداد لا تحصى من الأسلحة الخفيفة والذخائر وأسرى يزيدون على التسعة آلاف، وخسر هو عدداً كبيراً من الأسرى أيضاً بدأت قوات الحلفاء في نقلهم إلى الإسكندرية حليقي الرؤوس بلا خوذ ولا أغطية رأس من أي نوع في هذا البرد القارص لكن يرتدون بلاطي طويلة ثقيلة. ولما قررت القيادة البريطانية الدخول في معركة فاصلة مع روميل وضعت لها اسم (الكروسيدر) اندفع مائة ألف جندي من الجيش الثامن لكن روميل ترك الطريق مفتوحاً أمامهم ولم يهاجمهم، بل انسحب، في هدوء، غرباً حتى أوقعهم في الشرك وانصبت عليهم قذائف المدفعية من كل الجهات فدمّر كل دبابات البريطانيين تقريباً وصار الوادي جنوب سيدي رزق بحراً من الغبار والنار والدخان.

كان الروس قد تقهقروا إلى ما وراء نهر الدنيبر، واشتدّ القتال أمام لينinجراد وبالطبع توقفت الغارات على لندن وانتهت معركة بريطانيا لانشغال الألمان بالميدان الشرقي وأعلنت البحرية الأمريكية عزمها على تطهير الأطلنطي من السفن النازية بعد أن اجتمع تشرشل مع روزفلت على ظهر بارجة أمريكية في عرض المحيط الأطلنطي وأعلن روزفلت عزم أمريكا على الدفاع عن حرية البحار وأنذر سفن المحور بالتدمير إذا دخلت المياه الإقليمية الأمريكية وأصابت غواصة ألمانية حاملة الطائرات البريطانية (آرك رويال) بطوربيد فأغرقتها وبعدها أغرقت الغواصات الألمانية البارجة البريطانية(بارهام) وكان على متنها خمسمائة بحار ماتوا جميعاً كذلك اقتربت غواصة إيطالية من الإسكندرية وأطلقت طوربيدات على البارجتين الإنجليزيتين «إليزابيث وفاليانت» فعطلتهما عن العمل ولما حاولت القيادة البريطانية الانتقام باصطياد قافلة بحرية للمحور تتجه من إيطاليا إلى طرابلس خصصت للعملية قافلة بريطانية تتكون من ثلاثة طرادات وأربع مدمرات، والذي حدث أن القافلة البريطانية هي التي وقعت في كمين بحري كبير فأصيب طرادان وغرق الثالث ببحارته السبعمائة ولم ينج غير بحار واحد وقع في الأسر وكانت نهاية مؤلمة حقاً للأسطول الإنجليزي شرق المتوسط.

في فرنسا تم إعدام اثنين وسبعين رهينة فرنسية بيد الألمان في بلدة «نانت» رمياً بالرصاص جزاء أعمال المقاومة السرية مما دعا ديجول لإعلان الحداد ومطالبة الشعب بالتظاهر وعمَّ الغضب فرنسا كلها وفي الهند تمّ الاحتفال بعيد ميلاد المهاتما غاندي الثالث والسبعين في قريته الهادئة «سينا جرام» حيث قضى معظم الوقت مع المغزل والخيط وتدفقت عليه الهدايا من البلاد وكانت كلها عبارة عن مغازل وأقطان، وفي المحيط الباسيفيكي قامت الطائرات والبوارج اليابانية فجأة بالإغارة على هونولولو

وبيرل هاربر فدمرت ثلاثمائة طائرة أمريكية وثلاثين بارجة وقتلت سبعة آلاف وصار اليوم بالنسبة لأمريكا هو يوم العار، وكان بداية الدخول الرسمي لأمريكا في الحرب وانتشرت القوات اليابانية في شرق آسيا فامتد القتال في كل الجناح الشرقي من الملايو وسنغافورة حتى هونج كونج وبدأ أثر الشتاء الروسي يظهر على الجنود الألمان فتعطلت مركباتهم وعجزوا عن دخول موسكو وهم في ضواحيها وبدأ الألمان في التقهقر. لقد انتفضت الأمة السلافية ووجه الجنرال فورشيلوف القائد الأعلى للجيوش نداءً مؤثراً إلى أهالي ليننجراد قال فيه إن العدو يحاول دخول المدينة وهدم بيوتها ومصانعها وتحطيم حرية الوطن، وإن ليننجراد هي المركز الصناعي والثقافي لروسيا ولن تسقط ولن يضع الأعداء أقدامهم في حدائقنا الجميلة.

ومنذ ديسمبر والهزائم تنزل بالألمان ففقدوا على أبواب موسكو ستين ألف قتيل في عشرين يوماً مما اضطر القيادة الألمانية لعزل قائد الجبهة الروسية الجنرال فون بوك، وانتشرت بين الناس في مصر شائعة أن الماريشال «تيموشنكو» أحد أكبر القواد الروس مسلم يدين بالإسلام لذلك لم يخسر أي معركة!

في مصر كانت الأديبة مي زيادة قد ماتت منذ أسابيع وكذلك طلعت حرب باشا أبو الاقتصاد الوطني، كما قام جلالة الملك فاروق والأسرة الحاكمة بزيارة لواحة الفرافرة وبذلك يكون قد زار كل واحات مصر واطمأن على رعاياه بها، ووقعت غارة كبيرة على الإسكندرية تركت خلفها دماراً شديداً وقتلى وجرحى بالعشرات كما يحدث دائماً منذ ظهر روميل في أفريقيا، كذلك تمّ توزيع الملابس على المهجرين في الريف وعرض فيلم «بنت مدارس» المصري و«لص بغداد» الأمريكي، وتمت تنحية شاه إيران عن العرش فتنازل لابنه محمد رضا بهلوي فصارت

الأميرة فوزية أخت الملك فاروق أول أميرة مصرية على عرش إيران واحتفل مكتب الآداب في مصر بنجاح دعوته لتزويج الفتيات الوحيدات المهاجرات فتمّ الاحتفال بتزويج عشرين فتاة معاً في ليلة واحدة، وتمّ القبض على مخدرات بمائتي ألف جنيه على السواحل وحدث إقبال شديد على التكية المصرية في الحجاز من أهل الحجاز فطالبت الصحف بزيادة الاعتمادات المصرية لنفقات التكية، والتقى عيد الأضحى مع عيد الميلاد لكن دميان سافر إلى الإسكندرية ليومين وعاد بسرعة ليؤنس وحدة مجد الدين، واتخذت الإجراءات لحماية التماثيل البرونزية في قصر رأس التين من الغارات وسافر رشدي عكس اتجاه ترعة المحمودية.

لقد قرّر أن يصل إلى النيل ويمشي عكس سريانه حتى يصل إلى أسيوط وفي طريقه يقلب كل الجثث التي يمكن أن يراها فهو على قناعة بقتل كاميليا وإلقاء جثتها في النيل. إما أن يجد جثتها أو يلقاها، وكانت شائعة قد سرت في البلادعن راهبة صغيرة يطل النور من وجهها وحول رأسها، صارت تشفي المرضى في أسيوط وبدأ الناس يتوافدون عليها من القرى المجاورة، وتم القبض على جزار ومحاكمته أمام المحكمة العسكرية لأنه امتنع عن بيع اللحم، كان هناك لحم معلق بالدكان وجاء أحد الزبائن يشتري أقة منه فرفض الجزار وقال إن اللحم ليس مخصصاً للبيع، إنما هو للعرض فقط، والفرجة وأحس الزبون أنه يسخر منه، فأخذ طريقه إلى قسم البوليس وقدم شكواه وارتفعت أسعار الطيور فبلغ سعر البلبل اثني عشر قرشاً والكناريا خمسة وثلاثين قرشاً والببغاء كذلك. وتعهدت الدول المتحاربة أن تتوقف عن القتال في الليلة الأخيرة من هذا العام أيضاً ليتم الاحتفال بالعام الجديد لكن كانت معظم بيوت الإسكندرية مغلقة أو مهدمة أو مهجورة.

* * *

«أيها العابر هل حان وقت رحيلك؟

أيها العابر، لا يمكننا أن نتشبث بك، فليس لنا سوى دموعنا».

25

استُقبل العام الجديد بحركة شديدة في العلمين. الطائرات الألمانية والإيطالية تقوم بغارات تمسح بها الصحراء إلى الإسكندرية، والمدافع المضادة لا تكف عن الانطلاق من أكثر من مكان في الصحراء لكن لا طائرة تقع.

قلّ عدد الأسرى الألمان والطليان، فروميل هو الذي يحمل أعداداً أكثر من الأسرى إلى ألمانيا عبر إيطاليا والبحر المتوسط، صار اسم روميل مفزعاً لجنود الحلفاء. في منتصف يناير وفي الساعات الأولى من الصباح، أطفأ مصباح القراءة الصغير، واستلقى على فراشه في مقر قيادته وطلب من سكرتيره الخاص الرقيب بوتشر أن يوقظه بعد ساعة واحدة. استيقظ فعقد الاجتماع الصباحي مع الضباط وقال: «سنقوم بالهجوم فوراً» ثم شرح لهم كيف أن البريطانيين سيغتنمون أي فرصة للاسترخاء للاستفادة من الإمدادات الضخمة التي بدأت تأتيهم، وسيكون تفوقهم كبيراً على قوات المحور، ومن ثم يجب اختراق خطوطهم وخططهم وتفكيرهم للوصول إلى الدلتا!!

بدأت على الفور عملية خداع كبرى للاستخبارات البريطانية امتدت من روما حتى ليبيا، فسرت الشائعات القوية عن انسحاب الألمان، وبدأ روميل في نسف سفن هيكلية، ومعسكرات هيكلية أيضاً، وكانت الإشاعات من القوة في الإسكندرية حتى إن الجنود الحلفاء شربوا نخب انسحاب روميل الذي صار يحرق سفنه، لكن الراقصة حكمت فهمي وحدها كانت في القاهرة تعرف أن هذا خداع، وتستدرج الضباط الإنجليز الكبار، وتلتقط منهم الأخبار والأسرار تنقلها إلى الألمان من عوامتها عبر جهاز إرسال سري بمساعدة الجاسوسين الألمانيين هانز أبلر وساندي.

بدأ روميل هجومه الجريء المفاجىء بعد تظاهره بالانسحاب، وقسم مدرعاته إلى قسمين، أحدهما ساحلي والآخر داخل الصحراء، فاستولى على «إجدابية» ثم «عنتليت» ثم «سوانو» فتقهقرت أمامه القوات المدرعة البريطانية في فوضى عارمة نحو الحدود المصرية، أصبح الطريق مفتوحاً أمامه إلى «بني غازي» من ناحية و«المخيلي» من ناحية أخرى. في أواخر يناير تظاهر بأنه سيثب على «المخيلي» فحرّك أو كنلك مشاته ومدرعاته إلى هناك، لكنه في وثبة النمر غيّر اتجاهه إلى الساحل قاطعاً طريق الفرقة الرابعة الهندية لتسقط «بني غازي»، ورقاه الفوهرر إلى رتبة كولونيل جنرال. لقد فرّ البريطانيون أمامه كما لو كان قد لدغهم ثعبان بعد أن فقدوا روحهم المعنوية. لقد سلّط روميل على مدرعاتهم مدفعيته الجبارة عيار 88 ملم المضادة للدبابات، ثم اكتسحها بدباباته البانزر الثقيلة.

في ذلك الوقت كانت القوات الروسية قد حطمت ست فرق ألمانية، وبدأ هجوم روسي كبير يمتد من سيبا ستوبول جنوباً إلى فنلندا شمالاً واعترف هتلر بتقدم الروس لأول مرة واستعدّت ألمانيا لهجوم بخمسة ملايين جندي بينما استعدّت روسيا بعشرة ملايين، ووضعت أمريكا أكبر ميزانية للحرب، خمسين مليار دولار للصناعات الحربية والعمليات

العسكرية، واشتعلت النار في الباخرة الفرنسية نورماندي وهي راسية في ميناء نهر هيوستون بالولايات المتحدة فمات أربعون شخصاً وأصيب مائة وخمسة وستون، ونزل اليابانيون في جزيرة جاوة وأعلنت مملكة سيام الحرب على بريطانيا بعد أن دخلتها اليابان. ورفض ثوار الهند، نهرو وغاندي، أي استقلال غير تام عن إنجلترا، وأقامت بلدية الإسكندرية خمسة عشر مخبأ جديداً، واحتفلت الكنيسة المرقسية في الأسبوع الأول من يناير بعيد الميلاد وسط حزن عام بسبب الغارات، وماتت سيدة في كرموز تاركة وراءها ثلاثة أطفال فكان الناس كلما مشوا بنعشها يعودون إلى حيث يقف الأطفال أمام بيتهم يبكون، حدث ذلك ثلاث مرات وفي كل مرة يستدير النعش بهم ويعود فارتفع تكبير الرجال والشباب وانهمرت دموع النسوة والفتيات وغمر الفضاء نور باهر إذ انقشعت السحب الثقيلة عن المدينة، وتجلّت الشمس فائقة الجمال فانحنى الناس يقبلون الأرض يصلون ويبكون، ولم يتم دفن الأم إلا بعد أن حمل الأطفال بعيداً، ونامت الإسكندرية في حالة من الذهول العجيب، وأحيط تمثالا محمد علي باشا وإسماعيل باشا بالمنشية بالأحجار لحمايتهما من الغارات الثقيلة، وبدأ الوزراء يهيئون لأنفسهم مقرات في أسوان والأقصر بعيداً عن القاهرة بسبب الشتاء، هكذا قيل، والحقيقة أنهم كانوا يريدون الابتعاد عن روميل بقدر الإمكان، وقام الملك السعيد برحلة إلى الصحراء الشرقية زار فيها المناجم وسكان حلايب من البشارية وتصادف أن جاء عيد الغطاس مع أول السنة الهجرية ولاحظ أحد قراء الصحف أنه كثيراً ما تأتي الأعياد الإسلامية مع الأعياد المسيحية هذه الأيام أو تقترب منها فرد عليه قارىء آخر بأن ذلك لا يحدث إلا كل عدة أجيال، وأن هذا الجيل أسعد حظاً من غيره بسبب هذه البركة الإلهية، وتولّى النحاس باشا رئاسة الوزراء بضغط إنجليزي كبير على الملك فاستقال حسين سري باشا أو أقاله الملك، فخرجت المظاهرات ضد الإنجليز تهتف (إلى الأمام يا روميل).

لقد أظهر الشعب حبه لملكه الشاب وكتب أحد الشعراء يهزأ من الإنجليز:

دخلوا على الأسد العرين

مسلحين مدججين

ضلوا الطريق إلى بني

غازي فجاءوا عابدين

وعرض بالقاهرة فيلم «دماء ورمال» لتايرون باور وريتا هيوارث كما أصدر طه حسين روايته الجميلة (دعاء الكروان) ودخلت لحوم الكاشير التسعيرة الجبرية بالإسكندرية فاشتكى القصابون اليهود، وطلبت أخوات عبد الفتاح عنايت قاتل السردار لي ستاك في العشرينيات من النحاس باشا العفو عن أخيهم الوطني الذي أمضى بالسجن ثلاثة أرباع المدة، وبدأت الدورة البرلمانية بخطاب العرش يلقيه النحاس باشا أمام الملك، وبدأ ذوبان الثلوج في موسكو وحددت الزيادة السكانية في مصر كلها العام الماضي بأربعين ألف نسمة وبدأ دميان ومجد الدين في مشاهدة الجنود العائدين من الجبهة متعبين مغبرين ذاهلين في حالة لا تصدق من الإعياء ليتم استبدالهم بجنود نشطين ناقهين من الإسكندرية. لقد بدأ الجنود الذين التهبت حواجبهم ورموشهم من أثر الشمس والبرد معاً لا يختلفون في شيء عن الأسرى حتى لقد ظنّهم دميان أسرى حقيقيين، وفي كل مرة يراهم يقول لمجد الدين «هذه دفعة جديدة من الأسرى» فينبهه مجد الدين إلى أنهم من جنود الحلفاء فالأسرى لا يحملون بنادق ويضحك دميان ولا يكف عن الخطأ.

* * *

كثرت الشائعات عن تقدم روميل إلى الحدود المصرية. روميل هو بطل حروب الصحراء بلا منازع الآن، ثعلب الصحراء الذي لا يعرف أحد

من أين ستأتي ضربته، ورأى الجنود الإنجليز لأول مرة زملاءهم يعودون من ميادين القتال بعيون يائسة. لكن في الليل كانت الموسيقى تصدح من الراديوهات التي تعمل بالبطاريات في الخنادق والغرف، موسيقى البوليرو وساحر أوز وقدر بيتهوفن وفالسات شتراوس، كذلك يرتفع الضحك. وقال دميان لمجد الدين:

ـ ليت لدينا راديو هنا.

رأى مجد الدين الفكرة صائبة فسكت وقال دميان:

ـ زهقت من الجلوس مع الهنود والصافي النعيم.

والحقيقة أن انقطاع بريكة هو الذي يقلقه، والفكرة المجنونة التي تراوده، أن يذهب إلى النجع ليسأل عنها ويعرف.

كان الصافي النعيم على دراية لا بأس بها باللغة الإنجليزية، فكان ينقل لدميان ومجد الدين مناقشات الهنود العنيفة حول الاستقلال، وكان المسلمون من بيشاور ولاهور يؤيدون محمد علي جناح الذي يدعو لانفصال باكستان عن الهند، بينما كان السيخ يرون في محمد علي جناح، خائناً للوطن، وأنه لا يجب انفصال المسلمين عن الهند. وكثيراً ما كان يحتدم النقاش لكنه في النهاية يلين، وينتهي ويقول دميان «طيب يستقلوا الأول وبعدين يختلفوا» ولا يعقب مجد الدين. وذات مرة قال الصافي النعيم، الذي كان يجلس معهما وحده:

ـ الهند سوف تحصل على استقلالها قبل مصر والسودان.

نظر إليه دميان عميقاً وتساءل:

ـ لماذا؟

قال الصافي النعيم بلغة العالم الهادىء الواثق:

ـ الهند دولة كبيرة بها حوالى ثلاثمائة مليون. صحيح فيها ديانات

كثيرة، لكن فيها غاندي.

هتف دميان:

ـ صاحب المعزة والمغزل.

ـ بالضبط. هو الذي يحارب الإنجليز. يحاربهم بلا سلاح، يقول للهنود أن يصوموا فيصوموا كلهم، أن يمتنعوا عن التعامل مع الإنجليز فيمتنعوا كلهم، ألا يبيعوا لهم ولا يشتروا منهم، فيمتثلوا، أن يقفوا على رجل واحدة لمدة شهر فيقفوا. إنهم مثل الرجل الواحد القوي، غاندي ليس لديه جيش لكن لديه شعب كامل.

وسكت الجميع قليلاً ثم قال مجد الدين:

ـ في مصر أيضاً سيرحل الإنجليز بعد الحرب. الشعب مع النحاس باشا.

قال الصافي النعيم:

ـ لكن النحاس باشا جاء إلى الحكم بيد الإنجليز.

قال مجد الدين بسرعة:

ـ الإنجليز جاءوا به حقاً لكن الشعب ضد الإنجليز، وسيكون هو مع الشعب كالعادة.

وانضمّ إليهم بعد قليل العريف بهادور شاند، صار على الصافي النعيم أن يترجم لهم، وللعريف ترجمة ركيكة لكنها تحمل المعاني على الإجمال، كان الوقت بعد الظهر وفي الجو لمسة ربيعية تكدرها أحياناً عاصفة خماسينية قصيرة وسريعة، كأنما هي نذر للخماسين الحقيقية القادمة بعد أيام. وفجأة قال دميان للصافي النعيم ألا يترجم كلامه إذ سيتحدث بالإنجليزية مباشرة. تأمله مجد الدين في دهشة وفكر أن دميان مقدم على كارثة، وانضم إليهم ثلاثة من الهنود الشباب جاءوا يصلون

العصر خلف مجد الدين. وبدأ دميان الحديث بالإنجليزية فتساءل بالعربية «هل حقاً هناك من يعبد البقر في الهند، وإذا حدث وعبرت بقرة في الشارع تتوقف لها المواصلات والناس؟» قال دميان ذلك، وكان يضغط على الكلمات بحيث تبتعد الكلمة عن الأخرى وتتوضح تماماً، وكان أيضاً يميل في النطلق بعض الإمالة. انتهى من الكلام وسكت الجميع.

لكن مجد الدين ضحك والصافي النعيم انفجر في الضحك وبهادور شاند اصفرّ وجهه لأن دميان، وهو يتكلم كان يشير إليه فتصوّر أنه يسخر منه بينما ابتسم الهنود الثلاثة الشباب، ولمعت عيونهم، وهم يتبادلون النظر في أدب وحيرة. قال مجد الدين لدميان:

ـ هل عندما تضغط على الكلمات، وتميل بالحروف تكون قد تحدثت بالإنجليزية؟ إنك تتكلم باللغة العربية يا دميان.

انتبه دميان واتسعت عيناه وانفجر ضاحكاً ثم قال للصافي:

ـ ترجم للهنود أنني كنت أسأل هل حقاً سينالون استقلالهم بعد الحرب؟ لا تتحدث عن البقر..

ترجم الصافي النعيم الحديث فهزّ بهادور شاند رأسه في ثقة وإعزاز وقال الهنود الشباب الثلاثة «Of Course» فقال الصافي:

ـ لا بد أيضاً أن يأخذ السودان استقلاله عن مصر بعد الحرب.

تأمله دميان ومجد الدين مندهشين. تساءل مجد الدين:

ـ استقلاله عن إنجلترا تقصد؟

ـ الاثنان شيخ مجد.

قال دميان:

ـ طول عمري أعرف أن إنجلترا تحتل مصر والسودان، أول مرة أعرف أن مصر تحتل السودان، ربما بسبب ذلك تكثر القرود في مصر الآن!

زام الصافي النعيم. الحقيقة أنه أصدر صوتاً كالزئير وإن كان خفيفاً.

وقال مجد الدين:

ـ طول عمر مصر والسودان إخوة..

فقال الصافي النعيم:

ـ مضبوط شيخ مجد. كلامك أناناس.

وضحك الجميع باستثناء بهادور. حتى الجنود الهنود الثلاثة الشباب ضحكوا إثر ضحك مجد الدين ودميان والصافي النعيم. ربما لذلك أحسّ بهادور بالارتباك لذلك قال للصافي النعيم:

- Translate

فكّر الصافي قليلاً ثم قال بسرعة:

- Sudan looks like india and Egypt, is under Britin

وهزّ بهادور رأسه موافقاً فقال الصافي:

- They will be independent as quickly as possible.

عاد بهادور يهز رأسه في فخر بينما تهللت أسارير الهنود الثلاثة، وفجأة اقترح مجد الدين ألا يتحدثوا في السياسة مرة أخرى.

نظروا إليه في دهشة وتساءلوا لماذا؟ فتردد في الإجابة، الحقيقة أنه لا يعرف لماذا طلب ذلك، ولا يعرف بما يجيب. قال:

ـ لأننا في الصحراء..

ولم يفهم هو أبداً، حتى بعد ذلك، ما علاقة الصحراء بعدم الكلام في السياسة لكن هذا ما صار، وسكت الجميع غير مقتنعين، بل ومرتبكين بعض الشيء ثم أمعنوا النظر في الاتساع العريض للصحراء..

أضواء خفيفة تنبعث من الغرف المحفورة بالأرض، والغرف المتباعدة فوق الأرض. في الصباح يخرج الضباط والجنود من جحورهم إلى البحر

العظيم، لقد بدأ الربيع ولم يتبق من الشتاء إلا صقيع الليل القارس، ظهرت الملابس الصيفية من جديد، وخرجت العقارب والحشرات من جحورها ومع كل صباح ينزل الجنود إلى البحر عراة إلا من السراويل الداخلية القذرة، أجساد الجنود لم تعد بيضاء. صارت برونزية. الجنود الجدد يعرضون أجسادهم للشمس أكبر وقت ممكن ليبدو الواحد منهم مهاباً صاحب خبرة في القتال. والحقيقة أن الجميع كما يقول عنهم مجد الدين مساكين، أطفال، أبناء الله الصغار الذين نزلوا من السماء لهذا الامتحان العسير. تماماً كما أخرج هو من قريته وربما بالسهولة نفسها. وسأل دميان بهادور:

ـ هل ما زلت تحمل الثعبان في جيبك؟

ـ إنه معي طول أيام الحرب.

وأخرج الثعبان من جيب سترته الأسفل، ثعبان صغير رفيع أصفر مزركش بالسمرة التف على أصابعه، أعاد كفه إلى جيبه وأخرجها بسهولة بلا ثعبان.

قال الصافي مترجماً ما قاله بهادور: إنهم في الهند يستئنسون الثعابين الكبيرة والصغيرة، حتى الكوبرا يستئنسونها، وهناك فئات من الهنود تعبد الثعابين، والكوبرا بالذات، والهنود جميعاً وبلا استثناء مهرة في استئناس الثعابين والتعامل معها، والثعبان الذي في جيبه لم يأت من الهند، إنما هو مصري اصطاده من الصحراء في الصيف الماضي، بالليل يضع الثعبان في علبة من الصفيح ويضع له فيها طعاماً، بيض مفري وبولوبيف. الثعبان لم يهرب ولم يفكر في الهرب حتى الآن.

على أن هذا لم يكن أغرب ما قاله بهادور. ترجم الصافي النعيم كلامه، ولم يصدق أحد أن الدنيا يمكن أن تكون صغيرة إلى هذا الحد. قال بهادور: إن أباه أيضاً كان يخدم في الجيش البريطاني في فرقة الخيالة

أثناء الحرب العالمية الماضية. كان يخدم هنا في مصر ضمن قوات الإمبراطورية. انتهت الحرب وقامت في مصر ثورة كبيرة. قاطعه دميان وقال: كان ذلك أيام سعد باشا، ولم يترجم الصافي كلام دميان واستمر بهادور يتحدث، وحدث تمرد كبير في بلد اسمه «دروط». وسكت بهادور يتأمّل وجوه مستمعيه وقال دميان له: إنك لا بد تقصد ديروط واستمر بهادور فقال: إن اسمها «دي روط» ـ ولم يهتم أحد ـ وفي قرية قريبة من «دي روط» كان هناك تمرّد كبير يهاجم القوات البريطانية فأرسل الإنجليز الخيالة الهنود من الجنود السيخ إلى القرية. كان أبي بينهم وكان قائدهم إنجليزي. لقد أمرهم باغتصاب نساء القرية أمام رجالها الذين قيّدوهم بالحبال.

أغمض مجد الدين عينيه متألماً، وبانت الدهشة على وجه دميان، وارتعشت شفتاه ولم يتحدث. ابتسم بهادور، واستمر في الحديث، قال إن أباه روى كيف كانت النساء تجري لتلقي بأنفسهنَ في النيل، تفضل الموت غرقاً على الاغتصاب. لقد عاش أبي متألماً لأنه فعل ذلك خاصة أنه رأى الإنجليز يغتصبون الهنديات أيضاً. وسكت بهادور. وسكت الجميع حتى قال مجد الدين بهدوء:

ـ لكن هذه حكاية غريبة لم نسمع بها أيام الثورة، لقد اشتركنا في الثورة. هاجمنا الإنجليز وخلعنا السكك الحديدية ولم نسمع أن فرقة من أي جيش اغتصبت نساء أي قرية. لا جيش إنجليزي ولا جيش هندي.

كان الهنود الشباب يبتسمون في البداية لكنهم الآن أطرقوا إلى الأرض. وقال الصافي النعيم:

ـ أنا رأيت الهنود في السودان يمشون منتفخين كالطواويس، وكأن الواحد منهم يملك الأرض ومن عليها. لكن لم أرهم يضربون أحداً أو يغتصبون امرأة.

لم يفهم بهادور ما قاله الصافي بالطبع ولم يترجمه الصافي ودخل دميان في الحوار فقال:

ـ أنا من ديروط وأعرف القصة. سمعت بها. هي قصة حقيقية.

قال بهادور بصوت عال:

ـ لقد قتلوا الرجال أيضاً.

وعقب دميان:

ـ لقد أبيدت القرية عن آخرها. لم يبق لها أثر. أذكر أن اسمها كان «كوم جهنم» لقد اختفى من تبقى من رجال القرية بعد ذلك وتفرقوا في البلاد. أكثرهم مات من القهر.

وسكت الجميع. تفاوتت المشاعر. من الأسف عند الصافي النعيم إلى الحزن عند مجد الدين إلى اليأس عند دميان إلى الرهبة عند الهنود الشباب. وقال مجد الدين:

ـ بلاد كثيرة اغتصب الأجانب نساءها.

وقال دميان بلا اكتراث:

ـ في مصر قرى كثيرة تدل على ذلك. رشيد من الإنجليز، في الصعيد الجواني بنات شقراوات من أصل مملوكي.

قال الصافي النعيم:

ـ الحمد لله. في السودان لا يوجد رجل أبيض واحد. لا تزال النساء سوداً يلدن أولاداً سوداً. سواد اللون حمى نساءنا من الاغتصاب.

كان يريد أن يخفف من أثر الحديث السابق لبهادور. كان يدرك أن أحداً سينفجر. مجد الدين أو دميان. لكن دميان هو الذي تحدث فقال:

ـ لكن يا مستر بهادور لو بحثت في مصر كلها عن أثر لواحد هندي لا تجد.

وسكت. وانتظر بهادور أن يترجم له الصافي الكلام. تردد الصافي فقال له دميان أن يترجم.

فتساءل بهادور:

ـ هل تعني أني كاذب؟

أجاب دميان:

ـ لا. أنت صادق. لكن أبوك والخيالة السيخ هم الكاذبون، إنهم لم يفعلوا شيئاً. على العكس. المصريون هم الذين «نطوا» عليهم.

ولم يستطع مجد الدين أن يضحك. ولا الصافي النعيم الذي أربد وجهه هلعاً. تغاضى عن القيام بدور المترجم فأمره بهادور أن يترجم صارخاً فيه:

ـ ترانسليت. . ترانسليت كويكلي. .

والحقيقة أن الكلام كان قد راق للصافي. لقد أحسّ بنوع من الرضا.

إنه في النهاية عربي مثل دميان ومجد الدين وهم جميعاً أبناء وادي النيل لذلك ترجم بدقة وعلى مهل كلام دميان. كان غبش الغسق يغشى الصحراء، والنسمة بدأت تستيقظ، وفي اللحظة التي انتهى فيها الصافي من الترجمة كانت يد بهادور على مسدسه، ووقف يصرخ في الفضاء بالهندية لاعناً دميان الذي كان قد قفز هارباً في اللحظة التي وقف فيها بهادور. لقد دوت طلقات المسدس في الفضاء تتبع دميان لكنها لم تصبه. ساعده الظلام الزاحف على النجاة. وقف بهادور لحظات مستشاطاً غضباً ثم زأر بالهندية في الجنود الشباب فانصرفوا بسرعة، ونظر شذراً إلى الصافي ومجد الدين اللذين بدورهما قاما على مهل وابتعدا عنه. ما كادا يبتعدان بما يكفي للأمان حتى انطلقا معاً في ضحك بهيج.

* * *

كان يمكن لفعلة دميان هذه أن تقتله، ما أهون رصاصة تخرج من مسدس بهادور فتصيبه. الرصاص لا ينقطع طول النهار من تجارب السلاح وقتل العقارب والثعابين والفئران الصحراوية، ومطاردة الثعالب وفي بعض الأحيان تنطلق البنادق تتابع طيوراً ظهرت فجأة في السماء، أضف إلى ذلك أصوات الطائرات التي تمرق بين الحين والآخر مسرعة للإغارة على الإسكندرية أو عائدة إلى مواقعها في طرابلس وبنغازي، ولا تكف طلقات المدافع المضادة عن ملاحقتها في الذهاب والإياب. إن طلقة تخرج من مسدس هندي غاضب تقتل دميان لن يتوقف عندها أحد. من يتوقف عند مقتل عامل يقف على مزلقان صغير شبه مهجورٍ في بلدة صحراوية نكرة، لم يسمع عنها أحد من قبل؟ كان هذا هو حديث مجد الدين ودميان حتى انتصف الليل. لكن الذي حدث أن دميان طلب من ماري جرجس أن ينقذه من الهندي السيخ البائس. ونذر لو حدث ذلك أن يقوم بتبخير كنيسة الشهيد في غيط العنب بنفسه، ويوقد له سبع شمعات ويظل أسبوعاً في خدمة الكنيسة، ونام بعد أن راوده يقين عجيب أن ماري جرجس سيستجيب.

في الصباح طلب منه مجد الدين ألا يبرح البيت حتى يرى بهادور ويحاول تهدئته. في الظهيرة جاء الصافي النعيم إلى مجد الدين في الكشك الخشبي المجاور للمزلقان. كان مبتسماً وما إن اقترب من مجد الدين حتى انطلق في الضحك. قال: إن بهادور انتقل في الصباح الباكر مع كتيبة ليلحق بالفرقة الهندية على الحدود حيث يدور قتال شديد. ابتسم مجد الدين في ارتياح. أحسّ أن جسده يشاركه الفرح فلم يستطع البقاء في مكانه. ترك الصافي النعيم، وأسرع إلى دميان يزف له الخبر. كادت الفرحة ترفع دميان من فوق الأرض. لكنه ظل واقفاً ينظر إلى مجد الدين بإمعان. إلى هذه الدرجة صار الحب بينه وبين الشهيد. إنه لا يخذله

أبداً. وترك الطريق لدمعتين ثم خرج منتشياً مع مجد الدين ليرى الصحراء واسعة جميلة بيضاء زاهية السماء فوقها صافية الزرقة كالبحر البعيد تماماً والدنيا واسعة إلى أقصى مدى.

* * *

بالليل، وبعد عدة أيام، وكلاهما مستلق على المرتبة الميري فوق الأرض في ناحية من الحجرة قال دميان:

ـ نفسي تهفو إلى الإسكندرية يا شيخ مجد.

كان دميان قد رأى في الصباح الغنم تظهر قادمة من بعيد يتدحرج بينها الولد الصغير، وتمشي خلفها «بريكة». بدت له من بعيد صغيرة، لكن كالعادة فكر أنها ستزداد حجماً كلما اقتربت! وراح قلبه يدق. ها هي تظهر بعد طول غياب كان قد فكّر جدياً أمس وأمس الأول أن يذهب بنفسه إلى النجع، بل لقد مشى إلى الجنوب مسافة طويلة، ولما وجد نفسه فجأة يقف وسط رمال مترامية من كل جهة ولم يعد يعرف الشمال من الجنوب، ولا يظهر أي شيء أمامه خشي على نفسه من التيه، وبسرعة عاد مقتفياً أثر قدميه حتى إذا بانت له محطة السكة الحديد من بعيد أخذ نفساً عميقاً وشكر يسوع المسيح والعذراء وماري جرجس وكل من تذكّره من الشهداء والقديسين. لقد كاد ينسى أن عليه نذراً لا بد أن يوفيه. آن له أن ينسى بريكة ويسافر ليوفي النذر. لكن ها هي بريكة لا تتركه. تظهر له في الوقت الذي يقرّر فيه أن يروض نفسه على النسيان. إلا أنها لا تزداد حجماً كلما اقتربت. وراحت دقات قلبه تزداد. حتى إذا اقتربت أكثر أدرك أنها ليست بريكة فانطفأ ألق عينيه وفرحة روحه. كان قد فكر أن يسرع إلى البيت يحضر أكبر كمية ممكنة من الهدايا التي اعتاد عليها لبريكة. نسي ذلك، ورأى هلال من باب غرفته ففكر أنه غريمه الذي لا يعرفه خرج ليراه ويسخر منه ويشمت فيه، وكان مجد الدين في

البيت فاشتاق له. وتمنّى لو ألقى بنفسه على صدره كطفل.

ما كادت الفتاة تستقر بالغنم وأخوها خلف المحطة حتى تقدم منها وسألها عن بريكة. قالت ضاحكة:

ـ أنت دميان!

ـ من قال لك ذلك؟

ـ بريكة.. إنها تحبك. حملتني لك سلام.

هذه الفتاة لا يزيد عمرها على عشر سنوات تتحدث هكذا ببساطة الأنثى المدربة. أي ناس هم هؤلاء البدو وما سر هذه الصراحة والوضوح؟

ـ وأين بريكة؟

ـ أقامت جلاسة وتزوّجت. خذها ابن عمي. فارس يجرا ويكتب وراسه زين.

تركها وأخذ طريقه إلى المنزل وحمل لها أكبر كمية ممكنة من الهدايا قالت:

ـ لي.

قال:

ـ لك ولبريكة.

وعاد إلى البيت طالباً من مجد الدين أن يخرج إلى العمل بدلاً منه. نام وأعطى وجهه للحائط. وجد الغرفة خالية من كل شيء. الإنسان حقاً بعد أن يجاوز الأربعين، يهفو أن يعود شاباً، كان عليه أن يدرك ذلك ويتجاوزه بسلام. ثم هل كان يعول على نجاح هذا الحب الشقي، بريكة مسلمة، وهو مسيحي، بريكة مسيحية لكن لا يستطيع تطليق زوجته. على كل جانب يلازمه الفشل. كان عليه ألا يترك الطريق مفتوحاً لقلبه، هذا ما

صار على أي حال. ليس أمامه إلا أن يوفي بنذره لراعيه ورفيقه الشهيد جورجيوس.

في المساء سأل مجد الدين:

ـ ماذا يحدث لو ذهبت إلى الإسكندرية ولم أعد. هل سيسأل عني أحد؟ لا أظن وأنت أيضاً يمكن أن تأتي معي. لا معنى لوجودنا هنا. مستر سبايك لم يعد يسأل عنا. المفتش الذي يزورنا كل شهر مرّ عليه شهران لم يأت الآن. القطارات قلّت. يستطيع هلال أو أي جندي هندي أو أفريكي أو أسترالي أو نيوزلاندي أو مصري أو إنجليزي أن يدير المزلقان. وجودنا هنا عبث لا معنى له وسط كل هذه الجنود من كل العالم.

ولم يستطع مجد الدين الدخول معه في الحديث. لم يتعوّد من دميان على هذه النبرة اليائسة. خلل ما حدث في عقل دميان ولا أقل. لكن مجد الدين فكّر في وضعهما الشاذ هنا حقاً. وفي وضعه هو بالذات، حيث تأخّر كثيراً عن رؤية ابنه، شوقي، البعيد في القرية، وهذا فوق طاقة البشر على الاحتمال، لكنه قال بهدوء:

ـ سافر أنت مطمئن البال يا دميان، سأنتظرك حتى تعود.

* * *

«لن تجد بلداناً ولا بحوراً أخرى، ستلاحقك المدينة، وستهيم في الشوارع ذاتها، وما من سفين من أجلك، وما من سبيل..»

26

وصل دميان إلى الإسكندرية في اليوم الثاني من شهر أبريل، مع نداء من الوكالة اليهودية والمجلس العام ليهود فلسطين بحث اليهود رجالاً ونساء على التطوع في الوحدات اليهودية التي تعمل بالجيش البريطاني في الشرق الأوسط. فالحاجة ماسّة إلى عدد كبير من المتطوعين والمتطوعات للخدمة في القوة الإقليمية المساعدة. وأعلن النداء أن الخطوة الأولى هي تجنيد غير المتزوجين ومن لا أولاد لهم ممن تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين، «ولتكن تلبية النداء من جانب يهود فلسطين جديرة بمهمتنا الكبرى، وخطورة الساعة» في الوقت نفسه كان الدكتور علي إبراهيم رئيس جماعة إنقاذ الطفولة المشردة في مصر يوجه نداء لأبناء الوطن الواحد لإنقاذ أطفاله، كما انشغلت الصحف بحكاية هتلر مع شهر أبريل ففي العشرين منه ولد، وكان ذلك عام 1889، وفي السابع منه عام 1939 سمح لموسيليني أن ينزل بجيوشه لاحتلال ألبانيا، وفي الثامن والعشرين من العام نفسه ألقى هتلر خطابه الشهير الذي أعلن فيه نقضه للاتفاق البحري بين ألمانيا وبريطانيا وفي التاسع من أبريل 1940 قام هتلر

بغزو الدانمارك، وفي السادس عشر عام 1941 هاجم يوغسلافيا واليونان وتساءلت الصحف عما يخبئه هتلر هذا العام في شهر أبريل، هل يجتاز القوقاز إلى إيران والعراق أم يخترق تركيا إلى العراق والشام؟!

في الخامس من أبريل احتفلت الكاتدرائية المرقسية بعيدالقيامة فأقيم قداس حافل افتتح بالتضرع إلى الله أن يشمل العالم برحمته، وفي العلمين أقيمت الصلوات، وظهر بين الجنود بعض القساوسة بالنهار، لكن بالليل أقيمت السهرات وظهرت فتيات الترفيه الجميلات يغنين ويرقصن مع الجنود، وكانت غارة شديدة قد وقعت على الإسكندرية قبل ذلك بيومين، ولم تنته بعد عمليات الإنقاذ وامتلأ المستشفى الأميري بالمصابين وانتقلت أسرة دميان للإقامة الدائمة بفناء الكنيسة، وهناك قابل دميان الخواجة ديمتري في حالة من البؤس فصافحه صامتاً وبدا الرجل ذاهلاً عنه، وزار الإسكندرية كالعادة كثير من الباشوات لتفقد المنكوبين بصحبة محافظ المدينة، ووصل عدد القتلى اثنين وخمسين، والجرحى ثمانين، وتقرّر صرف جنيهين لكل مصاب مؤقتاً، وفي السابع من أبريل حدثت غارة أكبر من السابقة فجاء رفعة النحاس باشا رئيس الوزراء بعد أن ألقى كلمة من الإذاعة المصرية:

«أبناء الإسكندرية الأعزاء،

أتوجّه إليكم بالخطاب وفي القلب أثر عميق مما حلّ بكم، أيها السكندريون. . إنني واثق بأنكم ستظلون في هذه المحنة صابرين كما عهدت فيكم، طالما ضربتم لمصر في شجاعتكم أروع الأمثال وأقمتم على تحملكم للكوارث خير برهان فلا ريب أن تكون مدينتكم بعد ذلك مثار الإعجاب وموضع التقدير والإجلال».

في الوقت نفسه وقع مرسوماً بإلغاء البغاء بدءاً من مايو فيما عدا

عواصم المحافظات والمديريات، ولا يجوز من الآن فتح بيوت دعارة جديدة، كما استضاف النحاس حوالى ثلاثمائة جندي ناقة من بريطانية ونيوزيلاندا وجنوب أفريقيا واستمتعوا بالنزهة النيلية والحدائق، واستمرت الغارات بشكل كثيف فوزعت إدارة الوقاية المدنية بيانات بها نصائح للجمهور بأن يحتفظ بهدوئه وقت الغارة ويذهب إلى أقرب ملجأ، وأن لا ينظر إلى السماء أو يراقب المدافع المضادة للطائرات وأن يتجنب التجمهر وأن يتوقف عن الجري في الطريق لأن سرعة الإنسان مهما كانت لن تفوق سرعة الطائرة والأفضل أن ينبطح أرضاً إذا لم يجد مكاناً مسقوفاً قريباً، وأن يبتعد عن الواجهات الزجاجية، وأن يترك السيارة إذا كان فيها ويطفىء أنوارها ويوقفها إلى جانب الطريق. واحتفظ، دميان بهذه الإشارات وحفظها واعتبرها موجهة للسخرية منه ومن أمثاله وأخذ يجري أثناء الغارات ليرى ما إذا كانت سرعته أكبر من الطائرات أو القنابل أم لا، ووصل إلى نتيجة مخالفة للتعليمات فهو ينتقل من جانب إلى جانب في الشارع قبل أن تصل القنبلة إلى الأرض، والحقيقة أنها لا تصل أبداً فهي عادة تسقط بعيداً في منطقة أخرى ويسمع فقط صوتها بعد وصوله إلى الرصيف. صار كلما حدثت غارة ترك أسرته في الكنيسة التي بات خادماً لها أكثر من المدة التي نذرها، وخرج ليرى الناس وهل حقاً يبتعدون عن الشوارع إلى الملاجىء، ومداخل البيوت كما كانوا يفعلون قبل انتقاله إلى العلمين، أم لم يعودوا يأبهون بشيء، ورآهم لا يأبهون بشيء. هؤلاء الذين تبقوا بالمدينة لم يعودوا يخشون على أعمارهم.

ترك نفسه يمشي بلا هدف من غيط العنب إلى كرموز إلى شارع الخديوي إلى محطة إسكندرية وأحياناً يدخل في شارع محرم بك وأحياناً يتجه إلى محطة الرمل قاطعاً شارع النبي دانيال، ومن هناك على الشاطىء حتى قصر رأس التين ويعود ولا هواء الإسكندرية يثيره، ولا ضوء النهار

الرائق ولا زرقة البحر والسماء البعيدة، الفراغ حوله أكثر من كل وقت ولـم يتأخر بالليل فلم يصطدم بالسكارى ولا بد أنه رأى جنوداً من الأجانب لكنه لم يشعر بوجودهم، ومقاهي المنشية لا تزال غاصة بالتجار والسماسرة والغرباء لكن لا يرى شيئاً ولا يعرف لماذا يقطع هذه الرحلات النهارية الغامضة، وأدرك أنه لا يفعل ذلك بإصرار إلا بعد كل غارة، والغارات كثيرة، وهو صار كالمجنون يرى البيوت المهدمة في الشوارع ولا يرى البيوت السليمة ويرى الحفر مكان القذائف ولا يرى الأرض المستوية، ويشمّ رائحة دخان اللحم المحترق والأخشاب ولا يشم رائحة اليود القادمة من البحر ويفكر أنه ليست هذه هي المدينة التي عرفها، هي شيء أقرب إلى الشريط السينمائي، من زمان لم يدخل أي سينما ولم ير أي عرض لشارلي شابلن واكتشف أنه عاد حافياً كما كان فهو لا يلبس الحذاء بالكنيسة، ويظل طول النهار يدور بين سكان الحي اللائذين بها يخدمهم، يسقيهم ويطعمهم وينظف الجدران والأعمدة المرمرية والأيقونات ويوقد الشموع ويجلي المرايا ويزيح الغبار عن أيقونة ماري جرجس الضخمة، ويتأمله ويتذكر رؤيته له وسط النار ولا يصدق ويتذكر مجد الدين الذي لم يصدق أيضاً وكذب رؤياه ويريد أن يعود إليه ويريد أن يبقى بالمدينة التي صارت واسعة جداً بهجرة أهلها، وقديمة جداً بدمار مبانيها ولا يزال الزحام حول وأمام محطة السكة الحديد والخوف يزحف إلى قلبه. هل حقاً يمكن أن يأتي اليوم الذي لا يكون فيه في المدينة غيره، هذه المدينة كيف حقاً لم يعد يعرفها؟

إنه حتى لا يجد رغبة في زوجته التي كلما نظر إليها. فكّر كيف حقاً يمكن أن تعيش بعده، ويدرك أن ذلك يعني أنه سيموت ويرتعش ويفكر في بؤس العالم من غيره! هل حقاً يمكن أن يستمر الناس في حياتهم بعد موته، كيرياليسون، ما أحوجه لمجد الدين يبث فيه الثقة بطول العمر.

وسقطت بالمدينة بعض الطائرات اليونيكر الألمانية، وخرج حميدو من المعتقل مع دفعة جديدة من المفرج عنهم فكتب على جدار المنزل «يا تاخذوني إلى الأبد يا تسيبوني على طول» وكان السائرون على قلتهم يعرفون ما يقصد فيضحكون وانهالت التبرعات على المدينة من سلفاتور شيكوريل وصاحبات السمو الملكي والملكة نازلي. وظل حي كرموز مركز الغارات الألمانية، حي الشهداء يصرّ على أن يكون في مكانه التاريخي، حتى الطائرات اليونيكر والهنيكل الألمانية صارت تسقط فوقه وكذلك طائرات السوفوي الإيطالية، لكن يوم شم النسيم كان يوماً عادياً بالمدينة، خرج الناس إلى النزهة وحدائق الشلالات وامتلأت ترعة المحمودية بالفلائك الملونة المزدانة بالأعلام يرقص ويغني فوقها البنات والشباب كذلك خرج السكندريون إلى الشواطىء غير مبالين بالغارات وكان الجو معتدلاً ومياه البحر مسطحة هادئة بيضاء لازوردية وامتلأ شاطىء الأنفوشي بأبناء كرموز فخرجت النساء بالأواني الممتلئة بالأسماك ونزلن الماء بثيابهن وتعابث الفتية والفتيات كالعادة وفي المنشية لم يستطع الصبية المشاغبون النزول حتى صارت الميناء الشرقية ممتلئة بالبوارج البريطانية لكن في محطة الرمل أحاط الناس بتمثال سعد زغلول وجلسوا حوله على نجيل الحديقة الصغيرة، وراحوا يأكلون فسيخهم وسردينهم المملح بهدوء وخلو بال ودخلت الإسكندرية ذلك اليوم خمسون سيارة من القاهرة لقضاء شم النسيم في شواطىء ستانلي وجليمونوبلو وميامي ونزلت الفتيات الإنجليزيات من «الأتسا» وزملاؤهن بالمايوهات في شاطىء مصطفى كامل، وامتلأت حديقة الحيوان بالزوار الذين أسرفوا في إكرام الحيوانات، وفي المساء عاد الجميع متعبين إلى بيوتهم فامتلأت بهم عربات الترام وعربات الكارو والحنطور وشملهم الصمت. بحت أصواتهم من الكلام والغناء طول النهار وحين صفرت صافرة الإنذار لم يهتم أحد أن يترك مكانه. توقفت المركبات حقاً لكن أكثر الناس كان يغط

في النوم، لم يطل وقت الغارة وسقطت طائرة واحدة فوق المدينة.

* * *

بعد شم النسيم بأيام صدر مرسوم ملكي بتعيين عبد الخالق حسونة بك محافظاً للإسكندرية بدلاً من سعادة محمد حسين باشا الذي أحيل إلى التقاعد بناء على طلبه، وصدر أمر ملكي أيضاً أن يكون قصر رأس التين الأبيض الجميل تحت تصرف السفارة البريطانية لاتخاذه مستشفى عسكرياً طول مدة الحرب، وكان من أهم ما قام به المحافظ الجديد إنهاء ظاهرة الدقيق المغشوش في الخبز ومن طوالع سعده اكتشاف أثر جديد هو معبد الإله آبيس بكوم الشقافة وكان دميان يمشي أمام عامود السواري فوجد زحاماً من بعض الوجهاء وعرف قصة الأثر فراح يركّز عينه على الأرض مندهشاً من سر هذه المنطقة، وانتهى شهر أبريل بغارة قوية قتلت ستين شخصاً وجرحت أكثر من مائة وسقطت فيها أربع طائرات للمحور، ودارت العجلة كعادتها، مصابون في المستشفيات وإيواء للمنكوبين في دمنهور وكفر الدوار حيث لم يعد هناك مكان للإيواء بالإسكندرية الآن، لكن في هذه الغارة تهدم المعبد اليهودي بشارع النبي دانيال. لقد بني المعبد عام 1870 وجدد منذ عشر سنوات ليتسع لخمسمائة شخص، وقيل إن الذي بنى المعبد في ذلك الوقت كلفه عشرة آلاف جنيه في وقت كان الجنيه يشتري فدانين من الأرض، وسرت إشاعة أن الطائرات الألمانية كانت تبحث عن المعبد اليهودي طوال الأيام السابقة ولما وجدته هدمته وذلك سر انقطاع الغارات أسبوعاً بعد ذلك، لكنها حين عادت بعد الأسبوع توغلت في محافظات الوجه البحري مما تسبّب في انقطاع الغذاء عن الإسكندرية والقمح بصفة خاصة لكن سرعان ما عالج المحافظ الجديد المشكلة وقيل إن الناس صارت تأكل كثيراً بسبب القلق والخوف، وصدر أمر قتال يومي عن القائد العام للجيوش البريطانية بالقاهرة الفيلد

مارشال سير كلود أوكنلك إلى جميع الضباط العظام والقادة في القيادة العامة للشرق الأوسط، بأن هناك خطراً حقيقياً من أن يصبح اسم روميل شبحاً ترتعب منه القوات كما أصبح اسمه موضوع مناقشات طويلة لا تنتهي وأن روميل مهما كان قديراً أو كفئاً فإنه ليس إنساناً خارقاً للطبيعة وحتى ولو كان كذلك فإنه من غير المرغوب فيه أن تصفه قواتنا بتلك الصفات.. لذا أرجو ـ يقول القائد العام ـ أن تبذلوا قصارى جهدكم لمحو هذه الفكرة عن روميل، لأنه لا يزيد في الواقع عن أن يكون قائداً ألمانياً عادياً لذا يجب ملاحظة عدم ذكر اسمه عندما نشير إلى العدو في الصحراء الغربية فنقول الألمان أو قوات المحور أو العدو ولا نقول (روميل) وإنني أطلب منكم التأكد من تنفيذ هذا الأمر ومن صدور التعليمات اللازمة إلى القادة الأصاغر بذلك، علماً بأن لهذا الأمر أهمية سيكولوجية عظمى.

وعادت حملة التبرعات من أجل الإسكندرية وانضمّ إليها هذه المرة الأمير عمر طوسون والأمير يوسف كمال والأميرة سميحة حسن وصيدناوي سليم وسمعان وعادت الشكوى من الدقيق المخلوط فأعلن أن الأمر يحتاج إلى وقت هذه المرة، وقامت إدارة الرقابة بتوزيع الخوذ على المتطوعين ففاز غفارة بواحدة حيث انضمّ للمتطوعين وخصص عربته لنقل المصابين لكنه تأخّر بعدد من الجرحى الذين كانوا ينزفون فماتوا فأعفي من نقل الجرحى وخصصت عربته لنقل الموتى فكتب على أحد جدرانها (عربة الرحمة الإلهية) وعلى بقية الجدران الخشبية التي أعادها إليها آيات من القرآن وأحاديث عن الموت وأبرز من الأمثال «الحي أبقى من الميت» بخط واضح للغاية وكذلك «يمهل ولا يهمل»!

وفي الخامس من مايو احتفل بعيد الجلوس الملكي كما يحدث كل عام في كل أنحاء القطر فأقيمت القداسات بالبطريركيات والصلوات

بالمساجد وأقيمت المهرجانات الأدبية وعزفت الموسيقى في الشوارع وفتحت مطاعم الشعب للشعب وعرضت سينما أولمبيا فيلم «أحب الغلط» لتحية كاريكوكا وحسين صدقي وبدأت لجان محلية في مكافحة الحفاء فقامت بتوزيع خمسة وعشرين ألف زوج من الأحذية كما قامت وزارة الشؤون الاجتماعية بتوزيع ثمانية آلاف زوج من الأحذية على الفلاحين بالقرى باعوها في المراكز «الجوز بربع جنيه» ومنع الحاكم العسكري البريطاني أي أضواء ليلية حتى ولو بمناسبة عيد الجلوس ودارت فرق الجيش والبوليس الموسيقية بالشوارع تعزف موسيقاها في الحدائق وروعت الإسكندرية بحادثة قتل بشعة بعد غارة عنيفة راح ضحيتها ثلاثون فرداً فنسي الناس الغارة التي تعودوا عليها وتحدثوا عن الحادثة البشعة حيث عثر في صندوق قمامة على جثة لسيدة جوار سور حديقة النزهة، تم التعرّف على القتيلة واسمها فتحية جاب الله وهي في حوالي العشرين فانقطع الناس عن زيارة النزهة خاصة وقت العصارى والمغيب، لا العشاق الرومانسيون عادوا يذهبون بالنهار ولا طالبو المتعة الذين كانوا يذهبون بالليل ويستغلون الظلام الدامس في الطريق المجاور للحديقة المحاط بالأشجار من الجانبين، الجميع يعرفون أن رجال البوليس السري ينتشرون في المكان الآن، ولا يعرف أحد ما الذي جعل دميان يستيقظ في الصباح الباكر ويأخذ طريقه إلى شارع البان ويعبره ويقطع الشارعين الجنوبيين ليصل إلى سور السكة الحديد ومن المكان الذي تهدم يوم ذهب إلى العمل أول مرة عبر كما كان يفعل دائماً ومشى إلى البوسطة.

لم يجد الرجل الجالس على الغراب ذلك الصباح فانقبض قلبه لكنه مشى في طريقه وما كاد يدخل بالبوسطة على زملائه وهم يشربون الشاي حتى قفزوا غير مصدقين يأخذونه في أحضانهم واحداً بعد الآخر، وصافحه الأسطى غبريال بابتسامة واسعة هذه المرة وأجلسوه بينهم، لم يجد حمزة فعرف أنه لم يعد، ولم يجد شاهين فسأل عنه، قيل له: إنه ابنه رشدي

ترك الإسكندرية إلى الصعيد مشياً على قدميه بحثاً عن حبيبته كاميليا، وإن الرجل مريض بالبيت ينتظر عودة ابنه، ووجد دميان نفسه يذهب بعد ذلك إلى شاهين، كانت عينا الرجل شديدتي الاحمرار من فرط البكاء. جلس معه دميان كثيراً، قال له إنه عرف من الكنيسة أن كاميليا دخلت الدير، وأنها في الدير ستكون بخير وتنسى وأنه لو حدث وقابلها رشدي سيشفى من أثر حبها لأنه سيجدها شفيت من أثر حبه.

في الثامن والعشرين من مايو قبض على إبراهيم عطا قاتل فتاة صندوق النزهة التي اتضح أنها راقصة وعاد العشاق الرومانسيون «والعمليون» يذهبون إلى النزهة نهاراً وليلاً، وتمّ توزيع بطاقات تموين على الناس لمواجهة جشع التجار وبدأ هجوم كبير لقوات المحور بعد أن وصلت روميل إمدادات كبيرة. بدا واضحاً أن المعركة الكبرى قد أزفت وأرسل الجنرال ريتشي رسالة عظيمة إلى الجيش الثامن لتشجيعه مذكراً الجنود بأنهم يزودون عن الحرية والديمقراطية، وكما فعل ريتشي فعل أوكنلك، وبدأت معركة كبرى في بير حكيم أبلى فيها الفرنسيون أعظم بلاء وبدأت تصل الإسكندرية طلائع الأسرى الألمان، ولكن الألمان استطاعوا احتلال بير حكيم فانسحب منها الحلفاء والفرنسيون الأحرار الشجعان الذين حاربوا بشجاعة منقطعة النظير، وازدادت صيحات الشيوعيين في أوروبا بضرورة فتح جبهة ثانية ضد ألمانيا للتخفيف عن الاتحاد السوفيتي، وتم الاتفاق بين روسيا وإنجلترا وأمريكا على ذلك، لكن ليس في أوروبا بل هنا في الصحراء، كانت هذه رؤية تشرشل أن يتم طرد جيوش المحور من أفريقيا ثم يتم غزو إيطاليا من الجنوب لطرد موسيليني فيبقى هتلر وحيداً وساعتها يمكن فتح الجبهة الفرنسية وعبور المانش، لكن الألمان كانوا يتقدمون في الصحراء ويحشدون الملايين في روسيا.

ترك الفرنسيون بير حكيم بعد ستة وعشرين يوماً من القتال وظلوا

مرتفعي الروح المعنوية، وانسحبت قوات الجيش الثامن من حاميتي العضم وسيدي رزق وانتقل القتال إلى جنوب وغرب طبرق فترك روميل طبرق خلفه واندفع إلى الحدود المصرية.

مع بداية يونيو كانت الدبابات البريطانية جرانت وكروسيد وستيوارت تقف هنا وهناك مثبتة فوق الرمال الساخنة والجنرال ريتشي يقف عاجزاً لا يعرف أين سيضرب روميل ضربته، وكانت الورقة الرابحة عند روميل هي المدفع 88 ملم المضاد للدبابات حيث يستدرج الدبابات البريطانية إلى أرض قتل ثم تنطلق عليهم هذه المدافع الجبارة مجنونة من كل ناحية لتدميرها، وتتولى دبابات البانزر تدمير ما تبقى.

في فجر العشرين من يونيو ألقت الطائرات الألمانية المنقضة القاذفة قنابلها فوق طبرق بكثافة مرعبة، فتطايرت الأسلاك الشائكة وتفجرت مواقع الفرقة الهندية، وتوالت موجات الطيران تدك المواقع الدفاعية. بدأ الهجوم الألماني المدرع بالفرقة 21 البانزر تسبقها المدفعية، كما قامت فرقة أخرى باجتياح الميناء وفرقة ثالثة بسحق رجال الأسطول البريطاني.

ظل في الحامية أربعون ألفاً يقاتلون فأقام المهندسون الألمان جسراً فوق الخنادق العميقة المضادة للدبابات وبدأت أرتال البانزر تأخذ طريقها إلى الحامية تعاونها وحدات المشاة الميكانيكية وتمهد لها الطائرات بالضرب.

كانت الساعة الثامنة والنصف صباحاً وروميل يتابع المعركة مبتهجاً برجاله وفتح المهندسون الألمان ثغرات عديدة في حقول الألغام وجاءت موجة جديدة من الطائرات الألمانية للضرب فتحطمت المقاومة البريطانية في المواقع الأمامية وبدأ الاستسلام الكبير فاهتزّ العالم واهتزّت الإسكندرية أكثر، وأدرك الجميع أن روميل قادم إلى الدلتا، وفي نهاية المعركة قاد روميل بنفسه مجموعة القتال خفيفة الحركة، وكان بنفسه ينزع

«بيض الشيطان» ـ الألغام ـ من الخنادق المضادة للدبابات، وأبرق قائد الحامية البريطاني إلى القاهرة بأنه لا فائدة ثم استسلم ومعه ثلاثة وثلاثون ألف جندي حي شحنوا إلى إيطاليا، وألف عربة مدرعة وأربعمائة مدفع وغيرها من المعدات أضيفت إلى قوة روميل وخطب روميل يشكر جنوده ويطلب منهم التقدم إلى الهدف الثاني، مصر، ورقصت حكمت فهمي رقصة طبرق في ملهى الكيت كات، كان الحاضرون يغنون أغنية جديدة انتشرت في أوروبا: «الشمس على موعد مع القمر لكن القمر غائب» وذاع خبر سقوط طبرق فشاعت البهجة في وجه هانز أبلر وزميله ساندي وطلب المصريون من حكمت فهمي أن ترقص رقصة طبرق دون أن يعرفوا أنها جاسوسة للألمان.

وصل روميل هكذا إلى قمة المجد. كتب إلى زوجته «عزيزتي لو. كانت معركة رائعة. طبرق. يجب أن أنام بعد كل هذا الجهد. إنني أفكر فيك كثيراً. سقوط طبرق هو زهوة انتصاراتنا في الصحراء» في الوقت نفسه كانت سمعة الجيش البريطاني قد اهتزّت تماماً إذ سقطت أيضاً سنغافورة في يد اليابانيين واستسلمت لها قوات تبلغ ثمانين ألفاً. كان تشرشل في أمريكا يزور روزفلت، الذي أظهر كياسته، وسأل تشرشل عما يمكن لأمريكا أن تفعله فطلب دبابات التشيرمان الجديدة بأعداد كبيرة وعلى الفور تمّ شحن سفن حاملة ثلاثمائة دبابة إلى قناة السويس.

* * *

تأخّر دميان كثيراً في الإسكندرية.. راقت له خدمة الكنيسة وخدمة اللائذين بها من الغارات وصعوبة الحياة. ترددت حكاية القديسة الصغيرة، التي تحدث المعجزات على يديها في أسيوط. فتاة لم تدخل الدير إلا منذ شهور صارت الآن تشفي الناس من كل مرض شيطاني بلمسة من الصليب على الرأس أو من يدها، وكثيراً ما تشاهد في الدير

تحدث فيها، أو كائنات لا يراها أحد ولا تنقطع عن العبادة، وتصوم الوقت كله، لكن النور لا يفارق وجهها، لقد بدأ الناس يأتون إليها من القرى المجاورة بأطفالهم المجدورين والممعودين والمصدورين ويذهبون بأنفسهم لتشفيهم من الربو والحمى وضعف القلب والصرع، وكذلك النساء الريفيات العاقرات. صارت الطوابير تحاصر الدير، والقديسة الشابة تخرج ساعتين في الضحى وساعتين بعد الظهر والناس تتقاتل في الاندفاع إليها.

كان رشدي لا يزال يمشي ضد اتجاه النهر يأكل ما تطوله يده من غيطان الخضر، باذنجان، أو طماطم، أو خيار، أو غيرها، أو ما يجود به الناس الذين يرقون لحاله، صار معروفاً أن هناك شاباً مجنوناً يمشي عكس اتجاه النيل وكلما رأى جثة في النهر نادى أهل القرية وصرخ ولم يسكت حتى استخرجوها، وفي كل مرة كانت تتسع عيناه ولا يكف عن الحركة حتى يعرف القتيل وشكله وعمره، ولم يصادف كاميليا أبداً فظل يمشي نحو الجنوب. لقد مضت أربعة أشهر حتى الآن أو أكثر على رحلته، ولقد اقترب للغاية من أسيوط وها هو يسمع عن الشابة التي دخلت الدير منذ عام واحد. وصارت قديسة ذات كرامات تفوق كرامات القديسة تريزا. اتسعت عيناه وهو يسمع اسمها «كاميليا» وانسالت دموعه. حدث ذلك لدميان أيضاً حين وصل خبر القديسة إلى الإسكندرية. وصار يبحث عن الخواجة ديمتري فلم يجده في الكنيسة في أي يوم. وعرف أنه هاجر مع أهله من الإسكندرية إلى أسيوط أيضاً، فكر دميان في نفسه. هل كان يمكن أن يكون قديساً. لقد فشلت قصة حبه مع بريكة. ونجاه ماري جرجس أكثر من مرة من موت محقق، وها هو يحب الكنيسة والعمل بها وخدمة أهلها وزوارها واختيار أحقر الأعمال وإنجازها بفرح. لكن قصة حبه مع بريكة لم تكن إلا كما قال مجد الدين نزوة رجل تجاوز

الأربعين. لماذا لم تحدث هذه الندوة مع فتاة مسيحية؟ لماذا كانت الفتاة مسلمة؟ لا بد أن ماري جرجس لا يريد أن يقع في الخطيئة من أي نوع. فتاة مسلمة يعني أنه لا فائدة من الحب ترجى!

ذلك يعصمه من الإثم حقاً، لكنها تعني أيضاً أن يقهر قلبه وعقله وكل حواسه. أي ظلم؟

ومشى رشدي بسرعة في البلاد، كان يدري أنها تراه في صحوها ومنامها.

كانت تحب أن تنظف الحجرة التي عاشت بها السيدة العذراء وطفلها في الدير في بطن الجبل. لقد نحت الفراعنة المغارة الكبيرة ليصعدوا إليها عند الفيضان. مغارة ترتفع عن السهل الزراعي بمائة متر أو أكثر قليلاً. انتهت السيدة العذراء وابنها ويوسف النجار إليها في رحلتهم التي فروا فيها إلى مصر. صارت المغارة كنيسة للعذراء وديراً يزوره الناس، وتقوم حوله بيوت الرهبان. كاميليا تحب أن تنظف حجرة العذراء. وذات ليلة رأت النور، النور الذي لا يدور بخلد أحد، الذي لا يتخيّله أحد، النور الذي له لون عسل النحل، والذي له مسرة النسيم في يوم قائظ، والذي له طعم الماء الزلال، رأته ينبعث في الغرفة صغيراً كشمعة ثم يكبر ويزيد بريقه وتزداد إضاءة الغرفة ثم يخرج النور يضيء المغارة التي تضيئها الشموع الهزيلة فكأنها شمس دخلت المغارة وصار فيها كل ركن يبرق. إنها العذراء تتجلى نوراً في كل مكان. ورأتها كاميليا تمضي أمامها وتبتسم ابتسامتها التي لا تختفي وأحسّت بها تمسح شعرها برائحة طيبة، وقالت للأب ميخائيل إن العذراء تجلّت لها، وصارت العذراء تتجلّى لها في كل وقت، وحلّت فيها البركة والقداسة السرمدية. ورأت رشدي يمشي في البلاد. تماماً كما كان السحرة يرون ما يحدث في البللورة السحرية. لم تخف أبداً عليه. كانت على يقين بنجاته ووصوله إليها.

كانت فقط تنتظره وتدعو له العذراء أن تحفظه من أي مكروه. هو الذي أنشأ فيها هذه الرقة، هو الذي أيقظ فيها هذه الروح الشفافة، هو الذي أثار فيها الطبيعة الملائكية، يستحق إذن أن تدعو له العذراء أن تحفظه. كانت تعرف أنه سيصل إليها. . وظل هو يمشي في البلاد. القديسة الشابة هي حبيبته. . قلبه يدق ويخبره بذلك. لم تُقتل ولم تمت. وشاعت القوة في روحه هو أيضاً، وأضاءت عيناه الذابلتان وحملته قدماه ونزل يستحم في ماء النهر أكثر من مرة. لم يرض أبداً أن يقابل كاميليا على هيئته الجديدة، حافياً، ممزق الثياب، أغبر الوجه والشعر، وأدرك أنه رأى في الريف دنيا أكثر بهاءً ونضرة. الأرض خضراء والشمس حانية والناس في دعة تمشي على مهل والأطفال يلهون في الغدران. حقاً يبدو الفلاحون فقراء مهملين، شاحبي الوجوه ضامري الأجسام، لكن سمات الرضا على وجوههم، والبِشْر والبهجة على وجوه الناس في الحقول جوار السواقي تحت أشجار السنط والسنديان والجميز العجوز، والطيور سابحة في الفضاء حرة تنزل هادئة تلتقط الحب والحشرات وتعود ترتفع إلى أعماق السماء لا يعطلها شيء وجرب العمل في الحقول، وصار معروفاً أنه لا يمكث في القرية الواحدة أكثر من يوم أو يومين. ويختفي دون إنذار. يندهش الناس لأمره. يقولون إنه شاب مبروك. عمل في صمت وأكل وشرب في صمت والحقيقة أنه كان شارداً شرود الأنبياء ساعة الوحي، لقد تفجّر فيه نبع الشعر ووجد نفسه يقوله مختلطاً بأشعار من أحبهم من الفرنسيين وغير الفرنسيين وبانت في عينيه فرحة الخلق وزهوه. يا للألم الجميل الذي أيقظ الشاعر من مرقده الدفين. أيقن أنه كان مخبئاً لرسالة. سيحمل عن الناس آلام المعرفة ويمتعهم بما يشدو به منها، هذه الآلام المسكرة، لكنه رأى أيضاً الفلاحين مهانين مذلين ورأى أسياد الأرض يضربونهم ورآهم ينامون مع البهائم، ويأكلون أحقر الأطعمة ويشربون، كالبهائم، من ماء الترع، ويحمدون الله على كل حال، أدرك القوة الخفية

في المصريين. يتركون الحاكم الظالم للحاكم العادل الذي لا يخذلهم مهما طال الوقت. كيف حقاً انحدر المصريون من الأزمان السحيقة إلى هذا الزمن؟ أي معجزة يقدمها هذا الشعب. البقاء مع الظلم أكثر من الثورة عليه. وكلما طالت المسافة أمامه اقترب من أسيوط وازداد فرحه وأحس بجسده يهتزّ من طرب خفي. طرب الشعر، أم طرب اللقيا؟ لا فرق. في الشعر واللقيا ميلاد جديد للروح. سيراها فقط ويعود، تلك التي شفَّت مثلما شفَّ ورقّت مثلما رق ولم تمت مثلما عاش وصار هو شاعراً وصارت هي قديسة. الاثنان في زمرة الأنبياء.

دبَّر من العمل ثمن ثياب نظيفة وحذاء، وكان أول ما فعله في أسيوط أن دخل أحد الفنادق الرخيصة، يستحم وينام طويلاً بعد أن حلق ذقنه. نام أكثر مما ينبغي وقام لينظر في المرآة، أي وجه جميل يحمله رشدي. أي عذاب فوق هذا الوجه. واندفع يبكي متحسراً على الذي فعله بنفسه وفعله به الحب، وفكر حقاً في الرجوع إلى هذا الحد اطمأنت روحه بعد أن أدرك بقاء حبيبته حية. لكنه في الحقيقة في حاجة أن يراها. مشى في شوارع أسيوط الحارة يتسكع قليلاً، وعاد لينام. لقد قرر في الصباح الذهاب إلى الدير الذي عرف الطريق إليه.

في الطريق فكّر أن يعود ويكتفي بالتحوّلات التي حدثت لكليهما، لكنه كان من القوة ليذهب ويراها دون أن ينتكس أو ينهار. قال لنفسه: إنها لا بد بلغت القوة أيضاً. كلاهما صار في منطقة بين اللاهوت والناسوت، وهو شاعر وهي قديسة.

رأى الزحام الشديد من المرضى والثكالى والمقهورين في الحب والحياة، في الروح والجسد، على ذلك السفح الممتد من الجبل حتى الوادي، وعلى طول الطريق حتى قرية درنكة رجالاً ونساء. ووقف بعيداً حتى اقترب موعد انصرافها. لقد تشبّع بهالة النور التي تكلّل رأسها وتشيع

حول وجهها. تشبع بحركة شفتيها الصغيرتين بالكلمات المبهمة التي لا يمسها أحد. تشبع من زيها الأبيض السماوي، من جسدها الهش كجسد عصفور، وتقدم. لقد جاءت اللحظة التي كانت بعيدة كيوم الدينونة، ورفعت وجهها إليه. ارتعش الصليب الفضي الصغير في يدها الدقيقة. ارتعشت شفتاها بلا كلام. لقد أحسّت برائحته، ولم تعد قادرة على الوقوف حتى إذا صار أمامها كادت تنهار. لكنها تماسكت وتركت دموعها تنزل على خديها أمامه وبين دهشة المرضى الثكالى والمعذبين. . «رشدي» كانت الكلمة التي طال انتظاره لسماعها. وقال «لقد شفيت» قالت «كنت أعرف، كنت أراك وأنت تأتي ماشياً في الحقول. أنا أيضاً شفيت» قال «وسأذهب إلى فرنسا بعد الحرب، أعطاني الله القدرة على الشعر»، «وأنا لن أترك الدير. أعطاني الله القدرة على المساعدة، الحب طريق الرب يا رشدي» وسكتا. كانت دموعه هو أيضاً قد انحدرت «هل تباركينني؟» أومأت برأسها فركع على ركبتيه ومشت بيديها على رأسه وقرأت رقية ثم أخذت بيده تنهضه أمام الناس جميعاً وقفت على أطراف أصابع قدميها وقبلته على جبينه وقالت «مع السلامة يا حبيبي» وشق صفوف المرضى عائداً ودخلت هي إلى الدير ولم تكمل بركتها ذلك اليوم ولم تخرج لأيام ثلاثة بعد ذلك ظلّ فيها الناس ينامون حول الدير حتى خرجت إليهم يسبقها نور وجهها. .

* * *

كان السيد الجليل المثلث الرحمات الأنبا يؤانس بطريرك الأقباط الأرثوذكس وبابا الكرازة المرقسية قد مات في الإسكندرية وتمّ انتخاب نيافة الأنبا يوساب مطران جرجا من المجلس الملي العام وفتحت الكنيسة المرقسية أبوابها للتبرك بزيارة جثمان الفقيد قبل أن يوارى، وزارها دميان الذي خرج ذاهلاً. لماذا حقاً يموت الناس؟ لأول مرة يسأل نفسه ذلك.

وخشى أن يكون الإيمان الغامر الذي تمكّن من قلبه في الشهور السابقة قد تسرّب في الصحراء ولم يعد كافياً. لكنه لم يكف عن السؤال. وبالليل، وهو نائم في صحن الكنيسة على حصير فوق الأرض بين أسرته، وغيرها من الفقراء عاودته رؤية ماري جرجس على فرسه تحيط به النار من كل جانب ولا يعرف كيف يخلص نفسه منها.

كانت الدبابات الأمريكية الجديدة الشهيرة من ماركة جرانت وشيرمان تصل ميناء السويس وتتدفق على الإسكندرية ثم إلى الصحراء بينما القوات البريطانية تنسحب أمام روميل إلى الحدود المصرية ثم السلوم وسيدي براني وتوقف الجيش الثامن في مرسى مطروح ودخلها روميل وتقهقر الحلفاء أمامه وفي الضبعة حدثت معارك بالسلاح الأبيض أبلى فيها النيوزيلانديون وظهرت شجاعتهم لكن من يستطيع الآن أن يوقف روميل ذا الاسم الساطع. إن اسمه وحده يلقي الرعب في خصومه ويكفي لكسب الحرب. كانت العلمين هي نقطة التوقف للمنسحبين والمهاجمين. هي عنق الزجاجة الذي لا يزيد عرضه عن خمسة وعشرين ميلاً من البحر حتى منخفض القطارة. وهي منطقة بعيدة عن قواعد قوات المحور بليبيا. يحتاج روميل إلى الراحة عندها بعض الوقت. وهي بالنسبة للحلفاء خير منطقة للدفاع لقربها من قواعد إمدادهم، ولضيق أرضها على المناورة العسكرية التي برع فيها روميل. هنا سيكون مضطراً أن يهاجم مباشرة فلا مساحة للالتفاف.

* * *

روميل.. روميل.. روميل.. الاسم تحمله الرياح وتردّده الناس ملحقاً بالقوة والدهاء والعبقرية والخوارق. روميل لا يمكن هزيمته. لا يمكن قتله. انفجرت العربة المدرعة التي كان يركبها فور أن غادرها. انهالت القذائف على الخندق الذي تركه جنوده منذ قليل. فرقة من

الكوماندوز الإنجليز تنزل إلى الشاطىء الليبي من غواصتها، وتصل إلى مقر قيادته لكنه كان خارجه يحضر حفل زواج أحد الأصدقاء ويقع الكوماندوز في الأسر بعد معركة يموت فيها بعضهم. تعطّلت سيارته في الصحراء فدخل خطأ مع هيئة أركان حربه معسكراً بريطانياً به مستشفى ميدان فأمر مدير المستشفى والأطباء بالوقوف أمامه، وتصرف كما لو كان قد احتل المكان، فسألهم ما إذا كان ينقصهم شيء يقدمه لهم بعد تنظيم أوضاع الأرض التي احتلها! ووعدهم بتلبية مطالبهم. وبعد أن غادرهم اكتشفوا الخدعة وكيف طار الصيد الثمين.

ازداد الهلع في البلاد فازداد خروج اليهود منها وبيعت ممتلكاتهم بأبخس الأثمان، وسمع السكندريون دوي المدافع في العلمين فارتبكت أحوال المدينة وبدأت القنصليات الأجنبية في حرق أوراقها كما فعلت كذلك السفارات بالقاهرة، وفكرت السفارة البريطانية في تهريب خمسمائة فتاة من فتيات الأتسا إلى الأقصر فليس من المرغوب فيه أن يتم ترك كل هذه النعمة البهيجة للألمان وانتشرت إشاعة قوية أن الإنجليز طلبوا من الحكومة المصرية إغراق الدلتا في حالة احتلال الألمان الإسكندرية لكي تتحول الأرض إلى بحر من الطين تغوص فيه المركبات الألمانية فازداد سخط الناس على الإنجليز.

ومن جانبهم، الإنجليز، ألحّوا على ضرورة إخراج أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب كرهاً أو طواعية من القاهرة حتى لا تستغل الدعاية الألمانية أغانيهما. وهجمت الناس على البنوك لسحب أموالها، ودبّ الخوف في نفوسهم ولزموا بيوتهم أياماً لا يخرجون إلا للضرورة وجماعات بسبب الأخبار التي شاعت عن وصول حيوانات شاردة من الصحراء تحت وطأة الحرب. أسود ونمور وذئاب وثعالب وقرود. وبالفعل وجد الناس أكثر من قرد قد تسلّق الأشجار فطاردوه بالحجارة حتى قتلوه، كما تحوّلت

الكلاب بالليل إلى ثعالب وذئاب يفر كل من يراها أما الأسود والنمور فلم يرها أحد، غير أن الأخبار حملت نبأ أسد عجوز ظهر في منطقة مينا البصل نام على شريط الترام بالليل فدهسه أول ترام صباحي ومزقه وكاد ينقلب، وهكذا صار الناس يتوقعون ظهور الأسود والنمور في أي وقت وارتبك قائد منطقة الإسكندرية العسكري وهو ضابط مصري إذ ليس لديه تعليمات محددة في حالة دخول الألمان إلى المدينة فأرسل خطاباً إلى وزارة الحربية يسألها عما يجب عمله في هذه الحالة، هل يقاوم أم يستسلم؟ عرض الخطاب على وزير الحربية فأمر بعدم الرد عليه لكن قائد المنطقة المرتبك عاد وأرسل خطاباً بالمعنى نفسه فصرخ وزير الحربية «انقلوا ابن. . . من الإسكندرية» كان الوزير يخشى إذا طلب المقاومة أن يحاكمه الألمان في حالة النصر وإذا طلب الاستسلام أن يحاكمه الإنجليز بتهمة الخيانة! ووقعت على المدينة غارات هدمت شارع منشّة كله في ليلة واحدة وخرج سكان كرموز وراغب وغيط العنب هلعاً إلى شاطىء المحمودية لكن الطائرات الألمانية ألقت على المحمودية كثيراً من قنابلها هذه الليلة، فغاصت كثير من السفن مشتعلة مدمرة في الماء وقتل العشرات ممن كانوا على الشاطئين وبدأ خروج كبير إلى الريف عن طريق القطارات والسيارات. سيارات أجرة وملاكي وكارو بحمار وكارو بخيل وحنطور ودراجات ومشاة كانوا يشغلون الطريق الزراعي والنساء خرجن من المدينة هلعاً بملابس البيت أو قمصان النوم وطاف دميان بالشوارع القريبة من الكنيسة ليرى الأثر السيء للغارة كما يفعل بعد كل غارة، فوجد بيوتاً كثيرة مهدمة، ومنها بيت الخواجة ديمتري حيث سقط الدور الثاني فوق الدور الأول ولم ينهر غير جدار الواجهة الذي سقط إلى الخارج فسد الرصيف أمام الباب المغلق الذي ظل واقفاً. لم يكن أحد بالبيت أثناء الغارة، لا سكان، وديمتري رحل إلى الصعيد. فكر دميان أن يصحب أسرته إلى الصعيد لكنه تذكر أن الصلة انقطعت مع أخواته البنات

من زمن فليهاجر إذن إلى مساكن الإيواء التي أقامتها الحكومة بكفر الدوار.

في الطريق كان دميان يجري جوار العربة التي يقودها غفارة وطربوشه على وجهه، وفوقها أمام دميان وزوجته وبنتاه. لقد عاد غفارة ورفع جدران العربة الخشبية ليجلس الناس فوقها بسهولة في طريق الهجرة الطويل. لقد انقطع عن نقل الموتى، لم يحتمل، وصار ينقل الأحياء إلى كفر الدوار تسبقه سيارات الأجرة والحنطور التي تجرها الخيل والعربات الكارو الطويلة التي تجرها البغال العفية لكن لا بأس فالحماران الضعيفان يوفيان بالغرض والناس فقراء خرجوا من بيوتهم عراة فهو يكتفي بالقليل ويطلب من دميان أن يقفز جواره لكن دميان الذي يدرك بطء العربة وضعف الحمارين يكتفي بالسير جوار العربة، وبالهرولة. لماذا حقاً لا يرى المشهد من حوله جيداً؟ هذا الطابور المشوه من الهاربين، أزياء مختلطة وعُري وأصوات عالية وبكاء ومتاع كثير وقليل نظيف وقذر والشمس فوق الجميع تفضحهم والقطارات تمرق جوارهم، قريبة منهم، أكثر زحاماً، والجميع ينظرون إلى الجميع، واللحظات لا معنى لها. فكّر دميان في بريكة. لقد وصل روميل إلى العلمين ولا بد أنها والبدو جميعاً قد رحلوا، قد فرّوا أمام الجيوش الغبية. يا الله. هل تظهر بريكة في معسكرات الإيواء. لا يظن. لو حدث ذلك سيتزوجها. هي متزوجة. هو متزوج. سيخطفها. لا يمكن أن يراها مرة ثانية ويتركها. ذكراها فقط تكاد تخلعه عن الأرض، لا تكفي خدمته في الكنيسة وقيامه بأحقر الأعمال لينسى. حتى المراحيض كان ينظفها ويطيل الوقت في تنظيفها لكن الفضاء الذي هو واسع جداً يجري خلاله الناس والمركبات جميعاً يقول لا سبيل لعودة بريكة. كانت تأتي من «وَسع» وتعود إلى «وَسَع». الرب أرسلها. الرب أخذها. البدو لا ينامون في دور الحكومة. بريكة ذرة رمل حملتها

الريح. ولا بد من العودة إلى مجد الدين.

في كفر الدوار كانت هناك خيام الملكة نازلي تستوعب القادمين تمهيداً لإقامة مساكن من حجر. إذن ليس أجمل من النزول في بيوت أقامها الملوك حتى ولو كانت خياماً من قماش! كذلك كانت عربة غفارة التي حملها بجزء من متاع الأسرة وركب فوقها الجميع ومشت بهم ببطء على الطريق الزراعي المزدحم بالمهاجرين الذين يمتدون فوقه بلا انقطاع من الخلف، ومن الأمام حتى بدا لدميان أنه هدف للجميع! كانت الحكاية الغريبة التي أدهشت الناس وأبكتهم في الإسكندرية هي حكاية السيدة اليهودية سمحون التي كانت تسكن في فيللا صغيرة بشارع منشة مع عشرات من القطط. إنها تنتمي لعائلة سمحون الشهيرة التي كانت من أوائل قاطني الشارع في عهد إسماعيل باشا. لا يعرف أحد اسمها فأعطوها اسم العائلة. لا يعرف أحد متى كان مولدها ولا اليوم الذي ظهرت فيه سمحون بالشارع، لكنها صارت معروفة منذ الحرب العالمية السابقة. كانت تحب شاباً يهودياً ذهب إلى الميدان الشرقي مع اللورد اللنبي، ودخل معه فلسطين، ولم يعد، كان قد وعدها أن يراسلها لتلحق به بعد الانتهاء من الحرب، والانتصار لكنه لم يفعل. قتل في القتال الدائر مع الأتراك وأنصارهم وهي بدورها لم تشأ الذهاب إلى الأرض التي قتل فيها حبيبها. اكتشفت أنها لا تستطيع أن تترك مصر أبداً. ظلت بالبيت وحيدة بعد موت أمها وأبيها وزواج إخوتها وأخواتها وانتقالهم إلى سابا باشا. لا أحد يتذكرها إلا يوم السبت حين تخرج قاصدة المعبد في شارع النبي دانيال.. منذ تهدم المعبد لم تعد تخرج أيام السبت أيضاً. لا يعرف أحد كيف تعيش. يقال إن لها خادمة تأتي من «الحدَرَة» وتعود كل يوم. لكن حتى الخادمة كانت لا تُرى إلا قليلاً، وعلى غير عادة الخادمات لم تكن تتحدث مع أحد. كانت تشتري كل شيء من الوكالة في الحدرة،

وتأتي في الصباح. نادراً ما اشترت شيئاً من شارع منشّة أو بوالينو أو محرم بك. سقطت قذيفة مباشرة على فيللا سمحون فتكومت مع البيوت المجاورة. جاءت فرق الإنقاذ وتجمع الناس أكثر ما تجمعوا حول بقايا الفيللا. أين ذهبت السيدة سمحون أشهر عاشقة في الشارع؟

كانت فرق الإنقاذ تعمل وتتقدم في العمل فتخرج من تحت الأنقاض قططاً صغيرة وكبيرة حية تجري تموء في الطريق غير مصدقة ما جرى لها، ووجدت السيدة سمحون مكومة في ركن محاطة بجوانب قوية من الجدران، ومغطاة بجزء من خشب السقف. لكنها معفرة بالتراب مغمضة العينين لا تتحرك. لا حول ولا قوة إلا بالله. يا لها من نهاية لعاشقة حقيقية. كانت أجمل الجميلات لكن الوحدة أصابتها بشيخوخة باكرة. لا بد أن معها أموالاً كثيرة! تناثرت الأحاديث وانتظرت الناس ظهور المال فاستمر رفع الأنقاض ثلاثة أيام، وشارك في ذلك ناس من كل الإسكندرية، عاطلون وفقراء جاءوا يبحثون عن الكنز المدفون لعائلة سمحون. لا أحد سأل نفسه لماذا لم يظهر أحد من أبناء العائلة إلا للحظات لاستلام جثة أختهم ثم اختفوا. في النهاية وجدوا بعض أوان قديمة، وأثاث متهالك وأعواد بخور. حزم كثيرة ملونة من أعواد البخور كانت تحتفظ بها السيدة الجميلة سمحون.

* * *

،لك الحمد إن الرزايا عطاء وإن المصيبات بعض الكرم.

لك الحمد مهما استطال البلاء، ومهما استبد الألم

27

دقّ قلب مجد الدين بسرعة مع مجيء القطار. . إلى متى تكذب عليّ أيها القلب الضعيف؟ قال لنفسه. يحدث ذلك كل يوم، ولا يأتي دميان. لا شيء يملأ الخلاء حوله. حتى الحركة الكبيرة في الجيوش لم تملأ الخلاء. التراجع والذعر أمام روميل، طوابير الجرحى الذين حملتهم القطارات. الأسى من عيون الجنود مختلفة الألوان! البكاء أحياناً. صمت عازفي القرب. . الغبار الذي ملأ الفضاء، الطائرات التي أتت وراحت، ذهبت ولم تعد ثم عادت!! القذائف الشيطانية. ملازمته البيت أياماً كاملة. تضوره جوعاً إذ انقطع الهنود والصافي النعيم عن المجيء، وهرب هلال ناظر المحطة ليلحق بعامر الذي ترك من قبل حجرة التلغراف مفتوحة تعوي فيها الرياح. كل ذلك لم يُنسه دميان. هل كان دميان سبب بقائه؟ لن يجد مرة أخرى أحداثاً في قوة ما مضى لدفعه لترك المكان. لا بد أنه دميان. إنه ينتظر عودته، ولسوف يعود. . وها هو يراه ينزل من السبنسة آخر عربات القطار الذي جاء يحمل عتاداً عسكرياً.

يراه واقفاً وسط الرصيف ينظر حوله، تماماً كما حدث عندما جاءا أول

مرة معاً. دميان يبدو غير مصدق أنه عاد إلى صديقه، تماماً كما لا يصدق مجد الدين. أسرع كل منهما ليكون في حضن الآخر.

في غرفة الناظر تحدثا كثيراً، وصف مجد الدين بؤس انسحاب الجنود أمام روميل، وحكى دميان عن بؤس الإسكندرية. لا أحد يبقى. لا أحد ينام. ومجد الدين غير قادر على الابتعاد بعينيه عن إكليل النور الذي يحيط بوجه دميان. هذا شيء لم يكن في دميان من قبل.

ـ ما لك يا شيخ مجد تحملق فيّ كثيراً.

ـ لا شيء يا دميان. فقط أوحشتني. لم أصدق أننا سنتلقي ثانية.

لكن دميان شرد بذهنه عنه. لقد سبق وتأمله القسيس، الأب إبشوى، كثيراً، وسحبه من ذراعه إلى حجرة الاعتراف وأجلسه وراح يعيد النظر إليه. «ما الحكاية يا أبانا» لا تترك الكنيسة يا دميان، لا تبتعد عنها» الشمامسة والقساوسة كثيراً ما ينظرون إليه ويجتمعون ويتحدثون. شيء ما يحدث في وجهه لا يدركه. لكن لماذا لا ينظر إليه أحد من أهله. ولا من أولئك الذين لاذوا بالكنيسة؟ ما الذي يجعل مجد الدين مثل الأب إبشوى والقساوسة والشمامسة؟

ـ كان عليك أن تترك هذا المكان وتلحق بي.

قال دميان ذلك وهو يكذب. لقد أحسّ في الأيام الأخيرة أنه لم يعد يعرف الإسكندرية، وأنها لم تعد تعرفه، أنه لا حياة له بعيداً عن مجد الدين، وهو الآن يشعر أنه لا يستطيع البقاء هنا. وقال مجد الدين:

ـ نعم كان عليّ أن ألحق بك.

ـ لماذا إذن لم تفعلها يا شيخ مجد؟

لم يجد مجد الدين أن لديه رداً. واكتشف أنه كاد يفقد الإحساس بالزمان، وبأن الدنيا أوسع من العلمين. وظل يحملق في وجه دميان،

الذي استمر يتحدث عن الإسكندرية، ولما عرف مجد الدين أن بيت ديمتري تهدم انقبض صدره، وشمّ رائحة البيت، الرائحة الوادعة الأليفة التي تبعث على الراحة والنوم. بيت لا تسمع فيه صوتاً خارج الجدران، كان بيت الخواجة ديمتري. وتذكر البهي فتذكر على الفور هالة النور التي ظلت أزماناً طويلة حول وجهه. ترى هل يجد دميان مصير البهي؟ لقد أمسك مجد الدين بصورة البيت الصغير فأمسك بكل الصور التي ضاعت منه. لُولا وكاميليا وإيفون والست مريم وغفارة والبهي وزهرة، أجل، زهرة حبيبة روحه التي لا بد تزوي في القرية حزناً على فراقه الآن. يا للفرح المباغت الذي يكاد يرفعه عن الأرض وهو يتذكر شوقية وشوقي. لقد اقترب موعد عودته إذن. هاتف سري، سحري، يتردد في صدره. وقال دميان:

ـ لم أكن أعرف أنهم ألغوا القطارات المدنية.

ـ لم تعد تأتي منذ الانسحاب، إنها تنتهي عند الحمام الآن.

ـ ركبت إحداها، ومن الحمّام تعلقت بالسبنسة، لم يكن بالسبنسة جنود. كانوا فوق العربات والمعدات العسكرية.

ـ أنت دائماً لا يعطلك شيء يا دميان. هيا إلى البيت.

الحقيقة أن مجد الدين كان يريد أن يستوثق من هالة النور حوله وجه دميان، وهل تظهر في الظل داخل البيت، وهل يدرك دميان هذه الهالة ويعرف معناها؟ دميان يدخل مدارج القديسين والأولياء ولا يدري، وفي الطريق سأله دميان:

ـ هل لديك معلومات عن بريكة؟

ـ البدو جميعاً غادروا المنطقة إلى الحمّام أو العامرية.

* * *

في الليل كان دميان قد ضاق بحملقة مجد الدين فيه. لكنه اعتبر ذلك

عَرضاً جديداً ألمّ بصديقه. وتحدّث مجد الدين عن ضرورة بقائهما حتى تصلهما تعليمات بالمغادرة فسأله دميان عن العمل الذي يمكن أن يعملاه الآن. قال مجد الدين، إن تحويل القطار إلى الخط الحديدي القديم ليبيت فوقه ويعطي الفرصة لقطار آخر يصل المحطة عادة بالليل عمل مهم يجب ألا يتخليا عنه. ذلك برغم أنه لم تعد هناك فائدة للمزلقان فالقطارات لا تبتعد عن المحطة، ومن ثم لا عمل للسيمافور الآن. وكانت هالة النور تزداد في الليل، ويزداد لمعانها الهامس، وسمعا صوت وقع أقدام تقترب. كانا بالحجرة الداخلية لكن الباب الخارجي كان مفتوحاً. ازداد اقتراب صوت الأقدام وأصبح عند الباب، ثم صار بالصالة فملأ فضاء البيت ثم رأياهما يقفان أمامهما. إنه الضابط الإنجليزي، مستر سبايك شخصياً، الذي غاب عن الحضور طويلاً، وإلى جواره رجل قصير مهوش الشعر طويل الذقن أحاطت وجهه كله، الوجه معفر ومتعب للغاية والثياب ممزقة في كل مكان. مجرد شورت كاكي وسترة من الكاكي، والساقان سوداوان محترقتان. لقد وقف مستر سبايك محملقاً في دميان ومجد الدين ثم قال:

- this man is gyptian, We Found him in the desert, please help him.

وترك لهما الرجل المتعب ومضى، والرجل المتعب بدوره وقف يتأملهما ثم قال بصوت مرتعش:

ـ ألا تعرفني يا شيخ مجد. ألا تعرفني يا دميان؟

ـ من؟ حمزة!!

هتفا معاً وانقضا عليه يحتضنانه ويخلعانه عن الأرض فرحاً، وما هي إلا لحظات حتى صار جالساً بينهما يبكي ويضحك ويحكي...

* * *

أبدأ منين يا شيخ مجد؟! أقول إيه يا دميان؟! حكايتي دي لا بد عن يوم يحكيها الناس على الربابة زي حكاية أبو زيد والزير سالم. أي والله. آخر شيء فكرت فيه هو الرجوع لمصر. هي كانت فين مصر؟! من ساعة ما شدّني العسكري الأفريكي الغبي ابن الكلب وضاع أملي في الرجوع. الله يسامحه انفجرت بطنه قدامي.. الله يسامحه خدني منكم، من أولادي. من أهلي وبلدي، بعدتم عني كلكم. شفتكم طايرين في الهوا لورا والتراب قام غطى حتى على عيني ما عدتش شايف حد. أنا بصيت لقيت نفسي في مرسى مطروح. أيوه. مرت عليّ ليلة كاملة في القطر العساكر بتضحك عليّ وتمسخر فيّ ماعاطونيش أي فرصة أقرب ناحية الباب كنت نطيت إنشا الله أموت.. يا الله.. طول الليل يضحكوا عليّ استراليون وهنود وأفريكان وإنجليز. كل الدنيا كانت تهزأ فيّ، أي والله. وأنا تايه وسطيهم، يسألوني اسمك إيه، وات إذ يور نيم؟ أقول حمزة يقولوا همزة وأمزة وجمزة ويضحكوا ويزقوني من واحد لواحد وأنا مذعور وسطيهم ذي الفار أبص في عيونهم وأترجاهم بليز هيلب مي، بليز ليت مي جو هوم، ولا حياة لمن تنادي، ويا ريتني ما كنت أعرف ولا كلمة إنجليزي كنت قعدت ساكت، لكن لأني أعرف كنت أطلب وألحّ عليهم يسيبوني وأبقى عارف أنهم فاهمين كلامي ولا يهتموا ولا يتحركوا. كنت أتألم. لو كنت أخرس أو جاهل كنت سكت وانتظرت ورضيت لكن ركعت على ركبتي وتوسلت بليز ليت مي جو باك. ليت ميت جو هوم، هوم بليز، ماي هوم. هوم، يضحكوا ويقولوا هوم هوم! وات إذ هوم؟ وي آر هوملیس. يو آر لايك أص هوملیس همزة، ويضحكوا، همزة إذ هوملیس. ويضحكوا لغاية ماجه ضابط شاب عجبه عجزي وحيرتي وانزعاجي وربت على كتفي يطمئني وتحدّث مع الجنود فازدادوا ضحكاً وشراسة في الضحك وأدركت أنه هو أيضاً لن يساعدني لكنه أشار إلى ركن في العربة فجلست فيه ووضعت يدي على خدي،

وأدركت أني ضائع لا محالة وسمعت الضابط يقول وهو بيشاور عليّ لايك مونكي! وضحك العساكر وفقدت الأمل، تذكرتك والله يا شيخ مجد، وأنت كمان يا دميان، والغريب أني خفت لما أرجع وأحكي ما تصدقنيش يا دميان وابتسمت رغم المصيبة وقلت بس أرجع وما يصدقنيش حد، وبعدين قلت زي الشيخ مجد يحلها من لا يغفل ولا ينام وحلها والحمد لله والشكر لكنه تأخر عليّ كثير قوي. . أكيد كان اختبار. أكيد. لكن كان صعب. .

المهم. الحمد لله على كل شيء. قلت لنفسي ونمت مكاني. صحيت لقيت نفسي في مرسى مطروح وغارة شديدة على البلد والمحطة والقطر. شفت العساكر بتجري في الصحرا وأنا ساعات قدامهم وساعات وراهم وشفت القنبلة وهي بتقع قريب من الأفريكي الغبي اللي خطفني فتشيله عن الأرض عشرة متر وزيادة وتنزل بيه وبطنه مفتوحة والدم يشلب منه. شفت معدته ومصارينه قربت منه لاقيته حي لكنه لا يتألم بس كان يبص لي جامد زي اللي حاسس إني شمتان فيه ومش عايز يبان ضعيف، لكن أنا كان صعبان عليّ. يا دوبك أتلوى مرة وأتألم مرة وفطس وغطيته بالرمل في عز الضرب. أي والله. المهم في النهاية انتهت الغارة وبقينا وسط ثكنات الجنود وقفت متحير. توقعت أنهم يتركوني لكنهم زقوني على المطبخ. شفت الضابط نفسه اللي كان في القطار وسمعته يقول لعسكري أسود تيك هم تو ذا كيتشن. هي إذ آ سيرفانت. وسحبني العسكري الأسود أبو سنان بيضا وسألني وات إذ يور نيم قلت زي المذهول: حمزة. سألني وات إذ همزة. قلت: يا ربي لازم الواحد يعني يعرف معنى اسمه. قلت له حمار، بالعربي، سألني: وات إذ همار قلت له حمزة بصّ لي وسكت شوية وبعدين. قال: فيري جود همزة!

قعدت طول النهار والليل أشيل في أكل وأغسل في صحون وحلل.

قلت: زي بعضه أديني باكل، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ومسير حد يعرف حكايتي الحقيقية ويسيبني أروح المحطة وأخذ القطر وأرجع لعيالي لكن ما حدش سأل فيَّ قعدت أفتش في المعسكر إزاي أهرب لاقيت نفسي مش عارف الشرق من الغرب جنود من كل ملة وسلاح من كل صنف وسط الصحراء، سلمت أمري لله قلت يا رب تيجي غارة ألماني تهد المعسكر على اللي فيه وحلمت إني راجع لوحدي وكان الضابط كل يوم يبص لي ويضحك ويتكلم مع الضابط ويضحكوا لغاية يوم شاور لي راح قلبي طب ومشيت وراه لحد عربية كبيرة فوقها عساكر. كان فيه عربيات كتير فوقها عساكر بسلاحها. قال لي چامب وقفت متحير، العربية عالية وأنا قصير لكن عسكري أسود برضه مد لي إيده تعلقت بيها ورفعني وشوية ومشيت العربيات حواليها دبابات ومدافع وسألت العسكري الأسود وأنا مذعور، مذعور زي الكلب، آه والله، زي الكلب اليتيم كمان. سألته: «تو وير وي جو سولدجر».

قال لي وهو بيضحك: «تو ذا وور» وضحك زي المجانين وأنا عرفت طبعاً أنها الحرب وإن في الحرب نهايتي اتغميت وتمنيت من الله شيء واحد هو أن يهزم الإنجليز والحلفاء في كل حرب ضد الألمان، والطلاينة الغلابة وأني أقع أسير في أيد الألمان أو الطليان لأنهم ممكن إذا عرفوا حكايتي يسيبوني. طول الطريق الضابط يزعق ويشخط في العساكر. ظهر أنه شرس وابن كلب. سمعت الضباط ينادوه بشكسبير. الظاهر دا كان اسمه لكن العساكر كانوا بيقولوا عليه ماكبس. الظاهر دا اسم الشهرة. أنا ظنيت كده وجيت في مرة وقلت «مستر ماكبس» فزغر لي زغرة خوفتني، وعرفت إنه انضحك عليّ من العساكر وإن ماكبس دي كلمة وحشة أمال إيه اللي زعله كده. لا بد إنها كلمة وحشة أو اسم تجريس وهلس قلت لنفسي قطيعة تقطع شكسبير على ماكبس في يوم واحد. بعد كده طلع

عيني في توزيع الأكل على العساكر في مواقعها. لبسوني طبعاً لبس الجيش وكان الكتيبة اللي باوزع عليها الأكل هنود، كلها هنود، قلت يمكن دول أرحم وخدمتهم أهون أهم مستعبدين زينا لكن طلعت خدمتهم طين وما كانش فيهم حد مسلم ولا حد اتكلم معايا كلمة، وكانوا طبعاً كلهم أطول مني لابسين عمم حتقع من على رؤوسهم ولا يهتمون بلبس الخوذ وكانت كل أوامرهم لي بالإشارة. خلوني كما أخرس فكنت بانام بالليل في المطبخ وأقعد أسلي نفسي بالشعر والغنا وأعيط.

شوف الزمان ما عمل في الناس وراهم
إن زهزه لهم يوم جاه في العقب وراهم
زمن الهنا راح جانا زمن عايب.
وادي أندل الناس ع الجدعان يتعايب

وفي أول معركة مع الطليان وقعت أسير. أخذني الطلاينة مع عساكر إنجليز وهنود واسترال ومشيوا بينا مسافات بعيدة في صحراء حمراء رملتها ناعمة تهب شوية ريح عيوننا تتعمى. صحرا تربط فيها القرد يقطع لغاية ما شفنا معسكر كبير متحوط بسلك. ربك الحق ظهرت الشماتة في عيني خصوصاً أني أنا ما شفتش المعركة قبل الأسر «أمال اتمسكتوا أسرى ازاي» لقينا كده بدون مناسبة فرقة مدرعة ألمانية، وسط المعسكر حواليها عساكر مشاه زي العفاريت. كله عرف إن الألمان وصلوا سلموا نفسيهم. الحرب كانت بعيدة عن المعسكر وما دام ظهر الألمان والطليان يبقى الإنجليز انهزموا. بعد كده لما حييجي روميل حيجنن الإنجليز لأنه أول ما يبدأ المعركة يسيبها ويعدي في لمح البصر ويبقى ورا الإنجليز فيسلّموا على طول. لكن لسه ما ظهرش. أيوه. أمال اسمه روميل ليه. روميل لازم تكون معناها تعلب. أيوه يا شيخ مجد. والله يا دميان. «دا أنت حكايتك طويلة يا حمزة» أنا لسه في الأول يا دميان. دا أنا مش مصدق

أنها خلصت. «طيب. طيب. ما تعيطش اتكلم يا حمزة فك عن نفسك» وحشتني خالص يا شيخ مجد. «وعملت إيه مع الطلاينة» أيوه يا دميان أخذونا معسكر كبير مليان أسرى من كل الدنيا وكل الملل وكنا نبات فيه في الخلا بالنهار حر بالليل برد وزي ما شفت الإنجليز بيعملوا في الأسرى شفت الطليان بيعملوا نفس العمل يرموا لنا الأكل من فوق السلك ونجري عليه زي الحيوانات. لكن الحقيقة كان العساكر بعد ما يجمعوا الأكل يعيدوا تقسيمه بينهم. كانوا محترمين رغم أن الحرب وحشة والروح حلوة. أنا شفت الأسرى الألمان والطليان قبل كده في مرسى مطروح بيعملوا كده برضه. لا أحد يهين نفسه أو كرامته فليه أهانوني أنا وأهانوا كرامتي؟ المهم الطلاينة كانوا بياخدوا كل شوية يستجوبوهم وما يرجعوش تاني. يشحنوهم على إيطاليا. جه الدور عليّ خفت. ما قلتش غير كلمة واحدة «ايجيبشيان» وجملة واحدة «أيام ايجيبشيان» بصوا لبعض، الضباط الطلاينة واتكلموا بصوت عال وبسرعة زي القطر وضحكوا. فجأة قام ضابط من بينهم ولف حوالي وهو بيبص لي ويقول «ايجبشيانو» وحبيت أقول أني مش جندي ولا رتبة وأني عامل في السكة الحديد المصرية خطفني الإنجليز لكن ضاعت مني كل الكلمات الإنجليزي اللي عرفتها في حياتي وما فضلش منها غير ايجيبشيان وقعدت أعيط. رجعوني المعسكر وأنا مش مصدق، شفتهم بيرحلوا كل اللي استجوبوهم على إيطاليا. حمدت ربنا وقعدت أمشي جنب السلك العالي في المعسكر أفكر ليه سابوني مخبيين لي إيه أبص للسما البعيدة والدنيا الواسعة وأقول معقول ربنا حيسمعني من هنا. أي والله يا شيخ مجد. لكن ربنا كبير، سمعني، وشفت بين جنود الحراسة عسكري ملامحه عربي. كلمته عربي رد علي. طلع ليبي ومتجند غصب عنه. حكيت له حكايتي ولقيت في عينه نية طيبة إنه يساعدني. قال لي انتظر كام يوم أكون دبرت لك حل. انتظرت. افتكرت غارة مرسى مطروح والقنابل

تنفجر قدام عيني وصوت المدافع بعد كده على الحدود والقذائف تنزل على العساكر تطيرهم تقطعهم في الجو حتت وافتكرت الصوات بتاع الجرحى طوال الليل في مستشفى الميدان القريب من المعسكر. أنا كنت دايماً في الخطوط الخلفية للإنجليز لكني شفت جهنم أكثر من مرة لأنهم ساعات كانوا يزقوني قدام مع فريق التموين. أيوه. هي جهنم إيه غير النار. تعرف يا شيخ مجد أنا رأيي إن الأجانب دول أصلاً من جهنم. ناس قلبها حديد بيرموا على بعض كل يوم ملو قطر قنابل. يا ستار. تفتكر إحنا المصريين ممكن نحارب كده. إحنا ناس طيبين بنعيط كثير. دا لو حصل حرب وجه العدو قدامنا وقال موال حزايني حنعيط ونسيب الحرب. «طيب يا حمزة ما تعيطش. بلاش تكمل الحكاية النهاردة. استريح» أنا استريحت لما شفتكم. الحرب وحشة قوي يا شيخ مجد. يا ما شفت عساكر طارت روسها وهي واقفة ورا المدافع، ومدافع تطير في الهواء وتتفكك ميت حتة وعساكر فجأة يتجننوا ويجروا يصرخوا في الجو ويركبهم عفريت ويتنططوا في الأرض وزملاؤهم يكتفوهم ويدوهم إبر منومة وينقلوهم على بلادهم. أنا شفت مجانين كثير لدرجة أني فكرت إن إنجلترا وإيطاليا وألمانيا والهند وأفريقيا صارت مارستان. شفت عساكر تبص في السما وتصرخ وعساكر تجري تقع في النار، تنتحر يعني، وعساكر تنهار، وتعيط زي النسوان المكسورة الخاطر. دول غلابة قوي العساكر يا شيخ مجد. كلهم زي بعض في العياط. كلهم أطفال يصعبوا عليك. دي الحرب وحشة قوي يا دميان. المهم بعد كام يوم لقيت معسكر تاني بيتنصب جنبنا ويتجهز مستشفى ميدان وعربيات بتنقل مئات الجرحى وغبار وحركة كأن القيامة قامت. سألت العسكري الليبي قال لي جاك الفرج يا مصري. الإنجليز كسروا جرازياني. انتظر لازم يأتون هنا. . وحصل. وصل الإنجليز وأخذوني مع الأسرى وشحنوني معاهم إلى الحدود المصرية. شفت عناية ربنا. لاقيت نفسي في مصر تاني لكن

أسير المرة دي. مين يصدق. «لا حول ولا قوة إلا بالله. دا أنت تعبت قوي يا حمزة» أسير في بلدي، لكن الحمد لله، في النهاية رجعت. سلموني لأومباشي أسترالي طويل. طويل قوي. رجله لوحدها طولي. أي والله. أخذني لضابط عظيم. عرفت إن شكلي هو اللي كان دايماً يخلي اللي يشوفني يشك فيّ. مش شكل عسكري ولا يمكن يكون فيه ضابط قصير كده. يبقى أكيد جاسوس. آدي كل الحكاية وآدي سبب غلبي. سألني الضابط أنت إيه ومين؟ قلت له أنا ايجيبشيان غلبان. ما عرفتش يعني إيه غلبان بالإنجليزي. لسه الكلام الإنجليزي ضايع مني. بص لي الضابط وامتعض بس أنا حسيت إني أقوى من الأول. أيوه. أنا واقف على أرض مصرية على كل حال. الضابط تشكّك فيّ فحبسني في أوضه خشب لوحدي واقف عليها عسكري حراسة أفريكي أعرف أن الليل دخل من شقوق الخشب لما يختفي وشه وتبان سنانه! تعرف يا شيخ مجد حسيت إني ليَّ قيمة كبيرة جوه الأوضة المقفولة دي. انتشيت. فرحت لأول مرة وافتكرت مراتي وعيالي وأصحابي كلهم. لكن بعد كده كنت أحس بحاجة للعياط. أحبس دموعي وافتكر المواويل.

بصوا شوفوا فلاح مكسور ذليل منهان،
جوا حنك تمساح من سالف الأزمان.
يا من رماك دهرك في فم دا التمساح،
قول لي على أمرك وما دهاك يا صاح

وبعد شهر أطلقوا سراحي من الحبس قلت ضروري تقصوا عني وعرفوا إني غلبان وحيسيبوني أروح لكن ما حصلش. حطوني في المطبخ أطبخ للعساكر ومع الهنود تاني. كأنهم عارفين اللي حصل قبل كده قلت زي بعضه واصبر وما صبرك إلا بالله وصبرت لغاية ما شفت بعيني العساكر الإنجليز راجعة من على الحدود متبهدلة قدام روميل. كانت دي

أول مرة نسمع فيها اسم روميل اللي حل محل جرازياني وسمعت إن جنرال الإنجليز الكبير ريتشي اتجنن. صار عندي إحساس إن نجاتي حتكون على إيد روميل. واتحسرت. أنا في بلدي ومحتاج القائد الألماني ينقذني. وحصل. كنت في المطبخ لما شفت الدخان طالع من غرف الضباط. كانوا بيحرقوا كل حاجة بسرعة ويركبوا عربياتهم الجيب ويرمحوا. ما سمعتش غير كلمة واحدة، روميل. لقيت جماعة جرحى قعدت معاهم. فين أروح؟ ولقيت المعسكر اتملا ألمان والدنيا حولنا دخان ونار.

أخذني الألمان لضابط كبير فهداني تفكيري وقلت «روميل». يسألوني بالألماني أقول «روميل» بالإنجليزية أقول «روميل» قلت لازم يكون فيه عاقل يخلصني من الورطة اللي طالت ولا عاقل إلا روميل. «وعرفوا إنك عايز تشوف روميل؟» أيوه وحصل. رجل غريب وشه مدور وعينه خضرا غويطة وشعر رأسه خفيف وما بيتكلمش كثير. بعد ثلاثة أيام أخذوني ليه. ثلاث أيام رعب ـ ونظر دميان إلى مجد الدين قائلاً في نفسه ها هو حمزة يعود لأصله القديم ـ وفي غرفة روميل شفت واحد بدوي واقف جنب روميل اللي قاعد. حكيت لهم قصتي من أولها وسمعت البدوي بيترجمها ألماني وروميل يبتسم بدهشة ووشه راح زي وش طفل. أي والله. قال جملة واحدة ترجمها لي البدوي. قال إني حافضل معاهم شوية وهما بيطاردوا الإنجليز والجيش الثامن حتى إذا وصلوا إسكندرية أدلهم على شوارعها وبعدها يتركوني. ساعتها دعيت ربنا أنهم يوصلوا إسكندرية بسرعة، واستغربت إزاي البدوي يعرف ألماني وقلت أكيد أنه جاسوس لابس بدوي. «طيب يا حمزة كفاية كده النهاردة نام» استنى يا دميان الحكاية قربت تخلص أنت أكيد مش مصدقني. «أبداً يا حمزة دا أنت حتى شكلك تعبان أكثر من اللي حكيته» بعدها يا دميان تقدم الألمان

إلى مرسى مطروح وأنا في الخلف مع فرق الإمداد. حطّوني عهدة سواق چيب مجنون خلّع عظامي من المطبات والسرعة يشوفني بتألم يضحك ويقول (إيجيبتر) يعني مصري وأنا أقول يا رب كملها على خير خايف من الألغام. في مرسى مطروح شفت المعركة الكبيرة. شفت الدبابات وهي بتضرب قذائف والدبابات وهي بتولع والمدافع تتنطط من القذائف والطيارات تيجي من البحر وتروح وبالليل سمعت أصوات الموتى وأنين الجرحى والأحياء. الدنيا راحت سواد في حَمَار في غبار وبالليل كنت أقعد وسط الظلام أتكور وعايز أخش في بعضي من الخوف وأقول يا رب خدني بأه. يا رب كفاية عليّ كده، لكن الألمان كسبوا ودخلوا مرسى مطروح والضبعة بعد كده لغاية ما وصلوا هنا. إسكندرية بقت قريبة وما حدش سأل فيّ وأنا قلت لنفسي معقول روميل يكون محتاج لواحد زيي يدله على شوارع إسكندرية وقعدت بالليل أقول مواويل لنفسي..

البين عطاني بلاوي زود أمراضي

مرعوب منها قوي دخلاش في مرادي

القلب قال لي زمانك سد مش راضي

تنتني أبكي لما جفن العين صب منه دم

كل دا وأنا لسه عهدة العسكري المجنون سواق الجيب، وفي ليلة أخذني ومشى بي أكثر من نصف ساعة بالعربية وشاور لي على النجوم في السما ووقف ونزل ونزلت فشاور لقدام بإيده وقال الكسندريا وكرّر الكلمة أكثر من مرة وبعدين شاور لي أمشي فمشيت زي المسحور، بسرعة حدّدت لنفسي نجم قدامي وكنت عارف أن البحر على شمالي وأن الوشيش اللي باسمعه هو صوت البحر اللي مش شايفه ومشيت لكن بعد شوية ضاع صوت البحر وتشابهت علي النجوم وافتكرت إن الجيوش وهي بتنسحب دايماً تحط في الأرض ألغام وأكيد الإنجليز عملوا كده

وهما بينسحبوا قدام روميل وعرفت إن نهايتي حانت وإني لازم حادوس على لغم في الضلمة دي، ولو حتى في النور، رحت قاعد في الأرض زي العيل التايه وبصيت للسما البعيدة وقلت يا ربي أنت شايفني وأنا مش شايفك وسامعني وأن مش سامعك يا رب أشكو لك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. يا رب إذا كان بيك غضب عليّ فأجله وكفاية عليّ كده. يا رب أنا مديت إيدي أخد علبة بسكويت للأطفال دا كل اللي عملته فهل أستحق كل دا العذاب يا كريم يا أرحم الراحمين يا رب خد بإيدي لمين سايبني؟ مرة لأعداء أشرار بهدلوني، ودلوقت للصحراء والألغام والديابة. أيوه إن ما كانش لغم ينسفني ديب يطلع عليّ ياكلني. يا رب فين رحمتك اللي وسع الدنيا كلها. يا رب ارضَ عني وانقذني. . . يا سلام. كنت تعبان قوي يا شيخ مجد فنمت مكاني. نمت كثير؟ دقيقة لاقيت فيها وشه منور ولابس أخضر وقاعد بين أصحابه منورين ولابسين أبيض رميت السلام ورد السلام وسألني أنت مين قلت له أنا حمزة يا رسول الله راح مبتسم لي ووسع لي مكان جنبه وقال لي تعالى أقعد مع أصحابي أبو بكر وعمر يا حمزة دا أنت اسمك غالي رحت قاعد جنبهم وقمت من النوم شبعان كأني نمت ميت سنة واتأكدت إن ربنا حينجيني، وحسيت بإيد دافية حنونة تمسك بإيدي قمت ماشي بثقة وصوته، الرسول، يقول لي يمين أمشي يمين شمال أمشي شمال وكل ما رجلي تغوص في الرملة يمسكني الرعب يقول لي ما تخافش ويروح الرعب وأمشي، على كده لحد ما طلع النهار. أول مرة أشوف النهار شكله جميل وحلو والشمس فرحانة قوي. أيوه أنا شفتها كده. قلت يا رب تم جميلك بصيت لاقيت قدامي عسكري هندي كأن الأرض انشقت عنه هو اللي أخذني لمركز القيادة الإنجليزي وهناك استغربوا ازاي عديت حقول الألغام وشكوا طبعاً فيّ لكني افتكرت كل الكلمات الإنجليزي اللي كانت ضاعت مني، وحكيت لهم القصة حجزوني ثلاثة أيام لغاية ما

تأكدوا من صحة كلامي وبعدها جابني الضابط ليكم والحمد لله.. ياه. دا أنتم وحشتوني قوي قوي ق.. و... ي..

وتحشرج صوت حمزة فلم يعد قادراً على الكلام.

* * *

«أيها الموت.. يا موتي. يا آخر إنجازات حياتي. تعال وتحدث إلي همساً، لقد انتظرتك يوماً بعد يوم، وتحملت من اجلك، افراح الحياة واتراحها..»

28

تركهما حمزة بعد يومين استردّ فيهما قوته وأعصابه. أخذ طريقه إلى الإسكندرية سيراً على قدميه حتى «الحمّام». رفض أن يركب أي قطار جنود. المسافة أربعون كيلومتراً يا حمزة حتى الحمام. «أمشيها ولكني لا أركب أبداً مع الجنود» وكان معروفاً أن حمزة سيركب من الحمّام قطار الركاب العادي.

أخذ حمزة طريقه بين القضيبين الممتدين إلى الإسكندرية. هذه هي الطريقة الوحيدة للوصول بسلام. وحين غاب حمزة في الفضاء فكر كل من مجد الدين ودميان في هذه الدنيا الواسعة التي تحدث فيها كل هذه الحكايات. كيف حقاً تتحمل الدنيا كل هذه القصص المؤلمة؟. وظلا لعدة أيام بعد ذلك لا يتحدثان إلا همساً وقليلاً حتى أقبل الصافي النعيم ذات مساء، وأعلنهما بأنه لن يراهما بعد اليوم. كان قد تغيّب طويلاً عنهما من قبل. قال إن قائداً جديداً اسمه مونتجمري تولّى قيادة الجيش الثامن وهو قائد شديد في التعامل مع الجنود وضع برنامجاً قاسياً

للتدريب. وقال يبدو أن حرباً جديدة ستنشب قريباً بين روميل ومونتي. هكذا صار اسم الضابط الجديد بين الجنود.

لقد أحضر لهما الصافي النعيم عدداً كبيراً من علب الجبن والبولوبيف والشاي والسجائر، ونقل لهما تحيات الجنود الهنود الشباب وحدثهما عن مصرع بهادور شاند ثم ابتسم وهو ينظر إلى دميان ويقول: إن بهادور كان مصمماً على قتلك بعد العودة ثم قال «يبدو أن الألمان يحبونك يا دميان». وكان دميان قد أحس ببعض الضيق حقاً لموت بهادور شاند. يعرف أن الذي يحميه هو ماري جرجس نفسه لكنه تمنّى لو شمله بالحماية بطريقة أخرى هذه المرة، أن يعود بهادور إلى الهند مثلاً. إلا أنه بسرعة اعتذر لماري جرجس ووضع على صدره علامة الصليب وقال هي الحرب تأكل الجنود.

كان تشرشل قد زار مصر، والتقى مع الجنرال ألكساندر القائد الجديد للشرق الأوسط الذي حلّ محل أوكنلك، وزار معه الجيش الثامن بالعلمين بعد أن التقيا بالجنرال مونتجمري في مقر قيادته ببرج العرب. لقد شاهد تشرشل بنفسه التغير الذي أحدثه مونتي في الجنود. ورأى عدداً من الجنود ينزلون إلى البحر في الصباح بسراويل داخلية قذرة فضايقه ذلك، وتألم للجنود لكنه لم يأمر بسراويل جديدة!. تمنّى أن تنتهي الحرب وينتهي بؤس الجنود. وعاد مع ألكساندر إلى القاهرة وزارا كهوف طرة، تلك المغارات التي حدثت في الجبال بأثر اقتطاع أحجار الأهرام قديماً، والتي صارت الآن كهوفاً سرية لإصلاح وإخفاء المعدات العسكرية. لقد تمنّى تشرشل لو كان الفراعنة قد اقتطعوا أحجاراً أكثر. لو حدث لكثرت المستودعات السرية للمعدات الإنجليزية، واتخذ مع ألكساندر الترتيبات الدفاعية عن القاهرة إذا سقطت الإسكندرية، وعلى رأس هذه الترتيبات الخطط المائية لإغراق الدلتا، وعرقلة تقدم الألمان

بفتح القناطر والسدود، ثم أمر بتوزيع البنادق على الموظفين البريطانيين في كل البلاد وعاد إلى إنجلترا!

لقد وعده ألكساندر أن يرسل إليه بكلمة (زيب)، إذا اندلع القتال، وزيب هي ماركة ملابس تشرشل.

* * *

كان معروفاً أن روميل لن يتوقف عند العلمين، وكان الاستعداد يتم لاستقباله. لا بد أن تكون العلمين آخر نقطة يصل إليها روميل وأول نقطة ينسحب منها إلى الغرب، ولا يجب أن يأتي أبداً اليوم الذي تنفذ فيه خطط إنقاذ القاهرة!. وطبيعة المكان كانت لا تترك لروميل فرصة المناورة، فليس أمامه إلا طريقاً واحداً هو اجتياز نطاق الألغام بالمدرعات في الطرف الجنوبي من الجبهة ليتجه بعد ذلك شمالاً لتطويق مؤخرة القوات البريطانية وجناحها الأيمن. وحتى يفعل روميل ذلك كان عليه أن يحتل روابي علم حلفا، لذلك وزع مونتي قواته بحيث يصبح سقوط هذه الروابي مستحيلاً.

استعدادات للهجوم واستعدادات للدفاع حول مجد الدين ودميان اللذين يزدادان وحشة، وذات ظهيرة لمح دميان باب غرفة التلغراف مفتوحاً فدخلها. الحقيقة أن الباب مفتوح منذ ترك عامر الغرفة لكن هكذا رآه دميان الآن كما لو كان لأول مرة. ليس هناك شيء في الغرفة غير دولاب خشبي قديم مفتوح به دفاتر صغيرة، وكبيرة صفراء متربة وأوراق مبعثرة على الأرفف والأرض والمنضدة التي فوقها آلة الإرسال والاستقبال متربة كالحة وكذلك الآلة التي فجأة راحت تدق. . تك تك تك. تك. تك. تك. تكتكتكتك. .

كان مجد الدين قريباً على الرصيف. بسرعة ناداه دميان. شاهد مجد الدين وسمع آخر دقات الجهاز. وحط صمت. .

ـ من يا ترى الذي يرسل هذه البرقية؟

تساءل دميان بينما كان مجد الدين شارداً عنه بذهنه وهما في طريقهما إلى البيت. صارت الأيام تمضي في صمت. صمت اتسع ليشمع الصحراء كلها. وجوم ثقيل منذر استقر حتى بالهواء. طوابير المدرعات التي تتحرك طول النهار لم تفلح في طرد الإحساس بالصمت، كذلك لم تفلح حركة الطائرات التي تأتي وتعود بسرعة إلى البحر والشرق. الطائرات الإنجليزية والأمريكية التي يبدو أنها تتدرّب على المعركة القادمة، وازدادت قطارات الأسلحة يقودها الهنود وصارت تعود فارغة بلا جنود، لا مرضى ولا أفواج للراحة. يتحرك الجنود حول قطارات الدبابات والمدافع والذخائر دون حديث، ويمضون بها جميعاً إلى الصحراء الواسعة التي يبدو أنها تبتلع كل شيء. الصمت هو الإحساس الذي تلبَّس مجد الدين ودميان وشمل كل شيء متحرك حولهما وساكن. حتى الشمس بدأت تبتعد فيتسع الكون ليساهم في ازدياد الصمت والوحشة، ورأى مجد الدين ساعة الحائط في غرفة ناظر المحطة وقد علاها التراب وتوقفت، وأنه هو نفسه انقطع عن الأذان في الفضاء. كل شيء صار قديماً هنا ينذر بالنهاية. لكنه، حتى لا تختلط عليه المواقيت، غرس عصا بالقرب من كشك المزلقان يعرف منها موعد الظهر إذا اختفى ظلها، وموعد العصر إذا ظل الظل شرقاً، والمغرب إذ طال وتضاعف طوله، أما موعد صلاة العشاء فلم يكن في حاجة لشيء يرشده إليه فهو يصلي عادة في وقت متأخر من الليل.. وبالليل، والوقت يقترب من الفجر، وليل الصحراء قد نصب خيمته على الدنيا ليس فيه غير صوت حركة حشرات مبهمة، تساءل دميان الذي أدرك أنه يخفي من زمان رغبته في عدم البقاء هنا:

ـ ماذا يحدث يا شيخ مجد؟

كان يقصد حركة القطارات التي زادت تحمل السلاح، وحركة الطائرات بالنهار والليل في بعض الأحيان. كان مجد الدين يقرأ القرآن فارتفع صوته «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون» وتوقف ليردّ على دميان:

ـ لا بد أن الحرب واقعة يا دميان.

أحسّ دميان بشيء من الضيق في كلام مجد الدين. ضيق لم يلحظه من قبل. هل هذه أول مرة يدرك فيها مجد الدين أن هناك في الدنيا حرباً؟ وقال دميان:

ـ لو قامت الحرب ونحن هنا سنموت يا شيخ مجد.

أجاب مجد الدين:

ـ «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان..».

أطرق دميان واستمر مجد الدين:

ـ «قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله، لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون..».

ـ إنك تخيفني الليلة يا شيخ مجد. أنا أرى كل ليلة ماري جرجس يخلّص نفسه من النار وأنت تخيفني أيضاً الآن. ثم لماذا لا تكف عن النظر إلى وجهي كل حين؟ ماذا في وجهي؟. لقد رأيته في المرآة أكثر من مرة فوجدته أصفر شاحباً هل سأموت هنا؟ لا بد أن نهرب. إذا لم تهرب معي في الصباح سأهرب أنا. لقد عدت من أجلك لكنك تخذلني. هل تعرف ماذا كانت تعني دقات التلغراف التي سمعناها. رسالة أن نغادر المكان. لا يمكن أن تكون غير ذلك. إذا لم تكن من المصلحة فهي من

عند ربنا. هل عندك كلام آخر يا شيخ مجد. لماذا لا ترد عليّ؟.

وجاء الردّ من بعيد. أصوات انفجارات جبارة متتالية كأنها السموات تقع فوق الأرض، وضوء يكشف السماء عريض أحمر خاطف. الله. الله. ما هذا يا شيخ مجد؟ وأصوات صراخ طويل رفيع حاد، صفير المقذوفات الطائرة من الأرض والساقطة من السماء. الأرض ترتفع وتنخفض بمجد الدين ودميان فينهضان في ذعر يبتعدان عن البيت ينظران إلى النار التي تشعل الليل ودبيب الأرض تحت أقدامهما لا ينقطع.

كان روميل قد انتهى لتوه من كتابة رسالة إلى زوجته... «عزيزتي لو. لدينا بعض أوجه العجز الشديد الخطورة لكني أقدمت على المخاطرة. إذا نجحت ضربتنا فسوف تقرر بعض الشيء مصير الحرب كلها». وكان الجنرال ألكساندر قد أرسل إلى تشرشل من القاهرة بكلمة (زيب) وكان مونتي مطمئناً إلى خطته الدفاعية. كانت هناك أربعمائة دبابة ألمانية نصفها من ذات المدفع الشيطاني عيار خمسة وسبعين ملليمتراً، تنتظرها سبعمائة دبابة بريطانية وأمريكية. لقد جرت العادة أن يهاجم روميل بقوات صغيرة قوات العدو الكبيرة بسرعة ويطوقها ثم يعمل على تصفيتها.. وبدأت الطائرات الألمانية غاراتها على مواقع الجنود المتقدمة والخلفية في وقت واحد لإرباكها وإحداث الفوضى بينها.

ـ الضرب بعيد يا دميان لا تخف.

لكن دميان كان يتلو رقى وتعاويذ يسمع مجد الدين فيها كيرياليسون وجورجيوس ويسوع ويؤانس ويوساب وكيرلس والعذراء ويتراجع دميان إلى البيت وهو ينتفض ويتبعه مجد الدين. ما كادا يقتربان حتى انهار دميان مستنداً على الجدار وتمدّد على الأرض فتمدد مجد الدين جواره وأشعل لنفسه سيجارة وأخرى لدميان متظاهراً بالتماسك.

ـ الدنيا نور وسيجارة لن يهتم بها الألمان وسط هذا الضرب.

وراحا يدخنان في صمت. لاحظ مجد الدين أنه لم يخلع ملابس العمل، وكذلك دميان، بل إن في قدمي كل منهما حذاءه. الحقيقة أنهما كانا عائدين من عند المحطة منذ قليل حيث وصل قطار ذخائر قبل الضرب.

كانت كتائب الزوبال تانكس والرويال سكوتش تدافع عن هضبة علم حلفا أمام الهجوم الألماني المدرع، وكانت الطائرات الألمانية قد انقطعت لكنها مع اقتراب النهار عادت أكثر، وبشكل مخيف وراحت تضرب من جديد في كل مكان. ومن الشمال والشرق جاءت الطائرات البريطانية والأمريكية ودارت في الجو معركة مخيفة وبسرعة انتهت وعادت طائرات الحلفاء مستعرضة في الفضاء إلى مواقعها في الإسكندرية والدلتا وإلى حاملة الطائرات الأمريكية في المتوسط بينما عادت الطائرات الألمانية والإيطالية إلى مطاراتها في الصحراء لتعود بعد قليل بكثافة أكثر وتتوغل في مؤخرة الجيش الثامن القريبة للغاية من محطة السكة الحديد ومن البيوت المهجورة ومن مجد الدين ودميان. لقد حملهما الهواء بعيداً عن مكانهما ليصطدما بالأرض صدمة قوية. يا لها من قذيفة تلك التي سقطت من السماء فخلخلت الهواء حولهما وأطارتهما. لقد رأى مجد الدين وجه زهرة الذي كادت تضيع منه ملامحه، وسمع صرختها في الفضاء، لكنه هتف بصوت متحشرج (دميان) فلم يسمع جواباً. كان دميان بعيداً يتلفت باحثاً عنه. رآه مجد الدين فاقترب منه.

ـ هل أنت بخير؟

ـ لا.

ـ أصبت.

ـ لا.

وفهم مجد الدين ماذا يقصد دميان فسكت. وقال دميان يائساً:

ـ هل ما زال لوجودنا هنا أي قيمة؟

وسقطت قذيفة أخرى بالقرب منهما كانت أصغر من السابقة فلم تخلخل الهواء لكن مجد الدين هتف:

ـ هيا يا دميان.

وجدا نفسيهما يسرعان جوار المحطة بين قضيبي السكة الحديد في اتجاه الشرق.

من خلفهما يسمعان صوت القنابل الساقطة والطائرات فتزداد قوتهما. وحينما ابتعدا كثيراً عن المحطة حدث انفجار جبار اهتزّ له الهواء، وفقدا اتزانهما وسقطا فوق الفلنكات وأضاء الكون باللهب الجحيمي وأدركا أنها النهاية وتذكر دميان رؤياه الكابوسية واستسلم للموت وتاقت نفس مجد الدين إلى شوقي الذي لم يره بعد، لكنهما شاهدا اللهب بعيداً واستقرت عيونهما على صفحة السماء الحمراء فأدركا أنه عند المحطة. لقد انتظمت الرؤية الآن واستعادا اتزانهما وشاهدا القطار الواقف عند المحطة وهو يتحوّل بكل عرباته إلى نهر من لهيب لا تزال الطائرات الألمانية تلقي حممها فيه، وشاهدا الكشكين الخشبيين، حجرة الناظر وحجرة التلغراف، وهما يطيران مشتعلين في الفضاء ويصيران هباء. كل شيء خلفهما يصير هباء. يا أرحم الراحمين. ساعدنا يا حي يا قيوم يا يسوع ساعدينا يا عذرا يا رسول الله أدركنا وأغثنا فليجريا من جديد...

ويجريان ويجريان ولا إحساس بأي جروح أو رضوض من أثر السقطة ويا للنهار الجميل، هذا النهر من اللبن الذي بدأ يشق الظلام، ويتفجّر في قلبه بالضوء المغسول. هذا العالم الذي خلقه الله جميلاً لماذا يفسده الناس، والطائرات لا تنقطع قادمة فوقهما من الشرق والغرب تلتحم في معارك قصيرة ثم تختفي لتظهر من جديد الطائرات الألمانية تلقي قذائفها فوق كل شيء حتى تبدأ معركة جوية جديدة وهما لا يكفان عن الجري

والعرق يتفصد من مسام الجسدين والنار تشتعل في الجلد والصدر والأقدام تكاد تتخاذل لكن من يستطيع التوقف وسط كل هذه النيران. إنني أطير يا دميان، ورآه جواره وسمعه وأنا أطير يا مجد الدين. الله. الله إنني لا أجري بل أطير يا دميان أطير وأنا يا مجد الدين. أي طائر هذا الذي يحملهما على جناحيه الآن، إنه جبريل ولا أحد غيره هو الذي أتى بالبشارة لرسول الله، وهو الذي جاء يخبر مريم البتول بحملها الطاهر، وانقطعت أنفاسهما فلم تعد تسمع وصارا شبه مخدرين نائمين فوق موج حان، الطائر يسبح بهما في الفضاء في اطمئنان ودعة ويجف عرقهما ويرتويان من ماء سحري وتسري في عروقهما البهجة. هل يأخذهما جبريل إلى الإسكندرية أم إلى الله في السموات العلي؟. . كلاهما اطمأن إلى نهاية آمنة. .

* * *

المسافة من العلمين حتى بلدة الحمّام أربعون كيلومتراً تلبستهما فيها قوة إلهية والضرب خلفهما إذا انقطع يعود فالمعركة لاحتلال روابي علم حلفا لم تنته وروميل يعرف أن مركز قيادة مونتي في «برج العرب»، وحوله احتياطي استراتيجي كبير من المركبات والمعدات يجب مهاجمتها أيضاً.

لقد صعد النهار وتقدم وعبرتهما الشمس إلى الجبهة الألمانية وهما لا يشعران بغير أنهما محمولان على جناحي جبريل حتى لقد ناما وهما يجريان!! ولو لم يكن هناك في الحمّام قطار واقف لاستمرا في الجري حتى الإسكندرية. كيف حدث حقاً أنهما لم يشعرا بجوع أو عطش. لقد هدأ الضرب مع أول الظلام الجديد، في اليوم التالي، وكان القطار المدني يقف خالياً بالمحطة الخالية بدورها من البشر. كانت العربة الأخيرة هي الأولى بالنسبة إليهما. دخلا العربة وعلى أقرب مقعد ألقى

كل منهما بنفسه وعادت أصوات المدافع تزداد وتهيأ القطار للرحيل بل ما كادا يتنفسان النفس الطويل الذي يحدث بعد أن يبلغ كل امرىء غايته، نفس الطمأنينة، حتى تحرك القطار. يا للفأل الحسن. نظر كلاهما للآخر راضياً بالحال وسقطا معاً في نوم عميق.

هل كانت لحظة أم ساعة أم دهراً تلك الدقائق التي استسلما فيها للنوم؟ لكنها كانت كافية للراحة كي تدب في جسديهما. لم يكن ممكناً الإيغال في النوم وسط كل هذا الهدير للمدافع الذي انطلق مع المساء الجديد. وأحسّ دميان بالعطش فنهض يمشي بين العربات حتى وجد صنبور مياه في أحد الأركان ففتحه لتنزل مياه صفراء صدئة لكنه شربها وعاد. لقد كان القطار خالياً تماماً ومظلماً إلا من ضوء البدر الذي يدخل عبر النوافذ المحطمة.

ـ لقد فزنا يا شيخ مجد، الآن أدركت أن الكابوس الذي كنت أرى فيه جورجيوس وسط النيران كان من عمل الشيطان.

ـ الحمد لله على كل شيء يا دميان.

ويدأ القطار يهتزّ وصوت الانفجارات يقترب والخوف ينفجر في عيونهما لكن سرعان ما استقام القطار وابتعدت أصوات الانفجارات وازدادت السرعة كثيراً.

ـ لا بد أن السائق هندي.

ـ الهنود لا يقودون القطارات المدنية.

ـ لكنه يجري بجنون.

ـ ليته يسرع أكثر يا دميان. أين وجدت مياه الشرب؟

ـ في العربة الخامسة.. مياه مخزونة لكني شربتها.

ـ سأذهب لأشرب وأعود إليك.. انتظرني..

ابتسم دميان بدهشة.. أين يمكن أن يذهب؟

أسرع مجد الدين ليشرب. لماذا يسرع؟ إنه يهتزّ بقوة بين المقاعد الخالية والقطار يتأرجح، ويصل إلى صنبور المياه ويفتحه ويحفن من مياهه الصفراء الصدئة ويشرب لكن صوت الانفجارات يقترب فيهتزّ القطار ويختل توازن مجد الدين فيسقط جالساً فوق المقعد القريب ويرتطم رأسه بظهر المقعد يكاد يتهشم.. إنه لا يستطيع أيضاً الاحتفاظ بتوازنه جالساً. يقف فيميل القطار ميلاً عنيفاً إلى الجانبين فيرتطم بالمقاعد على الجهتين ويصرخ هاتفاً «دميان» ويرى من النوافذ المفتوحة القذائف المتوالية تسقط غير بعيدة عن القطار تثير الغبار وتطير الأحجار التي ترتطم بجانبي القطار ويقع ممدداً بين صفي المقاعد.. الطرقة التي بين صفي المقاعد ضيقة فليظل ممدداً بها ويمسك بيديه في حوامل المقاعد من أسفل فلا يؤذيه اهتزاز القطار ولا يتخبط في مقاعده. إن وضع المصلوب الجالس هذا أفضل وضع لمن كان مثله. وكان دميان قد اهتدى إلى الوضع نفسه لكن كانت اهتزازات عربته أكثر وأعنف فهي الأخيرة ذيل القطار.. وفي الوقت الذي كان فيه دميان يقول أنت هو الله الرحوم مخلص كل أحد الذي تجسد لأجل خلاصنا الذي أضاء لنا نحن الخطاة الذي صام عنا أربعين يوماً وأربعين ليلة الذي أنقذنا من الموت.. في هذا الوقت كان مجد الدين يتمتم «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وإن سعيه سوف يرى ثم يجزيه الجزاء الأوفى وإن إلى ربك المنتهى وإنه هو أضحك وأبكى وإنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى»، ولا يزال القطار يميل الميل العنيف، ويهتز، وتقعقع عجلاته وتتوالى القذائف التي تسقط حتى الآن غير بعيدة، «هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة» ويدخل ضوء القنابل من النوافذ يشعل فضاء العربة التي كان

يتسلّل إليها الضوء الضعيف ويهتز القطار بعنف ويميل أكثر من كل مرة ويسمع صوت ارتطام وصوت شيء ثقيل يُجر جرّاً على الأرض ويحتك بالقضبان والفلنكات والقطار يقفز إلى أعلى أكثر من مرة وإلى اليمين وإلى الشمال. إنها إحدى عربات القطار قد سقطت فوقها قذيفة هي التي تقاوم الانفصال وهي التي يجرها القطار على الأرض. دميان دميان.. ولم يستطع الوقوف. القطار يمكن أن ينقلب إذا لم تنفصل العربة أو يتوقف.. إنه لا يتوقف والعربة لا تنفصل..

هل استغرق ذلك وقتاً طويلاً؟ هي أجزاء من دقيقة لكنها طالت مثل عمر كامل. كأنما حياة كاملة قد مرّت على مجد الدين.. لقد استقام القطار أخيراً وانتهت الضجة. صار كل شيء ناعماً وهادئاً بعد القعقعات والضربات العنيفة.

انتهت الحشرجة وصعد الغريق فوق الماء. حتى أضواء القنابل ابتعدت وعاد ضوء القمر يدخل إلى العربة والهواء الذي كان يصفعه رقّ. لقد اتزن القطار وانتظم صوت عجلاته ويستطيع مجد الدين الآن أن يقف في اطمئنان ويستطيع كذلك دميان. دميان! إذا كانت العربة الأخيرة هي التي أصيبت فقد ضاع دميان وإذا كانت عربة قبلها فقد ضاع أيضاً. وبسرعة غادر مجد الدين العربة غير مبالٍ بأي شيء يمكن أن يصيبه، ثم غادر العربة التالية لها ثم الثالثة فالرابعة ولم يبد أن هناك العربة الأخيرة، كتلة من اللهب الأحمر وسط الليل الأسود والصمت الذي نزل على الدنيا الآن. ليس ثمة شيء له وجود غير النار. دميان. صرخ. لكنه رآه يرتفع وسط النار ذهبي الجسد. ذهبي الوجه، يمسك في يده الذهبية رمحاً طويلاً من ذهب ويقود فرساً من ذهب أيضاً ويغرز الرمح في رؤوس التنين التي تفح النار ويسمع صوت صهيل الحصان الذهبي. دميان وينغرز الرمح في رأس التنين فينفثىء الدم ناراً متجدّدة فيصوب للرأس الآخر ويعود

للضرب وتصعد النار تحيط بوجه دميان الشاحب وصهيل الجواد لا ينقطع في الفضاء، دميان. ويراه وقد ارتفعت به الفرس يسبح نحو السماوات العلي تطارده النار التي ترتفع خلفه تكاد تلمس أقدامه وينقطع الصهيل ويظل دميان يمضي في الأعالي مشعشعاً في الكون الفسيح. دميان. لقد تضاءلت الشعلة الذهبية وصارت نقطة تلاشت وساد الظلام. لقد ابتعد القطار كثيراً وهو لا يدري فتراجع ليجلس على أقرب مقعد والنار قد احتلت صدره والعرق يتفصد من جلده ويتمدد على المقعد خالعاً حذاءه مستنداً بظهره إلى جانب القطار مدركاً لأول مرة أنه يتيم. هل كان لا بد أن يأتي إلى الإسكندرية ويقابل دميان؟ دميان دميان. وبدأ يرتعش، برد الصحراء يأتي مبكراً وإلا لماذا يرتعش. لكن العرق لا يزال يتفصد. إنها الحمى يا دميان. دميان دميان. «الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان» «دميان دميان» «والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان» «دميان دميان» ويرتفع صوته فجأة ثم يتلاشى، ويرتعش ويقول في نفسه «فبأي آلاء ربكما تكذبان كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فبأي آلاء ربكما تكذبان» «دميان دميان» «يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن فبأي آلاء ربكما تكذبان» «دميان دميان» «سنفرغ لكم أيها الثقلان فبأي آلاء ربكم تكذبان» وتسقط دموعه غزيرة «دميان دميان» والقطار الذي اقترب من الإسكندرية لم يدخلها، فُتح له الطريق ليمضي إلى القاهرة فالغارات الشديدة لا تنقطع فوق المدينة والمعارك لم تنته حول علم حلفا. لقد تجاوز القطار بلدة كفر الدوار تاركاً الإسكندرية خلفه. لقد أدرك مجد الدين ذلك من الظلام الذي يلفّ القرى، واختلاف النسمة وأبراج الحمام البيضاء فتنفس غير مصدق أن الله هو الذي يحمله إلى القرية الآن حملاً. هل كان لا بد من فقد دميان ليعود إلى القرية. «دميان دميان» «فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان فبأي آلاء ربكما

تكذبان ولمن خاف مقام ربه جنتان» «دميان دميان» «فبأي آلاء ربكما تكذبان ذواتاً أفنان فبأي آلاء ربكما تكذبان» «دميان دميان» «فيهما عينان تجريان» ولا تزال دموعه تنثال «تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام» «دميان دميان» «لم يمت ولم يحرق بل رفعه الله إلى السماء ولقد رآه وإلا من ذلك الذي كان يصعد فوق الجواد الذهبي مبتعداً عن نار التنين في الفضاء». دميان دميان. وراح يعيد تلاوة السورة الجميلة التي لم يعد يتذكر من القرآن غيرها الآن واسم صاحبه حتى سحبه النوم سلطان الوجود..

* * *

أيقظه الهواء البارد الذي يدخل خفيفاً من النوافذ. من النافذة رأى الظلام عميقاً في برزخ مستطيل فأدرك أنه إنما يعبر فوق النيل وهذه الأضواء هي البيوت الصغيرة لمدينة كفر الزيات، إنه لا يخطىء رائحة الهواء هنا مهما ابتعد وطال ابتعاده ولا يخطىء رائحة الأشجار، التي تمتد على الشاطىء جوار الفيللات والبيوت الصغيرة. لقد اقترب كثيراً من بلدته وعليه أن ينهض ويركز عينيه جيداً حتى إذا أدرك الرصيف قفز. أجل. ليس أمامه غير ذلك. القطار لم يقف في محطة كفر الزيات نفسها فهل سيقف عند القرى الصغيرة. لا بد أن مع السائق جهازاً يتلقى منه الأوامر بالمضي بسرعة إلى القاهرة وبلا توقف. لقد ابتعد عن الغارات بما يكفي ولا يزال السائق مسرعاً. وقف بقرب باب العربة المفتوح.. الهواء البارد يجفف عرقه. أدرك أنه يقف حافياً. لقد ترك حذاءه جوار المقعد. لم يفكر في ارتداء الحذاء. لقد غادر القرية حافياً وها هو الرصيف الأبيض يقترب بسرعة. «تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام». ومدّ قدمه ينزل بهدوء كشخص مُخدر.. طار في الهواء.

....

. . . .

آه. خرجت عميقة وبطيئة واهنة.

كان ناظر المحطة يتأخر كثيراً بالليل بسبب عمليات التهجير التي لا تنقطع من الإسكندرية. لقد سمع صوت ارتطام جسم ثقيل بالأرض. ارتطام عريض مكتوم. بل لقد رأى شيئاً يطير فوق الرصيف ليسقط على الأرض الترابية بعده بقليل. إنه ليس صوت انفجار قنبلة على أي حال. بل هو شبح ذلك الذي رآه يطير.

آه.

تردّدت الآهة. شجع الصوت الإنساني ناظر المحطة على الاقتراب وإن ببطء. كانت أصوات الجنادب وصريرها، ونقيق لا ينقطع من الترعة المجاورة للسكة الحديد، وتقدم الناظر وفي يديه قنديل أزرق الضوء ويشدّه إلى الخلف كل ميراث الريف من الخوف من الأشباح والعفاريت. لكن العينين الخضراوين لمعتا في الظلام. يا الله يا أرحم الراحمين. هذا ابن آدم حقيقي. اقترب أكثر وقرب القنديل إلى وجه الإنسي وهتف:

ـ الشيخ مجد الدين؟!

كان الناظر ولا يزال هو «عبد الحميد» زميله في حفظ القرآن منذ ربع قرن، والذي وقف يودعه يوم خروجه. سمع مجد الدين صوته فأغمض عينيه في ارتياح. أيقن أنه لن يموت..

. . . .

. . . .

* * *

«وقال لي، اي عيش لك في الدنيا بعد ظهوري؟»

29

لم يفلح روميل في اختراق جبهة العلمين. لستة أيام يحاول ولا يفلح. تكلف ثلاثة آلاف ضابط وجندي بين قتيل وجريح وأسير، وسبعمائة مركبة مدرعة بينها خمسون دبابة. خسر الحلفاء أيضاً ألفاً وستمائة ضابط وجندي بين قتيل وجريح وأسير وسبعين دبابة. كفل التفوق الجوي وقرب خطوط الإمداد النصر للحفاء. وكانت هذه أول خسارة لروميل في الصحراء. الجنود في الجيش الثامن يدركون الآن أن روميل ليس أسطورة. هو قائد عسكري يمكن أن ينجح أو يفشل.

استغلَّ مونتجمري الموقف، واستمر في تدريب الجنود، وإقامة المناورات الجبارة بالصحراء من الإسكندرية حتى العلمين، توقفت الغارات على الإسكندرية بعض الوقت. استمر الهلع في القنصليات الأجنبية، وما زال اليهود يتدفقون على القنصلية البريطانية لاستخراج تأشيرات دخول لفلسطين وجنوب أفريقيا.. ومجد الدين الذي نقله ناظر المحطة إلى مستشفى طنطا في أول سيارة تعبر الطريق لا يزال في الجبس. لقد تكسرت ساقاه وعظامه وعدد من ضلوعه وعاش بمعجزة. نقل ناظر المحطة الخبر إلى القرية فزارته زهرة وأخواته وأزواجهن وأمه

التي قلّت أيامها في الدنيا. كان عليه أن يمضي في الجبس شهوراً ثلاثة لا يبرح فيها المستشفى، وخلالها تمّ القبض على حكمت فهمي في القاهرة والجاسوسين هانز أبلر وساندي بتهمة التجسّس لصالح الألمان، ودخلت الجيوش الألمانية ضواحي ستالينجراد فوقعت مجازر بالسلاح الأبيض وأحاطوا المدينة بالجيوش. كان تصميمهم على إسقاطها كبيراً فهي مدينة الصناعة الحربية التي تحمل اسم ستالين، وكان تصميم السوفييت على الصمود كبيراً لأن المدينة تحمل اسم ستالين! وزحف الجنرال المسلم «تيموشنكو» إلى نهر الدون محاولاً قطع مواصلات الألمان واحتفلت البلاد في صمت بعيد ميلاد الملكة فريدة الثاني والعشرين ولم ترتفع الزينات أو تشتعل الأضواء في الإسكندرية مسقط رأسها، وكان مونتجمري مشغولاً بتكوين فيلق جديد هو الفيلق العاشر ليكون في قوة الفيلق الأفريقي الألماني، وتوالت الدبابات الأمريكية شيرمان وجرانت والمدافع ذاتية الحركة عيار مائة وخمسة ملليمترات على الجبهة واستمرت القاذفات البريطانية والأمريكية في تعقب إمدادات الجيش الألماني في البحر والبر فاشتدّ ضغط الدم على روميل وآلام الكبد فسافر إلى ألمانيا للعلاج وحلّ محله الجنرال شتومي القادم من الجبهة الروسية وكان شهر رمضان قد بدأ فازدادت أحزان مجد الدين الراقد بلا قدرة. إن أسرته وأهله حوله الآن حقاً لكن لا ينسى رمضان الماضي، وخلاء الصحراء وخشوع غروبها، ووحدته مع دميان عند الإفطار. دميان دميان. كيف حقاً ستمضي الحياة بدونه. لقد عرف أن أخواته بعن أرضه لأنفسهن في غيابه ولم يعلّق، وأرسل إليه العمدة شيخ البلد يزوره ويعلنه أن العمدة سيزوره قريباً ويعتذر عن كل ما مضى ولم يعلّق. لقد اعتبر كل ما مضى من قضاء الله الذي لا راد لقضائه.

* * *

كان شتومي أكبر من روميل بست سنوات، ومصاباً مثله بضغط الدم العالي الذي يصيب القادة عادة، وكانت الأهمية الاستراتيجية لمصر كبيرة لعمل كماشة كبرى تنطلق منها القوات الألمانية في حالة احتلالها للتقدم شرقاً لمقابلة القوات القادمة من القوقاز الروسي. . وكان هتلر قد وعد روميل من قبل بالدبابات التايجر الحديثة المخيفة والمدفع الهاون متعدد المواسير لكنه لم يف بوعده، وأحس روميل بالخذلان بعد فشله في عَلَم حلفا وقرر ألا يهاجم مرة ثانية، وأن يلجأ إلى الحرب الدفاعية لأول مرة منذ تولي القيادة في الصحراء، فأقام حقول الألغام الكثيفة بين وبين الجيش الثامن، حقول الشيطان الجبارة.

كان الضغط شديداً على تشرشل ليفتح الجبهة الثانية، وإذ اقتنع ستالين وروزفلت بأن تكون هذه الجبهة في الصحراء الأفريقية كان عليه أن يبدأ.

كانت الخطة الإنجليزية العادية أن يتم تدمير مدرعات الألمان ثم يتم التعامل مع مشاته لكن مونتجمري اقتراح العكس. كان يشعر بثقة أكبر في المشاة وبصفة خاصة الأستراليين والنيوزيلانديين وكان ينتظر منهم بطولات كبيرة كذلك كانت فرقة الهايلاند الحادية والخمسون التي أعيد تشكيلها حديثاً بديلاً عن فرقة الهايلاند الأولى التي تبدّدت في فرنسا عام 1940. وكانت الأخيرة حريصة على الانتقام.

صار على الجيش الثامن التقدم وسط نصف مليون لغم ألماني. احتاج ذلك روحاً معنوية جديدة للجنود جعلها مونتجمري شغله في الشهرين اللذين فصلا بين معركة علم حلفا التي انتهت والعلمين التي على الأبواب.

كانت هناك مائتان وثلاثون ألفاً من الجنود الحلفاء يقابلهم سبعة وسبعون ألفاً من جنود المحور. ألف وأربعمائة دبابة للحلفاء بينها أربعمائة طراز باتون وشيرمان وجرانت الأمريكية يقابلها ستمائة دبابة

ألمانية. ألف وخمسمائة مدفع مضاد للطائرات للحفاء يقابلها ألف مدفع للمحور، وتسعمائة طائرة للحلفاء يقابلها أربعمائة طائرة للمحور، وأهم من ذلك كله خطوط إمداد قصيرة للحلفاء، مائة كيلو حتى الإسكندرية، تقابلها خطوط إمداد طويلة للمحور، ألف كيلو حتى طبرق.

كانت القناصل الأجنبية قد انتهت من حرق أوراقها في الإسكندرية. وخفت حدة الهجرة من المدينة إذ لم يتبق فيها غير القليلين من أهلها الأصليين أو الهاربين إليها من بلادهم من قبل. أجل. يمكن للإنسان أن يلجأ إلى النار في بعض الأحيان إذا كانت هناك فرصة للنجاة من الموت!

* * *

كان شهر رمضان قد انتهى، وأيام العيد بعده، وفي منتصف شوال وليلة الرابع والعشرين من أكتوبر، والقمر بدر، والنسمة منعشة، كان كل شيء يشي بالانفجار. ليس من المعقول أن تشهد الصحراء ليلة بهذا الجلال في زمن مليء بالبغضاء والجنون. في تمام الساعة التاسعة وأربعين دقيقة انطلقت غلالة من القذائف والحمم من ألف مدفع في وقت واحد على العدو البعيد وحقول الألغام التي أمامه.. في الوقت نفسه أقبلت الطائرات من الإسكندرية والدلتا تلقي بالقنابل الهائلة على دفاعات المحور الحصينة، وتقدم الفيلق الثلاثون والفيلق الثالث عشر وخلفهما فرقتان مدرعتان من الفيلق العاشر الجبار. الجنود يتقدمون في حالة هياج هيستيري بأثر صوت القذائف، التي تسقط وسط حقول الألغام فتصعد النيران الوامضة السريعة تخطف الأبصار، وتتراقص وسط الأرض الحرام. وميض قادم من السماء ووميض صاعد من الأرض، وميض قادم من الشرق ووميض قادم من الغرب، ومهرجان من نيران شيطانية الجمال تتجاوز حدود الخيال.

بعد ثلث ساعة، في العاشرة تماماً، حلّ موعد نوم مونتجمري فدخل

إلى مكمنه مطمئناً ونام بينما ظل العالم كله يقظاً ينتظر المعركة الفاصلة، ووصل صوت المدافع إلى الإسكندرية، ورأى الناس حركة الطيران فوقها، فارتعدت القاهرة وسهرت سائر البلاد. .

تقدّم المشاة وسط الغبار والتراب والنار بسراويلهم القصيرة، وفانلاتهم الصوفية واختفى برد الصحراء القارس وسط النيران. على أكتاف المشاة البنادق ذات السناكي وفوق ظهورهم كل ثروتهم. بسكويت وبلوبيف معلب وسجائر، وبعضهم يحمل هاون خفيفاً أو رشاش البريت ومعهم جميعاً قنابل يدوية وأكياس رمل فارغة سيملأونها حين يكسبون أرضاً جديدة يتمركزون فيها.

كان يقود كل موجة اقتحام ضابط ملاحة يحمل في يده بوصلة صغيرة ومعه لفة من شريط تُفرد وراءه ليرشد من خلفه إلى طريق السير وسط الألغام والغبار. لقد مات كثير من ضباط الملاحة تلك الليلة وفي الليالي التالية أما جنود الفرقة الإسكتلندية العازفون على القرب وسط هذه البراكين، فلقد خفتت أصواتهم تمزقهم الألغام ويخنقهم الغبار، وتدمرهم المدافع وتغطي على موسيقاهم أصوات القنابل وأزيز الطائرات. مجموعات المهندسين تتقدم الجميع وتكشف عن الألغام المضادة للدبابات والأفراد وتخسر كثيراً من رجالها، الأستراليون على اليمين، والنيوزيلانديون على اليسار، ونافخو القرب المبثوثون بينهم يتساقطون والجنود يهذون بالضحك والبكاء. لقد تحوّل الهجوم إلى ما يشبه الفوضى. ذهل الجميع عن الجميع، وقذائف المحور أطلقت بين الحلفاء ألسنة الجحيم، وطلع النهار ولا صوت لموسيقى القرب في أي مكان. . الفرقة الثلاثون مشاة كانت قد أحدثت ثغرة كبيرة في جبهة المحور. . والقائد شتومي مات بنوبة قلبية. لقد استطاعت كتيبة أسترالية أن تتقدم وسط الخطوط الألمانية وتهاجم سيارته!

استيقظ مونتجمري مبكراً صباح اليوم التالي. كانت طلعات الطيران لا تزال مستمرة. لقد أنجز سلاح الطيران بالليل ألف طلعة بالإضافة إلى مائة وخمسين طلعة للطيران الأمريكي. لقد اختفى الطيران الألماني من السماء، وصارت السيادة الجوية للحلفاء. لقد امتلأ مونتي بالسرور.

* * *

في اليوم الثالث للحرب وصل روميل إلى الجبهة قاطعاً رحلة علاجه، وفي اليوم الخامس للحرب قرّر مونتي القيام بهجومه الرئيسي الذي أسماه «الشحنة الزائدة» وكتب روميل لزوجته:

«ما زالت هناك فرصة اليوم. ربما لا يزال في وسعنا الصمود. لكن قد نخفق ويكون لهذا نتائج وخيمة على الحرب كلها...».

قرّر روميل الانسحاب إلى فوكة ستين ميلاً إلى الغرب. وأرجأ مونتي الشحنة الزائدة إلى الثاني من نوفمبر. وأرسل هتلر أوامره بالصمود لكن بلا فائدة. صار جيش المحور منهكاً وخرج الأمر من يد روميل. قام اللواء الهندي الخامس بشن هجوم خاطف بالسيارات على بعد خمسة أميال جنوب تل العقاقير، أصبح بعده الطريق مفتوحاً أمام سلاح المدرعات لمطاردة المحور في الصحراء. الجنود الأطفال المبتهجون من فقراء الهند أتباع غاندي ونهرو ومحمد علي جناح فوق مدرعاتهم يطاردون جيشاً كان بالأمس وحشاً أسطورياً والآن يتحلل وسط الصحراء الواسعة بعد حقول الألغام التي اخترقوها ونفذوا منها نفاذ الشيطان من الجحيم.

بدأ روميل انسحابه السريع الكامل. لم تكن لديه وسائل نقل كافية، فضلاً عن نقص الوقود، دبّت الفوضى بين الجنود ولاذ الألمان بالسيارات تاركين ست فرق إيطالية هائمة بالصحراء دون غذاء أو ماء وليس أمامهم إلا الأسر. كان يمكن للحلفاء أن يحولوا الانسحاب إلى مجزرة كبرى

لكن المطر تحالف مع روميل. نزل فجأة وبقوة فتعطل الحلفاء حتى ترك روميل الحدود. الصحراء الآن مقبرة للدبابات المعطوبة والمحترقة والمدافع المحطمة والسيارات المشتعلة وجثث الجنود كاملة ومشوهة، خوذ فيها رؤوس عيونها مفتوحة. أحذية فيها أقدام. أذرع بلا أجساد. سيقان. ملابس محترقة. رائحة الشواء تملأ الصحراء. ظهرت العقارب والثعابين وجاء الذباب الأزرق بعد المطر وحومت الحداء والنسور العجوز. لقد انتشرت رائحة الموت في الفضاء. وكتب روميل لزوجته. «جاري سحقنا ببساطة، قمت بمحاولة لتخليص جانب من الجيش. هل ستنجح؟ في الليل أستلقي مفتوح العينين مجهداً عقلي في سبيل إيجاد مخرج لجنودي المساكين من هذه المحنة.. إننا نواجه أياماً صعبة، ومن أصعب ما يمكن أن يمر به إنسان. الموتى محظوظون فقد انتهى كل شيء بالنسبة لهم».

* * *

أمر تشرشل أن تدق أجراس الكنائس في لندن لأول مرة منذ اندلاع الحرب، فاشتعلت لندن وسائر المدن الإنجليزية بدقات النواقيس، وخرج الناس إلى الشوارع مبتهجين، وابتهجت الإسكندرية فأضيت شوارعها لأول مرة منذ ثلاث سنوات، أضيئت هكذا فجأة قبل أن ينتصف الليل فصارت مثل كهرمانة لا نهاية لحجمها، لقد انمحى اللون الأزرق من فوق مصابيح أعمدة الإنارة العالية بالشوارع بمرور الوقت، وتغيّرت الأحوال الجوية فصار للمدينة سقف من عناقيد الفوسفور لا أول لها ولا آخر، الذين كانوا في الشوارع صرخوا من الفرح وهللوا والذين كانوا في البيوت خرجوا يتفرجون على اللؤلؤ والماس الذي صار يعلو فضاء الشوارع. هل كان من الممكن أن تظل الإسكندرية مظلمة أكثر من ذلك؟. لقد خرج أصحاب المحلات المغلقة وفتحوها بالليل، وخرج الرجال إلى المقاهي

التي قرّرت السهر حتى الصباح وزغردت النساء من النوافذ وتركت الأطفال يهللون في الشوارع وسط الجو البارد، اتفق الجميع على السهر حتى الصباح وصدحت الموسيقى في المونسنيور واللوفر والوند سور وتبادل الجنود القبلات مع فتيات الأتسا في الشوارع وانفجرت زجاجات الويسكي والشمبانيا في المواخير الراقية التي ارتفعت فيها الأصوات الضاحكة، والروم والبراندي والعرق في المواخير الفقيرة التي عاد إليها الصخب في لحظة، كأن الجميع، العاهرات وطالبي المتعة، كانوا يقفون في الشوارع المجاورة ينتظرون أن تضيء المدينة، ورمحت عربات الحنطور بالعشاق على الكورنيش وصوت الموج صار أكثر انتظاماً بسبب الريح الخفيفة، والمدمرات والسفن الحربية أضاءت مصابيحها وراحت تطلق صواريخها الملونة فوق المدينة، وصعد الآلاف فوق أسطح المنازل وأطلقوا البالونات إلى السماء، وانطلقت المدافع من الطوابي، فأفزع صوتها الناس للحظة، أدركوا بعدها أنها طلقات احتفال، فهتف رجل على الكورنيش وهو يرى السماء الملونة بالقذائف الفوسفورية والموج يرتفع عالياً: «يا إسكندرية هدّي. هدي يا إسكندرية. يا إسكندرية هدي عُلاكي، يا إسكندرية هتلر ما جاكي!»، وسمعه آخر فردها ومشت الكلمات في المدينة فصارت على كل لسان ثم صارت أغنية ولم يتوقف الناس عن الكلام يحكون لبعضهم قصصاً يعرفها الجميع عن أيام الحرب التي انتهت بالأمس فقط، وقررت البلدية إقامة الزينات في كل مكان كما قررت شركة الترام أن تنقل الناس بالمجان لعدة أيام، وأقيمت الاحتفالات في المدارس، وبدأ المهاجرون يعودون بسرعة ومشت فرق الجيش والبوليس الموسيقية تصدح في الشوارع والميادين، وصعدت الشمس بيضاء فوق الدنيا لينة، شمس خريف حقيقية، وأطلق سراح حميدو الذي كان قد اعتقل من جديد ولم يفده ما كتبه على الجدران وأقامت له أمه الزينات كالعادة ووقف يضحك وسط المهنئن السعداء، وخلع غفارة

طربوشه مقرراً ألا يعود إليه، وفوجىء أنه بعد أن فقد الزجاج فقد الفلتر وأنه كان يتنفس الهواء العادي. كيف حقاً لم يشعر بسقوط الفلتر الثقيل؟ ضحك وأعاد لعربته جوانبها الخشبية وكتب عليها «عربة نشارة. الحمولة أربعة أطنان. النقل لعموم القطر» واستعد للعودة إلى عمله القديم، وظهر الخواجة ديمتري أمام منزله ومعه عدد من العمال سرعان ما راحوا يزيلون ما تهدّم استعداداً لإعادة بناء البيت من جديد وظهر جندي الجيش المرابط الذي كان يشتري اليوسفي من أم حميدو. فجأة وجدته يقف فوق رأسها يضحك ويهز رأسه ويقول:

يا بتاع اليوسفندي

ما تقول لي العشرة بكام

وضحكت أم حميدو، وجلجلت ضحكتها وقالت وهي تهزّ كتفها:

العشرة اليوسفندي

يا حبيبي ببلاش

وزيادة.

فرقص أمامها وأمسك بيديها وقال:

ـ أنا عايز الزيادة يا أم حميدو بالحلال.

ولم ترد. طامنت رأسها وأغمضت عينيها، فانكفأ عليها يحتضنها ويقبلها وهي جالسة ففزعت ودفعته بعيداً وهي تنظر إلى الشارع.

وافقت هذه المرة على الزواج. هي غير مصدقة عودته وهو غير مصدق موافقتها. وأدرك رشدي أن ألمانيا إذا هزمت مرة ستنهزم كل مرة، فصار على يقين باقتراب انتهاء الحرب وسفره إلى باريس وأعلن مكتب الصحة بالإسكندرية أن [illegible] هذا الأسبوع مائة فقط بسبب النزوح الكبير الذي كان قد حدث للسكان، وأجنبي واحد للسبب نفسه، بينما

كانت الوفيات خمسين من أبناء المدينة بسبب الشيخوخة والحمى بأنواعها والدوسنتاريا والتيتانوس والسعال الديكي، وخمسة من الأجانب بسبب السكر، ولم توجد حالة واحدة بسبب الانتحار. بل سجل مكتب الصحة لأول مرة خمس حالات وفاة بين السكندريين بسبب توقف القلب أثناء الجماع!، واقترب موعد مغادرة مجد الدين للمستشفى فطالت نظرته إلى زهرة، وطالت نظرتها إليه. لقد دبّت فيه الروح من جديد وأشرق وجه زهرة كوردة وفهم كلاهما مشاعر الآخر.

ـ لن أبقى في البلد.

ـ أعرف.

ـ ستأتين معي؟

ـ طبعاً.

وسكتا، ورأته قد دخل في وجوم. ظِل من الحزن هبط فوق وجهه.

ـ لا أعرف كيف ستكون الإسكندرية دون دميان، ولا كيف ستكون عندي القدرة على العودة إلى العمل دون أن يكون معي.

ومسح دمعه الذي ترقرق لكنها لم تشأ أن تثنيه عن العودة إلى المدينة التي ذهبت إليها من قبل مكرهة، وتركتها مكرهة إذ خلفته وراءها.. ستذهب هذه المرة راضية مسرورة حتى لو لم تجد الناس، كما كانوا بنفس الروح الصافية والمرح. المدينة البيضاء زرقاء البحر والسماء ستعيد الروح لأبنائها.

قالت:

ـ نسافر في الصباح الباكر هذه المرة.

قال:

ـ طبعاً.. دخول المدن بالليل أمر صعب.

وكانت نذر الشتاء قد أتت متعجلة، فهطل مطر كثير غزير لم ينقطع بالليل والنهار، واستمر لعدة أيام لكن أحداً لم يضج، والحركة لم تنقطع، والمحلات لم تغلق، وأصوات الراديو لم تنخفض في المقاهي، لقد بدا للجميع أن السماء تغسل المدينة. لقد كانت السحب عالية وبيضاء وتلك كانت معجزة. فمن أين حقاً يأتي كل هذا المطر، وعندما جاءت موجة من السحب السود واستقرت فوق المدينة نسي عامل محطة الكهرباء الرئيسية في كرموز أن يقطع الكهرباء عن مصابيح الشوارع بالنهار فظلت المدينة مضاءة بالنهار وبالليل. كان الناس قد أزالوا اللون الأزرق من فوق نوافذ البيوت وواجهات المحلات، وكشافات السيارات، وترك الجميع النور في البيوت والمحلات بالنهار والليل أيضاً. صارت الإسكندرية مدينة من فضة تسري فيها عروق من ذهب.

* * *

ـ انتهت ـ

القاهرة 1996

صدر عن منشورات الجمل

واسيني الأعرج: ذاكرة الماء

* * *

واسيني الأعرج: سيدة المقام

* * *

واسيني الأعرج: حارسة الظلال

* * *

حسين الموزاني: عترافات تاجر اللحوم

* * *

فاضل العزاوي: كوميديا الأشباح

* * *

جيلبرت سينويه: ابن سينا أو الطريق الى إصفهان

* * *

غونتر غراس: الطبلُ الصفيح

* * *

ليلى الجُهني: الفردوس اليباب

* * *

صادق هدايت: البومة العمياء

منشورات الجمل